

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف
كلية الآداب والفنون
قسم الأدب العربي



أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه

التخصّص: أدب مقارن وعالمي

العنوان:

صورة اليهودي في الرواية الجزائرية المعاصرة دراسات في الأدب المقارن-

من إعداد الطالبة: **فضيل سهام**
إشراف: **د/ متلف آسية**
المناقشة بتاريخ: 2021/ 05/20 من قبل اللجنة المكونة من:

رئيسا	جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف -	أستاذ محاضر أ	بلعباسي محمد
مشرفا ومقررا	جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف -	أستاذ محاضر أ	آسية متلف
مشرفا مساعدا	جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف -	أستاذ التعليم العالي	عبد القادر توزان
عضوا مناقشا	جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة -	أستاذ محاضر أ	صليحة بردي
عضوا مناقشا	جامعة لونييسي علي - البليدة -	أستاذ محاضر أ	فاطمة قسول
عضوا مناقشا	جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف -	أستاذ محاضر أ	البتول عرجون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر و عرفان

أحمدك ربي وأثني عليك الثناء كله سبحانه لا أحصي ثناء
عليك أنت كما أثنت على نفسك، والشكر لك ربي على
توفيقك وامتنانك على نعمك التي لا تحصى "

أتقدم بأسمى عبارات الشكر والعرفان للأستاذة
الفاضلة الدكتورة: "متلف آسية" على جهودها وحسن
توجيهها لإخراج هذا البحث إلى النور، وأسأل الله عز وجل
أن يجازيها عني خير الجزاء وأجزله

كما أرفع أسمى عبارات الشكر للدكتور الفاضل توزان
عبد القادر على متابعتة لي وإنارة البحث من فيض خبرته،
كما أشكر الدكتور "زغودة إسماعيل"، فقد كان خير معين
وخير سند. كما أتوجه بالشكر للجنة المناقشة على
تكرمهم بإثراء البحث من فيض خبرتهم، فلهم جميعاً كل
الشكر والتقدير وجزاهم الله خير الجزاء.

إهداء

قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}

إلى والدي العزيز، إلى من كان لي خير سند ومعين، فالفضل بعد
الله عز وجل يعود له، بدعمه ودعاوته الطيبة التي رافقتني في
رحلة البحث، كانت الحافز لبلوغ الرجاء.

إلى والدي الحبيبة التي ساندتني في مشواري البحثي وأحاطتني
بعنايتها كما عهدتها دوماً، أهدي لهما ثمرة زرعهما، عسى أن
يطيل الله عمرهما ويمدهما بالصحة والعافية ويجزيهما الله خير
الجزاء وأعظمه.

إلى عائلتي الصغيرة:

زوجي رفيق الدرب، وابني ياسين قرة العين ...

أهدي لهم جميعاً هذا العمل...

مقدمة

مقدمة:

تكتمل علاقة الأنا بالآخر عند الارتقاء بالذات وانفتاحها على الآخر، ومحاولة التعرف عليها إمّا بالاحتكاك بها أو الغوص فيما يتعلق بها، فالشعوب تسعى إلى معرفة نظيراتها من الشعوب الأخرى وتتعدد في ذلك الطرق والأساليب إذ أنّ الرواية جاءت خادمة لمساعي الانفتاح، جامعة تحت رايتها مختلف الأجناس متلاحمة ومتناسلة، مُعرفةً أناتها بأخراها، ولدراسة تلك العلاقات بين الآداب وفحواها جاء الدرس المقارن بأحدث فروعه وميادينه وهو حقل الصورائية (علم دراسة الصورة)، متقصياً صور الشعوب في آداب الشعوب الأخرى بغية بناء جسر يربط الأمم بعضها ببعض، ويفتح قنوات الحوار والتواصل وبتر كل لُبسٍ، وتبرير كل مغلوط حول صورة الآخر المرتسمة عند أمة ما، فهاته الممارسة النقدية تسعى إلى توضيح رؤية الآخر المرتسمة في مرآة غيرها من آداب الشعوب وإبداعاتها فثنائية الأنا والآخر والمقارنة بينها في الأعمال الفنية تقوم على انصهار جُلّ العلاقات الإنسانية تحت لوائها (كالتاريخ والسياسة والأنثروبولوجيا...) لتنبثق عنها صور كاملة غير مغلوبة للشعوب ضمن الآداب المرادة بالدراسة.

وقد وسمنا بحثنا هذا ب (صورة اليهودي في الرواية الجزائرية المعاصرة -دراسات في الأدب المقارن) متتبعين صورة اليهودي في الأعمال الأدبية التي تناولت طائفة يهود (الجزائر وفلسطين) ضمن الرواية الجزائرية المعاصرة بلغيتها -العربية والفرنسية- عند كل من الروائيين واسني الأعرج في (سوناتا لأشباح القدس) وياسمينه خضرا في (الصدمة L'attenta) والحبيب السائح في (أنا وحايم)، وأمين الزاوي في (Le dernier juif de Tamentit)، بغية التعرف على صور الآخر اليهودي في الرواية الجزائرية المعاصرة .

ومن الأسباب التي دعتنا لاختيار هذا الموضوع، -بين ذاتية وموضوعية- اهتمامنا أولاً بجنس الرواية العربية لا سيما الجزائرية، التي تفوقت على جُلّ الأجناس الأدبية واستطاعت أن تلملم بين

طياتها كل المواضيع والنماذج البشرية بين متخيل وواقع، فاتحةً أفق تطلع القارئ بثرائها الإبداعي واللغوي والمعرفي والتخييلي، بعد أن وُلجت أبواب التجريب الروائي دون أية قيود وحواجر، حاجزاً تذكرة سفر مجاني نحو عوالم الآخر والتقاط صورته بعدسة الأنا، بغية الكشف عن هويته ونفسيته وعلاقاته مع الأنا.

إذ استطاعت الرواية الجزائرية المعاصرة مواكبة الإنتاج الروائي باللغتين العربية والفرنسية بشكله الجديد والحداثي، وكسر الطابوهات واستنطاق المسكوت عنه، بتناولها مواضيع حساسة تثير ساحة النقد الذي سَكَّت دهرًا عن استقراء المنجز الروائي الجزائري، ولأن صورة اليهودي قلما ظهرت في الأعمال الروائية الجزائرية في فترة السبعينات والتسعينات، أثارَت حفيظة القارئ والناقد، واستفرت بظهورها روح البحث عن ماهية الآخر اليهودي - خاصة بعد تناوله من وجهتين ورؤيتين مختلفتين (يهود الجزائر/يهود فلسطين) من قِبل الروائيين الجزائريين المعاصرين، فيهود فلسطين عند واسيني الأعرج ليسوا كيهود فلسطين عند ياسمينة خضرا، ويهود الجزائر عند الحبيب السائح يختلفون عن اليهود عند أمين الزاوي - الرامية للمقارنة بين صور هؤلاء اليهود، فبين الأنا الآخر، والآخر الآخر سمات متفرقة، وفكر مختلف تثيرها بواعث الانتماء (الهوية-الدين-الوطن)، لذا اعتمد الروائيون في خطاباتهم الفنية على المرجعية التاريخية التي لعبت دوراً في تكوين صورة الآخر اليهودي .

وقد وقع اختيارنا على هذا الموضوع بغية الإجابة عن جملة من الإشكاليات أهمها: من هم يهود (الجزائر/فلسطين)؟ كيف جاءت صورة اليهود في الرواية الجزائرية المعاصرة؟ وما هي الدوافع النفسية والاجتماعية لاختيار الروائيين لصور اليهود بكل سماتهم ايجابية أو سلبية؟ وهل صورهم الروائيون في حدود ما عُرفوا به في الأدبين العربي والعالمي أم أنهم أسقطوا عليهم تصورات غير التي عرفوا بها؟.

ومن هنا طفت فكرة الموضوع في الذهن رغم خطورة الخوض في غماره وحساسية توجهه إلا أننا أئينا إلا أن نغامر للكشف عن الخلفيات الفنية التي تتضح بوادرها وسماتها في إطار تتبع صورة اليهود في النص الروائي الجزائري من خلال دراسة مجموعة من النماذج، ولذا تم وضع هيكل منهجي تفرع على الشكل التالي:

مقدمة ومدخل وثلاثة فصول كما أملتة علينا طبيعة الموضوع، ف جاء المدخل بعنوان (الجدور التاريخية للوجود اليهودي بفلسطين والجزائر)أشرنا فيه إلى تاريخ يهود فلسطين ويهود الجزائر بغية الكشف عن الجانب التاريخي لهاته الطائفة والمؤثرات الدينية والأخلاقية والاجتماعية التي ساهمت في بناء الشخصية اليهودية، أما الفصل الأول فقد وسمناه ب (مفهوم الصورائية وتمظهراته في الرواية العربية و الجزائرية المعاصرة)، تطرقنا فيه إلى ماهية الأدب المقارن وانبثاق حقل الصورائية عنه كونها أحدث فروعها، حيث قدمنا تعريفاً لغوياً واصطلاحياً لمفهوم الصورة الأدبية، وأنواعها، وكذا مفهوم الأنا والآخر المرتبط بمصطلح الصورة والعلاقة بينهما، وثنائية التأثير والتأثر الحاصل، مترجمة داخل الأعمال الروائية، مع الإشارة إلى صورة اليهودي في الأدب العالمي والعربي وحضورها المرتبط بالصراع العربي الإسرائيلي، ثم انفتاح الرواية الجزائرية المعاصرة بلغتيها -العربية والفرنسية- على الآخر اليهودي وإدراجه في خطاباتها، وكسر أحد الطابوهات المسكوت عنها والذي يُعد نقلة نوعية لمسار الرواية الجزائرية بفتحها أبواب الحوار الحضاري والثقافي مع الآخر.

في حين عنون الفصل الثاني ب "صورة يهود فلسطين في الرواية الجزائرية المعاصرة في روايتي "الصدمة" و "سوناتا لأشباح القدس" فقد خصصناه لتحليل شخصية اليهودي الإسرائيلي (جسماً ومعنوياً) والدور الذي يقوم به) بوضع جداول للنماذج اليهودية في كل من الروايتين والمقارنة بين صورتها السلبية والايجابية، وتبيان علاقتهم مع الأنا الفلسطينية في خضم الصراع الفلسطيني الصهيوني، وكذا صورة المكان وسيطرة اليهود عليه.

كما خصص الفصل الأخير لدراسة "صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة، من رواية " أنا وحاييم" باللغة العربية و" آخر يهود تمنطيط" باللغة الفرنسية أنموذجاً، تناولنا خلاله دراسة تحليلية مقارنة للشخص اليهودية في الروايتين من خلال رصد أهم السمات الجسمية والمعنوية لها، مبرزين دور كل شخصية يهودية داخل الرواية وعلاقتها مع الأنا الجزائرية، ومقارنتها بوضع صور إيجابية وأخرى سلبية ليهود الجزائر، التي تحمل عديد السمات المتفرقة، والتي تميز النموذج الأدبي المتناول ليعكس واقعاً إنسانياً مختلف الزوايا والرؤى وإبراز موقف المؤلف الإيديولوجي ووجهة نظره في كل من الروايتين. وتبين سمات إنسانية وأخرى شريرة متبثلة في النموذج اليهودي، كما ألقينا الضوء على الطائفة اليهودية بشكل عام في الجزائر في الروايتين، والتي ترتبط في مجملها بمرجعية تاريخية بحتة، خاصة في فترة الاستعمار الفرنسي.

لنصل في آخر المطاف إلى أهم النتائج التي جمعناها ضمن خاتمة تليها قائمة بكل المصادر والمراجع، وكذا المجالات والمقالات التي اعتمدناها في البحث.

وإذا كان المنهج هو البصيرة التي يسير عليها البحث العلمي ويحتكم إليها في تعامله مع المادة المدروسة، فإنّ الوعي به منذ البداية لا يقل أهمية عن نجاعته في تحليل النصوص الروائية، وقد جرى منهج البحث على الانطلاق من منظور فني بحت نابع عن طبيعة الدراسة المقارنة كآلية وصف وتحليل لدراسة النماذج النصية المنتقاة.

والجدير بالذكر أن طبيعة الموضوع حثمت علينا استدعاء مناهج أخرى في الدراسة وخاصة المنهج التاريخي الذي حاولنا من خلاله التعمق في خلفيات تشكيل صورة اليهودي من خلال تحديد سماته وملاحظه وفكره وكذا الدوافع النفسية والاجتماعية التي ساهمت في تكوين شخصيته، والمقارنة بين النماذج اليهودية وإبراز مدى التشابه والاختلاف بينها ومحاولة تعليل ذلك انطلاقاً من عملية احصاء للصفات المادية والمعنوية لكل شخصية يهودية ضمن الرواية الجزائرية.

وحسبنا من هاته الدراسة المقارنة إبراز مدى تأثير الروائيين الجزائريين باليهود، وتجسيدهم ذلك الأثر في رسم صورة الآخر اليهودي .

أما الأرضية التي أسس عليها البحث فكانت مجموعة من المراجع التي أولت عناية خالصة لدراسة صورة الآخر في الرواية المعاصرة ونذكر من مجموع هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر: "صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية" لعبد المجيد حنون، وكتاب "الشخصية اليهودية الإسرائيلية في الخطاب الروائي الفلسطيني (1967-1997)" لصبيحة عودة زعرب، و"اليهودي في الرواية الفلسطينية" لحسين أبو النجا، وكذا كُتب حول أهم الدراسات المقارنة: "الأدب المقارن" لمحمد غنيمي هلال الذي يعتبر من أهم المراجع العربية في الدرس المقارن، "مقارنات تطبيقية في الأدب المقارن" و"صورة الآخر في التراث العربي" لكاتبهما ماجدة حمود، بالإضافة إلى عديد المصادر والمراجع والمقالات المتنوعة، وكذا كتب حول التاريخ استفدنا من فحواها في إثراء جوانب من دراستنا حول الصورة بغية الكشف عن مختلف المشارب الفكرية المساهمة في تكوين هذه الصورة المتبيلة في الرواية الجزائرية المعاصرة.

وقد واجهت هذه الدراسة مجموعة من الصعوبات تمثلت في صعوبة الولوج الى عالم الصورانية الذي يكشف صورة الآخر وعلاقاته المتشعبة مع الأنا في ظل تأثير وتأثر وخاصة حينما يتعلّق الامر باليهود وكذا تشعب الموضوع واتساع أفق البحث فيه خاصة في المقارنة بين الصور المتعددة لليهود في الروايات المدروسة.

لكن هاته العوائق لم تكن عزيمة في البحث والتقصي عن صورة اليهود، هذا النوع من الدراسات الذي يحتاج إلى إثراء الساحة النقدية به للتعريف بالآخر، وتصحيح وجهات النظر المتكونة لدى المؤثر والمتأثر، وإدراك الشعوب للشعوب الأخرى، وفتح حوار الحضارات والمثاقفة بين الأنا والآخر عبر هذا النوع من الدراسات الأدبية المقارنة، التي عرفت اهتماما بالغاً في عصرنا الحالي، خاصة في ظل تعدد الوسائل التي تسهل معرفة الذات للذات الأخرى.

وإني لأتوجه بالشكر للمشرفة الدكتورة "متلف آسية" على جهودها في إقالة عثرتي، وتصحيح سقطاتي وصبرها على زلاّتي وهذا من نيل أخلاقها ورحابة صدرها، كما أشكر الأستاذ "توزان عبد القادر" على توجيهاته وإثرائه للبحث من فيض خبرته، اللذان لولاها لما خرج هذا البحث إلى النور، كما لا يفوتنا أن نشكر لجنة المناقشة الذين تجشّموا عناء قراءة وتمحيص هذا العمل بغية تصويبه وإنارته بفيض خبرتهم، وجميل صبرهم لإقالة عثرتنا وتصويبها.

الشلف في 20/03/2021

مدخل

الجدور التاريخية للوجود اليهودي

بفلسطين والجزائر

الجدور التاريخية للوجود اليهودي بفلسطين والجزائر

أ- لمحة عن تاريخ يهود فلسطين:

1- نسب الطائفة اليهودية.

2- أهم الحرف التي مارسها اليهود.

3- تأثير اليهود بالعرب.

ب- لمحة عن تاريخ يهود الجزائر:

1- المثقفون اليهود في الجزائر.

2- اليهود إبان الاستعمار الفرنسي.

3- البنية العرقية ليهود الجزائر.

أ- لمحة عن تاريخ يهود فلسطين :

تحتل فلسطين مكانةً خاصةً وتفرداً عن بقية دول العالم العربي فهي تتميز (بمكانتها الروحية والتاريخية والحضارية، ولما تجمعها من آثار وتراث وذكريات الشرائع الإنسانية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلامية، وما بعثته ونشرته في العالم من القيم الخيرة والمثل الرفيعة)¹، لكن المخططات الصهيونية أبت إلا أن تحترق هذا الصرح العظيم وتدنسه بأفعالها، في محاولة منها لطمس الهوية الفلسطينية والدّين الإسلامي، زاعمين أن الأرض هي أرضهم وهم أحق بها من غيرهم، لكن وبالعودة إلى كتب التاريخ فإننا نجد العديد من القصص التي تؤرخ للوجود اليهودي ولأصولهم (فيجمع معظم المؤرخين العرب المسلمين كالطبري والبلاذري والمقدسي و ابن الأثير على أن يهود الحجاز قد جاءوا إلى الجزيرة العربية مهاجرين نتيجة غزو نبوخذ نصر لهم وغزو الرومان فيما بعد)².

1-نسب الطائفة اليهودية:

تتضارب الأقوال في نسب اليهود من قبل المؤرخين والمستشرقين لكن المؤكد أنهم كانوا قوماً مشتتين في بقاع الأرض فقد (عُرف اليهود بالعبرانيين ابتداءً، ثم لقبوا بالإسرائيليين أو بني إسرائيل ثم عرفوا أخيراً باليهود وكلمة "عبرانيون" ينسبها البعض إلى كلمة (عابر) وهو الجد الخامس، إبراهيم

¹ - محمد عوض الهزائمة: القدس في الصراع العربي- الاسرائيلي، عمان، دار مكتبة الحامد للنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص15.

² - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري المسمى - تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم - ط2- دار المعارف - مصر - 1892-532/1هـ، البلاذري- أحمد بن يحيى ابن جابر- فتوح البلدان - تحقيق "صلاح الدين المنجد - المطبعة المصرية - 1862-15/1-16- المقدسي: ابو زيد احمد بن سهل اليمني المطهر بن طاهر - البدء والتاريخ - (مطبعة برطند - باريس- 1833-3/ص114 - ابن الاثير- عز الدين ابي الحسن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الكامل في التاريخ - دار صادر - بيروت- 1895-1/ص261 - ينظر: محمود شاکر: موسوعة تاريخ اليهود، دار اسامة للنشر والتوزيع، الأردن- عمان، ط1، 2002، ص26.

الخليل (عليه السلام) الذي ينتسب إليه الأنبياء الذين يقولون اليهود لسيدنا بأنهم أنبياءهم وأنه وعشيرته، إي إبراهيم الخليل بمثابة مهد الدين اليهودي)¹.

لكن دين سيدنا إبراهيم كان الإسلام هو وجميع الأنبياء - يعقوب وأولاده عليهم السلام وموسى وهارون عليهما السلام ويوشع بن نون عليه السلام - الذين نسبت اليهم الديانة اليهودية تبعًا لما جاء في قوله تعالى: " وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ نَبِيَّهُ وَيعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)"²، لقد اثبت الله عز وجل في كتابه الكريم الديانة التي اتبعها هؤلاء الأنبياء إبراهيم ويعقوب وأبنائه، وهي دين الإسلام، ليقطع بهذا كل ادعاء حول اعتناقهم للعقيدة اليهودية "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"³، لكن العبرانيون عرفوا (منذ سيدنا يعقوب عليه السلام ببني إسرائيل أو الاسرائيليين نسبة إلى سيدنا يعقوب)⁴ أبي الأسباط الاثني عشر، وحفيد إبراهيم عليهما السلام إذ

¹ - عبد السميع المرادي: الصهيونية بين الدين والسياسة، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب - 1977 - ص 10.

² - سورة البقرة: الآيات من (130-133).

³ - سورة آل عمران الآيات من (64-66).

⁴ - محمود شاكر: موسوعة تاريخ اليهود، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط1، 2002، ص 10.

لقبه الله (إسرائيل) كما جاء في (الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر التكوين برقم 28: فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب، بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله، والناس قدرت)¹.

يقال أن كلمة إسرائيل تعني عبد الله، لأنها تتكون من مقطعين هما (أسر) بمعنى عبد و (ئيل) بمعنى الله، ولقد وقع الاختيار على يعقوب، ليكون صاحب شأن تفضيلاً له عن أخيه (عيسوا) وتغيير اسمه فأصبح إسرائيل وحصل عيسوا على اسم آخر وهو أدوم (أي احمر) وعُرف ورثته باسم الأدوميين².

أما فيما يخص تسمية "يهودي" فقد (جاءت عندما تابت بني إسرائيل عن عبادة العجل وقالوا: إنا هدنا إليك أي تبنا ورجعنا)³، وهذا بعدما دعاهم موسى عليه السلام للتوبة عن عبادة العجل تبعاً لما جاء في قوله تعالى: (يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فُتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54))⁴

وقد سُمِّي القوم (يهودا، نسبة إلى يهوذا، الابن الرابع ليعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقد رجح بعض العلماء هذا القول على اعتبار أن يهوذا، هو الحاكم السائر أبناء أبيه الأحد عشر وبتقدم أبيه له وظل كذلك حتى مات وكان سبطه من بعده هو المقدم على سائر الأسباط الأخرى، إلى أن انقسمت مملكتهم بوفاة سليمان إلى قسمين: مملكة يهوذا، ومقرها أورشليم، وتتكون من سبطي يهوذا وبنامين، ومملكة إسرائيل ومقرها السامرة، وتتكون من بقية الأسباط العشرة)⁵، لكن الدكتور

¹ - عبد السميع المرادي: الصهيونية بين الدين والسياسة، ص 12 / ينظر: صابر عبد الرحمن طعميه: الصهيونية في التاريخ، القاهرة، دار الاتحاد العربي للطباعة- (د-ث)، ص 80.

² - ينظر: عبد الرحمن محمد حسن: محاضرات في المجتمع العربي (القضية الفلسطينية)، البصرة، دار الطباعة الحديثة، 1969 م، ص 14.

³ - محمود شاكر: موسوعة تاريخ اليهود، ص 11.

⁴ - سورة البقرة: الآية 54.

⁵ - عبد الرحمن محمد حسن: محاضرات في المجتمع العربي، ص 15.

* - وهو الاسم السرياني لبعثتصر سنة (586) ق.م. وهو اشهر ملوك الدولة الكلدانية خلف اباه الملك بنوبولصر في حكم دام (43) سنة قضى في توسيع نفوذ مملكته وتعمير عاصمته بابل وقد حاض نبوخذ نصر معارك حاسمة حققت له أبعاد النفوذ

أحمد سوسة يرى (أن تسمية (يهود) الشائعة في شكل واسع حيث أُطلقت على بقايا جماعة (يهودا) التي سباهم نبوخذ نصر* إلى بابل في القرن السادس قبل الميلاد فقد درج أكثر الكُتّاب والباحثين على الأخذ بالرأي القائل بأن تسمية يهود منسوبة إلى (يهودا) الرابع، رابع أبناء يعقوب وهذا يخالف الواقع بأن اليهود لم يكونوا قد وُجدوا في عهد يعقوب وابنه يهوذا قبل تسمية إسرائيل كانت تطلق على إحدى المناطق الكنعانية في فلسطين منذ العهد الكنعاني القديم جريا على العادة المتبعة في تسمية المدن والمناطق بأسماء الأشخاص من ذوي الشهرة والقدسية الذين يتخذون هذه الأماكن مساكن لهم أو مقاماً مؤقتاً¹، حيث تضاربت الأقاويل وتعددت حول أصل التسمية والتي يُرجَّح أنها جاءت بعد أن نزحت جماعة النبي موسى (عليه السلام) إلى فلسطين تكونت مملكة يهوذا في وقت لاحق أي بعد عصر يعقوب ويهوذا ابنه بحوالي ألف عام في منطقة يهوذا الكنعانية فسميت باسمها ثم انتشر استعمال اليهود نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة حتى صارت تطلق على كل من يدين باليهودية، والدليل على ذلك أول تسمية لليهود وصلتنا على لسان الملك الآشوري سنحاريب (705-681 ق،م) حيث سميت حرفيا ملك يهوذا ب (حزفيا اليهودي) أي المنتسب إلى مملكة يهوذا²، وكان اليهود قد اتخذوا هذا الاسم، تميزا لهم عن الغرباء أو ممن ليس في دينهم وهم يترفعون بأنفسهم وجنسهم عن جميع الشعوب حتى لا يختلطوا بالغرباء، وقد كانت هذه الخصائص الاجتماعية قد بقيت لديهم حتى الأسر البابلي عام (585 ق،م) حيث وجدوا أنه من الصعوبة أن يحفظوا بعنصريتهم وتحفظهم عن الغرباء³.

المصري التي خضعت لسلطانه، ومن حملاته على مملكته يهوذا في سنة (597) ق،م تم في سنة (586) ق،م/ د . عامر سليمان أحمد مالك، محاضرات في التاريخ القديم - جامعة الموصل - 1978، ص 200-201.

¹ - د. أحمد سوسة: مفصل العرب واليهود في التاريخ، ط5، بغداد، 1975، ص 903، انظر ايضا: محمود شاکر: موسوعة تاريخ اليهود، ص 12.

² - ينظر: محمود شاکر: موسوعة تاريخ اليهود، ص 12.

³ - بنظر: صابر عبد الرحمن طعيمه: الصهيونية في التاريخ، 10.

والحقيقة أن اليهود حاولوا تزييف تاريخهم إذ أن (تسمية يهودي جاءت متأخرة وأن العبرانيين هي التسمية الأقدم ويحاول اليهود أن يجعلوا من تاريخهم يمتد إلى فترة سحيقة)¹.

وقد كثرت الأقاويل حول بداية تاريخ اليهود واختلف في تحديدها العديد من الباحثين لكن لا بد من (أن يميز بين ثلاثة عصور تاريخية لاصلة للواحد بالأخرى وهي عصر إبراهيم الخليل (عليه السلام)، وعصر موسى (عليه السلام) وعصر التوراة المكتوبة إن صحَّ التعبير - أي التمييز بين التوراة التي نزلت على النبي موسى (عليه السلام) في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وبين التوراة التي كتبها اليهود في الأسر بعد (700) عام أو (800) عام في عهد موسى وبعد (1500) عام من عهد إبراهيم الخليل (عليه السلام) ونسبها زورا إلى موسى وإبراهيم الخليل)².

كما يرى أحمد سوسة أنّ اليهود سردوا تاريخهم حسب ما يشتهون ونقلوه بدقة ومهارة في الأدب القديم حتى يُأصلوا له مع صبغة دينية أرجعوا فيها تاريخهم إلى إبراهيم الخليل (عليه السلام) إلى حفيده يعقوب (إسرائيل) فسموا جماعة موسى بني إسرائيل على رغم كونهم ظهروا بعد إسرائيل بزهاء ثمانمائة عام أو أكثر وذلك بغية ربط أصلهم بإبراهيم الخليل وهي بهذا تحاول إثبات وجودهم في جميع الأدوار والأحداث التالية وابتدعوا فكرة الشعب المختار التي كان إبراهيم الخليل ويعقوب وموسى بريئين منها³.

وقد تولى قيادة اليهود بعد موسى (عليه السلام) القائد العسكري (يوشع بن نون)⁴. وقد تهيئت الظروف له لدخول الأرض المقدسة، وذلك نتيجة فناء الجبل الجبان الذي امتنع في عهد موسى عليه

¹ -م حمود شاكر: موسوعة تاريخ اليهود، ص 13.

² - أحمد سوسة: مفصل العرب واليهود في التاريخ، ص 96/بنظر: محمود شاكر: موسوعة تاريخ اليهود، ص 14.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 90.

⁴ - هو يوشع بن نون بن امرايم بن يوسف بن يعقوب ابن اسحاق بن ابراهيم الخليل عليهم السلام جميعا الصلاة والسلام، انظر، ابن كثير البداية والنهاية، ج 1، ص 297/-عبد الرحمن محمد حسن: محاضرات في المجتمع العربي، ص 20.

السلام، من حمل راية الجهاد في سبيل الله لتحرير الأرض المقدسة من أيدي الوثنيين الذين كانوا فيها، وقد كان هذا الفناء بسبب العقاب الرباني الذي حل بهم نتيجة مخالفتهم لأنبيائهم، وجاء من بعدهم قوم خُلع عقيدتهم التوحيد الخالص، ودخل النبي يوشع ببني إسرائيل الأرض المباركة بفضل الله عز وجل، نقول هنا دخوله ببني إسرائيل وليس دخول يوشع باليهود، لأن الإسرائيلي هو المؤمن حقا برسالة الأنبياء القائمة على التوحيد، في حين أن اليهودي هو من تاب بلسانه فقط وأما قلبه فقد اطمئن لعبادة العجل¹.

لقد أخذ اليهود بعد موت موسى وفي عهد يوشع عليهما السلام، يبرزون في المجتمع الإسرائيلي ويعلمون فسادهم وعصيانهم، فانتهكوا حرمة "السبت"، وأكلوا الربا وأموال الناس بالباطل وارتكبوا المنكرات وصاروا يتحدّون المؤمنين من بني إسرائيل المتمسكين بشريعة الحق التي جاء بها موسى وهارون وسار على دربهما يوشع بن نون عليه السلام².

وقد مر تاريخ بني إسرائيل بعد يوشع بن نون عليه السلام إلى السّي البابلي بمراحل ثلاثة وهي³:

عهد القضاة:

بعد موت يوشع بن نون-عليه السلام- تولى أمرهم بعض شيوخهم، عُرف عهدهم بعهد القضاة، وكان عددهم خمسة عشر، وتمكن الفلسطينيون الذين سكنوا الساحل الفلسطيني من هزيمتهم، وإخفائهم لحكمهم أربعين سنة على خلاف ما تذكره المصادر اليهودية أن الغلبة كانت لليهود على الفلسطينيين حيث تمكنوا من إبادتهم⁴.

¹ - محمد عوض الهزائمة: الايديولوجيا اليهودية (دراسة في أيديولوجية مسيرة اليهود التاريخية والاعتقادية)، دار الحامد للنشر والتوزيع، ط 1، 2009م، ص 35.

² - محمد أحمد كنعان: بنو إسرائيل واليهود: تاريخ ومصير، بيروت، دار البشائر الاسلامية، 1994، ص 37.

³ - ينظر: محمد عوض الهزائمة: الايديولوجية اليهودية، ص 37.

⁴ - احمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ط6، دمشق، العربي للنشر، دت، ص 496-497.

عهد الملوك الأول:

بعد هزيمة بني إسرائيل أمام الفلسطينيين كانت هذه الهزيمة ولعلها السبب في طلب بني إسرائيل من صموئيل بن القانة*، آخر قضاة بني إسرائيل، أن يدعو الله لهم ليرسل لهم ملكًا يقودهم للجهاد في سبيل الله تعالى، وهذا محط قوله تعالى: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ هُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ " ¹

وهؤلاء الملوك هم: ²

الملك طالوت-عليه السلام- ثم تولى بعد القيادة داود-عليه السلام-، حيث يعتبر عهده من العهود القوية التي حكمت بني إسرائيل، وتولى أمر بني إسرائيل سليمان -عليه السلام- بعد أبيه، وقد قام في عهده بتجديد بيت المقدس.

لكن بعض كتب التاريخ تنفي ما نسبته اليهود في حكم داود وسليمان لبني إسرائيل، فقد كان عليهما السلام رسولين من رسل الله ودعوتهم للإسلام كانت صريحة لا تشوبها شائبة.

يليه عهد الملوك الثاني: ³

انقسمت مملكة بني إسرائيل التي كانت قد حكمها سليمان -عليه السلام- إلى مملكتين مملكة إسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب: فمملكة إسرائيل تتكون من عشرة أسباط من الأسباط

¹ - سورة البقرة: الايات(246-247).

² - ينظر: محمد عوض الهزايمة: الأيديولوجية اليهودية، ص 38-39.

³ - ينظر: محمد عوض الهزايمة: الأيديولوجية اليهودية، ص 41-42.

الاثني عشر في بني إسرائيل، وكانت تشمل القسم الشمالي في فلسطين واتخذت شكيم(نابلس) عاصمة لها، أما مملكة يهوذا فتنسب إلى يهوذا وبنيامين، كما ذكرنا آنفاً.

وكانت تشمل القسم الجنوبي من فلسطين واتخذت من أورشليم (القدس) عاصمة لها، وبعد سقوط المملكتين بعد مكر ملوك بني إسرائيل انتهى حكم اليهود في فلسطين بل إن فلسطين أصبحت خالية منهم ماعدا الذين تركهم السبي البابلي من مساكين وفلاحين.

فتاريخ اليهود يمكن إجماله في ثلاث مراحل أساسية:¹

وهي مرحلة الرعي ومرحلة الزراعة، ومرحلة التجارة. فمرحلة الرعي الأولى تبدأ أيام كان اليهود ينزلون ببلاد بني حبيب بحبرون الخليل بعد أن باعهم عفرون بن صخر مغارة يدفن فيها إبراهيم زوجته سارة، وتتميز هذه المرحلة بكثرة الأغنام والماشية، كما تمتاز بكثرة التوالد، ويلفت النظر في ولادتهم أن الرقم اثني عشر صار سنةً، فلإبراهيم من الولد اثنا عشر، ولإسحاق اثنا عشر، ولإسماعيل اثنا عشر أيضاً. ولرعي ارتباط وثيق بالناحية الدينية، فقد ورد عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن كل الأنبياء رعاة، وان له كذلك صلة بطبيعة التوسط بين البادية والمدينة(فقد كانوا يؤدون الأعمال التي تتطلبها الحاضرة من البادية و التي تتطلبها البادية من الحاضرة).²

كان البعض يربون الماشية من أجل منتوجاتها، والبعض الآخر لاستعمالها في الزراعة أو للايجار بها، وقد كانوا يربون الجمال والدليل على ذلك أن المسلمين وجدوا عند محاصرتهم قريظة جمال نواضح عديدة وماشية.³

¹ - ينظر: حسين محمد ابو النجا: اليهودي في الرواية الفلسطينية، اصدارات رابطة الابداع الثقافية، ص 08.

² - عباس محمود العقاد: الثقافة العربية، دار الكتاب اللبناني -بيروت، 1978، المجلد العاشر، ص 17.

³ - الواقدي محمد بن عمر: المغازي، بتحقيق: مارسون جونس - بيروت - عالم الكتب- 1894 -ج2/ص 510.

أما النشاط الزراعي فقد كان يحتل العديد من القرى والتجمعات اليهودية وهذا لتوفر (مناطق زراعية خصبة ذات مياه وفيرة مما يجعلها صالحة للزراعة)¹.

وأهم ما يميز فترة مملكتي الشمال والجنوب، كثرة الانتقال من الصلاح إلى الفساد، ومن عبادة الله إلى عبادة الأصنام².

وبعد عهد الملوك، يأتي عهد العودة والتشريد³:

فبعد ضعف الدولة البابلية وتوالي الحُكَّام على أرض كنعان (فلسطين) دبّت الفوضى في الوسط اليهودي، وتفرق اليهود على كل شواطئ البحر المتوسط، وإلى غيرها من بلاد الله الواسعة، وبقي تاريخهم فيما بقي من العصور ملحق بتاريخ الممالك التي توطنوا على أرضها أو نزلوا⁴ فيها، وضربت عليهم الذلة والمسكنة تبعاً لقوله تعالى: " وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا"⁵. فأينما حلوا بعدها تمّ طردهم من جميع الدول الأوروبية وحتى جزيرة العرب والسبب يرجع إلى توقعهم وانعزالهم عن الآخرين مما يبعث الشكّ والريب في نفوس الشعوب الذين يحتكون بهم، فقد كانوا شعباً مترفعاً بنسبه عن بقية الشعوب، يأبون الاختلاط بالغرباء خاصة من ليسوا من دينهم، فقد كانت العنصرية سارية في دمائهم لتتوالى جيناتها للأجيال المتعاقبة لتصل زماننا هذا.

فقد عرفوا شتاتاً كبيراً في الأرض طيلة حياتهم، ولسنا هنا بمعرض التاريخ وإنما التلميح لبعض مراحل حياة اليهود بغية الوصول إلى كيفية لم شتاتهم وتوحيد صفوفهم وإقامة دولة لهم باتت تُعرف

¹ - محمود شاكر: موسوعة تاريخ اليهود، ص 37.

² - حسين محمد ابو النجا : اليهودي في الرواية الفلسطينية، ص 09.

³ - ينظر: محمد عوض الهزائمة: الأيديولوجية اليهودية، ص 43.

⁴ - محمد بن علي بن محمد آل عمر: عقيدة اليهود، في سلسلة الكتب التي تصدرها مجلة البيان - الرياض: سلسلة كتب البيان 2003، ص 53-54.

⁵ - سورة الأعراف، الآية 168.

اليوم بدولة إسرائيل، فقد (نادت الحركة الصهيونية منذ قيامها بإنشاء دولة يهودية تجمع شمل اليهود المشتتين في كافة أنحاء المعمورة، وبهذا التقت الحركة الصهيونية بالديانة اليهودية، لكون الأولى دعوة اليهود من أجل العودة إلى فلسطين وبناء الهيكل بعد إقامة وطن قومي لهم فيها، والثانية دين يستند إلى التوراة المليئة بالمشاعر ذاتها، وبهذا يكون الأساس الذي ارتكزت عليه إسرائيل الفكرة وإسرائيل الدولة ديني الصّفة والهوية)¹، انطوت دعوة الحركة الصهيونية تحت راية دينية مبدأها الكتاب المقدس وهذا لجذب اليهود وإقناعهم بضرورة بناء دولة خاصة بهم كما ركّزت على (وعد الرب ورؤيا الخلاص في ذات الكتاب بشكل خاص، وذلك لإضفاء طابع القدسية على عملهم)²، وقد قامت الدولة اليهودية على عناصر ثلاثة (الأرض والسكان والسلطة السياسية)³.

فعنصر الأرض يتمحور حول فلسطين (في أول وعد قطعه إله إسرائيل*، بإعطاء أرض كنعان لإبراهيم وذريته بالقول، وظهر الرب لإبراهيم وقال " لنسلك أعطي هذه الأرض " (***)⁴، فكما جاء في التورات فإن كل الوعود حسبهم تشير إلى أن الأرض الموعودة هي أرض فلسطين فلقد (اتجه اليهود بأطماعهم إلى فلسطين منذ زمن بعيد إذ كانوا يعدونها أرض الميعاد، وقد تكونت الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي أوائل الرابع عشر الهجري، واتخذت شكل سياسة تهدف إلى إرجاع اليهود إلى فلسطين حيث يؤسسون دولة يهودية وقد تزعم هذه الحركة (تيودور هرتزل) الذي أُلّف

¹ - محمد عوض الهزايمة: الأيديولوجية اليهودية، ص 49.

² - المرجع نفسه: ص 49.

³ - المرجع نفسه: ص 49.

* إله إسرائيل: عمد اليهود إلى آلهة الكنعانيين، واتخذوا من أحدها إلها لهم، وأطلقوا عليه اسم (يهودي)، واعتبروه الذي أوحى لموسى -عليه السلام- بالتوراة، وقالوا: أنه إله آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم عليهم السلام-حاشى الله من هذا الافتراء- للمزيد انظر السموال بن يحيى المغربي: إفحام اليهود، تقديم وتعليق محمد عبد الله الشرقاوي الرياض: الرئاسة العامة للبحوث، 1407، ص 51.

** - سفر التكوين، الاصحاح: 12 (7-8).

⁴ - محمد عوض الهزايمة: الايديولوجية اليهودية، ص 50.

كتاباً عن الدولة اليهودية عام 1896/1314)¹، أما بالنسبة لعنصر السكان فقد كان الهدف هو زيادة نسل بني إسرائيل كما جاء حسب أسفارهم (وأكثر نسلك كنجوم السماء)²، فمن مقومات الدولة القوية كثرة سكانها في رأيهم، ويشترط أن يكونوا من جنس بشري واحد وهذا راجع للهجرات التي شهدتها تاريخهم (إنّ نظرية وحدة الجنس في تشكيل سكان الدولة التي جاءت بها التوراة، روعيت أيضاً في سكان الدولة بعد الشتات، والذي يتوج بيوم الخلاص للشعب اليهودي من عذاب الأسر ومر السّبي، وجاء هذا تحت أسماء كثيرة، كتلك المنادية بنقاء الدّم اليهودي، والذي يقتضي تهجير الأغيار إلى خارج حدود الدولة)³.

أما عنصر السلطة السياسية فيقتصر في أولى القوة والمكانة العظيمة، وقد كانت تخص أنبياءهم وسلاّاتهم، ففي أسفارهم يخاطب داود عليه السلام بالقول: "أنا أخذتك من المريض من وراء الغنم لتكون رئيساً على شعبي إسرائيل"⁴.

فمن معتقدات اليهود أن كل من ساعدهم على إرساء دولة لهم في أرض الميعاد يُعد نبياً لهم (لذا فالحياة اليهودية لا تزال تقطر بقوافل الأنبياء، وستبقى حتى يأتي المسيح ثانية ويقوم ملكه، كما يعتقدون في أورشليم، وقد اشترطوا لعودته استعادة إسرائيل كشعب مختار لأرضه الموعودة)⁵.

إن دُعاة الحركة الصهيونية استعانوا بالنص التوراتي في إقامتهم للدولة الإسرائيلية رابطين إياها بعناصر الدولة وهذا لتعزيز مبدئهم في إرساء دولة قوامها سياسي ديني فحياة (السّبي التي عاناها اليهود

¹ - محمود السيد: تاريخ اليهود القديم والحديث: مطبوعات مؤسسة شباب الجامعة، ص78.

² - سفر التكوين، الاصحاح: 26 (2-4).

³ - محمد عوض الهزائم: الأيديولوجية اليهودية، ص52.

⁴ - سفر أشعيا: الاصحاح: 45، (1-2)

⁵ - محمد عوض الهزائم: الأيديولوجية اليهودية، ص54.

عمقت في نفوسهم عقدة الحقد والكراهية للشعوب)¹، فخلاصهم الوحيد هو المسيح المنتظر الذي سيخلصهم وينتقم لهم ويعيد مجدهم ومكانتهم.

تكللت جهود المخطط الصهيوني بالنجاح إذ تمكنوا بمساعدة الدول الاستعمارية الأوروبية، من إنشاء دولتهم على أرض فلسطين واستقبال المهاجرين من كل السلالات والانتماءات فقد بُنيت الديمقراطية العرقية في إسرائيل على فئتين²:

1- اليهود الغربيون (الأشكناز) القادمون من أوروبا والولايات المتحدة هم في مقدمة المجتمع اليهودي في إسرائيل.

2- يأتي بعدهم اليهود الشرقيين (السفارد) القادمون من الدول العربية وأثيوبيا ومن أنحاء شتى من العالم القديم، ثم العرب الفلسطينيون في آخر هذه الفئات من اليهود.

و هكذا تمكن اليهود من الانتشار على الأراضي الفلسطينية وإقامة مستوطنات لهم لكن لم تكتف الدولة اليهودية بما حققته عام 1948، بل أخذت تتحرش بالدول العربية و تحتلق أسباب القتال، فكانت حرب حزيران في الخامس منه عام 1967م، تمكنت فيها من إحكام قبضتها على الجزء المتبقي من فلسطين و أعلنت ضم مدينة القدس بعد إعلان الحرب بثلاثة أسابيع، و هكذا قامت دولة يهود في فلسطين و أعلنت القدس مدينة موحدة، و عاصمة لدولة إسرائيل، و تجمع الشتات في دنيا الأرض على أرض غريبة عنهم أصلاً.³

¹ - المرجع السابق: ص 57.

² - محمود السيد: تاريخ اليهود القديم والحديث، ص 144.

³ - محمد عوض الهزايمة: الأيديولوجية اليهودية، ص 95.

2- أهم الحرف التي مارسها اليهود:

برع اليهود في العديد من الأنشطة كالزراعة و الرعي كما أسلفنا بالذكر سابقاً، زد على ذلك ممارستهم للتجارة التي كانت مصدر رزقهم (فكما هو معروف كانوا أصحاب حرف لا أرض لهم و بالتالي الاشتغال بالحرف قائم على أساس فكرة تجارية لغرض البيع في قسم منها و مبادلة القسم الآخر بمنتجات زراعية استهلاكية).¹

فيما اختلفت التعاملات التجارية بين مقايضة و بيع، كما أنهم استعانوا بالتعاملات الربوية لأن فيها ربحاً سريعاً لهم، لكن مع مجيء الإسلام و تحريمه للربا قلت تعاملاتهم به.

3- تأثير اليهود بالعرب:

تأثر اليهود بالعديد من عادات و تقاليد العرب فبالنظر للاحتكاك بهم و مجاورتهم، تمّ الانصهار في قالب الاجتماعي العربي، فقد تكلموا لغة العرب و (كانوا يتكلمون اللّغة العربية و ينظمون الشعر في أغراضه المتعارفة عند العرب)² ، فقد نظم العديد من الشعراء اليهود قصائهم على الأوزان و القوافي العربية، و من أبرز شعرائهم السمؤال بن عادي و الربيع بن أبي الحقيق، و سارة القرظية و سعبة بن عرض و شريح بن عمران و غيرهم.³

أما أهل الكتاب (فكانوا يقرأون التوراة بالعبرانية و يفسرونها بالعربية فقال رسول الله (صلى الله عليه و سلم) لا تصدقوا أهل الكتاب و لا تكذبوهم و قولوا آمنا بالله و ما أنزل إلينا، و كان عامتهم لا يتكلم العبرانية ولا يعرفها ما عدا الخاصة منهم و المزاولين لحرفة الكتابة و السحر)⁴ ، مما يدل على

¹ - محمود شاكر: موسوعة تاريخ اليهود، ص 50-51.

² - محمد كرد علي: الاسلام و الحضارة العربية، القاهرة، ط 3، ص 125/ ينظر: محمود شاكر: موسوعة تاريخ اليهود، ص 53.

³ - ينظر: محمود شاكر موسوعة تاريخ اليهود، ص 56-57-58-59.

⁴ - ينظر: محمود شاكر: موسوعة تاريخ اليهود، ص 55.

اندماجهم منذ القديم في الحضارة العربية، لكنهم كانوا ولا زلوا موضع شك و ريب لا يُؤتمنون ولا يصدّقون.

كما أنهم اتبعوا العرب في إقامة ولائهم فقد كان (اليهود يذبحون و يدعون جماعتهم إلى وليمة الزواج كما كان عليه العرب قالت صفية: - خرجنا من المدينة حيث أجالنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أي (بني النضير) فأقمنا بخير فتزوجني كنانة بن أبي الحقيق و ذبح جزرا و دعا اليهود إليه).¹

لكن رغم هذا الامتزاج تبقى أوجه الاختلاف قائمة بين العرب و اليهود، إذ أنّ الجانب العقائدي و الدّيني كان له أثر كبير في وضع حواجز بين أصحاب العقيدتين، كما نجد أنّ بعض اليهود متمسكين بديانتهم حدّ العُلُو فيها، و البعض الآخر منشق عن ديانتهم، فهم قوم يَلْفهم الغموض بخصوص شعائهم الدينية و طقوسهم الغربية، و في معرض الاختلاف نشير إلى قضية اشتغال اليهود بالسحر و الشعوذة (حيث جاءت رؤساء يهود الذين بقوا بالمدينة ممن يُظهر الإسلام وهو منافق إلى لبيد بن الأعصم و كان حليفاً لبني زريق و كان ساحراً و أعلم اليهود: فقالوا: يا أبا الأعصم أنت أسحرنا و قد سحرنا محمدا و أنت ترى أنه فينا و نحن نجعل لك على ذلك جعلاً، فجعلوا له ثلاثة دنانير على أن يسحر الرسول(ص) فصنع له مواد خاصة ووضعتها في بئر ذروان، ولما عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك سأله عن سبب ذلك فقال حُب الدنانير).²

تكثر الأقاويل في هذا الشأن لكن المتفق عليه أن اليهود أينما حلوا و نزلوا تأثروا بالسكان الأصليين لتلك المنطقة حتى لا تكاد تفرق بينهم لولا شعائهم و ديانتهم سواءً كانوا يهوداً عرباً أم أوروبيين.

¹ - الواقدي- محمد بن عمر: المغازي-تحقيق.- مارسون جونسن- بيروت- عالم الكتب 1894- ج 2، ص 674.

² - ينظر: محمود شاكر: موسوعة تاريخ اليهود، ص 55.

فاليهود على اختلاف أعراقهم و مشاربهم تختلف عقلياتهم و شخصياتهم لأنهم (كجماعة بشرية لم يرتبط وجودهم بإطار جغرافي محدد لذلك فإن الجغرافيا لم تشكل أدنى جزء من الهوية اليهودية و ذلك لأن الجماعة اليهودية عاشت في ظل مراكز جغرافية متعددة و مختلفة في طوبوغرافيتها في نفس الوقت لذلك فإن الجماعة اليهودية البشرية متباينة في الظروف التي تعرضت لها كنتيجة لاختلاف مسرح حركتها الجغرافي).¹

هاته العوامل ساهمت في تشكيل الشخصية اليهودية و بلورة عقليتها التي طغى عليها الطابع العدواني تجاه الآخر نتيجة تشتتهم في كل أقطاب العالم. بناء على هاته المعطيات التاريخية المتضمنة للنسق الديني والثقافي لليهود فإننا عكفنا على الغوص في أعماق الأعمال الروائية لكُتاب جزائريين قرروا كسر طابو من الطابوهات المسكوت عنها، و إدراجها ضمن أعمالهم بتناولهم للعقلية اليهودية و تصويرهم لشخوص ارتأينا كشف صورهم من خلال عدساتهم، و البحث ماهية صورة يهود فلسطين و يهود الجزائر و المقارنة بين الشخصيات اليهودية ضمن الأعمال الروائية، التي تشير ضمناً إلى التفريق بين اليهود و الإسرائيليين الصّهاينة لإعطاء سمات تقترب من الواقع الممتزج بالخيال .

🚩 - لمحة عن تاريخ يهود الجزائر:

تقودنا دراسة صورة الشخصية اليهودية داخل الأعمال الأدبية إلى معرفة جوانب تاريخية ترتبط بوجود اليهود داخل المجتمع الجزائري، إذ لا يمكن دراسة الصورة بمعزل عن الوجود التاريخي لهاته الطائفة. وكيف تمكنت من الدخول إلى الجزائر، إذ نجد العديد من المؤرخين الذين أخذوا على عاتقهم البحث عن مسألة الهجرة نحو دول إفريقيا، ولسنا بمعرض سرد تاريخ كامل لليهود وإنما لنلمح للوجود اليهودي داخل الحدود الجزائرية شرقاً وغرباً وحتى جنوباً، هاته القضية التي يكتنفها الكثير من

¹ - ساهر رافع: جذور العنف عند اليهود من التوراة و التلمود، المكتبة الالكترونية، موقع www.kotobarabic.com

الغموض، فبين الاحتراز والمخاتلة في الطرح تتجسد خارطة طريق الوجود اليهودي تأثيراً وتأثراً، إيجاباً وسلباً مع الشعب الجزائري في مراحل حياتية عدة تبدأ من العهد العثماني وصولاً لفترة الاستعمار الجزائري، وصولاً إلى وقتنا الحالي والذي يشهد تكتماً حول ماهية ديانتهم بينما تعيش فئة قليلة في أوساط متفرقة داخل المجتمع الجزائري.

فتاريخ يهود الجزائر وتواجدهم بالمنطقة قديم جداً (لكن بداياته غير معروفة على وجه التحديد، فمن المؤرخين من أرجعه إلى قرابة 3000 سنة، أي منذ أن قَدِمَ الفينيقيون إلى شمال إفريقيا لممارسة التجارة خاصة بعد إنشائهم لمدينة قرطاجنة عام 814 ق.م)¹، في حين تتضارب الآراء حول تاريخ الهجرات وصحتها، بينما هناك من ينفي هاته الفكرة بداعي (اعتناق القبائل البربرية للديانة اليهودية)².

لكن قبل الخوض في مساهمهم التاريخي علينا أن نفرق بأننا هنا بصدد إلقاء الضوء على اليهود وليس الصهاينة (فاليهود عاشوا معنا في الجزائر في تعايش تام وكان للبعض منهم موقف متعاطف مع الكفاح المسلح خلال الثورة كما أن البعض الآخر تعاون مع فرنسا الاستعمارية. وهكذا تسير الأمور دائماً)³، فهجرة اليهود إلى شمال إفريقيا تمت عبر محورين أساسيين هما⁴:

أ- من فلسطين إلى مصر، ثم برقة، ثم باقي المناطق الإفريقية، خاصة الساحلية.

¹ - كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسية (أواخر العهد العثماني وبداية الفترة الاستعمارية)، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1437هـ - 2016م، ط2، ص17.

² - يراجع ما كتبه عثمان سعدي في القدس العربي بتاريخ 2007/06/23، حول ادعاءات الكاتب اليهودي المغربي حاتم الزعفراني، بأن يهود المغرب لم يأتوا مهاجرين، وإنما هم مغاربة تهودوا، ينظر: كمال بن صحراوي، دور يهود الجزائر الدبلوماسية، ص17.

³ - عيسى شنوف: يهود الجزائر 2000 سنة من الوجود، دار المعرفة، الجزائر، ص09.

⁴ - ينظر: محمد دادة: اليهود في الجزائر في العهد العثماني (منذ مطلع القرن 18 حتى 1830م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: محمد خير فارس، جامعة دمشق، كلية الأدب، قسم التاريخ، 1985، ص11.

ب- من اليمن والجزيرة العربية، إلى إثيوبيا ثم الانتشار في الصحراء وصولاً إلى المغرب الأقصى.

بعدما استقر اليهود في شمال إفريقيا وتحسنت ظروفهم المعيشية، خاصة بعدما امتهنوا حرفة التجارة التي كانت تمثل مفتاح الربح السريع (إذا أنهم أصبحوا أغنياء، سهل عليهم التسلّل إلى الوظائف في الدولة والتحالف مع أكبر العائلات الإسبانية آنذاك، حتى أصبح عددٌ منهم يشغلون وظائف وزارية، ولما استحکم أمرهم وسيطروا على التجارة تسببوا في تجويع السكان)¹، ومما زاد انتشارهم في بلاد المغرب هو مجيء الوندال (ذلك أنّ الوندال كانوا أعداء للكاثوليك، فحدث تقارب بينهم وبين اليهود، الذين عرفوا كيف يستغلون قدراتهم لخدمة الوافدين مقابل احتكارهم للتجارة وتحقيق الأرباح الطائلة)².

لكن مع مجيء البيزنطيين فإن الأمر قد تغير إذ (انتهت الامتيازات اليهودية، فقد أجبر اليهود على اعتناق المسيحية بالقوة، وحولت معابدهم إلى كنائس، وهو ما جعلهم يفرون نحو المناطق الداخلية ويتفرقون في الأرض)³. وبعد التضييق عليهم تحت حكم البيزنطيين توغلوا في المنطقة ولقوا ترحيباً من الأمازيغ، (ورغم هذا التّشدد البيزنطي فإن الديانة اليهودية لم تنته بل عمل أصحابها على نشرها بين الأمازيغ خاصة في الأوراس)⁴. لكن وبدخول الإسلام إلى شمال إفريقيا أصبح اليهود جزءاً من هذا المجتمع الإسلامي فقد (أحرز اليهود في الجزائر وضعاً وحقوقاً جديدة لم يكونوا ليحلموا بها من قبل في العهدين الروماني والوندالي، وحتى البيزنطي، فرغم الحالة الاستثنائية من الناحية القانونية التي تتمثل في وضعية الذّمة. نال اليهود زيادة على الاحترام العام والتقدير من طرف عامة المسلمين عطف واحترام الخلفاء والأمراء المسلمين الذين كانوا كثيراً ما يأخذون برأيهم في أمور السياسة والمالية وأدجّوهم في

¹- Garrot.H, Les juifs algériens, Leurs origines Alger : Librairie Louis Relin, 1898, p62.

²- Garrot.H, OP.cit, P28.

³ - كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسية، ص 21.

⁴ - كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسية، ص 21.

الحياة الإدارية والعمومية باعتبارهم مواطنين كاملي الحقوق والواجبات داخل الدولة الإسلامية¹ وقد حفظت لهم ديانتهم فلم يُمسَّ الجانب العقائدي لليهود، لكنهم كانوا ملزمين بدفع الجزية مقابل حريتهم كما قام الإسلام بتحريم الربا عليهم، وبعض الأمور الأخلاقية التي من شأنها إفساد المجتمع، أما إذا ما ركزنا على الإسلام في الجزائر فإنه (قد كفل لهم حرية تنظيم علاقاتهم الداخلية، تحت رئاسة زعماء الطائفة في إطار حقوق أهل الذمة* حيث تمكنوا من مزاولة شعائرهم، وتعليمهم، ونشاطاتهم الاقتصادية بحرية تامة، ورغم أن المطلوب منهم لم يكن أكثر من دفع الجزية والتقييد بضوابط المجتمع، فإنهم كثيراً ما تهربوا من دفعها)².

ونظراً لانتشار اليهود الكثيف على الموقع الجغرافي لبلاد المغرب بأقاليمه الثلاثة المغرب الأدنى والوسيط والأقصى، فإننا سنركز على توغلهم في المغرب الأوسط فقد عرف المغرب الأوسط تواجداً كثيفاً لليهود منذ القديم (وحسب ما نقلته كتب المؤرخين والجغرافيين فإن تواجدهم بالمغرب الأوسط شمل عديد مدنه، في الشمال والجنوب خاصة التجارية منها، فاستقروا في مدينة بجاية قاعدة المغرب الأوسط)³ كما يصفها الإدريسي قائلاً (... السفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها براً

¹ - فوزي سعد الله: يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، 2004، 2، ص 49-50.

² - معلوم أنّ الجزية لم تكن مفروضة على فقراء أهل الذمة، وإنما على أغنيائهم ورغم ذلك حاول بعض اليهود تزوير وثيقة عام 1015هـ/1606م، بمكناس ادّعوا فيها اسقاط النبي (ص) للجزية، يراجع عبد الرزاق بن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال (رحلة ابن حمادوش): تقديم وتحقيق وتعليق أبي القاسم سعد الله، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، ص 64، ينظر: كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسية، ص 23.

* - الذمة عند الفقهاء هي معنى بصير به الإنسان أهلاً لوجوب الحق له أو عليه وفي الحديث: (من صلى الصبح في جماعة فهو في ذمة الله فأنظر يا ابن آدم لا يظلمك الله بشيء من ذمته)، ومما نتج عن انتشار الإسلام وتوسعه ظهور طوائف أهل الذمة من اليهود والنصارى والمجوس ممن لم يدخلوا في الإسلام، وقد ارتبط هؤلاء مع الدولة الإسلامية بعقد تضمن الأمان على الأرواح والأموال في دار الإسلام والبقاء على دينهم مقابل دفع الجزية، وقد اتفق الفقهاء على مشروعية "عقد الذمة" للنص عليه في القرآن والسنة وإجماع المسلمين، ينظر: قومي محمد: دور الطائفة اليهودية بتوات (خلال القرنين 9 هـ - 10 هـ / 15م - 16م) مذكرة ماجيستر في التاريخ تحت إشراف: غازي الشمري، جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية، 2014، ص 29.

³ - ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص 142، ينظر: قومي

محمد: دور الطائفة اليهودية بتوات خلال القرنين 9 هـ - 10 هـ / 15م - 16م) ص 29.

وبجراً والسلع إليها مجلوبة والبضائع بها نافقة وأهلها مياسير تجار وبها من الصناعات والصناعات ما ليس بكثير من البلاد وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق)¹

كما اتخذ اليهود بعض المدن الساحلية مراكز تجارية يزاولون التجارة إنطلاقاً منها مع مدن البحر الأبيض المتوسط خاصة الإسبانية. وكانت تلمسان -المدينة الداخليّة- تحوي جالية يهودية قديمة تتعامل مع اليهود في مايوركة التي تصلها المواد المختلفة القادمة من إفريقيا السوداء.²

وهذا ما يبين ويؤكد تواجد اليهود بها لانتشارهم بين القرى والمدن التي تناسب طموحاتهم التجارية، لذا غلب تواجدهم في المراكز التجارية الكبيرة وعلى طرق التجارة.³

كما اتخذوا من مدينة تنس الواقعة على مقربة من البحر المتوسط والتي شيّدت من طرف أهل الأندلس سنة 262هـ/875م مرفأً لتجارهم مع بلاد المغرب.⁴ توزع اليهود على كامل التراب الجزائري بكل حرية دون أية مضايقات من أهلها وأنظمتها المتداولة على الحكم منذ الفتح الإسلامي (فليست هناك مدينة في الداخل لا تحوي يهوداً ضمن سكانها، فهم في كل المدن المبعثرة في الصحراء، في تقرت، وفي بوسعادة، وفي وادي ميزاب ... وقد استقرت عدة عائلات يهودية ضمن قبائل جزائرية حيث تعيش حياة عادية)⁵.

¹ -محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزاوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، ط1، 1988، ج1، ص92.

² - محمد دادة: اليهود في الجزائر في العهد العثماني، ص19-20.

³ - بشير عبد الرحمن: اليهود في المغرب العربي (22هـ/462م) (642هـ/1070م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2001، ص43.

⁴ - البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب (جزء من المسالك والممالك)، مكتبة المثنى، بغداد ص60، ينظر: قومي محمد: دور الطائفة اليهودية بتوات، ص29.

⁵ -Rozet et carette, L'Algérie par Hm. Les capitaines du Génie Rozet et carette, Paris, Fimin didot Frères, 1850,p214.

بدأ الوجود اليهودي في التزايد خاصة في عاصمة (الرستميين تاهرت)¹ التي ابتناها عبد الرحمن بن رستم²، وقد تزايد الوجود اليهودي بالمدينة لأن الفاطميون كانوا أكثر تسامحاً معهم يمارسون كافة نشاطاتهم المتنوعة بحرية تامة³، أما مدينة تلمسان⁴ عاصمة الزيانيين وقفل بلاد المغرب لا بد للدّاخل والخارج الاجتياز بها⁵. فقد كانت تحوي جالية يهودية قديمة تتعامل مع اليهود في مايوركة التي تصلها المواد المختلفة القادمة من إفريقيا السوداء⁶، حيث مارسوا بها مختلف نشاطاتهم التجارية وتدعم وجودهم بإخوانهم اللاجئين من شبه جزيرة أيبيريا⁷، سنة 613م و 622م، وبسبب المضايقات التي تعرضوا لها فروا إلى الصحراء الكبرى⁸، وتمركزوا في مدن شمال الصحراء مثل غرداية⁹، والقرارة¹⁰،

¹ - تاهرت: للاطلاع أكثر. انظر: ابن الفقيه، مختصر البلدان، ص79. / ابن خرداذبة، المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، ص88 / ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحار، الجزائر، 1986، ص19 / ينظر: قومي محمد: دور الطائفية اليهودية بتوات، ص32.

² - عبد الرحمن بن رستم: مؤسس مدينة تاهرت (بالجزائر) وأول من حكم الرستميين كان من فقهاء الإباضية، فاسي الأصل، أنظر: خير الدين الزركلي، ترتيب الأعلام على الأعوام، رتبته وعلق عليه: زهير ظاظا، دار الأرقم، بيروت، لبنان، 202.

³ - بشير عبد الرحمن: يهود المغرب العربي، م.س، ص75.

⁴ - تلمسان: أنظر: ابن خرداذبة المسالك والممالك، مصدر سابق، ص88.

⁵ - الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مج 01، ص248.

⁶ - محمد دادة: اليهود في الجزائر في العهد العثماني، ص19-20.

⁷ - شبه جزيرة أيبيريا: هو اسمها العربي، وتسمى كذلك الأندلس والكلمة ذات أصل أعجمي، وأيبيريا نسبة إلى الشعوب الأيبيرية وهم مجهولوا الأصل والمصدر، عاصروا في إسبانيا القديمة الفينقيين واليونان والرومان، وبالتالي هم أقدم أمم غربي أوروبا، انظر: المقرئ، نفتح الطيب، دائرة المعارف الإسلامية، ج 03، ص35.

⁸ - الصحراء الكبرى: عرّف كل من الزبيدي في تاج العروس وابن منظور في لسان العرب، الصحراء من الأرض بأنها "المستوية في لين وغلط دون القف، وقيل إنها الفضاء الواسع. وقال: ابن شميل: "الصحراء من الأرض، مثل ظهر الدّابة الأجرد ليس بها شجر ولا آكام ولا جبال، ملساء" والصحراء الكبرى هي أوسع صحاري العالم، حيث أنها تمتد شرقاً من البحر الأحمر عبر النيل حتى المحيط الأطلسي غرباً، ومن الجنوب إلى الشمال بين بلدان إفريقية الشمالية وبلاد السودان. انظر: إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص13.

⁹ - غرداية: هي عاصمة وادي ميزاب تأسست سنة 474هـ / 1092م، وهي واجهة فاخرة للاقتصاد الاباضي. إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، م.س، ص156-157.

¹، وتوات ²، وتمنيط ³، وورقلة ⁴ والوادي ⁵ والتي تقع على الطريق المؤدي إلى بلاد السودان الغربي ⁶.

عرفت تلمسان نشاطاً كثيفاً من قبل التجار اليهود إذ كانت بها (ثمانية أسواق متنوعة ومتعددة الاختصاصات وبوسط المدينة بيعة لليهود)⁷، وهذا الذي ساعدهم على جني ثروة طائلة فمعظم يهود يهود تلمسان عُرفوا بالشراء. حيث ذكر صاحب "باقة السلوان" أن الطائفة اليهودية عاشت في المدينة في إطار التسامح الإسلامي يمارسون شعائرهم الدينية بكل حرية، ويورد قصة مرض بنت أحد سلاطين تلمسان لم يذكر اسمه وعجز الأطباء المسلمون عن معالجتها، وكان من بين الوافدين من اليهود على تلمسان حكيم يدعى "أفرايم أنكاوة" فعالجها وكان شفاؤها على يده، فسأله السلطان

¹ -القرارة: إحدى المدن الخمس لوادي ميزاب، تأسست سنة 1040هـ، إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، ص156.

² -توات: تتضارب الروايات حول أصل التسمية نورد إحداها، إذ يقول محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكرائي التمنيطي، الذي ذكر في كتابه "درة الأقاليم في أخبار المغرب قبل الإسلام". أن سبب تسمية الإقليم "توات" يرجع إلى الأتوات التي كان يدفعها أهل البلاد، وبعد حذف المضاف وأقيم المضاف إليه صارت الكلمة توات التي أطلقت على المنطقة الممتدة جغرافياً من تملكوزة إلى عين صالح وكانت تسمى بالصحراء القبيلية، انظر: محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكرائي التمنيطي، درة الأقاليم في أخبار المغرب قبل الإسلام، مخطوط خزانة المطارقة، ورقة 03. يمكن الرجوع إلى بعض الدراسات على سبيل الذكر لا الحصر: انظر: محمد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات، دار هوم، الجزائر، بدون ط، 2005، ج1، ص9-10/ الصديق حاج أحمد آل المغيلي: التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11هـ إلى القرن 14هـ، دار الحبر بني مسوس، الجزائر، ط2، 2011، ص27-31.

³ -تمنيط: تبعد عن مدينة أدرار بحوالي 12 كلم.

⁴ -ورقلة: وتسمى قديماً "واركلان" أو "وارجلان" وهي في طرف الصحراء مما يلي إفريقية، وهي بلد خصيب كثير النخل والبساتين، وبينها وبين الجريد أربعون يوماً، وبينهما وبين غدامس نحو عشرين يوماً، وأهلها يرير / البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص182.

⁵ -الوادي: وهي مجموعة من واحات النخيل تقع في الصحراء الشرقية على الحدود التونسية الجزائرية. إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، ص139.

⁶ - فوزي سعد الله: يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، ص38.

⁷ -محمد بن عمر الطمار: تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص324-325.

عما يستحقه من الجزاء فقال جزائي أن تأذن لليهود بالنزول داخل تاقراوات أي تلمسان الحديثة، فأذن لهم السلطان حينئذ بالنزول بالمكان الذي كان معروفاً بالمرجة والتي صارت تُعرف بدرب اليهود، أما حكيمهم "أفرايم أنكاوة" فقد مات في تلمسان عام 845هـ / 1442م وقبره لا يزال محط رحال اليهود الذين يأتون لزيارته إلى يومنا هذا¹.

ورقلة أو (وارجلان) كما كانت تسمى قديماً عرفت تواجداً كثيفاً لليهود الذين حطوا الرحال بها (وهي بذلك إحدى المحطات المهمة في خطوط التجارة بين الشمال الإفريقي وبلاد السودان)² فموقعها الجغرافي أهلها لاستقبال العديد من اليهود الذين استقروا بها ومارسوا بها تجارتهم.

كما شهدت منطقة (توات) توافداً كبيراً لليهود على هاته (المدينة العريقة التي تقع على مشارف الصحراء، الغنية بموقعها الجغرافي الحساس في الشبكة التجارية البرية ما بين القرن 11م والقرن 15م)³، وقد هيمن اليهود في هاته المنطقة على جميع المستويات سواءً السياسية أو الاقتصادية فحسب مصادر تاريخية فإن (النفوذ اليهودي بلغ ذروته مع نهاية القرن 15م)⁴، لكن المسلمين لم يسكتوا على الوضع الذي آلت إليه منطقتهم جراء السيطرة التي فرضها اليهود، ومن بين الغيورين على عظمة الإسلام والمسلمين محمد بن عبد الكريم المغيلي (المولود سنة 844هـ/1440م). نشأ بتلمسان وقد أثر تكوينه الديني ووعيه بالمخاطر التي كانت تحدق بالجزائر وبكافة العالم الإسلامي عشية سقوط الأندلس على مواقفه من اليهود وانحرافاتهم بحيث أعطتها صلابة وتشدداً إلى حد الإنزلاق في المغالاة تجسدنا فجأة على أرض الميدان بعد بضعة سنوات أثناء مطاردته لليهود بتوات

¹ -الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص364-265/ينظر قومي محمد: دور الطائفة اليهودية بتوات، ص52.

² -البكري: المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، م.س، ص82.

³ -فوزي سعد الله: يهود الجزائر، ص67.

⁴ -المرجع نفسه، ص67.

وتمنطيط وملاحقتهم حتى مالي والنيجر...) ¹، لقد كان المغيلي مولعاً بالصحراء التي كانت تمثل رمزاً للطهارة والنقاء بالنسبة له، في حين (انتقل إلى الصحراء بمدينة "توات" بالقرب من واحة "نقرت" في سنة 1479م، ثم استقر بتمنطيط بجي أولاد يعقوب قبل أن ينتقل إلى "بوعلي" قرب "تازولت" حيث يوجد إلى اليوم ضريحه والزاوية التي أسسها، لكن صدمته كانت كبيرة عندما اكتشف بأن وضع المسلمين في هذه المدينة الصغيرة إزاء تزايد النفوذ اليهودي كان أسوأ منه في تلمسان مسقط رأسه) ²، وبعد مشاورات عبد الكريم المغيلي مع فقهاء ورجال الدين والذين أبدى بعضهم موافقتهم في حين رفض آخرون من بينهم (الشيخ السنوسي ومحمد بن عبد الجليل التنسي، والرصاع مفتي تونس، وأبو المهدي الماواسي مفتي فاس، وابن زكري مفتي تلمسان والقاضي أبو زكرياء يحيى بن أبي البركات الغماري وعبد الرحمن بن سبع التلمساني) ³.

تجاوزات اليهود وتمردهم وطغيانهم على أحكام الشريعة الإسلامية كان دافعاً لثورة المغيلي على اليهود ومحاربتهم بالرغم من (رفض العديد من الفقهاء والسياسيين دعمه ومساندته على الأقل في الفتوى الدينية لتبرير مطاردة اليهود. فانزلق في التعصب والمغالاة الدينية) ⁴، وقد دفع هذا التمرد والسطوة التي اعتلاها اليهود بالمغيلي إلى تأليف (رسالة في الموضوع قسمها إلى ثلاثة فصول، فخصّ الفصل الأول بما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار بحيث لا يقرب المسلم كافراً من نفسه أو عياله أو يستعمله في أعماله، ولا يفعل ذلك من المسلمين إلا من لا دين ولا مرؤة له وتناول في الفصل الثاني ما يلزم أهل الدّمة (وهو هنا لا يقصد اليهود فقط) من الجزية والصغار. أما الفصل الثالث فقد

¹ - فوزي سعد الله: يهود الجزائر، ص 68.

² - فوزي سعد الله: يهود الجزائر، مرجع سابق: ص 69.

³ - عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، المطبعة العربية، الجزائر، 1955م، ج 2، ص 322. / ينظر: فوزي سعد الله: يهود الجزائر، ص 70.

⁴ - فوزي سعد الله: يهود الجزائر، ص 72.

تحدث فيه عن يهود هذا الزمان في سائر الأوطان من الجرأة والطغيان والتمرد على الأحكام الشرعية)¹.

لكن المغيلي كان متشدداً في محاربه لليهود فهو يرى في كتابه ("مصباح الأرواح في أصول الفلاح" بأن الجزية نفسها ليست سوى إجراء يراد به إهانة اليهود وإذلالهم. لكن هذا خطأ فادح وانحراف خطير عن مفهوم الجزية في الإسلام، صدم حتى محقق الكتاب نفسه الأستاذ رابح بونار الذي انتقد المغيلي الفقيه)² ورغم هذا التطرف والانحياز تجاه اليهود إلا أن الإسلام سنّ قواعده، بأنه لا إكراه في الدين، فالمغيلي كان فقيهاً ورجل دين وعلم، غيور على الإسلام و(لقد قدّم الكثير للدعوة الإسلامية في إفريقيا السوداء)³ وله العديد من المؤلفات وقد عاد (المغيلي إلى توات بعد مقتل ابنه عبد الجبار المغيلي وأقام بها كمدرس بمساجدها ومدارسها)⁴. إن حياة اليهود بالجزائر ليست كما (يؤرخ لها الصهاينة مجرد مطاردة وملاحقة ومقاتلة وحرقات مقيدة، بل كانت حياة عادية جداً شاركوا فيها المسلمون أفراحهم وأحزانهم وتقاسموا فيها عموماً السراء والضراء)⁵. هناك من المستشرقين من يُقرُّ بأن اليهود بالجزائر تمتعوا بكامل الحقوق التي تضمن لهم عيشة مستقرة (ولا نجد أحسن من كلمات حاخامهم الكبير في الثلاثينات والأربعينات والخمسينات من هذا القرن موريس إيزنبت (Grand Rabbin d'Alger) M.Eisenbeth لتلخيص الأوضاع العامة التي عاشوها في البلاد)⁶ ويتجلى هذا حين يقول إيزنبت ("...هنا لم يكن اليهود ضحايا لا للقمع ولا للمعاملات الاستثنائية، لقد كانوا يتنفسون بحرية. وكان بإمكانهم التنقل بكل أمان. فعاشوا في سلام مع المسلمين

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، (1830-1500)، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998، ص54-55.

² - محمد عبد الكريم المغيلي: مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق وتقدم الأستاذ: رابح بونار، سلسلة ذخائر المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، أكتوبر 1968، ص45-46. فوزي سعد الله: يهود الجزائر ص73.

³ - فوزي سعد الله: يهود الجزائر، ص76.

⁴ - المرجع نفسه، ص76.

⁵ - المرجع نفسه، ص77.

⁶ - المرجع نفسه، ص78.

وتمتعوا بحماية الحكام. كانوا يعيشون حياتهم الخاصة ويُسيرون أعمالهم ويتعاطون كل أنواع التجارة. ويقدمون الرّب على طريقتهم الخاصة سواء كانوا في حاراتهم أم مختلطين بالمسلمين...¹.

مع توالي الحكم في الجزائر على يد المرابطين والموحدين ثم الرستميين والقوة التي تمتع بها اليهود وزيادة نفوذهم التي أهلتهم إلى اعتلاء مناصب سياسية واقتصادية هامة وحتى تكوين ثروات هائلة. والتي مرّت بالعديد من المراحل والفترات نحن بمنأى عن التوغل في تفاصيلها، ساعدتها عوامل جيوسياسية أما في (الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى دخول العثمانيين ارتبط اليهود في الجزائر بعلاقات وثيقة مع يهود البلاد الإسلامية الأخرى ومع يهود أوروبا ونقلوا عنهم جميعاً نماذج مؤسساتية و تنظيمية دينية حاخامية... تميّزت الحياة الاجتماعية اليهودية في هذه الفترة على العموم باستقرار شامل وازدهار اقتصادي ثقافي ديني كبير. كما تميز العنصر اليهودي بحركية جغرافية ديناميكية نابعة من ممارسته للنشاط التجاري)² هاته المؤهلات ساهمت في تعزيز الوجود اليهودي ضمن الأطر الجغرافي بالجزائر، خاصة المدن الداخلية وشمال البلاد لا سيما بعد توافد العديد من العائلات اليهودية الصحراوية إلى مناطق الشمال الجزائري لتزدهر أعمالهم التجارية و الإقتصادية، كما أن اليهود عرفوا ازدهاراً على المستوى الثقافي والعلمي مما عزّز وجودهم وسهّل اندماجهم.

1- المثقفون اليهود في الجزائر:

هيئت البيئة الجزائرية كل الظروف للطائفة اليهودية حتى يرتقوا ويبرزوا في الساحة العلمية والفكرية، نظراً لاحتكاكهم بخيرة العلماء والمفكرين (من ابن رشد إلى ابن خلدون وابن طفيل وغيرهم، فاستفاد

¹ -موريس إيزنث شغل منصب "الحاخام الكبير" لمدينة الجزائر من بداية الثلاثينات حتى وفاته سنة 1957، وهو أحسن المؤرخين اليهود لتاريخ اليهود في الجزائر له عدة مؤلفات منها:

(Les juifs en Algérie eten Tunisie à L'époque Turque, Pages vécus (1940-1943), Les Juifs d'Algérie Esquisse de L'histoire des juif jusqu'à nou jours

/ينظر: فوزي سعد الله: يهود الجزائر، ص94.

² -فوزي سعد الله: يهود الجزائر، ص94.

اليهود من هذه الحضارة الإسلامية وكونوا في أحضانها نخبة هامة من العلماء والمفكرين والأطباء، ونقلوا النظام المدرسي التربوي الإسلامي، فأنشأوا المدارس الحاخامية منذ القرن 10م في تلمسان حيث لعبت دوراً كبيراً في تعليم و تثقيف الجالية اليهودية وتكوين إطاراتها الدينية على الأقل في المستوى الأولي (الابتدائي)¹ كما برز العديد من الأدباء والفلاسفة من يهود الجزائر، وحتى الجغرافيين الذين ساهموا في تدعيم الخرائط بمعلومات قيمة يُعتمد عليها، ومن بين الفلاسفة اليهود (موسى ابن ميمون الأندلسي الذي تظاهر بالإسلام قبل لجوئه إلى القاهرة عبر المغرب الأقصى والجزائر)²، وكذلك (الطليطلي لي الذي عاش طويلاً بغرناطة، أين اشتغل طبيباً وأستاذاً قبل هجرته إلى المشرق، له كتاب عنوانه "الحجة والدليل في نصره الدين الدليل، حوالي 800 قصيدة شعرية مازالت تتغنى بها بعض المعابد اليهودية بالإضافة إلى كتاب "الحزري" (بالعبرية "كوزري") الذي ألفه باللغة العربية، وكذلك اشتهر الطبيب المفكر يعقوب قابيسون (Jacob Gabison) بتلمسان في القرن 14م. فلسفته الميمونية)³

لقد كانت اللغة العربية هي اللغة التي يعتمد عليها اليهود في كتاباتهم وحتى في حياتهم اليومية عند تخاطبهم وفي هذا الميدان (نبغ يهودي آخر من العمق الجزائري لغوي وطبيب وشاعر هو يهوذا بن قريش التاهرتي... درس البنيات المرفولوجية (Structures Morphologique) للبربرية وتعمق في دراسة العربية والآرامية و الفارسية... يصفه عادل نويهض في معجم أعلام الجزائر "1930" ب: واضع أسس النحو التنظيري، كما يعتبر من بين رواد علم النحو المقارن)⁴، أما على مستوى فن الشعر فلم يبرز الكثير من الشعراء اليهود في الجزائر نذكر على سبيل المثال إسماعيل بن النغيلة... وابن جبرول..وفي تلمسان برز شاعر متوسط المستوى... هو علال بن صيدون Allal Ben

¹ - فوزي سعد الله، يهود الجزائر، ص95.

² - المرجع نفسه، ص96.

³ - المرجع نفسه، ص97.

⁴ - المرجع نفسه، ص98.

Sidoun، وأبراهام بن مائيرز ميرو (Abraham Ben Meir Zamero).¹، عبّر العديد من الأدباء اليهود عن أعمالهم باللغة العربية التي كانت وليدة بيئتهم (فآثار التعريب بقيت حاضرة بقوة في الشخصية الثقافية للفئات اليهودية القديمة الوجود بالجزائر)²، حتى مع دخول الاستعمار الفرنسي الذي لم يتمكن من غلغلة سياسته التغريبية في أوساط يهود الجزائر، كما يذكر (الكاتب اليهودي الجزائري الأصل ألبير بن سوسان (Albert Ben Soussan) في "Mon Algérie" ... (بأنّ جده كان يتكلم بالعربية ويوقع بالعبرية) 140**، ويذكر باعتزاز بأنه كان ينادي جده مسعود: "بابا سيدي" وبأن أمه تدعى "عائشة"، ألبيرت بن سوسان مازالت ذاكرته تحتفظ بحرص شديد بالحكم و الأمثال الجزائرية العربية التي تُشكل إلى اليوم إحدى التوابل الرئيسية لمؤلفاته مثل: "التلمساني والفار ماتوريلهمش باب الدار" الذي ورثه عن أمه، وسوق بلا يهود كالقاضي بلا شهود"³، هذا التأثير نجم عنه ذوبان في المجتمع الجزائري من قبل اليهود، كما أنهم سعوا إلى تأسيس أرضية متينة تؤهلهم إلى مصاف المواطنين الجزائريين على جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، فاليهود كانوا على دراية بأهمية جغرافية المكان الذي استقروا به لخدمة مصالحهم، وهذا ما جعلهم يرتقون في المناصب ويتقلدون أهمها فزادت نفوذهم وكثرت ثروتهم، ساعين بذلك إلى (تحقيق مصالحهم، دون مراعاة للضرر الذي كانوا يلحقونه بالمجتمع، جعل السكان يحذرون منهم على الدوام، ثم تحول هذا الحذر مع الوقت إلى حقد، وتحول الحقد إلى ثورة، وقد عبر قريقوار Fernand Grégoire عن تصرفات اليهود غير اللائقة، بأنه في أوقات الأزمة الاجتماعية يظهر اليهودي مثل الغراب بعد المعركة، ليتغذى على لحوم الجيف⁴، وأضاف "في الجزائر خاصة تتنفس الملاريا اليهودية"⁵)⁶، فتحقيق مصالح

¹ - فوزي سعد الله: يهود الجزائر، ص 98.

² - المرجع نفسه، ص 101.

*Mon Algérie : Monique Ayoun et jean pierre Stora, Edition Acropole 1989-paris-

³ - المرجع نفسه، ص 101.

⁴ - Grégoire, F, La juiverie Algérienne, Radical Algérien, 1888, p05.

⁵ -Grégoire, F, Ibid.p06,

⁶ - كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسي، ص 41.

اليهود كانت غالباً ما تقوم على الصعود على أكتاف الغير، دون مراعاة لأحد، فما كان يهمهم الرّيح السريع وتحقيق شروط القوة والسلطة عبر طرق جميع الأبواب المؤدية إلى بروزهم، وهذا ما أكدّه وشهده واحدٌ من أهلها.

2-اليهود إبان الاستعمار الفرنسي:

يُجْمَعُ معظم المؤرخين على أن اليهود قد استقروا على أرض الجزائر وانتشروا فيها لما وجدوه من قبول من طرف سكانها، فقد عاشوا جنباً إلى جنب مع الجزائريين المسلمين خاصة منذ (بداية العهد العثماني بالجزائر رحب خير الدين باليهود الوافدين من إسبانيا)¹ فالتّسامح الذي أبداه المسلمون بالجزائر مع الطوائف اليهودية دفع بها للتميز في الكثير من الصناعات الحرفية، خاصة في المجال التجاري الذي كان بمثابة نافذة عبور انتهجوها لاستقطاب واستعطاف جميع الدول المجاورة خدمة لمصالحها التي تعلو جميع المصالح والاعتبارات. فلقد (أبدى اليهود منذ بداية الاستعمار تعاطفاً قوياً مع الجيوش الفرنسية، واستعداداً للقيام بالوساطة بين الفرنسيين والأهالي. وكان هدف اليهود هو اثبات حضورهم على السّاحة السياسية، إلى جانب الفرنسيين للحفاظ على مصالحهم، دون مراعاة للمجتمع الجزائري ومأساته).²

عكف اليهود على خدمة المستعمر الفرنسي من أجل ضمان بقائهم على حساب الأهالي المسلمين، فكانوا يُشكّلون وساطة مع الأهالي نظراً (لمعرفتهم باللغتين العربية والفرنسية)³، وكانوا يرون خلاصهم من الحكم الإسلامي في المستعمر الفرنسي الذي وفرّ لهم امتيازات أهلتهم للاندماج في الوسط الأوربي داخل الجزائر.

¹ - محمد داده: اليهود في الجزائر في العهد العثماني، ص32.

² - كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر، ص136.

³ - المرجع نفسه، ص138.

3- البنية العرقية لليهود الجزائر:

توافد اليهود على الجزائر منذ القدم، فمنهم (اليهود الأهالي ذوي التاريخ العريق على هذه الأرض، الذين توالوا على البلاد منذ ما قبل الميلاد حتى الفترة التي سبقت المطاردات المسيحية الاسبانية لليهود في القرن 14م والقرن 15م)¹. هاته الفئة تسمى "توشابيم" (Touchabim) بالعربية و (Les Tochab) بالفرنسية والأهالي بالعربية، وهم اليهود الذين هاجروا إلى الجزائر وشمال إفريقيا بعد الفتح الإسلامي وأصبحوا مع مرور الزمن عنصراً منصهراً في المحيط الثقافي والحضاري والاجتماعي الجزائري يصعب تمييزهم عن غيرهم من الجزائريين لولا اختلاف الدين والطقوس الروحية والطبائع النفسية المكتسبة من التلمود ومن قرون التشرذ والتشتت².

لكن وبالرغم من هذا الإيغال في الانصهار، إلا أن اليهود حافظوا على الملامح المبرزة لشخصيتهم من خلال تمسكهم بتعاليم دينهم ومعتقداتهم.

أما الفئة الثانية فتُعرف "بالميجورشيم" أو الأندلسيون الإسبان³ (هؤلاء اليهود لجأوا إلى الجزائر عندما بدأت الدويلات والإمارات الأندلسية تتساقط تحت ضربات الإسبان المسيحيين)⁴. ولفظة ميغوراشيم عبرية معناها المطردون، وينقسم هؤلاء إلى⁵:

أ- السفارديم: وتعني إسباني وهي كلمة عبرية تستخدم للإشارة إلى إسبانيا، رغم أن اليهود عاشوا في الأندلس وتكلموا العربية إلا أنّ استعادة المسيحيين لأقاليم الأندلس جعلتهم

¹ - فوزي سعد الله: يهود الجزائر، ص142.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص143.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص143.

⁴ - المرجع نفسه، ص143.

⁵ - ينظر: كمال بن صحراوي، دور يهود الجزائر الدبلوماسية، ص27-28.

يأخذون الصبغة الإسبانية ويتحدثون لهجة اللادينو الإسبانية، وحينما تم طردهم من الأندلس كانوا سفارد لهذه الاعترافات.

ب- الأشكيناز: حسب الرواية التوراتية فإن لفظة "أشكيناز" هي اسم لأحد أحفاده نوح عليه السلام، وتطلق كلمة "إشكيناز" على اليهود الذين عاشوا في ألمانيا وفرنسا ومعظم أوروبا، ثم التحقوا بالجزائر قادمين من إيطاليا وهولندا وفرنسا وإنجلترا ومن تونس والمغرب في النصف الثاني من ق16هـ.

ج- القرانا "يهود النصارى": ويقصد بهم اليهود الذين قدموا من مدينة ليفورن الإيطالية (Livourne) وقد تمركزوا في المدن الكبرى.

هاته الفئة كان يطلق عليهم (اليهود المسيحيين أو يهود النصارى)¹ لأنهم كانوا يُعتبرون أجناب عن الجزائريين المسلمين وحتى بالنسبة لليهود التوشاييم أو الميغورشيم وقد (أحدثت هذه العائلات الليفورنية بقدمومها إلى الجزائر انقلاباً كبيراً في موازين القوى داخل الطائفة اليهودية. فاستولت على مقاليد زعامتها وعلى مراكز قرارها ومختلف شؤونها الحيوية وانتزعت رئاسة الطائفة من يهود الأندلس الميغورشيم على غرار ما فعلته هذه الفئة الأخيرة مع التوشاييم في القرن 15م)² ومن أشهر العائلات اليهودية الليفورنيون (عائلي بوشناق وبكري)³ اللتين شكلتا محوراً اقتصادياً وسياسياً على أرض الجزائر، وكانتا تعتبران خط اتصال بين أوروبا والمغرب العربي، كما اشتهرت العائلتان بالثراء الفاحش والنفوذ اللذين مكنهما من فرض سلطتهما داخل الجزائر، وقد كانت هاته الفئة بالتحديد في عقليتها وثقافتها أكثر ميلاً للأوروبيين من المسلمين الذين خالطوهم وعاشوهم.

¹ - فوزي سعد الله يهود الجزائر، ص146.

² - المرجع نفسه، ص146.

³ - المرجع نفسه، ص147.

كل الظروف كانت مهيئة لليهود للعيش بسلام على أرض الجزائر، لكن وبقدوم المستعمر الفرنسي الذي حاول بكل الطرق مغازلة اليهود لضمهم إلى صفوفه خاصة بعد إصدار (قانون كريميو عام 1870م)¹ الهادف إلى فرنسة يهود الجزائر، انقلبت كل الموازين وحدثت القطيعة بين اليهود والمسلمين، وحتى بين أبناء الطائفة اليهودية الذين تشتتوا مرة أخرى فور استقلال الجزائر لينتسروا بعدها باحثين عن وطن جديد وهوية جديدة، فمنهم من شدَّ الرحال إلى فرنسا مع المستعمر جازين ذيول الخيبة معهم، ومنهم من استطاعت الحركات الصهيونية إغوائهم وإيهامهم بإنشاء وطن لهم بفلسطين، وقليل منهم من فضّل البقاء على أرض الجزائر التي احتوتهم وسخرت لهم سُبل العيش بكرامة رغم كل الاضطرابات التي أحدثها وجودهم بالمجتمع الجزائري.

¹ - ينظر: كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسية، ص 192.

الفصل الأول:

مفهوم الصورية وتمظهراته في الرواية

العربية والجزائرية المعاصرة

الفصل الأول: مفهوم الصورائية وتمظهراته في الرواية العربية والجزائرية المعاصرة.

تمهيد

- 1- مفهوم الصورة:
 - أ- الصورة لغة.
 - ب- الصورة اصطلاحاً.
- 2- أنواع الصورة :
 - 1-2- الصورة الذهنية.
 - أ- الصورة النمطية.
 - ب- الصورة المرجعية.
- 3- مفهوم الأنا والآخر.
 - أ- مفهوم الأنا.
 - 1-1- مفهوم الأنا في الفكر الفلسفي.
 - ب- مفهوم الآخر وأنواعه
 - 4- العلاقة بين الأنا والآخر.
 - 5- منطق الحوار بين الأنا والآخر.
 - 6- ثنائية التأثير والتأثر.
 - أ- التأثير لغة.
 - ب- التأثير اصطلاحاً.
 - 7- صورة اليهودي في الأدب العالمي والعربي.
 - 8- انفتاح الرواية الجزائرية المعاصرة على الآخر.

تمهيد:

تعدّ الرواية من أهم الأجناس الأدبية الثرية التي ما طفقت تلتمس الكثير من مسائلنا الاجتماعية الخاصة بذواتنا وبمجتمعاتنا فارتبطت بحياتنا بوشائج واقعية فنية نسترد من خلالها همومنا الحياتية وانكساراتنا وانتصاراتنا وتطلعاتنا المستقبلية سعياً في البحث عن واقع أمثل، وهي المرأة التي تعكس بصدق صورة كل مجتمع، فهي تعبير عن خصوصية كل حضارة، لما لا وهي مزيج بين قيم حضارات تحمل بين طياتها مزيجاً عجيباً من تناقضات حضارية بين الأمم، من هنا تشكل دراسة الأدب أحد المدخل الممكنة لحوار الحضارات (باعتبارها ظاهرة إنسانية تقوم على الإبداع و (التخيل) وبين حقائق الواقع والتاريخ والمجتمع والفكر الإنساني)¹ فنجد الدراسات المقارنة تتجاوز الأدب الواحد لأدبين أو أكثر، فالأدب المقارن لا يكتفي بدراسة أدب داخل حدوده اللغوية والثقافية والقومية، بل يتجاوز ذلك الإطار لما هو أوسع وأشمل، وأول ما تسعى إليه هاته الدراسة هي تدارك مواطن التلاقي والاختلاف بين ثقافتين أو أكثر، مما يعرّف كل شعب بما لدى الشعوب الأخرى من تقاليد أدبية، فلكل شعب هويته وخصوصيته الأدبية. فالأدب المقارن يُعدّ علماً من العلوم الإنسانية مثله مثل باقي العلوم الأخرى، يحمل بداخله مفهوماً قومياً، يقوم على نصوص أدبية كُتبت بلغة خاصة لتحمل أحاسيس ووجهات نظر تعكس وجداناً خاصاً، إذ أنه يبدأ بنصوص معينة مكتوبة مثلاً بالعربية لبحث عن العلاقة بينها وبين نصوص كُتبت بلغة أخرى كالفرنسية مثلاً، جامعاً في جعبته بين الوجهين العالمي والقومي معاً بغية الكشف عن العلاقة بينهما من ناحية التأثير والتأثر²، وإذا ما تتبعنا نشأة الأدب المقارن فأنا نجد أنها تنبثق عن الجامعات الفرنسية وهذا حسب ما جاء به غنيمي هلال في كتابه (الأدب المقارن) الذي أرخ فيه لهذا العلم، ليتضح لنا انخيازه للوجه العالمي من هاته الدراسة

¹ - إدوار سعيد: الاستشراق-المفاهيم الغربية للشرق - تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، 2008، (طبعة 1990 المزيّدة)،

ص22، ينظر: Edward Said, Orientalism: Western conceptions of the orient: 1995.

² - ينظر: عبد الحميد إبراهيم: الأدب المقارن من منظور الأدب العربي-مقدمة وتطبيق -، دار الشروق، مصر، القاهرة، ط1، 1997-1418م، ص9-10.

حين يقول أنّ (مدلول الأدب المقارن تاريخي). ذلك أنه يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقدة، في حاضرها أو في ماضيها وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثير¹، فالدكتور غنيمي هلال يركز على الجانب التاريخي وعلاقاته في دراسة الأدب المقارن، وهذا على حساب الجانب الفني في التصوص، وهو ما تدعو إليه المدرسة الفرنسية في (أن تكون هناك صلات تاريخية بين العملين أو الظاهرتين أو الأدبين المراد مقارنتهما... إن المراد هو تمتين العلاقات الأدبية بين الأمم والشعوب المختلفة واكتشاف أوجه التشابه والاختلاف لديها في الذوق والإبداع وتتبع المسارات التي انتقلت عن طريقها التأثيرات الأدبية من أمة إلى أخرى في حالة وجودها وإمكان تتبعها)². اقتصر البحث عن جذور الأدب المقارن عند غنيمي هلال على التاريخ الغربي وأعلامه، ولم يتوجه إلى تأصيله داخل الأجناس الأدبية العربية، إذ جاء بحته هذا خادماً للآداب القومية الفرنسية أكثر منها في الآداب العربية، والتي أثرت في النتاج الأدبي العربي، ونظراً لتعدد فروع وكثرة ميادينه التي أثرت تاريخ الأدب إلا أنه (صار لزاماً على كل باحث تحديد ميدان بحثه في مسألة واحدة، أو في مؤلف، أو في كتاب أو في فكرة، لكي يتاح له أن يتعمق في بحثه ويحلّل النصوص الخاصة به، ويستقرئ الحقائق التي مهّدت للإنتاج الأدبي، ويضع ذلك الإنتاج موضعه في تاريخ أدب الأمة التي نشأ فيها وفي حياة مؤلفه)³، وهذا من أجل الوصول إلى نتائج علمية مؤكدة لا تشوبها شائبة ولا يكون هذا إلا بالخروج من بوتقة الأدب القومي إلى الآداب العالمية وتبادل المسائل والموضوعات اللغوية من أمة لأمة أخرى، ولا يتم الكشف عنها إلا بالاستعانة بأحد ميادين وفروع الأدب المقارن التي تعددت وتباينت، فقد فصّل فيها الدكتور محمد غنيمي هلال وأول هاته الميادين هو عوامل انتقال الأدب من لغة إلى لغة وله عاملان (الكتب والمؤلفون)، ثم يليه دراسة الأجناس الأدبية، ودراسة الموضوعات الأدبية، وكذا تأثير كاتب ما في أدب أمة أخرى، ودراسة مصادر الكاتب، ثم

¹ - محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، نخصة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 9، أكتوبر 2008م ص 13.

² - إبراهيم عوض: في الأدب المقارن - مباحث واجتهادات - المنار للطباعة والكمبيوتر، 1427 هـ - 2006م، ص 13.

³ - محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، ص 339.

دراسة التيارات الفكرية، وأخيراً دراسة بلد ما كما يصوره أدب أمة أخرى ويشمل عنصرين، دراسة بلد كما يصوره أدب آخر ودراسة بلد كما يصوره مؤلف ما من أمة أخرى¹.

وإذا كان تركيز محمد غنيمي هلال على نشأة وتطور الأدب المقارن في التاريخ الغربي ليؤسس له منذ البدايات الأولى لظهوره، فإن د. عبد الحميد إبراهيم، حاول أن يبحث عن جذور تاريخ الأدب المقارن عند العرب مركزاً على (رحلات العرب قبل الإسلام - رحلة الشتاء ورحلة الصيف - المناذرة- الغساسنة - اليهودية والنصرانية في الجزيرة العربية.... ظهور فكرة الأصالة - اقتراح دراسة الأدب المقارن من منظور الأدب العربي)²، ويروم من خلال هذا إلى إثراء حقل الدراسات المقارنة العربية بالموازاة مع تطورها عند الغرب، ومحاولة إبراز ذلك التأثير الذي مارسه الأدب العربي في آداب أمة أخرى، وتصحيح مسار الصورة العربية بكل موضوعية ودقة، وإعطائها حقها بين الآداب الأخرى.

الدّرس النقدي بالجزائر هو الآخر كان له حُضوة من الدراسات المقارنة. خاصة حقل الصورية الذي يُعد أحدث فرع من فروع الأدب المقارن فإننا نجدها قد (فتحت باباً متميزاً في المقارنة العربية بمنهجها ومدونتها ولعلها بهذا شكلت مدخلاً إلى عورية الثقافة المحلية ثم عولمتها)³، في حين أن الإرهاصات الأولية لظهوره بعد تعرب الاختصاص في الجامعات الجزائرية كان على يد أبو العيد دودو⁴، لتليه اهتمامات الدارسين الجزائريين بغية كتابة التاريخ الوطني من خارج اختصاص التاريخ، ثم التعريف بالقضايا الثقافية المغاربية المهملة عند المشاركة بشكل خاص، إضافة إلى التمكين للأدب المقارن باللسان العربي في الجزائر التي كانت وماتزال تعاني من هيمنة اللغة الفرنسية التي

¹ - ينظر: محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، ص 83 من - إلى 90.

² - عبد الحميد إبراهيم: الأدب المقارن من منظور الأدب العربي، ص 21.

³ - بومدين جلاي مجلة "التبيين" الحكمة الصادرة عن جمعية الجاحظية، الجزائر، اهتمامات الأدب المقارن في الجزائر، ع 29، 2008.

⁴ - ينظر: بومدين جلاي: مجلة "إشكاليات فكرية، الصورية النقدية المقارنة في الجزائر، (صورة الفرنسي في الرواية المغربية)، لعبد المجيد حنون أنموذجاً-، أستاذ الأدب المقارن، جامعة سعيدة، الجزائر، 2017/03/29.

تغلغت في الكثير من مناحي الحياة أثناء الفترة الاستعمارية¹ فقد عرفت الجزائر في قرون خلت - أي قبل الاستعمار وبعده - توافد للآخر الأجنبي، الذين (كانوا ينتمون إلى بعض شعوب أوروبا، وزارها كذلك بعض الرحالين والكتاب والعلماء والشعراء. وبعد أن رجع هؤلاء وأولئك إلى بلدانهم أصدروا كتباً على شكل رحالات، أو بصورة رسائل، أو مذكرات تحدثوا فيها عن تجاربهم الشخصية في الجزائر وعلاقتهم بأهلها، وعبروا عن تجاربهم الشخصية في الجزائر وعلاقتهم بأهلها، وعبروا عن موقفهما من قضاياها الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية والخلقية)² وهذا يدل على تأثرهم بالمجتمع الجزائري كل من وجهة نظره وخلفيته قام بتصويرها، لهذا يدعو أبو العيد دودو كل جزائري يُتقن إحدى اللغات الأجنبية إلى ترجمة هاته الأعمال حسب اختصاصه ومقارنتها مع غيرها من النصوص.

لمعرفة مدى تصويرها للحقائق التاريخية الواقعية دون أية مغالطات أو مزايدات تُخلُّ بنظرة الآخر لنا، وتُزور التاريخ عبر اختلافات واهية، حتى يتم التعريف بالثقافة العربية، لتدخل حيز المقارنة النقدية العربية التي زحرت بعدد من الدراسات الصورية، على يد دارسين جزائريين أثروا بها ببيولوجياً هذا الحقل الجديد من الدراسات³، والذي لازال بحاجة للنهوض به وإيلاء الدارسين العناية به بغية إثراء الساحة النقدية بأعمال تسعى لمعرفة "الآخر" والتعريف بـ "الأنا" عبر الأجناس الأدبية المختلفة لتعزيز حوار الحضارات وفتح أفق التواصل بين مختلف الأمم والشعوب.

ومن المواضيع التي يهتم بها الأدب المقارن ويدرسها هي مجال الصورية، فهي تعد قناة من قنوات التأثير على الصعيد العالمي، فما هو مفهومها؟ وفيما تتجلى أنواعها؟

¹ - ينظر: بومدين جيلالي، مجلة "إشكاليات فكرية، الصورية النقدية المقارنة في الجزائر، (صورة الفرنسي في الرواية المغربية)، لعبد المجيد حنون أنموذجاً، أستاذ الأدب المقارن، جامعة سعيدة، الجزائر، 2017/03/29.

² - أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط2، الجزائر، 1989، ص 06.

³ - ينظر: بومدين جيلالي، مجلة "إشكاليات فكرية"، مرجع سابق.

1- مفهوم الصورة:

الأدب هو المرآة الصادقة والمعبرة عن كل شعوب العالم ففيه تتلاقح الأفكار والأحاسيس لتعبر عن مختلف الذوات ويندرج هذا ضمن حقل الصورية* (Imagologie) الذي يعدُّ من أكثر الحقول التي استرعت اهتمام الأدب المقارن وسعت للكشف عن العلاقات بين الأمم والشعوب، فهي تعنى بكشف الغموض واللُّبس الحاصل لثقافة شعب وتاريخهم عند شعوب أخرى، وتجلياتها في الأعمال الأدبية، فالصورية تهتم (بدراسة الصور الثقافية التي رسمتها الشعوب عن بعضها، المنبثقة من تحت وطأة غياب أو المتسربة من مسكوت عنه، وتهتم برصد انطباعات المجتمعات، الرابضة في خيال الوعي الجمعي، التي تنم على أنساق معرفية عامة)¹، وهذا المجال يفتح نافذة توضح الثقافات الأدبية الأخرى لمتلقيها وتسعى لتصحيح تلك التشوهات التي طالت آداب أمم أخرى بغية نشر صورة خالية من المغالطات، وتحمل بين طياتها حقيقة المجتمعات مترجمة على هيئة كلمات، فهاته المادة الأدبية تشكل المنبع الصافي لتلقي الحقائق، فقد اهتم المثقفون والدارسون بهذا المجال الذي يعدُّ من أحدث ميادين الأدب المقارن وأحد أهم فروعها فهو (علم دراسة الصورة الأدبية أو دراسة التمثيلات الأدبية للآخر أو الصورولوجيا (Imagologie)، و إن دراسة التمثيلات الأدبية للآخر ومواجهتها بتمثيلات الذات تشكل منحنى جديداً ومثمراً في الدراسات النقدية، ويشكّل في الوقت نفسه مساهمة قيمة في حوار الثقافات)².

إن صورة أي شعب في أدب الشعوب الأخرى غالباً ما تكون مشوهة، إما إيجابياً أو سلبياً وهذا ما تدل عليه دراسات الصورة، إذ يعد تشويهاً لتلك الأمة، ومن جهة أخرى تعبر عن تناقضات

*مصطلح الصورية: ترجمة للمصطلح الفرنسي (Imageologie) الذي أطلقه غي ميشو في 1930، وقد ترجم أيضاً إلى "الصورولوجية" و "صورة الآخر"، و "علم الصورة".

¹ - نوافل يونس الحمداي: الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر، مجلة ديالي، العدد الخامس والخمسون، 2012م، ص55.

² - عبود عبود: الأدب وحوار الحضارات - مشكلات وآفاق -، مجلة المعرفة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1999 ص 33.

اجتماعية وسياسية وثقافية بين الشعوب، فصورة العرب والمسلمين في آداب العصور الوسطى الأوروبية أكبر دليل على الصور المشوهة سلبياً من الناحية الدينية والسياسية والعسكرية التي احتدمت بين أوروبا المسيحية والشرق الإسلامي من ذلك الزمان، أما مثال الصور المشوهة إيجابياً فهو صورة الشرق في الأدب الرومانسي الأوروبي، وصورة ألمانيا النازية في بعض الأعمال الأدبية العربية التي كانت تعبيراً عن رغبة عربية في ظهور حليف أوروبي قوي، يساعد العرب في التصدي للخطر الصهيوني الزاحف على فلسطين¹، بينما تقوم الدراسات الأدبية المقارنة الصورائية باستقصاء صور الشعوب في آدابها، وتحليل مضامينها الفكرية، وتبين مواضع التشويه منها، وأنماطه والخلفيات التاريخية، والمصالح الاجتماعية والثقافية الكامنة وراء تلك الصور المشوهة، في حين أن هاته الدراسات لا تكتفي بتحليل مضموني للصور، بل تُعني بجوانبها الفنية والجمالية، وهكذا يساهم الأدب المقارن في فهم صور الشعوب فهماً صحيحاً يخلو من أية مغالطات مما يساهم في تفتح الحضارات على بعضها البعض.

كما أنّ دراسة الصور الأدبية يحتاج الى خلفية تاريخية واجتماعية فالدراس لا بد أن يكون ملماً ومطلعاً بكافة الجوانب التي تخص الأدب الذي يُدرسه، إذ تبدأ الدراسة بجملة من الأفكار المتكونة عن أمة ما في أدبها وعن تاريخ شعبها الذي يُراد دراسة صورته في الأدب، ولا يمكن إغفال الدور الفعال (للمهاجرين والرحالة من الكتاب... فهم الذين ينقلون إلى أممهم ويصفون في أدبهم صور ما شاهدوا في البلاد الأخرى، وهم الذين يؤولون هذه المشاهد ويشرحونها بما يتفق وميولهم، وبما يتماشى مع غايتهم. وكما تمليه عليه أحوالهم النفسية والاجتماعية التي سافروا أو هاجروا فيها)²، فهم إذن ينقلون لنا المشاهد التي رأوها، وإن كانت في غالبها مبتورة وهذا إذا تعلق بجانب معين أو تدخلت الحالة النفسية لإبداء الرأي، فلا بد على الأديب أن ينقل تلك الصور على حقيقتها ودون تدخل أي عامل من العوامل التي من شأنها تشويه تلك الصور لأهم في أدب الأمم الأخرى.

¹ - ينظر: ليلي قاسمي وفاطمة كاظم زادة، صورة الذات والآخر في رواية " سووشون " مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد التاسع عشر، خريف، 2014 م، ص 126، 127.

² - محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن ، ص 331.

لا يكاد يخلو كتاب في الأدب المقارن وإلا ويحمل بين طياته تعريفاً لمصطلح الصورة، هذا المصطلح الذي لا يزال يعتريه الكثير من الغموض والخصوصية إذا إننا نلقي في كل كتاب تعريفاً خاصاً به فلكل كاتب مفهومه الخاص، إلا إننا سنحاول الانطلاق من جذوره اللغوية، فالمعنى الاصطلاحي وإن زاح على ماهو متعارف عليه فإنه يبقى متصلاً به بسبب ما، أما المعنى اللغوي فإنه لا يجيد عن ماهو متعارف عليه فهو كالجذر بالنسبة للشجرة مهما شمخت فإن أساسها جذورها التي تتغذى منها.

أ- الصورة لغة:

أ- مصطلح الصورة ورد في لسان العرب بمعنى "صَوَّرَ في أسماء الله الحسنى : المصور وهو الذي صور جميع الموجودات، ورتبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها، والجمع صَوْرٌ وصور وصور، وقد صوره فتصور، يقول تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ ﴾¹ وقد صوره صورة حسنة وصورة الأمر كذا وكذا؛ أي صفته² كما جاء مصطلح الصورة في تاج العروس بمعنى "الصورة بالضم، الشكل والهيئة والحقيقة والصفة"³.

ويقال : صَوَّرَ الشيء أي جعل له صورة وشكلاً⁴، أي وصف شخصاً أو شيئاً وصفاً دقيقاً.

ومنه اشتق اسم الفاعل " المصوّر " وهو القائم على عملية التصوير أي الجسد للواقع بمنظوره الخاص، و المصور صفة واسم من أسماء الله الحسنى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۗ ﴾⁵

¹ - سورة غافر - الآية 64.

² - ابن منظور : لسان العرب، مج 8، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط 3، 2004، ص 303-304.

³ - مرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس، مج 9، تح : علي بشيري، ص 225.

⁴ - حنا غالب: كنز اللغة العربية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 1، 1979، ص 574.

⁵ - سورة الحشر، الآية 24.

والتصوير هو التركيب، فالصورة تكون في الشكل تبعاً لقوله تعالى: ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾¹ ونشد الجوهري في وصفه الجوهري :

أَشْبَهْنَ مِنْ بَقْرِ الخُلْصَاءِ أَعْيُنَهَا... وَهُنَّ أَحْسَنُ مِنْ صِيَرَاتِهَا صُورًا².

ونجد في المورد الثلاثي عدة معانٍ للكلمة صَوَّرَ³:

- 1- صَوَّرَ: رَسَمَ، مَثَّلَ، خَطَّطَ، خَطَّةً
- 2- صَوَّرَ: وصفة
- 3- صَوَّرَ: شَكَّلَ، كَوَّنَ، خَلَقَ
- 4- صَوَّرَ: خَيَّلَ له، بدأ، تخيَّلَ، ظنَّ، اعتبر، حسب، خال، كون انطبعا (بأن).
- 5- صَوَّرَ: شَكَّلَ، هَيَّأَ، مَظَهَّرَ، تَكْوِينٌ، قِيَاةٌ.

هاته أهم المفاهيم اللغوية للفظ الصورة، فكلها تصبُّ في قالبٍ واحد وهو التشكيل والوصف وتحديد الهيئة بالرغم من تعدد المعاني.

ب- الصورة اصطلاحاً:

يَتَّسَمُ مصطلح (الصورة) غالباً بالغموض وعدم الدقة ويعود السبب لتداوله في عدة علوم ومذاهب، والمناهج النقدية هي التي تعنى بمدارسته. فالصورة هي ترجمة ما يحصل في الأذهان على يد فنان، يستطيع تحويل تلك الصور الذهنية إلى صور حية تخطُّها الأقلام على متون روائية تنقل واقع أُمَّةٍ حتى يرسخ للمتلقين، في دعوة منه الى وضع بلد أو شعب ما موضعه الصحيح من أفكاره وآدابه.

¹ - سورة الانفطار، الآية 08.

² - ابن منظور: لسان العرب : ص 304.

³ - ينظر: روجي البعلبكي: المورد الثلاثي، قاموس ثلاثي اللغات، دار العلم للملايين، ط 1، 2005، ص 1070.

ومن جهة أخرى تعني : (القالب الذهني الذي من خلاله يستطيع الأديب المبدع أن يصبّ أفكاره وتمثلاته من خلال حضور تلك الصور في نصه لتكون الإطار المساوي لتلك التمثلات والتمظهرات الذهنية في متخيّله)¹.

ومن أبرز مجالات البحث المفضلة لدى الأدب المقارن خاصة عند المدرسة الفرنسية هو دراسة صورة الأجنبي وتجلياتها فهذا النوع (من الدراسات يتقاطع مع البحوث حول ثقافات أخرى، والغيرية والهوية، والمثاقفة، والتنافر الثقافي والرأي العام، أو الخيال الاجتماعي)².

وقد عكف العديد من الباحثين الغربيين لإعطاء مفاهيم متباينة، ومنهم سارتر حيث عرّفها على أنها (ذلك التنظيم التركيبي الكلي للوعي، وبذلك يمكن أن ندمج الوعي بالتفكير بطريقة أو بأخرى)³، ذلك أن إدراك الأشياء لدى الفرد وتخيّله لها هو الذي يرسم تلك الصورة في مخيلته فيتكون بذلك الانطباع أو المفهوم لموضوع معين، (فمصطلح الصورة لا يعني بالنسبة لمعظم الناس سوى شيء عابرٍ أو غير حقيقي أو حتى مجرد وهم، فإن قاموس ويبستر، قد عرض تعريفاً لكلمة *(Image)* بأنها تشير إلى التقديم العقلي لأي شيء لا يمكن تقديمه للحواس بشكل مباشر، أو هي إحياء أو محاكاة لتجربة حسية ارتبطت بعواطف معينة، وهي أيضاً استرجاع لما اختزنه أو تخيّل لما أدركته حواس الرؤية أو السمع أو الشم أو التذوق)⁴.

لقد كانت بدايات الصورائية مع جون ماري كاريه (*J.M.carré*)، ثم أخذها عنها ماريوس فرانسواغويار (*M.F.Guyard*) ودافع عنها، ونشرها في الفصل الأخير من كتابه الصغير ضمن سلسلة

¹ - هيا ناصر: صورة الرجل في المتخيل النسوي في الرواية الخليجية، نماذج منتقاة، (مذكرة ماجستير)، إشراف : حبيب بوهورو، قسم اللغة العربية، جامعة قطر، 2013/2014، ص 08.

² - عز الدين المناصرة: النقد الثقافي المقارن - منظور جدلي تفكيكي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمان، الأردن، ط 1، 2005، ص 194.

³ - سامية سعدي : صورة المرأة ودلالاتها في الأمثال الشعبية - مدينة تبسة وضواحيها - نموذجاً، (مذكرة ماجستير)، إشراف : مختار قطشر، قسم اللغة العربية، جامعة تبسة، الجزائر، 2007، ص 30.

⁴ - رضوان بلخيري: سيميولوجيا الصورة بين النظرية والتطبيق، دار قرطبة للنشر والتوزيع، ط 1، 2012، ص 75.

(كوسيج - ماذا أعرف؟) عام 1951 م الأجنبي مثلما نراه¹.

وقد كانت هناك مساعي حثيثة لتعريف شعب بشعب آخر، إذا نلفى هذا في كتاب (عن ألمانيا" *del'Allemagne*) الأديبة الفرنسية مادام دي ستايل (*Mme de stael*)، إذ عرّفت الشعب الفرنسي بالشعب الألماني، بما يتمتع به من مناقب جمّة كالطيبة والاستقامة والصدق)². كما لا ننسى جهود العرب في هذا المقام فقد أولى النقاد العرب مكانة كبيرة واهتماما خاصاً لمصطلح الصورة، وقدموا تفسيرات عديدة للصورة وأشاروا بوضوح إليها، فقد تجلّى مفهومها للعالم العربي ابن سينا على لسان رضوان بلخيري والذي ذكر أن (الأشياء لها وجودان، وجود خارج الذهن سماه الأعيان، ووجود في الذهن سماه التّصور)³، فهو يطلق على تلك المفاهيم المترسخة في الذهن الباطن بالتصورات.

بيد أن العلماء العرب استخدموا مصطلح (الصورة الذهنية)، فبالرغم من عدم ورود هذا المصطلح في قواميس اللغة العربية فقد سبق واستخدامه البعض في كتاباتهم حيث يقول رضوان بلخيري نقلا عن ابن خلدون: (أن الأسلوب يرجع إلى صور ذهنية للتراكيب المنتظمة كليةً، باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصرها في الخيال كالقالب)⁴.

¹ - ينظر: دانيال هنري باجو : الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1997، ص 89.

² - عالية زروقي : صورة الأخر في الرواية الجزائرية من سنة 1950 الى سنة 2010 م، (أطروحة دكتوراه)، إشراف : توزان عبد القادر، قسم الأدب العربي، جامعة الشلف - الجزائر، 2017م، ص 23.

³ - رضوان بلخيري: سيميولوجيا الصورة بين النظرية والتطبيق، ص 79.

⁴ - المرجع نفسه: ص 79.

فالصُّور التي يقدمها أدباء بلد عن بلد آخر تتسم بالتوافق إذ أنهم ينطلقون من مواقف ذهنية وخلفيات فكرية مشتركة وإن كانت تهدف دراستها إلى (إجلاء الأوهام المتبادلة بين الامم)¹، وذلك بمعرفة كل منهما الآخر معرفة دقيقة.

إذن فالصورائية أو الصورولوجيا هي: (علم دراسة الصورة الأدبية)²، أو دراسة التمثيلات الأدبية للآخر، إن هاته الدراسة في مواجهتها بتمثيلات الذات تشكل منحى جديدا ومثمراً في الدِّراسات النقدية، ويُشكل في الوقت نفسه مساهمة قيمة في حوار الثقافات.

هذا المجال في الدراسة الأدبية (يُعنى بتصوير تمظهر الآخر في أدب الأنا، أو تمظهر الأنا في أدب الآخر، مثلما تمثلته الذهنيات القومية في صلاتها مع غيرها، ومحاولتها أن تكون لنفسها صورة عن الآخر تعكس نظرة، أو رؤية وبالتالي موقفاً منه)³، كما يوجد نوع آخر من الدِّراسات، هو تلك التي يهتم فيها البحث بتقديم صورة بلد أجنبي معين تتمثلها أديب ما في كتاباته.

إن الباحثين المهتمين بالصورة الأدبية يولون اهتماماً كبيراً (بالجوانب الفنية والجمالية فيها، بعيداً عن البحث عن الحقائق التاريخية، سعياً للوصول إلى صور ناجحة تعكس صدق وإحساس وقوة انفعال وجودة تعبير وتصوير تصل إلى درجات عالية من التأثير)⁴، إذ يسعى الدِّراس إلى كشف صورة الصدق من خلال صدق الأديب في تعبيره وتأثيره، كما أنه ليس لزاماً عليه أن يُصوّر الوقائع كما هي حقيقة (فليس هدفه الوصول إلى الحقيقة، وإنما هدفه الكشف عن جمال الصُّور أو قبجها أي قيمتها الأدبية، لذلك فهو لا يهتم إلا بالإنتاج الأدبي الجيد، وإذا استعان بوثائق تاريخية أو اجتماعية أو أية وثائق أخرى، فيجب عليه أن يحذر الانزلاق وراء البحث عن الأسباب حتى لا يخلط بين الأدب

¹ - سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن، دراسة منهجية، المراكز الثقافية العربي، ط1، 1987، ص91.

² - ماجدة حمود: مقارنات تطبيقية في الأدب المقارن، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2000، ص108.

³ - صغور أحلام: واقع الدراسات المقارنة في المغرب العربي، (أطروحة دكتوراه)، اشرف، شريقي عبد الواحد، جامعة وهران، 2009/2008م، ص117.

⁴ - عمر بن قينة: الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، شركة دار الأمة، الجزائر، ط1، ماي 1995، ص109.

والعلوم الأخرى، إلا إذا كان يقصد ذلك لسبب أو لآخر)¹، فمهمة الدّارس إذن منوطة بجمال وقبح الصّورة المرتسمة في الأعمال الأدبية، والتي يجب عدم خلط الجانب الجمالي بالجوانب الأخرى، إلا أنه تستدعي حضوراً لبعض الجوانب النفسية أو التاريخية في بعض الأحيان وهذا لاستيفاء بعض التوضيحات لا على حساب البعد الجمالي المتربع على عرش الأدب، فالأدب جسر يربط الشُّعوب بعضها ببعض ويفتح أمام كل منها صورة صادقة عن الآخر وهذا ما يعمل على تمتين العلاقات فيما بينها إذ لا يخفى أن للصُّور الأدبية للشعوب- كما تنعكس في مرآة آدابها- (تأثيراً على عقول قادة الأمة من السّاسة والمفكرين في تكوين رأي عام قد ينتج عنه اتجاه خاص في علاقاتها مع غيرها وكل هذا من نواحي النشاط الأدبي في الميادين الدولية ويهتم الأدب المقارن بالكشف عن هذه النواحي من الوجهة التاريخية، وبيان مظاهرها المختلفة على مرّ الأجيال، وبهذا يمهدّ الأدب المقارن لكل أمة أن تعرف مكانتها لدى غيرها من الأمم، وأن ترى صورتها في مرآة غيرها من آداب الشعوب ويتاح بذلك لها أن تعرف نفسها حق المعرفة، وأن تحاول تصحيح وضعها أو الدفاع عن نفسها، وبذلك تنهياً الفرصة للتفاهم الحق والتعاون الصادق بين الشعوب)²، فالصورائية إذن تبرّر المغلوط عن أمة ارتسمت صورتها لدى الآخر، وتزيل كل ما من شأنه تخريب العلاقات وتشويهها، فعلم دراسة الصّورة الأدبية يساعد على تكوين انطباع خلال الممارسة النقدية التي تسمح برؤية صادقة وملائمة لثقافة الآخر.

كما أن هذا النوع من الدراسات أي -دراسة علم الصُّور- (يتقاطع مع البحوث التي يقوم بها علماء السلالات البشرية، وعلماء الإنسانيات، وعلماء الاجتماع، ومؤرخو العقلية والحساسيات، الذين يطرحون مسائل حول ثقافات أخرى، والغيرية والهوية والمثاقفة، والتنافر الثقافي، والاستلاب الثقافي، والرأي العام أو الخيال الاجتماعي)³، فهذا إن دلّ على شيء فإنه يدلُّ على غنى هاته الدّراسة التي استطاعت أن تشمل العديد من المحاور التي تثري فحواها وتغذي مبنائها.

¹ عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغربية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ط2، 2013، ص63.

² محمد غيمي هلال: الأدب المقارن، ص338.

³ دانيال هنري باجو: الأدب العام والمقارن، ص90.

فكل (صورة تنبثق عن إحساس، مهما كان ضئيلاً (بالأنا) بالمقارنة مع الآخر، و(بمنا) بالمقارنة مع مكان آخر. الصورة هي إذن تعبير، أدبي أو غير أدبي، عن انزياح ذي مغزى بين منظومتين من الواقع الثقافي)¹، فهاته الصورة الأدبية تتشكل من جملة الأفكار التي تتراكم في ذهن أدباء مجتمع ما عن الآخر الأجنبي، أي أنها (إعادة تقديم واقع ثقافي، يُكشف من خلاله، الفرد والجماعة الذين شكّلوه -أو الذين يتقاسمون أو ينشرونه-، ويترجمون للفضاء الاجتماعي، والثقافي والأيدولوجي، والخيالي الذي يريدون أن يتموضعوا ضمنه)²، إلا إنه وفي أغلب الأحوال تكون الصورة مستهلكة وجاهزة، وهذا ما يجعلها متعالية على الواقع، وذلك لعدم معايشة الأنا للآخر في معظم الأحيان.

كما تُبنى الصورة على (ثنائية الحاضر والغائب التي تتولد عنها ثنائية أخرى، هي الواقعي والذهني، أو الخيالي)³، باعتبارها تقديمًا لعناصر (ماثلة في ذهن الكاتب والجماعة والتي تحلُّ محلَّ عنصر أصلي غائب (الأجنبي))، وتقدم بدلاً عنه، خليطًا من المشاعر والأفكار)⁴، إن هاته الممارسة (تعدُّ ممارسة إناسية (متعلقة بالإنسان) للتعبير عن الهوية والغيرية في الوقت نفسه)⁵.

بالإضافة إلى أن البحث في مجال الصورة يهتم بكيفية تحويل (العلاقات بين الأنا والآخر إلى إحساس تعبيرية)⁶، وهذا بالانتقال من العالم الذهني للأنا لينفذ إلى النصوص الأدبية ويلفظ الآخر

¹ _ دانيال هنري باجو: الأدب العام والمقارن، ص91.

² _ المرجع نفسه: ص91.

³ _ بوشعيب الساورى: صورة الآخر في رحلات عربية (من القرن العاشر الميلادي إلى القرن الواحد والعشرون)، النايا للدراسات والنشر، سوريا، دمشق، ط1، 2014، ص07.

⁴ _ دانيال هنري باجو: الأدب العام والمقارن، ص92.

⁵ _ المرجع نفسه: ص93.

⁶ _ المصدر نفسه: ص101.

عبر منظوره، فالعلاقة بين الأنا والغير تصاغ في ثنائيات متقابلة: متوحش/ متمدن، مؤمن/ كافر، بربري/ مثقف، إنسان/ حيوان، متقدم/ مُنحط... الخ¹، إذ لا توجد ذاتية بلا غيرية².

فالصورة إذن تعدُّ (ترجمة للآخر وهي أيضا ترجمة ذاتية)³، فالذات تعمل على إفراغ طاقتها التصورية تجاه الآخر، إذ تحمل صفاته وأحاسيسه الماثلة في ذهنه وترجمتها إلى أقوال، تنصهر لتصبُّ في قالب العمل الإبداعي، الذي يحمل بين طياته أنواعا متباينة من الصور.

2- أنواع الصورة:

إن الصورة سواءً كانت فردية أو جماعية تمتزج (فيها عناصر فكرية وعاطفية في الوقت نفسه، موضوعية وذاتية، فلا يمكن لأي أجنبي أن يرى بلداً كما يحلو لسكانه الأصليين أن يُرى، ومردُّ ذلك أن العناصر العاطفية تطغى على العناصر الموضوعية)⁴، فالمرآة العاكسة لكل أديب تتجلى فيما يحمله يحمله نتاجه من إبداع تَرجم فيه صوراً لذاته وللآخر، ما سمح بتشكيل عدة أنواع من الصور نذكر منها:

2-1- الصورة الذهنية:

وهي (نتاج نهائي للانطباعات الذاتية التي تتكون عند الأفراد أو الجماعات إزاء شخص، أو شعب أو قضية وتتكون هذه الانطباعات بفعل تجارب مباشرة وغير مباشرة، مرتبطة بعواطف الأفراد أو عقائدهم واتجاهاتهم)⁵، وهذا ما يفسر أن الصورة تستقر أول الأمر في الأذهان محملة بعواطف

¹ _ينظر: بوشعيب الساوري: صورة الآخر في رحلات عربي، ص 09.

² _ evelynedépêtre: le récit de voyage, ed université du Québec montréal, avril-2011.p35.

³ _دانييل هنري باجو: الأدب العام والمقارن، ص 28.

⁴ - بيير برونيل، كلود بيشوا، أ.م. روسو، ما الأدب المقارن؟ تر: عبد المجيد حنون، نسيم م. عيلان، عمار رجال، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط1، 1431هـ، 2012م، ص 106.

⁵ _علي عجوة: العلاقات العامة والصورة الذهنية، عالم الكتب، ط1، 1983، ص 10.

وتوجهات لترجم في نص أدبي ما. وهذا ما يشكل الصُّورة الأدبية وهي نوعان: صورة نمطية وصورة مرجعية.

أ- الصورة النمطية:

تم وفق أحكام وتوقعات مسبقة، وتنطلق دون سند واقعي أو حقيقي ملموس، وهي تنتج عن (عملية نفسية ذات أصول ثقافية بالأساس تقوم على إدراك الأفراد الانتقائي المباشر بخصائص وسمات موضوع ما، فرداً أو جماعةً أو مجتمعاً أو مؤسسة أو حدثاً، وتكون اتجاهات عاطفية نحوه (إيجابية أو سلبية) وتوجهات سلوكية (ظاهرة أو باطنة) في إطار مجتمع معين)¹، وهذا راجع إلى استحضار المخزون المعرفي الضئيل لدى الأنا تجاه الآخر، مما يعزّز سوء الفهم بينهما وتشويه للعلاقات.

ب- الصورة المرجعية:

ترتكز على مرجعية وخلفية فكرية وثقافية بحيث تكون معادلاً موضوعياً لصورة الذات ويُقصد بها (الصُّورة الفكرية الوجدانية الأخلاقية، التي يتأثر ويتوحد معها أفراد ينتمون إلى جماعة معينة... وهي بذلك تصير ذات قوة كبيرة لا تضاهي في تصور وفهم العالم أو الآخر بصورة مباشرة وآنية)²، وبهذا تكون هاته الصُّورة عكس الصُّورة النمطية التي تبني على أفكار مغلوبة وأحكام مسبقة وتجدر بنا الإشارة إلى أن دراستنا هاته تُعني بمدارسة صورة شعبٍ في أدب شعبٍ آخر هذا النوع الذي تتمتع فيه الثقافات وتفتح على بعضها البعض، بغية توضيح مكانم الجمال والقبح

¹ - همت بسبوي عبد العزيز: الشخصية المصرية وصورة الآخر، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص71.

² - المرجع نفسه، ص72.

والبحث عن القيمة الأدبية، وهذا ما يساعدنا على فهم الآخر من خلال توضيح صورته بحيث (يمكن أن نطلق عليه نعت الوعي الثقافي)¹.

فالذات هي التي تحدّد صورة الآخر من خلال تصورها، والدراسات الأدبية المقارنة (الصورية) لا تكفي بالتحليل المضموني للصور بل تدرس الجوانب الفنية والجمالية لهاته الصور، وهذا من شأنه فهم صور الشعوب لدى شعوب أخرى وتصحيح السلبات (فالمقارنة المقارنة للصورة ينبغي ألا تتم بمعزل عن مقارنة نقدية تحدّد مواطن الصواب والخطأ فيها، مع التعليل الذي يشرح ذلك مدعماً إياه بالحجة والدليل وينتهي الباحث في الأخير إلى وضع الآخر الموضوع الصحيح الذي يستحقه ضمن المنظومة الفكرية والأدبية للأنا)²، وهذا من شأنه فتح أفق جديد لحوار الحضارات.

انطلاقاً من هاته العلاقة بين الصورة وأصلها تأتي أهمية الحديث عن الأنا والآخر وارتباطهما بمصطلح الصورة (حيث تعمل ذات الآخر مرآة، نرى فيها ذاتنا التي تعمل بدورها كمرآة تساعد الآخر على رؤية ذاته)³، ولكشف هاته العلاقة القائمة بين الأنا والآخر، لا بد أولاً من إعطاء مفهوم لكليهما حتى تتوضح الرؤية أكثر.

3- مفهوم الأنا والآخر:

يقول الله تعالى في كتابه الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾⁴

¹ - محمد الخباز: صورة الآخر في شعر المتنبّي (نقد ثقافي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2009م، ص26.

² - حمزة وشان: صورة الجزائر في أدب البركامو وجون بول سارتر، (مذكرة ماجستير)، إشراف، توزان عبد القادر، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الشلف، الجزائر، 2015/2014، ص50.

³ - ميخائيل ابراهيم أسعد: شخصيتي كيف أعرفها؟ دار الأفاق الجديدة، لبنان، ط3، 1987، ص72.

⁴ - سورة الحجرات: الآية 13.

إن العلاقات الإنسانية تقتضي بالضرورة وجود طرفين هما الأنا والآخر، هاته الثنائية التي خلقها الله سواءً كانت أفراداً أو شعوباً أو جماعات فإن تفاعلاتها الممزوجة بين ثقافتها المختلفة وحضارتها وآدابها من شأنها أن تشكّل لنا ثقافة راقية مشبعة بالثقة بين الطرفين خالية من التشوهات والمغالطات، فلا يمكن في أي حال من الأحوال الاستغناء عن شقي المعادلة، فلا وجود للأنا بدون الآخر والعكس صحيح، فهاته الثنائية (الأنا والآخر)، تعدّ من أهم الثنائيات المعوّلة عليها في الدرس المقارن، وتبعاً لهذا لا بد من الوقوف عند كلا المفهومين وتبيان العلاقة القائمة بينهما.

أ- مفهوم الأنا :

تعدّ " الأنا " في المعجم الفلسفي (من الضمائر المنفصلة وهو ضمير المتكلم والألف الأخيرة فيها إنما هي لبيان الحركة في الوقف، فإن مضيت عليها سقطت، كقولك :أنا فعلت)¹، وهذا الضمير يدل على الفردية والاستقلالية إذا (أنا لا تثنية له من لفظه إلا ب: نحن، ويصلح نحن في التثنية والجمع، واعلم أنه يوصل بها تاء الخطاب فيصيران كالشيء الواحد، من غير أن تكون مضافة إليه، تقول : أنت... وتكسر المؤنث، وأنتم وأنتن وقد تدخل عليه كاف التشبيه فنقول أنت كأنا وأنا كأنت، حُكي ذلك عن العرب)².

من هنا يكون الضمير (أنا) مولداً للضمائر الأخرى، بيد أن الباحثين في مجال العلوم الإنسانية اتفقوا على صعوبة تحديد معنى للأنا، لأن مفهومه متشعب يستعصي وضع تعريف اصطلاحى موحد لأنه يشترك مع عدد الفروع الإنسانية كعلم النفس والفلسفة وعلم الاجتماع - ولكونه (متعدّد الدلالات بتعدّد استخدام المنظرين وتبيان مشاربهم، فيرمز له مرة بالأنا وأخرى

¹ - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان - د ط، س 1982، ص 139.

² - جمال الدين محمود بن مكرم الأنصاري ابن منظور : لسان العرب، المجلد الأول مادة (أ، ن، ن)، ص 160.

بالذات)¹، فالأنا هي (تعبير عن النفس الواعية لذاتها)² أي قيام المرء بتصوير ذاته والتعبير عن مكوناته من مشاعر وأحاسيس داخلية.

أ-1- مفهوم الأنا في الفكر الفلسفي :

في مجال الفلسفة يعتبر الأنا بالمعنى التقريبي له " النفس " حيث نجد أنه عند الكثير من الفلاسفة وعلى رأسهم الفيلسوف " روني ديكرت " الذي ربط بين الأنا فكراً ووجوداً بقوله " أنا أفكر إذن أنا موجود " ³ قرن فكرة الوجود بفاعلية التفكير، والذي يرى بأنهما مرتبطان ارتباطاً عميقاً، فمادام الإنسان موجوداً هذا يعني أنه يفكر في صحة الأشياء من حوله، وهذا الإعمال للفكر ينسب على أساس الشك ليصل الى اليقين فيكون بذلك "أنا" صفته التفكير⁴، كما أن هذا المصطلح حمل عدة معان في الفلسفة الحديثة تتمثل في الآتي⁵ :

1- **المعنى النفسي الأخلاقي** : كلمة " أنا " تشير في الفلسفة التحريبية إلى الشعور الفردي الواقعي، فهو إذن يطلق على وجود تُنسب إليه جميع الأحوال الشعورية.

2- **المعنى الوجودي** : تدل كلمة " أنا " على جوهر حقيقي ثابت يحمل الأعراض التي يتألف منها الشعور الواقعي، سواء كانت هذه الأعراض موجودة معاً أو متعاقبة فهو إذن مفارق للأحاسيس

¹ - سولاف بوحلايس : صورة الأنا والآخر في شعر فيكتور هيغو، الموقع:

www.manifest-univ-ourgla/dz تاريخ الزيارة : 2019/01/10.

² - مراد وهبة : المعجم الفلسفي (معجم المصطلحات الفلسفية)، دار قباء الحديثة، القاهرة، د ط، 2007، ص 95.

³ - أحمد ياسين سليمان : التحليلات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر المعاصر، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، دمشق، سوريا، 2009، ص 192.

⁴ - ينظر : المرجع نفسه ، ص 191.

⁵ - ينظر : جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ص 141-140.

والعواطف والأفكار لا يتبدل بتبديلها، ولا يتغير بتغييرها " فالأنا" إذن هو جوهر قائم بنفسه وهو صورة لا موضوع.

3- **المعنى المنطقي** : تدل كلمة أنا على المدرك من حيث أن وحدته وهويته شرطان ضروريان يتضمنهما تركيب المختلف في الحدس، وارتباط التصورات في الذهن و"الأنا" المتعالي هو الحقيقة الثابتة التي تعدُّ أساساً للأحوال والمتغيرات النفسية.

" فالأنا " هو كل ما ينسب إليه من أقوال وأحاسيس وأفكار، فهو ذلك الجوهر الثابت القائم بذاته.

أما " هيغل " قال بأن (الوعي بالذات بما هو هوية مخصوصة لا يبني إلا ضمن تفاعل متين مع غيره، إنه لا يدرك نفسه إلا عبر الاعتراف به من لدن وعي آخر بالذات، ولكن للتخلص من هذه التبعية يقوم الوعي بالذات نفسه على أنه أوحده، ويقصّي الآخر، إن كل واحد يروم إلغاء الآخر حتى يحصل على اليقين بالذات)¹، وهذا ما يؤكد علاقة الأنا بالآخر، وقدرة التأثير المتبادلة بينهما لإدراك الذات.

ولعل أهم ما يميز الذات عن غيرها هو الوعي، فالجانب الشعوري من الشخصية، هو أهم ما ركّز عليه العلماء في تحليلهم لمفهوم " الأنا " في مجال علم النفس، لكن لُوْحظ أن هناك عجزاً في تفسير الكثير من السلوكيات، فقد ظهرت مدرسة التحليل النفسي مع " سيجموند فرويد " (1856-1939) الذي يرى (أن السلوك له دافع داخلي من قوى لا شعورية تكونت عبر تاريخ الشخص وخاصة من خلال علاقته بوالديه)²، فالجهاز النفسي هو المسؤول عن السلوكيات الناتجة، هذا الجهاز مكون من ثلاثة أقسام هي:

¹ - روبان شارفان: الآخر في فرنسا المعاصرة : العربي كبش الفداء، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، سبتمبر 2008، ص 593.

² - مأمون صالح : الشخصية (بناءها - أنماطها - اضطراباتها)، دار أمامة، ط 1، عمان- الأردن، 2008، ص 21.

الهو (الليبدو)، الأنا (الضمير)، والأنا الأعلى (المجتمع)، (فالهوّ (TD) هو مركز الدوافع والرغبات، الأنا (EGO) يتفاوض مع الهوّ ويرضي الأنا الأعلى، أما الأنا الأعلى (SUPEREGO) فهو الذي ييقينا على الصراط المستقيم الأخلاقي¹.

ما يؤكد أن الأنا (عند فرويد هي نتاج صراع داخلي وخارجي للنفس، أي هو نتيجة تفاعل قوى الشخصية الثلاث ودوافعها الغريزية، وبين الظروف التي تستثيرها في العالم الخارجي فقد ظهرت "الأنا" تلبية لحاجة النفس البشرية للتوازن النفسي والاجتماعي والذي يستدعيه مبدأ الواقع والعقل)².

فالأنا تمثل ضابطا لغرائز الفرد ورغباته التي تنطلق من (الهو) لتمر عبر (الأنا) لتكبحها، فالأنا (تمثل الحكم وسلامة العقل)³، فهي محور توازن بين الهو والأنا العليا.

وفي جانب آخر نجد أن هناك من فرق بين الأنا والذات أمثال: (بول ريكور) و(كارل غوستاف يونغ)، فالأول يرى أن الذات ليست هي الأنا نفسها: (الكلام عن الذات ليست كلام على الأنا)⁴.

كما نوه في موضع آخر أن الذات شاملة للأنا وصفة من صفاتها (فإذا كان الوصل (Liaison) بين المعنيين يجعل التداخل بينهما أمراً لا معنى له، فإنّ الفصل (Déliasion) بينهما في المقابل يضعنا أمام حقيقة مفادها أنّ الذات ذاتها قد فقدت شطراً من صفاتها، وأنها تخلّت عن هويتها الهويّاتية، ممّا يجعل من توظيف للرمز والسرد حلاًّ ممكناً لاسترداد ما ضاع منها)⁵، فبين فصل

¹-ينظر: سوسن زاني: الأنا في رواية التلميذ والدرس لمالك حداد، (مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الأدب واللغة العربية)،

تخصص: أدب حديث ومعاصر، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2016/2015، ص 24.

²-سهاد توفيق الرياحي: ظاهرة الأنا في شعر المتنبي وأبي العلاء (دراسة موازنة نقدية)، دار الزمان، ط 1، عمان، 2012، ص 16-15.

³-ينظر: سيجموند فرويد: الأنا والهوّ، تر: محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط 4، عمان، 1982، ص 16-17.

⁴-بول ريكور: الذات عينها الآخر، تر: جورج زيناتي، مركز المنظمة العربية، ط 1، بيروت، 2005، ص 361.

⁵- بول ريكور: بعد طول تأمل، السيرة الذاتية، تر: فؤاد مليكة، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر، 2006، ص 10.

ووصل يتضح أن "الأنا" تمثل للذات هويتها، وذلك حين تقوم هاته الأخيرة بالاحتكاك بالمحيط الخارجي في حين تعمل "الأنا" على التعبير عن هاته الذات.

أمّا (يونغ) فيراها (مركبين مستقلين بل يزيد الهوة لتصبح المسافة بينهما والتي تفصلها هي ذاتها بين الشمس والأرض)¹ فهو بهذا يستبعد فكرة الخلط بينهما ويعطي للذات مساحة أوسع لاحتضانها أكثر من الذات (إذ تحتضن (الذات) النفس الواعية والنفس الجماعية وتشكل بذلك شخصية أوسع وتلك الشخصية هي نحن)².

فالذات إذن بالإضافة إلى اشتغالها الأنا الفردية فإنها تشمل الأنا الجماعية، وهذا ما يعطي للآخر فاعلية تشكّل هذه الذات.

وعلى اختلاف دلالات (الأنا) يمكن القول إن الفلاسفة والمفكرين كل يعرفها حسب نظريته وخلفيته الفكرية، فيرمز لها بالذات من جهة وبالأنا من جهة كأنه بهذا يفسّر استعصاء وضع مفهوم محدّد لها ولكل ما يتصل بها أي الآخر.

ولأن الذات تعبر عن الآخر من خلالها، فإن (الاهتمام بالذات وبالآخر هو اهتمام يسكن كل تصوّر أو جسد أو لغة، فالآخر كيفما تقدّم إليها، يترجم ذاته من خلال اللّغة والجسد)³.

ب- مفهوم الآخر وأنواعه :

إن العلاقة القائمة بين الأنا والآخر تشبه علاقة الرّوح بالجسد فلا يمكن لأحد الاستغناء عن الآخر، فبين (الأنا والآخر علاقة جدلية لا ينبغي إلغاؤها أو تجاهلها والسكوت عنها، فعلاقة كل

¹-كارل غوستاف يونغ : جدلية الأنا واللاوعي، تر: نبيل محسن، دار الحوار، ط1، اللاذقية - سوريا، 1997، ص 58.

²- المرجع نفسه : ص 94.

³-محمد نور الدين أفاية : الغرب في المتخيل العربي، منشورات دائرة الثقافة والاعلام، ط1، الشارقة، 1996، ص 11.

واحد منها بالآخر هي ثنائية قائمة في طبيعة الحياة، يُعدُّ كل شطرٍ منها شرطاً لوجود الشطر الآخر وفهمه ووعيه والاعتراف به¹، فارتباطهما يشكّل تكامل الوجود وتوازنه.

لفظة (الآخر) قديمة قدم وعي الإنسان باختلافه عن غيره ولقدمها العدّيد من التغيرات، حيث انتقلت من كونها لفظة إلى مصطلح في العلوم الإنسانية تعدّدت دلالاته ومعانيه، فقد أصبح مفهومه متداخلاً مع مفهوم الذات التي لا تحقق وجودها إلا بوجود الآخر، فإذا تعمقنا في توضيح مفهوم الآخر، وجدنا أنه من الصّعب تحديده دون التعرض إلى مفهوم مصطلح (الأنا)، لأنهما متداخلان ومتلازمان لا يمكن وجود أحدهما دون الآخر²، فطبيعة الحياة والوجود تفرض ذلك التلاحم والتناغم النَّاجم عن علاقة الأنا بالآخر وذلك بالتواصل سواءً بالسلب أو بالإيجاب.

وقد سجّل الآخر حضوراً قوياً وملفتاً لا يمكن تجاهله في مجمل الأجناس الأدبية (الرواية، الشعر، المسرح...) وقد جاء على عدة أشكال متنوعة ومختلفة، فأحياناً نلمح انجذاباً نحوه وأحياناً أخرى نلمح نفوراً منه حسب الحالة التي يرد فيها، إن الآخر هو كل ما يختلف عن الذات التي تحدّده، إذ أن الآخر بالنسبة لشخص ما ليس بالضرورة آخر بالنسبة للشخص الثاني³.

إن التطرّق لمفهوم (الآخر) في الأدب العربي الحديث والمعاصر يشكل تيمة ذات مكانة بارزة نظراً لارتباطها الجدلي بالأنا، فصورة الآخر تستدعي دوماً الأنا، كما أن صورتنا لذاتنا تستلزم بالضرورة حضور الآخر، وكأنهما مولودان معاً إذ لا يمكن عزلهما عن بعض، على هذا الأساس يتشعب مفهوم الآخر ليشمل حمولات فكرية تتشابه في علاقتها بالذات.

¹ - حسين العودات : الآخر في الثقافة العربية، بيروت، دار الساقي، 2010، ص 19.

² - ينظر: محمد الحجاز : صورة الآخر في شعر المتنبي (نقد ثقافي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2009، ص 21.

³ - ينظر: محمد الحجاز، صورة الآخر في شعر المتنبي، ص 23.

يعرفه ابن منظور في لسان العرب : " الآخر بالفتح أحد الشئيين، وهو اسم على أفعل والأنتى أخرى... الآخر بمعنى غير كقولك : رجل آخر وثوب آخر، وأصله أفعل من التأخر فلما اجتمعت همزتان في حرف واحد استثقلتا، فأبدلت الثانية ألفًا لسكونهما، وانفتاح الأولى قبلها"¹ وجمعه آخرون، ومؤنثه أخرى، ويُقصد به أحد الشئيين أو الأمرين، والغيرية مرادف للآخرة

أما في الاصطلاح (فالآخر هو طرف غير الذات أو الطرف المقابل للذات، كما نفهم أيضًا أن ثمة تلازمًا بينهما)²، وهنا تتأكد ضرورة حضور كلا الطرفين لتحقيق المعادلة التكاملية عبر الاختلاف الموجود بينهما، (فالآخر هو المختلف في الجنس أو الانتماء الديني أو الفكري أو العرقي)³، فإذا سلّمنا أن الآخر هو المختلف عن الذات فسوف نجد أنه (مفهوم نسبي ومتحرك ذلك أن الآخر لا يتحدّد بالقياس إلى نقطة مركزية هي الذات، وهذه النقطة المركزية ليست ثابتة بصورة مطلقة فقد يتحدد الآخر بالقياس إلى كفرد أو إلى جماعة معينة قد تكون داخلية كالنساء بالقياس إلى الرجال، والفقراء بالقياس إلى الأغنياء أو خارجية بالقياس إلى مجتمع بصورة أعم)⁴، فالذات المتغيرة هي التي تفرض التنوع والتعدد في أشكال الآخر، فمعرفة الأنا تُحيلنا إلى معرفة الآخر.

إن التفاعل الإنساني بين الشعوب والأمم والثقافات، في مختلف الأزمنة وتحت أي ظروف تُمكن من معرفة الآخر واكتشافه لكن تمثيله يُعد مهمة شاقة إذ لا بد من وجود درجة متقدمة من الوعي والتفتح على الآخر، إما بالاحتكاك به، أو بالمدارسة والتطلع على جُلّ الجوانب المحيطة به لتوضيح الصورة، دون أي مغالطات، إنَّ الآخر يعدُّ نقيضًا ومكملًا للأنا، إذ لا بد من الاعتراف بوجود علاقة وطيدة بين الذات والآخر، فجدلالية الأنا والآخر (مسألة عريقة تضرب جذورها في تاريخ

¹ -جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ابن منظور : لسان العرب، مج1، مادة (أ،خ،ر)، ص38.

² - فاضل أحمد القعود : جدلية الذات والآخر في الشعر الأموي (دراسة نصية)، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1433 هـ/2012 م، ص 33.

³ - ماجدة حمود : اشكالية الأنا والآخر (نماذج وراثية)، عالم المعرفة، دولة الكويت، د ط، 1434 هـ/2013 م، ص 17.

⁴ -نحال مهيدات : الآخر في الرواية النسوية العربية (في خطاب المرأة والجسد والثقافة)، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 1428 هـ/2008 م ص 37.

الفكر البشري، بيد أنها أضحت محطَّ اهتمام في الآونة الأخيرة، فقد أولاها العديد من الدارسين عناية بارزة فأضحت حاضرة بقوة في حقل الدراسات المقارنة، فـ"الآخر" حضور دائم عند الذات في جميع مراحل الحياة، وكما يؤكِّد علماء النفس، فإن حضور الآخر ليس شيئاً عارضاً، إلا أنَّ الآخر في الوقت نفسه ليس شيئاً ثابتاً باستمرار، بل تتغير خصائصه بتغير الظروف والمواقع¹، فهوية الآخر تختلف بحسب منظور الأنا إليها والوعي المدرك تجاهها. (فالآخر ليس بالضرورة هو البعيد جغرافياً أو صاحب العداء التاريخي أو التنافس الدائم، إذ يمكن للذات أن تنقسم، أو يحارب بعضها البعض الآخر)²، إن تحديد الآخر يتم من خلال الاختلاف إما الديني (الإسلامي - المسيحي)، أو العرقي (الأبيض - الأسود)، أو الجنسي (المرأة - الرجل)، أو الشرق مقابل الغرب، لكن المتفق عليه أن لا وجود للآخر دون الأنا، فالعلاقة بينهما تُعدُّ علاقة تأثير وتأثر متبادل فيما بينهما، دون أن يتماهى أحدهما في الآخر، فالآخر إذن في أبسط صورة هو مثل، أو نقيض الذات أو الأنا، إذ لا يمكن الحديث عن الآخر بمعزل عن الذات³، وبحسب ما أكده (جاك لاكان)⁴:

فقد وصف الآخر بنية رمزية وشعورية تساعد الأنا، أو الذات على تحقيق وجودها أو كينونتها ضمن علاقة جدلية، كما يمكننا تحديد دلالاته من خلال سياقين :

الأول : معرفي وعلى ضوءه يبدو الآخر مفهوماً تكوينياً أساسياً للهوية أي للذات وهي تحديد هويتها فلاهوية دون الآخر.

¹ - مصطفى عمر التَّير : البعد الجغرافي وصورة الآخرة مقارنة امبريقية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر : العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، ص 419.

² - حيدر ابراهيم علي : صورة الآخر المختلف فكرياً : سوسولوجية الاختلاف والتعصب، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر : العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، ص 111.

³ - ينظر : سامي الوافي : المتأفة النقدية وسؤال الهوية : تفاعل الذات بالآخر، مجلة الآداب، العدد الثاني، 2014 م، جامعة الملك سعود، الرياض، ص 04.

⁴ - المرجع نفسه : ص 06-07.

أما السياق الثاني : فهو سياق أخلاقي يكسب الآخر من خلاله قيمة أو موقعاً في سلم تراتبي يكون من خلاله مقبولاً أو مرفوضاً طيباً أو سيئاً.

من خلال هذين السياقين تتحد دلالات الآخر في الغالب كما أننا نقف على نوعين من الآخر (داخلي وخارجي).

1- الآخر الداخلي : وهو ما يقصد به كل (آخر يشترك في المواطنة مع غيره، حيث يأتي الاختلاف من داخل ما يسمّى جماعة (نحن) نفسها، وتصبح الفكرة أو العقيدة أو الأيديولوجيا وطناً جديداً أو مجتمعاً يجمع المنتمين إلى الفكرة)¹، وعليه فإن من يدخل ضمن ثنائية (الأنا والآخر) فله وعي بمشاعره وأحاسيسه فالآخر يكون مقابلاً له، أي يكون فرداً آخر له ما يميّزه عن الأنا ويخالفه، وعليه يمكن تصنيف الآخر تبعاً للدين أو للجنس، أو الجغرافيا أو الأيديولوجيا، كالتالي :

- الآخر التّوعي : ويقوم على التّفرة على أساس النوع ما بين رجل وامرأة / ذكر وأنثى.

- الآخر الدّيني : وتكون التّفرة على أساس الدين : مسلم، مسيحي، يهودية.. إلى غير ذلك.

- الآخر داخل الدّين الواحد : ويقصد به الطوائف والفرق المختلفة في كل دين.

- الآخر السّلطوي: ويقصد به الانقسام ما بين حاكم ومحكوم.

- الآخر العنصري: حيث تقوم التّفرة هنا على أساس اللون: أبيض، أسود...

- الآخر من حيث الإقامة: ريفي، حضري.²

فباختلاف زاوية نظر الأنا يختلف ويتعدّد منظور الآخر بالنسبة إليها، إذ أنه لا يحتمل (دالاًً واحداً في كل مرّة، بل يتبدل هذا الدّال عند كل واقعة تاريخية أو سياسية أو اجتماعية... الخ تبعاً

¹ - همت بسيوني عبد العزيز : الشخصية المصرية وصورة الآخر، ص 67.

² - ينظر: المرجع السابق، ص 68.

للحال التي يتم منها التطرق إلى الآخر¹، فهاته التغيرات من شأنها إحلال صورة للآخر مغايرة بحسب الأحوال والظروف التي يُعاشها.

2- الآخر الخارجي: هو الذي (لا ينتمي لجماعة النحن، وهو يشير لكل ما يقع خارج الذات الجماعية)²، وتشكل وفقه مجموعة من الثنائيات من منطلق اللغة القومية، والرُقعة الجغرافية، وحتى التاريخ المشترك والثقافة والحضارة، هاته العوامل تتعلق بالهوية القومية والتي تعدُّ فاصلاً بين الأنا والآخر، كما أنها تعمل على التمييز بينهما (وهكذا يقوم الآخر نفسه في كل مرة في كينونة مختلفة تبعاً للزاوية التي وُضع فيها صاحب الدعوة)³، فالاختلاف هنا هو بيتُ القصد، فالآخر بكل تفاصيله وتمظهراته يُصوّر عبر حدقة الأنا ليطموضع في إطار يحتمل إما السلب أو الإيجاب.

إن الآخر سواءً كان داخلي أو خارجي، فإنه يحتاج دوماً للأنا، فالعلاقة القائمة بينهما من شأنها إثراء الجانب الحوارى بين الأجيال والتبادل النفعي على جميع المستويات.

4- العلاقة بين الأنا والآخر:

إن علاقة الأنا بالآخر تتحدّد من خلال تلك الثنائية القائمة على التوافق والاختلاف بين ذاتين أو فردين مختلفين على المستوى الفكري أو العرقي... الخ شرط توفر عامل الوعي والإدراك إذ (أنّ إدراك الآخر جزء من إدراك الذات، إدراكه كما هو، ليس كما نريد، وإن تصوّره وفهمه يطرح الآليات الصحيحة للتعامل معه)⁴، فتقبل الآخر كما هو يسهل عملية التفاهم، وتلاقح الأفكار (فالفارقُ سواءً أكان فارقاً بين الجنسين أو فارقاً في السلوك أو الشّخصية، أو فارقاً عرقياً، أو ثقافياً يمكن أن يصبح وسطاً تنشأ فيه روح عدائية، ولكنه يمكن أيضاً أن يُكون بيئةً لخلق تفاهم وتعاطف

¹ - دلال البرزي: الآخر - المفارقة الضرورية-، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص101.

² - همت بسيوني عبد العزيز: الشّخصية المصرية وصورة الآخر، ص68.

³ - دلال البرزي: الآخر - المفارقة الضرورية-، ص101.

⁴ - إيهاب النجدي: صورة الغرب في الشعر العربي الحديث، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت،

2008، ص10.

متبادلين)¹، كل هذا من شأنه إرساء دعامة للتواصل المتفتح بين الأنا والآخر، هذا الأخير يعدُّ (الكلية المزدوجة للكينونة الذاتية وتقويضها في الآن نفسه، وهو يتداخل ويتمرأى في سلسلة غير منتهية، تبدأ من أدقّ الانشطارات الذاتية في علاقة الذات بالذاتية.. فالفرد يمكن أن يكون آخر حتى بالنسبة إلى نفسه قبل مدّة قصيرة، ويمكن أن يتحول إلى آخر بعد مدّة قصيرة أيضًا، وكل شخص هو آخر بالنسبة لأي شخص على وجه الأرض)².

إنّ هاته العلاقة الجدلية المفهوم تهدف إلى احترام الآخر نظرًا لمكانته بالنسبة للذات نفسها وللآخر باعتباره عنصرًا فعالاً في منطق التحوار، (فبالحوار وحده نستطيع اكتشاف ذاتنا أولاً، والتعرف عليها جيدًا، وتحدي أحجامنا وقدراتنا وإمكانياتنا ومن ثمّ تطوير أنفسنا للحاق بركب التحويلات والتطورات)³.

فالعلاقة بين الأنا والآخر هي علاقة تقتضي حسن الوعي والإدراك، وعدم إطلاق أحكام جزافية قبل نشوء العلاقة والاحتكاك بينهما، ولا يكون هذا إلا بحسن التواصل والتحوار المتفتح، بعيدًا عن أي سوء فهم قد ينجر عن خلفيات مسبقة للأنا دون تحاور مع الآخر.

5- منطق الحوار بين الأنا والآخر :

إنّ الحوار المنطقي بين الأنا والآخر لا تنتهجه إلا العقول الرّاقية والواعية التي تبتعد عن الأحكام المسبقة، والتي تنزع إلى زعزعت الثقة، هذا النوع من الحوار يهدف إلى انتهاج أسلوب يعتمد على كيفية التفكير لا على كيفية الكلام، فعلى الأنا أن يكون ملماً بطرق تفكير الآخر وخلفياته، فهو حوار يعتمد على الحجّة والبرهان لفهم الآخر بالطريقة الصّحيحة، ولا تتم هاته العملية إلا

¹ - همت بسيوني عبد العزيز : الشخصية المصرية وصورة الآخر، ص 76.

² - صلاح صالح : سرد الآخر الأنا والآخر عبر اللغة السردية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003، ص10.

³ - غريغوار منصور مرشو: سيد محمد صادق الحسيني: نحن والآخر، دار الفكر، دمشق - سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، ط1، رجب1422هـ - سبتمبر 2001م، ص120-121.

بوجود عناصر فعالة للحوار هي، الموضوع - طرفين أو أكثر - لغة - منطق - إرادة¹، إنَّ هذا الحوار من شأنه استدعاء حوار الحضارات فحوار (أهل الأديان عندما يسود بينهم أنا وأنت، تصبح مسميات الأديان اليهودية والمسيحية والمحمدية (الإسلام)، وعندما يقبلوا بسيادة منطق نحن يصبح الجميع إبراهيميين (الإسلام))².

فاستخدام كلمتا أنا وأنت يزيد من اتساع الهوة بين طرفي الحوار ويقلل الثقة بينهما، بيد أن كلمة (نحن) تعمل على احتواء شعوب العالم أجمع، وتعزيز الثقة، هاته الكلمة من شأنها ملئ شتات الأمم، وفتح أبواب الحوار بين الأنا والآخر من أجل إيجاد لغة تُوحد بين الشعوب وتفتح آفاق التواصل المنقطع عبر العصور، وطَيَّ صفحات العداة المورث عبر التاريخ، وإنَّ للحوار أهمية كبيرة للإنسان (بوصفه ناطقًا، يمارسُ علاقته بوجوده كفعل تواصلٍ عبر المحادثة مع الآخر، بهذا المعنى يشكل الحوار بُعدًا من أبعاد الكينونة، خاصة إذا كان تعارفًا أو تداولًا معرفيًا حول معاني الكينونة، والهوية والإنسان والحوار)³، فالعلاقة هنا تقتضي الحذر في التعامل مع الآخر، فحسنُ الحوار يُضفي إلى تمتين العلاقات والتفتح على عوالم شخصية الآخر دون الاتكاء على أحكام مسبقة، حتى تتضح صورة الآخر لدى الأنا عبر أفق التحاور البنّاء.

6- ثنائية التأثير والتأثر :

أ- التأثير لغة :ورد ذكر لفظة أثر في القرآن الكريم وفي العديد من المواضع، منه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا ﴾⁴ وقوله : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾⁵، وكما جاء في معجم تفسير القرآن

¹ - ينظر : عقيل حسين عقيل : منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، يناير2004،ص26.

² - المرجع السابق : ص 50.

³ - علي حرب: العالم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول، منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002 م، ص 277

⁴ - سورة الحديد، الآية 27.

⁵ - سورة الروم، الآية 50.

الكريم إن (أثر الشيء حصول ما يدل على وجوده يقال : أثر، أثر، والجمع الآثار)¹، وهو ناجم عن ترك الأثر بعد الفعل، وقد ورد في لسان العرب لابن منظور أن (الأثر بقية الشيء والجمع آثار، وأثور، وخرجت في إثره، وفي أثره، أي بعده، وأثرت، وتأثرت، تتبعت أثره.. والأثر بالتحريك ما بقى من رسم الشيء، والتأثير إبقاء الأثر في الشيء، ترك فيه أثراً، والآثار الأعلام، والآثيرة من الدواب العظيمة الأثر في الأرض بخفها أو حافرها بينة الإثارة)²، فالأثر هو تلك البصمة الباقية بعد حدوث الأمر، وهو اللفظ المراد من دراستنا، فالتأثير في الشيء يحيلنا إلى تعقبه، والبحث عن جوهره الكامن بين طيات العمل الأدبي.

ب - التأثير اصطلاحاً : التأثير مقترنٌ بعملية الاحتكاك الناجمة عن العلاقات القائمة بين الشعوب والأمم، باختلاف انتماءاتها ومعتقداتها (يمكن اعتبار التأثيرات حركة أنطولوجية تستهدف بكيونيتها الحفاظ على حسٍ مشتركٍ وكليات إنسانية تتفاوت قيمتها عبر العصور، والفضاءات)³، وهذا ما يؤكد تعزيز القيمة الأدبية لأدب ما بآداب أمم أخرى تكون وليدة عصرها لتتوالى عبر التاريخ، فاتحةً بذلك أفقاً مطّلاً على جُلّ الجوانب الإنسانية للثقافات المختلفة، كما أشار **دانيال هنري باجو** إلى أن (كل نصّي تشكل كفسيفساء من الاستشهادات وكل نص هو امتصاص، وتحويل لنصّ أو لنصوصٍ أخرى)⁴، فلا يمكن بأي حالٍ من الأحوال عزل نصٍ عن بقية النصوص التي تربطه معها علاقة تناصٍ

¹ - سميح عاطف الزين: معجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ط 4، الدار الإفريقية العربية، بيروت لبنان، 2001، ص45.

² - ابن منظور : لسان العرب، ط 4، مجلد 1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2005، ص 52.

³ - سعيد علوش : إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي، دراسة مقارنة، ط 1، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، 1986، ص 121.

⁴ - دانيال هنري باجو : الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1997، ص 27.

لتنجُم عنها جمالية تصنع العمل الأدبي بْحطَى (المحاكاة التي تعمل كتذكّر مبهمٍ أو اقتباسٍ، أو تكرارٍ أو معرفةٍ نصية)¹.

فعملية التأثير والتأثر هي إحدى مجالات الأدب المقارن التي تصبُّ في نهر العلاقات القائمة بين الآداب المختلفة لغَةً وثقافةً وتاريخاً، والتي تعمل على فكِّ شفرات النص الأدبي واستنكاه مواطن التأثير الحاصل داخل العمل الأدبي وهذا بالاعتماد على تقنيات التحليل المقارناتي النَّاجم عن الاختلاف الممتزج داخل العمل الأدبي الواحد، وهذا ما أشار إليه بول فانتينغيم في هذا المجال حيث قال أنَّ (المقارنة كما نفهمها، تعني تقريب الأحداث المقتبسة، من جماعات مختلفة، وبعيدة غالباً لتُستخرج منها قواعدٌ عامة، أمّا فيما يتعلق بالمؤلّفات الأدبية، فإنها تعني الجمع والمقابلة بين الكتب والنماذج والمشاهد والصفحات المتشابهة، للوقوف على ما فيها من مجانساتٍ أو مطابقاتٍ وخلافاتٍ، دون أي هدف آخر سوى إثارة الفضول الأدبي، للتَّعْمُج بجماله ولذَّته، وأحياناً إصدار حكمٍ للتفضيل يقود إلى نوع من الترتيب وفق القيم، وتكون المقارنة إذا ما استعملت على هذا النحو، بمثابة رياضةٍ فكريةٍ مهمةٍ ومفيدةٍ جداً في تكوين الذوق والتفكير، دون أن يكون لها أي قيمة تاريخية، إذ أنّها لا تساعد لوحدها على التّقدم بالتاريخ الأدبي ولو خطوةً واحدةً لأنّ التاريخ الأدبي الحقيقي، هو جمع أكبر عدد ممكن من الأحداث المختلفة المصادر، بغية شرح كل منها شرحاً وافياً، وتوسيع أُسس المعرفة بُغية الحصول على أسباب، وبواعث أكثر عدداً من التّائج)²، يشير بول فانتينغيم في قوله هذا إلى المقارنة الجافة الخالية من أية مرجعية تاريخية، فهو يُؤكد على ضرورة الرجوع إلى الدّراسات التاريخية التي من شأنها تعزيز الآداب القومية وهذا ما كانت تنشده المدرسة الفرنسية من خلال تتبع المسار التاريخي وتجاوز حدود الأطر اللغوية المشكّلة للعمل الأدبي، كما يستعين إدوارد سعيد بمعطيات العلوم الإنسانية المختلفة، كالتاريخ والسياسية والأنثروبولوجيا وعلم النفس، وهو مع ذلك لا يهمل

¹ - سعيد علوش : إشكالية التيارات والتأثيرات في الوطن العربي، ص 122.

² - بول فان تينغيم : الأدب المقارن، تر : الحسامي سامي مصباح، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، لبنان، (د، ت، ط)، ص 19.

الاستضاءة بالمنهج الفرنسي، ويرفض احتباس القراءة في داخل النص وتركيبه الشكلي، كما تفعل المناهج الوصفية الشكلانية، على أن سعيد لم يستخدم مصطلح النقد الثقافي المقارن إلا أنه مارسه بتفوق واضح من خلال بحثه عن المشابهات في النصوص، في تحليله لتجليات الإمبريالية وأشكالها، وتمركز قوتها باتجاه نحو الآخر في النص¹.

لكن المدرسة الأمريكية تجاوزت الجانب التاريخي مركزاً على جوهر النص في ذاته وهذا ما أهملته المدرسة الفرنسية التي اهتمت بمسببات التأثير لا بصور التأثير في ذاتها، وقد عارض ((ويليك REMEWELLEK)) المنهج الفرنسي التقليدي، وسعى إلى التأسيس لمنهج قادر على التعامل مع أدبية الأدب²، أي البحث عن مكامن الجمال داخل الأدب، والمزاوجة بين الدراسة النقدية والنقد الأدبي، لكن هذا الذوبان يمكن أن يفقد خصوصية كل منهما كمنهج، لهذا لا بدّ على دارس الآداب المقارنة أن يحقق التكافؤ في الجمع بين ما هو نقدي وتاريخي وأدبي في رصده للعلاقات الأدبية المتبادلة بين مختلف النصوص (فالنص الأدبي له شؤون داخلية، و أخرى خارجية، أما الشؤون الداخلية فلها علاقة ببنيتها الداخلية وصوره، وتركيباته ودلالته ومضمونه، وشخصياته... أما الخارجية فتتمثل في اتصاله بالآداب الأخرى وتماسه، وعناصر ومؤثرات تنتمي إلى الآخر، إنها طبيعة ملازمة للأدب، لأنه نتاج إنساني فاعل ومتفاعل مع الآداب الأخرى، يتلاقح مع التيارات الأدبية، والفكرية والفنية يؤثر فيها ويتأثر بها)³، فمن أجل إكساب الدرس المقارن فاعليته لا بد من الاستعانة بما يحيط بالنص وكذا بفحوى النص في حد ذاته حتى تتسم الدراسة بالمصادقية، فعلاقة التأثير والتأثر تقتضي الإمام بالعديد من المناهج من طرف الدّراس، مع إعطاء كل منهج حقّه من المدارس حتى تنبثق عنه

¹ - عز الدين المناصرة: علم التناس المقارن، نحو منهج عنكبوتي تفاعلي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، 2006، ط1، ص 281، 283/ ينظر: على مجيد داود البديري: الأدب العربي المقارن في ضوء "جمالية التلقي" (الدراسات النظرية المقارنة أنموذجاً)، أطروحة دكتوراه، إشراف: علي عباس علوان، البصرة، 1430 هـ / 2009م، كلية الآداب، جامعة البصرة، ص 169.

² - عبده عبود: الأدب المقارن - مشكلات وآفاق -، ص 49.

³ - صغور أحلام: واقع الدراسات المقارنة في المغرب العربي، ص 112.

صورة كاملة متكاملة للأدب المراد بالدراسة، فالأدب المقارن يعمل على اظهار صور التأثير والتأثر الحاصل بين الآداب المختلفة، فجُلّ العلاقات الإنسانية تنجم عنها عمليات تأثير وتأثر حاصل إما بين مجموعة من الأفراد، أو جماعات متعدّدة، تختلف في العادات والتقاليد، لتتلاقح الأفكار وتمتزج الحضارات، إذ تُعتبر هذه العلاقة بمثابة حجر الأساس الذي يقوم عليه الدرس المقارن (فروسيا أثرت في فرنسا، حتى تكونت في الحياة الثقافية صورة لروسيا وإيطاليا أثرت في فرنسا ولما تأثر أدباء فرنسا بها كونوا لها صورة في أدبهم، و اليهودي أثر في فرنسا، وتأثر أدبائها به، تكونت له صورة في إنتاجهم، وهكذا...¹) فصور الشعوب في آداب الشعوب الأخرى يعتبر محور اشتغال في الأدب المقارن، إذ تعكف من خلاله إلى الكشف عن هوية الآخر ضمن تلايب أدب الأنا، ولا يتم هذا إلا بالاحتكاك والتعايش مع الشعوب الأخرى أو بمدراسة ثقافتهم والإبحار في آدابهم وتاريخهم، وهذا ما يؤيد ذلك الأثر البارز في الكتابات الأدبية نتيجة التأثير والتأثير الحاصل بين الأنا والآخر، وهذا من أجل التعريف بالآخر عن طريق الصور التي رسمت له ف (وغي ميشو الذي أشرف على العديد من الرسائل في هذا الموضوع يسميها علم الصورة.... وينسبها إلى الأدب المقارن أيضا)²، ويُعدُّ هذا الفرع من أحدث فروع الأدب المقارن وهذا (الرأي نفسه نجده عند (كلود بشوا *CLOUD PICHIOS*) و (أندري روسو *ANDRE ROUSSEAU*)³ والذي يقوم أساساً على ثنائية التأثير والتأثر، الحاصل بين الشعوب، إذ نلفي العديد من الرسائل التي أولت عنايةً واهتماماً بهذا الميدان ففي سنة 1930 قدّم في فرنسا (جورج أسكولي *GEORGES ASCOLI*) رسالة بعنوان "بريطانيا العظمة أمام الرأي العام الفرنسي في القرن السابع عشر"، ثم أعطى (فان جان كاري *CARRIE.J.N*) دفعةً قويةً لهذا الميدان سنة 1947، برسالة عنوانها "الكتاب الفرنسيون والسراب الألماني 1800-1940"، وجاء (ميشال كادو) برسالة عنوانها صورة روسيا في الحياة الثقافية

¹ - عبد المجيد حنون : صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغربية، ص 52.

² - المرجع السابق : ص 53.

³ - المرجع نفسه : ص 53.

الفرنسية (1839-1856)، ثم جاء بعده (ألبير لورتولاري ALBERT LORTHOLARY) سنة 1951، وقدم رسالة بعنوان " السراب الروسي في فرنسا في القرن الثامن عشر " ¹، هاته النماذج تمثل بطاقة تعريف للأمم على بعضها البعض، إذ يظهر التأثير جلياً في رسائلهم بالبلدان التي عايشوها أو تأثروا بها من بعيد عبر الاطلاع على كتابات أدبائها، كما أن للعرب دراسات ومؤلفات عدّة اعتمدت منهج التأثير بالآخر لثمين أعمالهم والانفتاح على كل ما هو جديد ومعاصر، إذ تعززت إبان الرحلات العربية، ومن بين أهم الرحلات رحلة (رفاعة الطهطاوي مترجماً في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وقد أبان تأثره الشديد بفرنسا من جوانب عدّة، فالعلاقة التي تؤرخ بين الشرق والغرب بدت جليّة في أعمال العديد من الكتاب العرب، وهذا عن طريق الرّحلات والبعثات العلمية التي أبانت عن تأثر الأنا العربية بالآخر الغربي، محاولةً تصوير الآخر من منظور الأنا فصورتنا عن ذاتنا لا تتكون بمعزل عن صورة الآخر لدينا، كما أنّ صورة الآخر عند تناولها في الأعمال الأدبية تعكس بمعنى ما صورة للذات. وقد ظهر جلياً اهتمام الكتاب العرب بصورة اليهودي في الأدب العربي منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى أواسط القرن العشرين وكتبوا أيضاً، كما كتب دارسون غربيون، عن صورة الأوروبي في الأدب العربي) ² فعملية التأثير والتأثر متجلية في إقبال الدارسين العرب وحتى الغربيين على كشف تلك الحفريات المتجسدة في عمق النص الأدبي الإبداعي بكل تنوعاته وأشكاله، ومعرفة صورة الآخر، وقد شهد حضور اليهودي في الأدب العربي مكانة بارزة خاصة (مع صدور وعد بلفور) ³ فهناك (أدباء عرب أبرزوا فيما كتبوا شخصيات يهودية، بعد قيام دولة إسرائيلية، وكتبوا عن يهود عرب، ومن أبرز هؤلاء الروائي المصري إحسان عبد القدوس) ⁴ لكن يبقى حضوراً محتشماً بالموازاة مع أعلام الرواية العربية الذين لم يدرجوا الحضور اليهودي ضمن كتاباتهم، لكن يشير الدكتور عادل الأسطة إلى ثلة من الأدباء العرب الذين أولو عناية بالتواجد اليهودي داخل رواياتهم في

¹ - عبد المجيد حنون : صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، ص 54.

² - عادل الأسطة: اليهود في الرواية العربية، جدل الذات والآخر، الرقمية، رام الله، فلسطين، ط1، 2012، ص 2.

³ - المرجع نفسه: ص2.

⁴ - المرجع نفسه: ص2.

أواخر القرن 20، حيث يقول (ومن أبرز المؤلفين إلياس خوري اللبناني، وعبد الرحمن منيف النجدي وممدوح عدوان السوري. وزياد قاسم الأردني، بالإضافة إلى كتاب آخرين مثل جاسم المطير وأمين معلوف وفوزية شويش السالم)¹، هذا الانفتاح على الآخر خاصة "اليهودي" لم يكن حكراً على الكتاب العرب المشاركة بل حتى الروائيين الجزائريين الذين أثوا خطاباتهم بصوت الآخر اليهودي، سواء اليهود الإسرائيليين أم يهود الجزائر، متأثرين بالقضية الفلسطينية حيناً وطارقين أبواب التاريخ الجزائري حيناً آخر، فبين الأسطورة والواقع يولد الإبداع من رحم الفكر المنفتح والمتطلع على الآخر.

7- صورة اليهودي في الأدب العالمي والعربي:

بعد أن كان الحضور اليهودي غائباً عن ساحة الأدب العربي، وهذا لعدة أسباب سياسية مردّها الصراع الصهيوني الإسرائيلي مع العرب، بدأ الانشغال به (خاصة بعد فشل الصراع السياسي والعسكري عام 1967م، الذي على إثره اكتسبت الدعاية الصهيونية قوة في انتشارها وصدقاً في تنبؤاتها عندما رسمت صورة أسطورية للشخصية الإسرائيلية مقابل صورة عربية مشوهة أكدت النكسة ترسيخها)²، وعلى إثر هاته الأحداث، صار لزاماً أن تجد الشخصية اليهودية لها مكاناً في الأدب العربي بكل معطياتها حتى تتضح صورتهم الحقيقية سواءً بالسلب أو بالإيجاب، دون أن ننسى أن هناك العديد من الصور ظهرت وتشكلت داخل الأدب الغربي، ساهمت في تشكيلها عديد العوامل (سياسية ودينية وتاريخية...) لتعطي لنا صورة نمطية للشخصية اليهودية، رُسمت ملامحها تبعاً لعقلياتهم وسلوكياتهم بمختلف طباعها وانعكست في عمق الآخر لترجم ضمن الرواية والقصة وغيرها من فروع الفن الأدبي، وقد سبق الأدب العالمي الأدب العربي في تقديم الصور المترسخة في الأذهان عن

¹ - المرجع نفسه: ص3.

² - صبيحة عودة زعر: الشخصية اليهودية الإسرائيلية في الخطاب الروائي الفلسطيني 1967م-1997، عمان، دار مجدلاوي، 2005، ط1، 1426 هـ - 2006م، ص 11..

اليهودي، لكن القرآن الكريم أعطى الصورة الحقيقية لهم والتي لا تقبل الجدل ومرد كل تلك التصورات راجع إليها لما فيها من تبيين للعقلية اليهودية الطاغية والعدوانية والساعية للفساد والخراب، والتي تطغى على جُل الفكر اليهودي ولن نقول على الكُل حتى لا نعمم وإن كانوا أكثرهم.

أما عن صورة اليهود في الأدب العالمي فقد ظهرت في (قصص التراث الدِّيني قامت تلك الصورة على غدر اليهود وقتلهم حتى لأنبيائهم، ثم معاداتهم للمسيحية وغدرهم بنبيها، ومن بعدها تفرغهم لحبك الدسائس والمؤامرات للإيقاع بالإسلام والمسلمين، كما أضاف الأدب العالمي ملامح جديدة لتلك الشخصية، تجلت في جعلها الطرف المناقض للخير والإحسان، المفطور على الجشع وحب المال وذلك من خلال شخصية "شايلوك" في "تاجر البندقية" لشكسبير، ومربي اللصوص "فاجن" الذي يجمع الشيطانية والشر في "أوليفر تويست" لتشارلز ديكنز¹، هاته الصورة السوداوية الكريهة طغت على الآداب العالمية، زد على هذا (كذلك كريستوفر مارلو في مسرحيته "اليهودي الماطي" تتجلى صفات اليهودي في الحرص على المال وشهوة تكثيره بكل سبيل، وحرمان الآخرين منه، وحياسة المكاييد والدسائس والإمعان في قتل الأبرياء جملة وفرادى بلا وازع من دين أو ضمير. وقُدّم اليهودي مثالا للشر كذلك في أعمال تشوسر وإزرا باوند، وت - س، إبيوت)²، فتقدّم صورة اليهودي بهاته الشّاكلة وبهذا القدر من السلبية جاء قبل بزوغ القرون العشرين، مما يعني أنه نتاجٌ أوروبي قبل أن يتمخض في الأدب العربي الذي تزامن مع حضور اليهود داخل النصوص الروائية خاصة مع الأحداث التي خلفتها الحركة الصهيونية من اضطهاد ومجازر ضد العرب الفلسطينيين مما أدى إلى تأكيد تلك الصورة المشينة داخل الأدب العربي والتي جاءت امتداداً للصورة السابقة في الآداب الأوروبية، لتعطي ذلك الانطباع الرابض في المخيلة العربية وتزواج بينه وبين حقيقة الأوضاع السياسية والاجتماعية على الأراضي المحتلة بفلسطين، والتي طغت فيها اليدُ الصهيونية، لتنتشر الخراب

¹ - زياد الأحمد: تحولات الشخصية اليهودية في الرواية العربية - ملامح ورؤى - الأحد 2019/12/01، مجلة الجديد

Aljaded، الموقع: eljadeedmagazine.com، اطلعت عليه يوم: 2020/04/23 بتوقيت 23:47.

² - محمد سيد أحمد متولي: صورة اليهود في الرواية العربية المعاصرة - رؤية سردية مغايرة - مجلة "رسالة المشرق"، ص 66.

أينما حلّت، وبهذا استفحلت الصورة الشائنة لليهود، واتفق جلُّ الأدباء في خطاباتهم على تصوير اليهود من زاوية نظر موحدة، تجري مجرى الصورة النمطية الغالبة على الفكر الأوروبي وحتى العربي.

لكن ومع بروز فجر الحضارة المستنير، ومسايرة اتفاقيات السلام المبرمة مع بعض العرب واليهود، نجد أن الأدباء تأثروا باليهود العرب، لذا نجد انزياحاً واضحاً في الرؤية المغايرة لليهود ضمن الخطابات الأدبية المعاصرة، خاصة جنس الرواية الذي يعتبر فسيفساء فريدة من نوعها تنصهر ضمنها جميع الفنون، لتعطي لنا فناً راقياً، يجمع بين دفتيه الأنا والآخر بُغية إيصال رسالة منفتحة على عوالم وحضارات مفادها المثاقفة، وفتح قنوات الحوار بين مختلف الأمم والشعوب.

فبينما كان تركيز الروائيين العرب في كتاباتهم على الشخصية الإسرائيلية الصهيونية خاصة الكُتاب الفلسطينيين وهذا استجابة للمرحلة التاريخية والاجتماعية التي عايشوها. أمثال سميح القاسم (الصورة الأخيرة في الألبوم)، غسان كنفاني (عائد إلى حيفا)، رشاد أبو شاوور (أرض العسل)، محمود شاهين (الهجرة إلى الجحيم)، أحمد عمر شاهين (زمن اللّعة)، خليل بيدس (الوارث)، ناصر الدين النشاشيبي (حبات البرتقال)، حسن جمال الحسيني (الأصدقاء)، أفنان القاسم (المسار) و (النقيض)¹، كل هاته العناوين تناولت صوراً عن يهود فلسطين حيث فرقت خلالها بين اليهود الإسرائيليين والصهاينة، وقد تمكن خلالها الدكتور محمد حسين أبو النجا من رصد مختلف الصور والسّمات التي طغت على الشخصية اليهودية (النسوية والذكورية) في دراسته (اليهودي في الرواية الفلسطينية)، وقد تناولت معظم هاته الأعمال قضية الصراع الصهيوني، مما جعل الصورة مرتبطة بالأوضاع السياسية والاجتماعية ووجهات نظر فردية، لا تعبر عن الجماعة.

لكن الحضور اليهودي داخل الصرح الروائي العربي شهد تطوراً واضحاً، وهذا من خلال استدعاء اليهود العرب دون الاقتصار على يهود فلسطين فقط، إذ لقي هذا الحضور تميزاً كبيراً، حين نال شرف تصدر عناوين بعض الروايات، كما أن الصورة النمطية انقلبت إلى صورة استحداثيّة،

¹ - ينظر: حسين أبو النجا: اليهودي في الرواية الفلسطينية، ص 211.

كُسِرت معها قوالب الشر والهيمنة، لتضع بدلها قوالب الخير والطيبة، ويتجلى هذا في عديد الروايات نذكر منها (يوميات يهودي في دمشق) (إبراهيم الجبين، دار خطوات 2007)، وأيام الشتات (كمال رحيم، وكالة سفنكس للآداب والفنون 2008)، واليهودي الحالي (علي المقرري، دار الساقى، 2009)، مصاييح أورشاليم، رواية عن إدوارد سعيد (علي بدر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2009)، والسيدة من تل أبيب (ربيعي المدهون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2010)، وفي قلبي أنثى عبرية (خولة حمدي، دار كيان، 2013)، اليهودي الأخير (عبد الجبار ناصر، الدار المصرية اللبنانية، 2015)، واليهودي والفتاة العربية "قصة الحب الخالدة" (عبد الوهاب آل مرعلي، العبيكان، 2016)، ويهود الإسكندرية، (مصطفى نصر، الدار المصرية اللبنانية، 2016)، ويهود الإسكندرية (مصطفى نصر، الدار المصرية اللبنانية، 2016)، وحمّام اليهودي (علاء مشذوب، دار سطور، 2017)، وآخر يهود الإسكندرية (معتز فتيحة، دار أكتب، 2017)، ماذا عن السيدة اليهودية راحيل؟ (سليم بركات، 2019)، واليهودي الأخير في تمنطيط (أمين الزاوي)، وغيرها من أسماء روايات أبرزت اسم اليهودي على عتبتها الخارجية)¹.

ومرّد هذا الحضور المكثف، والاهتمام بالشخصية اليهودية يعود لتلك العلاقات التي يشهدها التاريخ ضمن الصراع العربي اليهودي، وكذا تشتت اليهود داخل الوطن العربي واندماجهم على جميع الأصعدة، مما عزّز حضورهم القوي ضمن المجتمعات وأكد وجودهم ضمن التركيبة التاريخية لأي وطن عربي، كأن تقول مثلاً يهودي مصري، أو يهودي يمني أو يهودي سوري، أو يهودي جزائري... إلخ، فاسم اليهودي دائماً مقترن كديانة باسم وطن ما لإثبات الهوية، لأنهم شعبٌ خلقوا متفرقين، مشتتين، قومٌ تُبَعَّج مجهول النسب لا وطن يأويه ولا ملة تُبَتِّغيه. فالرواية العربية احتوت هذا الوجود مجسدة إياه في شخوص يهودية بسماوات متفرقة، وإن ابتعدت عن تلك الصورة النمطية الماثلة في المخيال الشعبي - سواءً بحكم العداء بين اليهود المسيحيين - والروايات التي كُتبت تحت تأثير

¹ - مقال: تمثيلات اليهودي في الرواية العربية - من القطب إلى أوهام العيش في جيتو فاضل - (قراءة في نماذج روائية)، الأحد 2019/12/01، مجلة الجديد، eljadeedmagazine.com.

اللحظة التاريخية التي شهدها بعض الروائيين، لتذهب بذلك إلى تصوير التعايش بين العرب واليهود الذي شهدته التاريخ، وكذا التسامح العقائدي الذي عرفه اليهود من قبل المسلمين، وتشاركهم نفس المصير، خاصة أثناء تعرض المسلمين واليهود لمحاكم التفتيش بالأندلس إبان سقوطها بين أيدي الإسبان المسيحيين.

كما استحضرت الرواية العربية علاقات الجيرة بين يهود ومسلمين عرب والتأثر الحاصل بينهما والاندماج الذي يغلب عليه التسامح والطيبة، لكن نجد دوماً انعكاساً لشخصيات يهودية بسلبياتها المعهودة نتيجة لتلك الحمولات السلبية الرابطة في الفكر العربي، فحتى وإن عمد الكثير من الروائيين العرب إلى تحميل صورة اليهود وإلباسها حُلَّة جديدة بُعِيَة مغازلة لليهود، إلا أن هناك دوماً صوراً سلبية تكومت نتيجة ذلك المخزون المتفوق المنبعث من عمق الصورة السوداوية بكل سماتها السالبة، المنبثقة عن الفكر الأوروبي وحتى الفكر العربي القديم الذي شَخَّص ذلك الوجود اليهودي ضمن خطاباتهم.

8- إنفتاح الرواية الجزائرية المعاصرة على الآخر:

شهدت الرواية الجزائرية العديد من التحولات قلباً وقالباً، في مضامينها وتوجهاتها وانفتاحها على الآخر عبر مسار التجديد. هي التي كانت حبيسة رهانات الماضي، خاصة جيل التسعينات والثمانينات والذي غلّفه صمت رهيب، لم يرقى إلى تطلعات القارئ، لتنزع عنها جلباب صمتها وتكسر حواجز ما كان مسكوتاً عنه دهرًا من الزمن، لتتغير رؤيتها بتغير الرؤية الإيديولوجية للروائيتين في التسعينات خاصة مع مطلع 1998، والذي عرف نقلة نوعية لمسار الرواية المعاصرة، تتماشى وتطلعات القارئ (العربي عامة والجزائري خاصة) فاتحة بذلك أفق توقعاته، لينظّم لركب الحضارة الآنية العالمية، وتصنف بذلك الرواية الجزائرية بلغتيها العربية والفرنسية في مصاف الروايات العالمين عبر ترجمتها، لأن الرواية تقوم أساساً على نقل صور الشعوب المختلفة مبرزة أوجهاً سلبية وأخرى إيجابية، مصورة مختلف الميادين (ثقافية واجتماعية وسياسية وغيرها)، فالرواية تُعد (مجموعة من الأحداث ذات

صلة بشخصيات إنسانية تختلف أنماط سلوكها وعيشها في الحياة، تماماً، كما هي حياة البشر على الأرض، ويرويها القاص بأسلوب مشوق، فيشدنا إلى الأحداث ويأسرنا، حتى لنظن أن ما يرويها قد وقع فعلاً¹. وقد برز هذا الانفتاح على الآخر لدى الروائيين الجزائريين المعاصرين جلياً في رواياتهم مصورين الآخر من منظور الأنا، بُغية تعزيز نظرة الأنا للآخر، وفهم الشعوب لبعضها البعض مما يؤدي إلى تبيين العلاقات والصلات فيما بينها. وكذا استنطاق حوار الأديان الذي بات جزءاً من بعض الروايات الجزائرية ساعيةً بذلك لإحلال التفاهم، ونسج ثوب الاندماج الروحي بين مختلف أنحاء الأمم والحضارات. فالتركيز على العلاقات الإنسانية في الروايات بات متفشيّاً بين صفحاتها، جلياً في طروحاتها، وهذا من أجل تصوير شعوب أمم في أدب أمم أخرى، والتعرف عليها حق المعرفة، فالرواية هي المرآة العاكسة لصور الشعوب الأخرى، وهي النبض الحيّ لإبقاء وهج رؤية الآخر عبر حلقة الأنا، ومن هنا كان للرحلات دورها البارز في تكوين صور شعوب في آداب أمم أخرى، وترجمتها عبر سرد الآخر بعقليته وثقافته وعاداته وتقاليده، متكئين على المرجعية التاريخية كقوابة للغوص في تاريخ الشعوب وهذا عن طريق التأثر والتأثير الحاصل بين الأمم، إما بالاحتكاك بهم أو بالاطلاع والتأثر بكتابهم وثقافتهم، لكن لا نغفل الحالة النفسية التي تُسيطر على كاتب ما أثناء تأثره لنقل صورة كاملة عن الآخر، فلا بد أن يكون فيها ميل للذات، ومغلاة في الوصف، وانحياز لآراء ووجهات نظر تسيرها الطبيعة البشرية على حساب الواقع، لكن الهدف من نقل صور الآخر في أدب الأنا هو تقوية وتبيين حوار الحضارات الذي يرتقي بالأدب والأدباء، ولا يكون هذا إلا عن طريق المثاقفة والتي يوضحها د. إبراهيم عوض قائلاً: (في الأصل المثاقفة هي عملية التغيير أو التطور الثقافي التي يطرأ حين تدخل جماعات من الناس أو شعوب بأكملها تنتمي إلى ثقافتين مختلفتين في اتصال وتفاعل يترتب عليها حدوث تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في الجماعات كلها أو بعضها)²، فالاطلاع على ثقافة الآخر تعمل على إغناء الرصيد الثقافي لأدب أمة ما، فالأدب هو

¹ - بطرس أنطونيس: الأدب تعريفه - أنواعه - مذهب، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، دط، 2005، ص 153.

² - إبراهيم عوض: في الأدب المقارن مباحث واجتهادات، المنار للطباعة والكمبيوتر، 1427هـ، 2007م، ص 42.

ذلك المزيج الفكري الذي لا ينضب، كنهه متدفق يحمل بين جنباته زخماً لغوياً وثقافياً وتاريخياً وحتى فلسفياً إلى غيرها من العلوم، التي يستقي منها الأديب لإرواء ضمناً القراء المتعطشين لمعرفة الخبايا وفك شفرات دلالية ورموز لا يمكن أن تجتمع إلا تحت سقف الرواية، التي تحمل في ثناياها سيفساء عجيبة لا قدرة على تركيبها وبناءها سوى كاتب محنك مُطلع على ثقافات الغيّر، ولا يسعنا المقام لذكر كل الأسماء المشعة في الساحة الأدبية الجزائرية، لكننا نركز على ثلثة من أهم وأبرز الروائيين الجزائريين المعاصرين الذين قرروا كسر طابو من الطابوهات المسكوت عنها، والكتابة عن اليهود، سواءً يهود فلسطين أو يهود الجزائر، مسلطين الضوء على تاريخهم وثقافتهم وكذا عاداتهم وتقاليدهم، مصورين شخصاً يهودية تتحكم في دواليب السرد الروائي، بسلبياتها وإيجابياتها، للتعريف بالآخر وكذا تصوير العلاقات الإنسانية القائمة بين الأنا العربية والآخر اليهودي.

تأثر الروائيين الجزائريين المعاصرين بالآخر اليهودي يظهر جلياً في خطاباتهم تعبيراً منهم عن الواقع كـ"بطريقته الخاصة، بُغية إيصال رسالته عن طريق الكتابة عن مجتمعه وحتى المجتمعات الأخرى للتعريف بالأنا والآخر، هذا التوجه والتركيز على اليهودي في الرواية الجزائرية يُرُوم إلى الكشف عن ثقافة الغير وسؤال الهوية، والخروج من بوتقة المحلية القومية إلى العالمية، حين نجدهم منفتحين على الآخر متأثرين به فقد (استوعب الخطاب الروائي العربي التحولات السريعة بخروجه عن السائد والمؤلف، معتمداً على التجريد والتحديد وتوثيق مصطلح الرواية الجديدة)¹ وهذا لإعطاء رؤية مغايرة عن الذات وحتى الآخر، عبر فتح قنوات حوار الأديان وتلاقح الثقافات، وكذا التعريف بعادات وتقاليدهم، فالرواية بمضامينها وطروحاتها المتجددة بالاعتماد على التخييل والتجريب، تلعب على وتر الانفتاح والمثاقفة على صورة الآخر، وتصحيح المغالطات التي تحملها كل حضارة عن نظيرتها، وتلقيها بمنظور مغاير مؤهل ثقافياً، منفتح حضارياً متقبل للآخر، لفتح حوار التعايش فتلقي الصورة يحتاج إلى (مجتمع يؤمن بالاختلاف ويحترم المعارضة، كي يستطيع فضح التزوير الذي ينال العقيدة

¹ - محمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، دار الصدى، دبي، 2011، ص 07.

والتاريخ على يد أبناء الأمة قبل أعدائها. إن الفنون السردية وخاصة (أدب الرحلات، الرواية، القصة) من أكثر الفنون قدرة على تقديم صورة الآخر، إذ تستطيع أن نعيش بفضلها مشاهد حية من الواقع الممتزج بالأوهام حول الأنا والآخر)¹، وإذا ما توجهنا إلى الروائيين الجزائريين فإننا نجد أن الاختلاف في الطرح هو الذي أثرى خطاباتهم، وهذا بتناولهم للآخر الغربي، بغض النظر عن الدوافع التي وجهتهم، وحتى إيديولوجياتهم التي تبناها، لكننا لمسنا ذلك التأثير بالقضية الفلسطينية في رواية واسيني الأعرج "سوناتا لأشباح القدس" حين عرّى جراحات الفلسطينيين من خلال تصويره لهمجية الصهاينة اليهود وفق رؤية عدائية للآخر، فالآخر هنا يمثل العدو المستعمر كما هو معروف، لكن يوسف حطيني وهو واحد من النقاد الذين كانت لهم قراءة لرواية "سوناتا لأشباح القدس" كانت له وجهة نظر مختلفة حين يرى أن هناك تعاطفاً كبيراً مع اليهود من قِبَل الروائي واسيني الأعرج متجلياً هذا في قوله (... وثمة أمر إيديولوجي ظاهر في الرواية، ربما يشترك فيه كثير من الكتاب العرب الذين يعيشون في الغرب، أو يكتبون للغرب، هذا الأمر هو النظر بحيادية سلبية إلى الصراع في فلسطين، ورصد صورة الواقع كما هو الآن، دون محاولة لإدانة المحتل، كونه السبب الحقيقي لكل ما يجري من دماء في تلك المنطقة. في هذه الرواية يبدي الروائي تعاطفاً مجانياً مع اليهودي الذي بكتته جدته (مَي) ... ومن أسف أن مثل هذا التعاطف الحميمي لا نبجده من المؤلف أو من الشخصيات نحو الشعب الفلسطيني، اللهم إلا في إطار العلاقات الشخصية والعائلية)².

هذا التعاطف الذي لمسه الناقد، يفنده الروائي، الذي يصرح في إحدى لقاءاته التلفزيونية مع الصحفي "دافيد كورييه" من مؤسسة ليغال دوسكاربيك البلجيكية في بروكسيل عن روايته "سوناتا لأشباح القدس" قائلاً: (... لم أتناول فلسطين في الرواية من باب سياسي على الرغم من وجوده بل ناقشتها من زاويتها الإنسانية) ... خاصة في موضع الدفن والذي رفضت السلطات الإسرائيلية طلبها

¹ - ماجدة حمود: صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 1431 هـ / 2010م، ص 19-20.

² - يوسف حطيني: مقال بعنوان رواية "سوناتا لأشباح القدس" هشاشة القراش. هشاشة الإيديولوجية، بتاريخ:

2011/03/16، التوقيت: 23.16.

بشأن دفنها في أرضها، حيث يعتقد واسيني أن المنع جاء لرفض الإسرائيليين فكرة أن يتحول شخص ما إلى رمز في هذا البلد، كي لا يكون مزاراً أو قدوة لغيره خاصة أن ثقافتهم قامت على الرمز، وهو ما حدث أيضاً مع المفكر إدوارد سعيد الذي مُنعت جثته من الدفن في تراب بلده)¹ فالكاتب يحاول التوغل في العلاقات الإنسانية بدل الانسياق خلف الدوافع السياسية مبرزاً ذلك بأن الرواية هي رسالة إنسانية تهدف إلى خلق دوافع إيجابية بغية التواصل والمشاركة مع الآخر، وفي خضم نقاشه حول الكتابة عن بلد آخر يقول:

(... "أنت تكتب عن بلد رغم أنه عربي واعرفه لكنك لم تعش فيه"، مؤكداً أن القرابة الداخلية مع الدراسة التاريخية مكنته من رؤية كل المناطق التي كتب عنها، ويؤكد... أنه رغم عدم زيارته للقدس فإنه تمثلها برؤيا القلب)²، فالكتابة هي سفر الروح قبل الجسد، ورسالة إنسانية تسعى إلى بناء جسر تواصل بين الأنا والآخر، بغض النظر عن هوية الآخر ودينه ومعتقداته، رابطاً الكتابة الروائية بالجانب التاريخي الذي اتكأ عليه كمرجعية في روايته، موثقاً بذلك حوادث وتواريخ حدثت بالفعل، وهذا ما يؤكد أن الجانب التاريخي لا بد من الرجوع إليه في الدراسات المقارنة، وهذا للتأكد من أن الكاتب تناول جوانب تاريخية إما للشعوب الأخرى أو البلدان ومدى مصداقيتها، بغية تأكيد أو دحض تلك الصور التي أعطاها الروائي عن بلد ما أو شعب آخر.

الروائي الجزائري "ياسمينه خضرا" هو الآخر استطاع أن يبرز صوراً مخالفة للآخر اليهودي، رواية كتبت باللغة الفرنسية لا تتوافق في مجملها مع تلك التي ألفناها في الأدب الغربي، من خلال رواية "الصّدمة" "l'attanta" التي حملت في طياتها صورة عن اليهودي المتسامح، صاحب القلب الطيب، مشيراً إلى نموذج الفلسطيني المتجنس بالجنسية الإسرائيلية وتقبل الآخر اليهودي له وتعايشه معه، روايته تحكي فصول الحرب القمعية التي يمارسها الصهاينة على الفلسطينيين، ممارسات تُجسد

¹ - مقال بعنوان: "سوناتا لأشباح القدس" وفصول النكبة، المصدر: الجزيرة، اللقاء يوم: 2012/05/24، الموقع:

<https://www.aljazeera.net>، تاريخ الزيارة: 2020/08/08.

² - المرجع نفسه: الجزيرة، الموقع نفسه.

واقع اجتماعي وسياسي يسيره الإسرائيليون بموجب السلطة والقوة على الأنا الفلسطينية، لكنه يعري جانباً من العلاقات الإنسانية التي جمعت الآخر اليهودي بالأنا العربية الفلسطينية ويبرز ذلك التّقبل الدّي حظي به الدكتور جعفري بين اليهود خاصة بعد تجنسه، في ظل الوضع المأزوم الذي تعيشه مناطق فلسطينية خاضعة للسيطرة الإسرائيلية، فقد صور الروائي شخصيات يهودية صديقة وأخرى عدائية وفق نمطين معيشيين مختلفين تماماً على أرض واحدة، فجهة تميزها حوافز إيجابية تقوم وفق رؤية تواصلية بين الآخر اليهودي والأنا العربية الفلسطينية، وأخرى تطغى عليها حوافز سلبية تقوم على معوقات الالتقاء وعدم الرغبة في التواصل، هاته الرؤية التي تبناها الروائي ساهمت في تشكيل صورة عن يهود فلسطين تذهب في غالبها إلى إنصاف اليهودي الذي يكره الحرب وينشد السّلام والاستقرار الدّي يسعى إليه العرب، كما نلمس من خلال قراءتنا لها جانب من التطبيع والانحياز الذي يظهر جلياً في مجموعة من الشخصيات اليهودية المثقفة والتي ترفض فكرة الحرب أساساً وتدعو إلى التعايش بسلام مع الفلسطينيين العرب، وهو الأمر الذي استنكره جمّع من القراء الفلسطينيين. فحسب الناقد الإسرائيلي تسورا رليخ (هذا الكاتب العربي ليس فقط ينتقد الإرهابيين العرب بل يظهر قرفاً اتجاههم، إنه أيضاً يكذب فكرة قتل الجيش الإسرائيلي لأطفال جنين ويرفض تقريباً أي تفاهم مع العرب الانتحاريين، إنه شجاع ويستحق التقدير)¹ وهذا ما يُدخل الروائي خضرا في قفص الاتهام حين يشوه صورة العرب الفلسطينيين، ويُشبههم بالانتحاريين الإرهابيين، منحازاً في ذلك إلى المحتل الصهيوني، وهذا من شأنه أن يفتح على الروائي مسارب من الرفض والاستهجان، وإثارة حفيظة العرب عند اطلاعهم على فحواها، وهو نفس الشيء الذي أثار الناقد الأديب محمد بومعراف في قراءته لرواية ياسمينه خضرا واستنكاره لما حملته من مغالطات تشوه العرب الفلسطينيين وتدينهم، في حين تقوم ببراءة الكيان المحتل.

¹ - محمد كاديك: قراءات وبحوث Question de littérature et études comparées، الموقع: kadik.net، اطلعت عليه بتاريخ: 2020/08/09.

اليهودي الجزائري هو الآخر شهد حضوراً ضمن الرواية الجزائرية المعاصرة، حين تجلت صورته في رواية "أنا وحاييم" لكتبتها "الحبيب السائح" والتي يروم من خلالها إلى إحياء ذكرى اليهودي الذي يعتبره جزءاً لا يتجزأ من ذاكرة التاريخ الجزائري، مستنداً إلى مرجعية تاريخية، ليسرد نموذجاً يهودياً متعايشاً يقترب إلى الخيال أكثر منه إلى الواقع، نموذج يتمتع بكل المزايا الحميدة، وكأن الخطيئة لم تعرف إليه طريقاً، لا غبار عليه، في رسالة داعية للتسامح والتّصالح. تميل إلى مغازلة الآخر اليهودي، من مبدأ تقبل الاختلاف هوية وثقافة وديناً. بالرغم من أنه لم يُخالطهم ولم تربطه بهم أية علاقات، إلاّ تلك الذكريات المبهمة وقصص الأجداد التي تلاقحت وتمخضت لتلد هذا المنتج السردي بحمولاته اللغوية والرمزية والدلالية، لكسر الحواجز الاجتماعية وتعزيز العلاقات الإنسانية، ومن جهة أخرى لكسر الصورة النمطية المعشقة في الدّهنية العربية والجزائرية خاصة، من منطلق نابع من قناعاته، كما يصرح في إحدى الحوادث التي أجراها مع صحيفة (أرابليتي)، فهو يصرح لـ "لينكس كالي" التي حاورته قائلاً (إن اختياري الكتابة عن تلك العلاقة كان نابعاً من قناعاتي بأن اليهود الجزائريين شكلوا جزءاً لا يتجزأ من مكونات البلد البشرية والتاريخية والثقافية)¹، فقد كانوا حَسْبُهُ مندمجين في المجتمع الجزائري لا تفرق بينهم وبين مسلمي الجزائر، من ناحية اللّغة واللباس وحتى جُلُّ العادات والتقاليد التي تبناها ومارسوها رغم اختلاف الديانتين، كما أنه يؤكد على عودته للتاريخ من أجل بناء وتخييل تلك العلاقة التي جمعت "أرسلان المسلم" و "حاييم اليهودي"، فهي حسب ما صرّح (علاقة تاريخية محورها إنساني ومحركها سؤال الهوية وهمها التعايش. ونظراً لحساسية الموضوع، التي لا تقبل الخطأ -أيّاً كان نوعه - تحتم علي أن أبذل جهداً كبيراً في تجميع المادة التاريخية الثابتة ودراستها وطرح أسئلة حولها لتتسنى عملية إدراجها ضمن سياق التخيل الأكبر)²، فقد كان لزاماً أن يدق أبواب التاريخ ليعزز أحداث روايته وإن لم يدرجها ضمن الرواية التاريخية إلاّ أنّها تلعب على وتر التاريخ بتناولها لتلك العلاقات

¹ - حوار مع الروائي الجزائري الحبيب السائح المدرج على القائمة الطويلة للجائزة الدولية للرواية العربية 2019، كتب في 16 يناير 2019. الموقع: <https://arablit.org/./habib-al-sayah-/...cracking-the-shell-of>، اطّعت عليه يوم: 2019/12/01..

² - المرجع نفسه: نفس الموقع.

الإنسانية التي كانت قائمة حقيقة، والتي تعد جزءاً من تركيبة المجتمع الجزائري، وقد أبدع في رسم صورة اليهودي داخل الرواية، مظهراً جوانب من التعايش الذي جمع بين يهود ومسلمي الجزائر قبل وإبان الثورة التحريرية، في حين كان للمستعمر دور في زعزعة ذلك الاستقرار، وقتل الرغبة في التعايش مع قطع حبال التواصل الإيجابي بين اليهود والأهالي الجزائريين.

حظي اليهودي الجزائري في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية بمكانة كبيرة من قبل الروائي (أمين الزاوي) مستدعياً إياه في رواية (آخر يهود تمنطيط) "le dernier juif de Tamentit"، فهو كعادته يكسر حواجز الصوامت بالمواضيع الساخنة، ويلعب بالكلمات في حقل ملغم بالتناقضات والمحظورات الدينية والسياسية مبرراً ذلك بأن (تكسير الطابوهات ليس لعبة مراهقة أدبية، إنما عمل إبستيمي معرفي مؤسس على القراءة والسؤال والمعرفة)¹، فهو في روايته يتناول حقيقة الوجود اليهودي الذي يُعدُّ جزءاً من تاريخ المجتمع الجزائري، وهذا بعد اطلاعه على كُتب التاريخ، كما يُصرح في إحدى مقابلاته حين نزل ضيفاً على المركز الثقافي الجزائري بباريس بأن (فكرة كتابة هذا المؤلف مستوحاة من التحقيق الذي قام به بمنطقة تمنطيط بتندوف حيث عاش آخر يهود)²، فهو يربط الإنتاج الأدبي بسياقه التاريخي، ورغم الهجوم الذي تعرض له من طرف عديد النقاد حيث تناول الآخر اليهودي، إلا أنه من دُعاة التحرر من كل القيود الدينية والسياسية المتعصبة، واصفاً القارئ المتعصب للآخر بالجاهل حين يقول عنه: (...يمارس الهجوم من موقع غير موقع الأدب... من موقع الفاناتيك الديني والمعاداة للمختلف والآخر. من هنا يصبغ كل إبداع يذهب مذهب الحداثة والمناهضة للتقليدية الماضية وللتكلس بأنه إبداع غريب وشاذ وأن غرابته وشذوذه من نتاج التأثر بالآخر وهي تُهم مؤسسة على فويبا الآخر وهي دعوة تريدُ عزَل الثقافة العربية عن الشروات

¹ - الروائي والأكاديمي أمين الزاوي للتصريح اليومية، نشر بتاريخ: 24 أيلول / سبتمبر 2019، الموقع:

<http://www.annasronline.com>، اطلعت عليه بتاريخ: 2020/04/14.

² - مقالة بعنوان: آخر يهود تمنطيط "لأمين الزاوي"، نشر بواسطة (ق.ث) في الحياة العربية، يوم: 2012/04/01، الموقع:

<http://www.djazaiross.com>، اطلعت عليه بتاريخ: 2020/04/14.

الإنسانية وقطعها عن كل سياقاتها التاريخية)¹، فهو من دعاة الانفتاح على الآخر، والتّجديد وهذا بإشراك جميع الفروع الإنسانية في التّنتاج الأدبي لتصبح بذلك الأعمال الروائية والفنية ذات قيمة تثري رصيد الثقافة العربية عامة.

ففي روايته "آخر يهود تمنطيط" يستدعي شخصيات يهودية تائهة في صحراء الجزائر، هاربة من محاكم التفتيش في الأندلس، مصوراً إياهم من زاوية تعكس تعاطفاً كبيراً تجاههم، مؤكداً لفكرة أن اليهود جزء من التركيبة الاجتماعية والبشرية بالجزائر، الذين اندمجوا بكيانهم في المجتمع متأثرين بعاداته وتقاليده، وكيف تمت محاربتهم من قبل الشيخ عبد الكريم المغيلي، فالكاتب يعتبر عمله هذا بأنه (...جرأة قائمة لأنها تطرح إشكالية العناصر المكونة للهوية الجزائرية التي ما تزال محلّ جدل، منها الأمازيغية والعربية)² مستدعياً بذلك واقعاً تاريخياً، ليربط حبل أفكاره وتخيلاته بحقائق تاريخية، مازجاً بينهما، ليتمخض عنها المنجز الروائي الذي اتخذناه نموذجاً للدراسة، بالإضافة إلى النماذج التي ذكرناها آنفاً، بغية الكشف عن الصّور التي اتخذها اليهودي في كل رواية، والتعرف على الآخر اليهودي الفلسطيني وحتى الجزائري، والذي كان حاضراً بقوة في الخطابات الروائية لكل روائي من الروائيين الجزائريين المعاصرين الذين تناولنا أعمالهم بالدراسة. وهذا ما نسعى للكشف عنه، وعن مدى براعة الروائيين الجزائريين في تجسيد صورة اليهودي وكسر طابو من الطابوهات المسكوت عنها حيناً من الدّهر في أعمالهم الأدبية، فكيف تمّ بناء الشّخصية اليهودية في خطاباتهم وما هي الدّلالات المنبثقة عنها؟.

¹ - أمين الزاوي للنصر اليومية، الموقع: annasronline.com.

² - مجلة مدارات، بقلم أمين الزاوي: يقول عن روايته الصّادرة عن دار البرزخ (اليهودي الأخير في تمنطيط)، بتاريخ: 2012/09/25. الموقع: <https://madarat-chatat.com>، اطلعت عليه بتاريخ: 202/04/20.

الفصل الثاني صورة يهود
فلسطين في الرواية الجزائرية
المعاصرة "الصدمة" وسوتانا
"لأشباح القدس"

الفصل الثاني: صورة يهود فلسطين في الرواية الجزائرية المعاصرة "الصدمة" وسوناتا لأشباح القدس"

توطئة

أ- الصورة السلبية ليهود فلسطين في روايتي "الصدمة" و "سوناتا لأشباح القدس"

1- صورة اليهودي المُضطَّهَد والحقود

- الشرطة الإسرائيلية في "سوناتا لأشباح القدس"
- الشرطة الإسرائيلية في "الصدمة"
- المنظمات الإرهابية في "سوناتا"
- النقيب موشي في "الصدمة"
- الشرطي اليهودي المتغطرس في "الصدمة"
- المخابرات الإسرائيلية في "الصدمة"
- الحركات الصهيونية في "الصدمة والسوناتا"
- الشرطة اليهودية في "الصدمة"

2- صورة اليهودي العنصري والمتطرف

- الجيران اليهود في "الصدمة"

ب- الصورة الإيجابية ليهود فلسطين في روايتي "الصدمة" و "سوناتا" لأشباح القدس:

1- صورة اليهودي المتعايش

- شخصية عزار بن حاييم - "الصدمة"

- شخصية هرمون سيمون - "السوناتا"
- شخصية اليهودي الصديق - "السوناتا"
- شخصية نافيد رونين - "الصدمة"

2- صورة اليهودية المتعايشة:

- شخصية كيم يهودا - "الصدمة"
- شخصية إيفاموهلر - "السوناتا"

3- صورة اليهودي الحيادي وجرح المحرقة

- شخصية العجوز سابا يهودا - "الصدمة"

4- صورة اليهودي الناسك:

- شخصية شلومي هيرش - "الصدمة"

ج- صورة المكان وسيطرة اليهود عليه

توطئة:

تُعدّ الرواية فسيفساء عجيبة، يُدع فيها الكاتب ليعبر عن قصته، التي تستوجب اختياراً دقيقاً لشخص و أماكن وأزمنة تتفاعل فيما بينها وتمتاز لتخرج في صورة إبداعية تشدك فيها من أول كلمة إلى آخرها، وتندمج مع أحداثها كأنك تعيشها، فتتأثر بتفاصيلها وبأبطالها، فالكاتب المتميز هو الذي يُصور نماذج بشرية في مجتمعات مختلفة ليست بالضرورة تلك النماذج التي ترعرع وسطها، وإنما يعبر عن شخصيات من مختلف الجنسيات، والثقافات والحقب التاريخية، وحتى الديانات، هاته الصورة هي انعكاس لمدى ثقافة الروائي وتمكنه من القبض على أدق تفاصيل الآخر وتجسيدها من كل النواحي، النفسية والتاريخية والسياسية والاقتصادية... وإبراز الجانب الإنساني المتعايش وغير المتعايش مع الأنا.

وهذا ما لمسناه في روايتي "الصدمة" للروائي ياسمينه حضرا ورواية "سوناتا لأشباح القدس" لواسيني الأعرج. فالروائي والكاتب الجزائري واسيني الأعرج من بين الروائيين القلائل الذين اختاروا كسر حاجز الصمت والكتابة عن يهود فلسطين في روايته "سوناتا لأشباح القدس" بعد أن كان التعرض للشخصية اليهودية يُعدُّ ضرباً من المجازفة. وهذا بعدما زرع الاستيطان الصهيوني والكيان الإسرائيلي جذوره في قلب المشرق العربي، عمدت الثقافة العربية إلى تنميط الشخصية اليهودية، ضمن قالب شامل من الرّفص والعداء، كونها اغتصبت الأرض وشردت أهلها وأقامت وجوداً ملفقاً بالأكاذيب على جثث الفلسطينيين¹، فهاته الصورة كفيّلة بتكوين خلفية نمطية عن الشخصية اليهودية، لتشوب بعدها الأعمال الفنية الروائية نظرة متحيزة عن اليهود والشخصية اليهودية على حدّ سواء.

¹ - ينظر: صلاح صالح: سرد الآخر (الأنا والآخر عبر اللغة السردية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، ص

تناول واسيني الأعرج في روايته الشخصية اليهودية والصهيونية، وركز في طرحه على أن اليهود الفلسطينيين هم فلسطينيون وعرب، ولم تكن ثمة مشكلة معهم، حاول أيضاً تصوير كيفية احتكاك الفلسطينيين بالإسرائيليين المحتلين والصراع القائم بين الأنا والآخر في أرض فلسطين، فدراسة صورة الآخر في أي نص أدبي تقتضي لا محالة الاهتمام بجميع مكونات صورة الآخر من مميزات (للشخصية مثل وصف الجسد، ودلالة الاسم واللغة والمعتقدات والأفكار، وما يخرج عن إطار الخصائص الشخصية ولكنه توجد علاقة وثيقة بينه وبين شخصية الآخر الجمعي والفردى، كالزمان والمكان والأدوات التي يستخدمها الآخر)¹، وتجلى لنا من خلال قراءتنا لرواية "سوناتا لأشباح القدس" أن واسيني الأعرج حاول تصوير واقع مُعاش متجاوزاً بعض الصور السلبية ليهود فلسطين وتقديمهم في صورة اليهودي المتسامح والمتعايش مع الأنا الفلسطينية، فإلى أي مدى استطاع تصوير الآخر اليهودي في علاقاته مع الأنا العربية؟

في السياق نفسه حاولنا استدعاء نموذج روائي آخر أبرز ضمن تلايبيه جوانب سلبية وأخرى إيجابية لشخصيات يهودية وإسرائيلية، رواية "الصدمة" l'attentat للروائي الجزائري ياسمينه خضراء الذي سلط الضوء على يهود فلسطين داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة، وعلى قضية التعايش بين اليهود والعرب، في تجربة مماثلة للروائي واسيني الأعرج، فكلتا الروائيتين تتقاطع أحداثهما على الأراضي الفلسطينية، مع تصوير كل منهما لجوانب نفسية وفكرية للشخصية اليهودية، فالشخصية (... مثلها مثل الأطفال أو العشاق، تحتاج لرعاية واهتمام وإصغاء ومراقبة وإعجاب دائم، وكل هذا يصبح صعباً للكاتب النشط، ولا يمكن أن يزوده بالطاقة إلا شيء مماثل يحبه المرء)²، فاهتمام الروائي ياسمينه خضراء بتصوير الآخر اليهودي ضمن أحداث روايته، نابغ من حُبّه لفن الكتابة، فكيف رسم

¹ - مسعود شكري وآخرون: صورة الآخر الإسرائيلي في رواية "المتشائل" لإميل حبيبي، فصلية إضاءات نقدية، السنة السابعة، العدد 26، صيف 1496، ش / حزيران، 2017م، ص 94.

² -مالكوم براد بري : الرواية اليوم، ترجمة: أحمد عمر شاهين، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة، 1996، ص124.

الفصل الثاني صورة يهود فلسطين في الرواية الجزائرية المعاصرة "الصدمة" وسوناتا لأشباح القدس"

شُخوص روايته من زاويته وبؤرة عدسته؟ وهل تتقاطع الشخوص المنتقاة في روايته مع رواية واسيني الأعرج؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال ضبط الشخصيات اليهودية بصفاتها وأدوارها وتفاعلها ضمن كل رواية.

تصنيف الشخصيات اليهودية في رواية "الصدمة" لياسمينه خضراء:

الشخصية	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الدور في الرواية
عزرا بن حاييم - مدير المشفى -	- كرشه مكورة - عند الفرح تعلق شفثيه ابتسامه خفيفة. - يضع نظارات . - أنفه قبيح المنخرين. - حاد النظرة وصارم	تخطي الستين من عمره. - رجل نشيط يقظ يلقبونه بالرقيب لفرط استبداده الذي تزيده سوءاً روح دعابته لا تتلاءم مع الحديث. - يشمر ساعديه في الحوادث الأليمة وآخر من ينصرف - صاحب نفوذ - متضامن مع الدكتور أمين.	- يقوم بمساعدة الدكتور أمين جعفري بتوظيفه لنفوذ وإبعاد خصومه عنه وكذا يحاول إخراجهم من الصدمة التي تعرض لها، إثر العملية التي قامت بها زوجته.
الطلاب اليهود الأثرياء في الجامعة	لا شيء	يضعون في معصمهم سلسلة ذهبية. منضمين إلى أخوية النخبة الجامعية.	يقومون بالسخرية من الدكتور أمين واستفزازه.

الفصل الثاني صورة يهود فلسطين في الرواية الجزائرية المعاصرة "الصدمة" وسوناتا لأشباح القدس"

	-يملكون سيارات - فحمة ومكشوفة - - متكبرون - السخرية - والاستفزاز من جميع إنجازات الدكتور أمين		
الدكتورة كيم يهودا	-حاجباها جميلان. -لها غمازتان على وجنتيها. -شعرها فاحم أسود.	-مؤدبة-مهذبة - فطنة - جميلة - عفوية -ساذجة-مرحة-سخية -إنسانية-تدخن السيجارة	صديقة حميمة لأمين تقف بجانبه في أوقاته العصيبة تحاول إخراجه من الصدمة التي تلقاها.
المصاب اليهودي في المشفى	مصاب بجروح ذراعه متهالكة ملامحه محتقنة -يقلب شفتيه	متعجرف - حقود يكره العرب متذمر-يفتقر إلى الأخلاق	يصاب في الانفجار الانتحاري، ويرفض أن يعالجه الدكتور جعفري لأنه عربي.
رجال الشرطة اليهودية	لا شيء	لديهم نظرة متوعدة ومتفرسة - شكاكون - عنيفون يكرهون العرب كرهاً شديداً	يقومون بتفتيش الدكتور جعفري بعد حصول العملية الانتحارية مباشرة
نافيدرونين -مسؤول رفيع في الشرطة الإسرائيلية	-صوته مخرش هامته مخلعة -ساقه اليمنى مقطوع منها 4 سنتمترات -كرشه مترهل -هزيل الجسم	مسؤول رفيع في الشرطة الإسرائيلية. -لبق - لديه حس دعابة - مواظب في عمله.	يقدم يد المساعدة لأمين جعفري، ويقف معه في محنته بعد الصدمة
النقيب موشي	-ربيع القوام	رجل فظ - متذمر	يحقق مع الدكتور أمين

الفصل الثاني صورة يهود فلسطين في الرواية الجزائرية المعاصرة "الصدمة" وسوناتا لأشباح القدس"

جعفري في قضية العملية الانتحارية التي قامت بها زوجته . -يفتش بيته.	-غير لبق - مُدخن يكره العربي مُضطهدٌ	-فظ الهيئة -قصير القامة -أجلح الرأس	
يحققون مع الدكتور جعفري ويمارسون أبشع أنواع التعذيب معه.	همجيون - يكرهون العرب - أقوياء مخربون	لا شيء	الضباط اليهود
شخصية حيادية تنبذ الحرب والقتل الذي يمارسه الصهاينة على العرب.	درس الفلسفة في جامعة تل أبيب -منظم في حركة سلمية.	صوته سلس	بنيامين يهودا -شقيق الدكتورة كيم يهودا
-يعيش عند شاطئ البحر وحيداً، رفقة ذكرياته عن مأساة المحرقة وكيف تم تهجيرهم وعائلته من ألمانيا قسراً.	لَبِقٌ - مترمل منذ 30 سنة - مريض بالسرطان (غدة البروستاتا)	جسمه ناحل العظام بادية في أعلى وجنتيه -مقلتاه متحجرتان	العجوز سابا يهودا جدُّ الدكتورة كيم يهودا
يهرع لرؤية من في بيت جاره بنيامين، فيجد أخته كيم رفقة أمين جعفري ويخبر الشرطة بوجودهما داخل المنزل.	يَعْتَمِرُ القُلنسوة اليهودية-يرتدي فانلة قطنية-متطفل - وقح-جريء-يسكن في الرقم 38.	مديد القامة	الجار اليهودي
يقوم باستجواب الدكتور جعفري	مهذب	أشقر-متقدم في العمر-هزيل الجسم	الضابط الإسرائيلي
تقوم باعتقاله بعد	حازمة	سيدة شقراء	الضابطة الإسرائيلية

الفصل الثاني صورة يهود فلسطين في الرواية الجزائرية المعاصرة "الصدمة" وسوناتا لأشباح القدس"

شجاره مع أحد اليهود في الحانة	متعصبة	عريضة النهدين أنفها مضحك عينها متوقدتان	
كان صديقاً مقرباً لوالد الدكتور أمين الرسام رضوان جعفري	كان سمساراً ثم تحول إلى دجال -يتمتع بشخصية ساحرة.	أبيض الشعر يتكأ على عصي ملاحه حائرة	العجوز اليهودي (شلومي هيرش) الملقب بـ (زيف)

تصنيف الشخصيات اليهودية في رواية (سوناتا لأشباح القدس) لـ واسيني الأعرج:

الشخصية	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	دورها في الرواية
الشرطي الإسرائيلي	وسيم محياه	مدحج بالأسلحة -مسالم مع الأجانب ومهذب	يقوم بحراسة المصلين عند حائط المبكى
فرق - الهاجاناه -الشيترن -الإرقون	لا شيء	قتلة لا يعرفون الرحمة	مهمتهم القتل والتخريب - بث الرعب والخوف داخل الأنفس العربية الفلسطينية
أحباء صهيون	لا شيء	لا شيء	يهيمون حباً بصهيون، ويسعون إلى ملمة شحات اليهود على أرض الميعاد - فلسطين -
تيودور هرتزل	لا شيء	ذكي يشتغل صحفياً كاتب مسرحي.	هو من أشاع فكرة أنه لا استقرار لروح

الفصل الثاني صورة يهود فلسطين في الرواية الجزائرية المعاصرة "الصدمة" وسوناتا لأشباح القدس"

اليهودي إلا على أرض فلسطين	ناشط سياسي		
كان يطالب بتأييد قضيته الحيوية في إنشاء دولة إسرائيل مقابل براءة اختراعه.	كان يعمل مدرساً للكيمياء في جامعة مانشستر. تجري الصهيونية في عروقه ودمه.	لا شيء	حاييم وايزمان
كان صديقاً لوالد (مي) ومتعايشاً معه ومع العرب في سلام.	يعمل طبيباً - طيب القلب-متعايش مع العرب- يؤمن بأرض يسودها السلام.	لا شيء	هرمون سيمون طيبب عائلة الحسيني
صديق غسان وهو خال (مي)، وقد كان هذا اليهودي مسالماً طيباً.	يمارس التجارة -طيب القلب	لا شيء	التاجر اليهودي
خطاط جدّ (مَي) وهو الرخوخطاط بالأندلس	كان محل ثقة ويعمل خطاطاً بالأندلس	لا شيء	يوسف بوخريس
كانت عشيقه والد (مَي)، وهي تعتبر غير يهودية لأن النسب يعود للأمم فقط، متعايشة مع الأنا الفلسطينية.	من أب يهودي وأم ألمانية -تعمل ممرضة بإحدى المستشفيات الألمانية بالقدس.	لا شيء	إيفا موهلر

أ- الصورة السلبية ليهود فلسطين في الرواية الجزائرية:

صورة اليهودي المضطهد والحقود:

اليهودي هو كل من انتمى ليهودا ابن يعقوب ومن ثم المملكة اليهودية، ومن يعتنق الديانة اليهودية وأسس العقيدة اليهودية التي تدعو إلى الإيمان بإله واحد وعبادته وحده والإيمان بموسى عليه السلام، لكن إذا عدنا إلى رواية "سوناتا لأشباح القدس" فإن أحداثها تبدأ سنة 1948 حين كانت القدس مستهدفة من قبل المستعمر الصهيوني لتبدأ معها معاناة بطلة الرواية.

حيث أنه وبتاريخ (10 أبريل 1948)¹ تم إبادة أزيد من (200 Arabs killed stronghold taken)²، وحسب ما جاءت به تلك المقال فإن البطلة تقرأ أيضا (الهاجاناه تعتدي على عائلة الحسيني، ثم ينط أقل عرضا: مقتل الزوجة الحامل والأم وحرق البيت، وسيدة مسيحية تنقذ الابنة بأعجوبة)³، من هنا تنطلق أحداث الرواية فهاته البنت التي نجت من قتل محتم إن وجدت في منزلها هي نفسها بطلة الرواية "مي" التي تسافر مع أبيها إلى نيويورك، لتسافر معها أوجاعها وذكرياتها التي كان الاستعمار الصهيوني سبب فيها، فقد كانت أحداث الرواية تدور حول ما خلفته الحرب من دمار نفسي للإنسان قبل المكان، يركز الكاتب في روايته على اليهودي المحتل والمتسلط الذي لا يهمه سوى سلب الأرض زاعمين أنهم شعب الله المختار.

لقد تعددت وتباينت الصور التي تمثل شخصيات معادية للأنا، فالآخر اليهودي بجوازه التي يفرضها يُنشأ تقاطعاً وإعاقاً في التعامل مع الأنا العربية وخاصة الفلسطينية، وقد تمثلت هاته الصور

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، موفم للنشر، الجزائر، 2015، ص 298.

² - المصدر نفسه: ص 299.

³ - المصدر نفسه: ص 299.

في عدة شخصيات، منها صورة الجنود الإسرائيليين، وعناصر الشرطة بمختلف منظماتها ورؤسائها في السلك الأمني متوزعة على روايتي (الصدمة) و (سوناتا لأشباح القدس).

الشرطة الإسرائيلية في سوناتا لأشباح القدس:

يصور واسيني الأعرج في روايته "سوناتا لأشباح القدس" العسكر الإسرائيلي المضطهد للفلسطينيين، ولكن تتغير معاملته مع الأجنب وهذا عندما زار "يوبيا" ابن "ممي" القدس بعد وفاتها لينفذ وصيتها، إذ يقول (أوقفني عسكري إسرائيلي وسيم، مدجج بالأسلحة، عند حائط البراق وقال لي: ماذا تفعل؟ قلت: أخط طريق أمي حتى حائط البراق ومقام جدها الأول. ابتسم لابد أن يكون ظني مجنوناً، ثم قال: أنت في مواجهة حائط المبكى ولا يوجد في عمقه كما ترى، أي مقام؟ ثم سألتني من أين؟ أخرجت جوازي من جرابي وقدمته له، هز رأسه وقال بابتسامة عريضة بلدت قليلاً من محياه الجميل: أمريكان؟ Welcome...Welcome. أعاد لي الجواز، ثم التفت إلى شأنه يحرص المصلين ويلعب بجزام سلاحه)¹.

رحب العسكري بيوبيا ذاك الترحيب الحار عندما علم أنه من أمريكا، لولا هذا لما كان أطلال الحديث معه، فعمل العساكر هو حراسة الحائط والتصدي للفلسطينيين ومضايقتهم في عُقر ديارهم، فيبدو هذا العسكري الإسرائيلي من خلال مواصفاته على لسان البطل الراوي مسلماً جداً، فقد عمد الكاتب إلى تصوير العسكري بصورة إيجابية ذلك لتبيين معاملة اليهود مع الأجنب لكسب ثقتهم وهذا من أجل (المحافظة على صورة إسرائيل العسكرية أمام العالم، ولإثبات تفوقه على جيوش الدول

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 14-15.

العربية) ¹ وكذا من أجل إبراز مدى تحضّر العساكر الإسرائيليين وإعطاء صورة مثالية أمام الغرب خاصة.

الشرطة الإسرائيلية في الصدمة:

أما في رواية "الصدمة" لـ "ياسمينه خضراء"، فتظهر المفارقة في المعاملة من طرف الشرطة الإسرائيلية للطبيب أمين جعفري، فبعد حصول الانفجار يعود أمين لبيته ليلاً ليصادف عدة حواجز أمنية فالوضع بات محمومًا، لكنه لم يسلم من التفتيش ليلتها قائلاً: (أمري شرطي انبثق من حيث لا أدري: لا تبق هنا. مسح سيارتي ببطارته التي سدّد ضوءها أولاً نحو لوحة التسجيل ثم نحوي، تراجع قليلاً ووضع يده الأخرى على مسدسه .

حذرتي قائلاً:- لا تأت بمجرة مباغته، أريد أن أرى يدك على المقود. ماذا تفعل هنا؟ ألا ترى أن الموقع مطوّق؟) ².

وهذا يدل على أن الشرطي اليهودي قد اشبه فيه، ليأتي بشرطي آخر لمساعدة زميله (جال الشرطي الثاني كذلك بمصباحه عليّ، وتفترس في ملاحي بنظرة متوعدة ومرتابه) ³ ليسأله عن هويته وأوراقه الثبوتية التي عززت من شكوكهم وزادت من ارتياهم (ارتاب بسبب اسمي العربي هذا ما يحدث دائماً بعد كل اعتداء، يكون عناصر الشرطة مستنفرين، وتعزّز السحنات المريبة حساسيتهم) ⁴، فالمواطن الفلسطيني أينما كان هو محل شك وريبة، ومتهم عند حدوث أي انفجار انتحاري،

¹ - ملاك جرجس: سيكولوجية الإستراتيجية الصهيونية ومفهوم إسرائيل للسلام، ليبيا، طرابلس: قطاع الكتاب للتوزيع، 1981، ص 152.

² - ياسمينه خضراء: الصدمة، ترجمة: هلة بيضون، دار الفارابي - بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص 28.

³ - المصدر نفسه، ص 28.

⁴ - المصدر نفسه، ص 28-29.

فالكاتب هنا يقدم صورة عن الشرطي المتعجرف والمتسلط، إذ أنهم عاملو الطبيب بغطرسة وعدوانية (أمربي الشرطي الأول: أخرج، وقف أما السيارة).

امتثلت للأمر، قذفني بعنف على سقف السيارة، ثم باعد بين ساقي بقدمه، وأخضعني لتفتيش منهجي. ذهب الشرطي الآخر للتحقق من محتوى صندوق السيارة).¹

فبعد مساءلات عديدة للطبيب وبرغم تأكيده لهم أنه لا يعمل طبيباً وقد كان في المستشفى يُقدم الإسعافات لليهود المصابين إلا أنهم لم يتركوه يمضي قدماً، دون التأكد من جهات رسمية من صحة كلامه، فبلغوا مركز الشرطة عن هويته (إنه عربي يحمل الجنسية الإسرائيلية، يقول إنه خرج للتو من مستشفى (إيشيلوف) حيث يعمل جراحاً... جعفري، بالعين... اتصل بإيشيلوف وتحقق من الأمر...)² عقب كل عملية انتحارية تكون الإجراءات مشددة من قبل الشرطة الإسرائيلية، لكنهم بعدما تأكدوا من صحة قوله تركوه لحال سبيله (وبنبرة حاسمة، أمربي بالعودة أدراجي بدون أن ألتفت)³، فبعد عدة دوريات تفتيشية، يصل إلى بيته في تل أبيب، مهودود القوى، دون أن يجد زوجته، التي لم يعلم عدم مجيئها، ولم يعلم ما تُخبّؤه له الأقدار من توالي الأحداث.

المنظمات الارهابية الاسرائيلية في "سوناتا لأشباه القدس" :

يبرز واسيني الأعرج في رواية "سوناتا لأشباه القدس" صورة أخرى عن العساكر الإسرائيليين بمختلف منظماتهم، السّاعية للدّمار والتخريب على الأراضي الفلسطينية، فها هي ذي "مي" بعد هروبها مع والدها إلى نيويورك ونجاتها من موت محقق، ظلت تعتبر نفسها مسؤولة عن تهريب والدها وحمايته من أيدي فرق الهاجاناه، الذين صورهم الكاتب على أنهم قتلة لا يعرفون الرحمة فهم من أبادوا جميع

¹ - ياسمينة خضراء: الصدمة ، ص 29.

² - المصدر نفسه، ص 29.

³ - المصدر نفسه، ص 29.

عائلتها، فتقول مي: (...قطعت حواجز إليس أيلند بسرية، وخوفي من فصلي عن أبي ليلتها وسعادتي الساذجة التي لا توصف بأني أنقذت بابا حسن من موت مؤكد لأنه كان مطارداً من فرق الهاجاناه* والشتيرين** والإرقون*** العسكرية في القدس)¹، هاته العصابات شكلت خطراً كبيراً على حياة الفلسطينيين فقد كان همُّها الوحيد استئصال الجذور الفلسطينية واستبدالها باليهودية، هاته الصورة السلبية تبين حجم المعاناة التي تعرض لها الشعب الفلسطيني، وكيف أن الآخر الصهيوني حاول تشويهه ومحو كل ما يُعيقه من أجل تكوين دولة على أنقاض دولة أخرى، هاته الصورة كفيلة بتبيين مدى تأثير الكاتب بالعدوانية التي مارسها الصهاينة على العرب، كما أن "مي" ظلَّت حاقدة على مغتصبي أرضها وأحلامها، فبرغم حياتها المترفة في نيويورك إلا أنها ظلت تحمل مآسيها وذكرياتها الملعونة، التي

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 42.

* **الهاجاناه**: منظمة عسكرية إسرائيلية لعبت دوراً عسكرياً كبيراً في تأسيس إسرائي عام 1948، وارتكبت في سبيل ذلك أعمالاً إرهابية وجرائم حرب في حق الفلسطينيين انتظم في صفوفها عدد كبير ممن أصبحوا لاحقاً قادة للدولة، وبحكم متانة تدريبها وتسليحها شكلت النواة الأولى للجيش الإسرائيلي الرسمي، ويعني اسمها بالعبرية "الدفاع"، هذه المنظمة الصهيونية تطرد الفلسطينيين من أراضيهم وتوطن مكائهم المهاجرين اليهود، وتشكلت المنظمة تحت اسم "فرقة الدفاع والعمل" وبالعبرية "هاغاناه وعفوداه"، يُنظر: الجزيرة نت www.aljazeera.net، تاريخ الزيارة 2018/09/14

****الشتيرون**: عرفت الساحة الفلسطينية نشأة العديد من المنظمات الصهيونية القتالية، ولعلَّ منظمة (لحمي حيروت إسرائيل) بالعبرية (المحاربون من أجل حرية إسرائيل) والمعروفة بـ "عصابة شتيرون" تعد من أكثر المنظمات الصهيونية شراسة وشهرة، فقد قام اليهودي أبراهان شتيرن بتأسيس مجموعة أطلق عليها اسم المحاربون من أجل "حرية إسرائيل" والتي تعرف باسم شتيرن نسبة إلى مؤسسها، و يعود السبب الرئيسي لانشاء جماعة شتيرن لرغبة مؤسسها وأتباعه العمل المستقل خارج نطاق وتوجيهات المنظمة الصهيونية العالمية، بل وحتى بعيداً عن مظلة الهاجاناه الذراع العسكري للمنظمة الصهيونية على أرض فلسطين، قبل إعلان دولة إسرائيل سنة 1948.

*****الإرقون**: أو إتسل بالعبرية أي: المنظمة العسكرية القومية في إسرائيل وتلفظ: إرغون تسغائي لثومي، هي منظمة صهيونية شبه عسكرية وجدت في الفترة السابقة لإعلان دولة الكيان الصهيوني في فلسطين عندما كانت خاضعة للانتداب البريطاني في الفترة بين 1931 و 1948، ويُعزى الكثير من مشاكل الشعب الفلسطيني لمنظمة الإرجون، ويرى الكثير من الإسرائيليين في الإرجون على أنها منظمة قتالية تُنادي بحرية إسرائيل، كان شعارها يتكون من خريطة فلسطين والأردن وعليها صورة بندقية كتب حولها (راك كاخ) أي (هكذا وحسب)، ينظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة: <http://ar-m.wikipedia.org>، تاريخ الزيارة: 2018/09/14.

ترجمتها في لوحاتها، وعبرت عنها بألوانها المتراقصة على أناملها، فالوجع يبقى عالقاً بالذاكرة حتى وإن بُعدت المسافة وتغير الزّمن.

يصوّر واسيني الأعرج حقيقة الصّراع المحتدم داخل الأراضي المحتلة والسلطة التي يفرضها الجيش الإسرائيلي، متمثلة في مظاهر العنف والقتل المتأصلة في أعماقهم، فسفك الدماء شعارهم، ونهب الأراضي هدفهم، فهي هو الكاتب يجسد الواقع في روايته ويبرز وحشية الجنود الإسرائيليين في تنفيذ هجوماتهم، في دلالة واضحة على همجيتهم وحقدهم الذي أعمى الأبصار حيث تقول "مي" في مذكراتها (منذ نصف قرن فقط، استيقظت مدينة الله على جرح الموت. أتذكر جيداً يوم الثلاثاء 29 نوفمبر 1947 كانت العائلة كلها مجتمعة في ذلك المساء حول الترانزستور عندما انتفض جدي الذي سمع الخبر قبلنا جميعاً على الرغم من ثقل سماعه. كانت الصدمة قوية إذ ظلت الأفواه مدهوشة: قولوا لي أي لم أسمع جيداً؟ بهيك بساطة قرروا تقسيم فلسطين)¹ فهدف المحتل واحد سلّب الأرض دون وجه حق من أصحابها، بفعل القوة والسلطة والجبروت ناهيك عن (المناشير التي وزعتها الوكالة اليهودية على سكان الأحياء المقدسية العربية، كتبت عليها بخط عربي جميل: أنتم أيها العرب أبناء عم سامين. حكّموا عقولكم ولا تردوا على زعمائكم من العرب، فكل له مصلحة خاصة. انضموا معنا وسيروا على بركة الله لنقوم بتعمير البلاد من كل الوجوه ونسير فيها سوية كالإخوان)²، فأخي أخوة تُبنى على أنقاض الدّمار، فاليهود هنا يدعون العرب إلى التخلي عن حقهم في أرضهم مُحاولين إقناعهم بضرورة الرضوخ لمطالبهم.

فالكاتب هنا يصور جُزأةً ووقاحةً في استغلال المناصب من طرف الإسرائيليين الذي عاشوا في فلسطين فساداً، طاغين بفعل النفوذ والهيمنة التي فرضتها علاقاتهم بالدول الغربية، فتقسيم فلسطين هذا القرار الذي أشعل وأجّج فتيل الحرب جعل العرب ينتفضون في مظاهرات سرعان ما أخذتها

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 138-139.

² - المصدر نفسه، ص 139.

أيادي الجنود الإسرائيليين (وفي شارع يافا نفسه شاهدت تجمعاً يهودياً مؤطراً بجنود الهاجاناه في حالة هياج شديد كانوا متجهين شرقاً للهجوم على المناطق العربية ولكنهم منعوا من بعض زعمائهم والجيش البريطاني، فأحرقوا سينما ركس في شارع البرنيسيس ماري وبعض مخازن النجارة)¹ تمثل هذه الصورة الجنود الإسرائيليين الحاقدين المخربين، المضطهدين للأنا الفلسطينية.

تعددت النماذج المعيقة لسيرورة العلاقة بين الأنا والآخر داخل الرواية، فالحواجر التي يصنعها الآخر تشكل عائقاً في نظام العلاقات الإنسانية، وهو حال الجيش الإسرائيلي بمختلف أنظمتها وشخصه العاملة على بثّ الرعب والدمار في الأنا الفلسطينية، إذ تتضح الصورة شيئاً فشيئاً داخل رواية "سوناتا لأشباح القدس" وتعلوا معها معزوفة الدمار، نُوتاً تُترجمها وابل من الرصاص، فهاهي (فجيرة أخرى صباح 15 مارس 1948 لتختم الكل، عندما أعلن الإنجليز انتهاء الانتداب بعد أن سلموا كل شيء لجنود الهاجاناه والإرجون والشيتزن... على الدنيا السلام. هذه صفقة وليست شيئاً آخر. لقد باعنا الإنجليز للهاجاناه يابوي دربوهم وجهزهم وأشركوهم في الحروب الكونية الكبرى لكي يجعلوا منهم قادة محنكين... سيأكلون الأخضر واليابس)²، وهنا دلالة على وحشية هاته المنظمات وخطورتها على البلاد في نظر "غسان" خال "ممي" الذي تنبأ وصدقت نبؤاته، فقد اشتدت وتيرة الحرب واشتد معها طغيان المستعمر الإسرائيلي حين تقول: "ممي" (... لم تذهب الدعوات إلى أبعد من بوابات المدينة التي كانت تتقاسمها الميليشيات اليهودية والعربية التي أصبحت مدججة بأكثر الأسلحة فتكاً: الحقد والضعينة والاستعداد الجنون للموت والقتل).³

وفي صورة مشابهة لليهودي المعتصب للأرض الفلسطينية تقول "ممي" في حديث لها مع خالتها (مامي دنيا) كما كانت تناديها (سألتي عن كل التفاصيل، حتى عن عائلة يوسف،

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 140.

² - المصدر نفسه، ص 141.

³ - المصدر نفسه، ص 142.

والخباز، وبواب الأقصى والمفتي ومعزات عمي موسى ياللي أخذها منه اليهود، لم تسألني عن أمي)¹، فسلطة اليهود تعدت الحدود، ضاربةً بجذورها في عمق الديار المحتلة، ليس هذا فحسب بل (أقنعتني خالتي دنيا أن الجيش الإسرائيلي وراء حجز الرسائل لأنه أصبح هو سيد البلاد ويتحكم في كل مخرجها ومدخلها)²، وهذا يدل على أن الاستيطان اليهودي استطاع السيطرة والتحكم في كل شبرٍ من أقطار فلسطين (خصوصاً بعد استيلاء اليهود على أجزاء كبيرة من القدس)³، فقد كان همُّ المحتل الأول والأخير الاستيلاء على الأرض، وفرض السلطة وبواعث القوة التي استمدتها من الدول الغربية التي تدعمها، فها هي الحالة تحكي لـ "ممي" كيفية خروج والدها من القدس متخفياً معها، وعن مطامع اليهود في الاستحواذ على الأرض بكل الطرق قائلَةً: (كان الهاجاناه يبحثون عنه لتصفيته وتصفيته. ومحو العائلة بكاملها لأخذ أرضها. طلبوا شرائها من والدي فرفض، والدي كان يعرف كل شيء، رأى كيف باع بعض أفراد العائلة فدادينهم لمرابٍ إنجليزي سكن مدة طويلة في القدس وأسلم لكن المرابي باعها بدوره لليهود بضعف ثمنها، بُنيت عليها فيما بعد مستعمرات كثيرة وبيوتات)⁴، فقد كان العمل الاستيطاني يهدف إلى إنشاء أكبر عدد من المستوطنات لجذب اليهود من كل حذب وصوب وتعمير فلسطين من (أجل تسهيل العمل على بناء المستوطنات، وتذليل الصعوبات التي قد تعترض المهاجر الجديد، ومضت الفئات الصهيونية قدماً في زرع المستوطنات حتى أصبحت عام 1950 (260) مستوطنة)⁵. يصور الكاتب وحشية الجنود في قتل الكبير والصغير (...خيك ومامتك قتلهم اليهود في القدس الهاجاناه دخلوا عليهم وقتلوهم كلهم)⁶.

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 240.

² - المصدر نفسه، ص 244.

³ - المصدر نفسه، ص 258.

⁴ - المصدر نفسه، ص 274.

⁵ - اللجنة الملكية لشؤون القدس: تطورات النشاط الاستعماري الاستيطاني في الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة، اللجنة الملكية، نشرة خاصة، 1985، ص 09.

⁶ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 273.

تعددت صور القتل في رواية (واسيني الأعرج) فقد وصفها بـ (الآلة الجهنمية)¹ التي لا تعرف الرحمة والشفقة، جُبلت هاته النماذج للعساكر والجنود الإسرائيليين على الحقد والكراهية، والقسوة التي أعمت أبصارهم كأنهم رضعوها من أمهاتهم، شعارهم كما أورد الكاتب في روايته (عائدون إلى أورشليم فرحين، في العام القادم...)،²، فإيمانهم بأن الأرض أرضهم خَوَّلَ لهم ممارسة جميع أنواع السُّلطة القمعية لحو الأنا الفلسطينية من خارطة الآخر اليهودي الإسرائيلي، وهذا ما لمسناه بكثرة ضمن روايته.

● شخصية النقيب موشي في "الصدمة":

صورة اليهودي المنتمي للسلك الأمني الإسرائيلي حاضرة دوماً في رواية (الصدمة) بجانبها السلبي والحاقد على الأنا والغير متعايش معها، فهذا هو ذا النقيب موشي يُوجه للطبيب أصابع الاتهام مباشرة بعد تفتيش الشرطة الإسرائيلية لبيته بعد الحادثة، متهمًا إياه بضلوعه في الحادثة رفقة زوجته إذ يقول له (إنني أفكر بصوت مسموع... أحاول أن أفهم، ولكن ثمة أموراً لن أفهمها أبداً، هذا عبثي للغاية، وغبي للغاية... هل تعتقد أنه كان بمقدورك أن تردعها؟... كنت بالتأكيد على علمٍ بخطتها، أليس كذلك)³.

هذا الأسلوب الاستفزازي الذي يتقنه كل يهودي ناظم على العرب جعل النقيب يسأل الطبيب أمين جعفري (هل تمارس الشعائر الدينية يا دكتور؟)⁴ قاصداً زوجته سهام إن كانت تصلي وتصوم، نفى أمين هذا، وبدأ النقيب في التحامل على أمين ومهاجمته بالأسئلة المستفزة قصد اعترافه بما ليس له دخل فيه قائلاً: (كانت تؤيد كتائب الأقصى... لا ليس كتائب الأقصى، يقال إنهم لا

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 279.

² - المصدر نفسه، ص 279.

³ - ياسمين حنّان: الصدمة، ص 47.

⁴ - المصدر نفسه، ص 48.

يفضلون العمليات الانتحارية، كل هؤلاء الحثالة يتشابهون عندي، فسواءً كانوا ينتمون إلى الجهاد الإسلامي أو إلى حماس، إنهم الزمر نفسها من المسعورين المستعدين للقيام بأي شيء لاستقطاب الأضواء)¹، يجسد الكاتب صورة اليهودي القُظ صاحب الشخصية العدائية، والتَّاقمة على العرب، فهذا اليهودي يمثل صورة المتعجرف الكاره للعرب وتنظيماته الجهادية، فهو ينعتهم بالمختلين والمخبولين، وفي هذا دلالة على تصغير وتحقير الذات الفلسطينية كذلك يقول النقيب (غريب يا دكتور هذا بالضبط ما يقوله أقارب هؤلاء المختلين حين نقصدهم بعد تنفيذ عملية انتحارية، يقابلونا كلهم بالهيئة المجنونة نفسها التي ألحها على وجهك، وقد تجاوزتهم الأحداث، فهل هذه تعليمة للجميع لكسب الوقت أم أسلوب وقح للاحتيال على الناس)²، تحمل لهجة النقيب نبرة سخرية ولهجة استعلائية، تُنم عن دواخله المريضة، فهو يحاول الحطّ من قدر العرب وِنعتهم بالاحتفال كذلك، وهذا للضغط أكثر على الطبيب وإثارة غضبه، هذا الأسلوب لا ينتهجه سوى شخص يُكِنُّ كَمًّا هائلاً من الحقد على الأنا التي لم يستطع تَقَبُّلها، بالرغم من أن الطبيب يحمل الجنسية الإسرائيلية، إلا أن هذا لم يشفع له عند الآخر لنسيان هويته الأصلية (العربية)، يُواصل النقيب موشي تكذيب أقوال الطبيب وعدم تصديقه بأن ليس له علاقة بالحادثة لكن دون جدوى قائلاً له (كيف كانت البارحة صباحاً حين فارقتها للذهاب إلى عملك؟)³، بالرغم من أن زوجة الطبيب سهام كانت غائبة عنه لمدة في زيارة لجدتها وإفهام هذا للنقيب الذي أبي أن يسمع إلا نفسه وتحاريفه، شخصية النقيب موشي المعقدة والعاجزة عن التواصل مع الآخرين أثَّرت في حياته العملية وزادت من كره للعرب، فقد تعرَّض للخيانة من طرف زوجته بدوري من امرأة رائعة، كانت مدعاة فخري واعتزازي، تطلَّب مني الأمر سبع

¹ - يامسنة حضرا: الصدمة، ص 49.

² - المصدر نفسه، ص 49-50.

³ - المصدر نفسه، ص 50.

سنوات لأكتشف أنها كانت تخفي عني أهم ما على الرجل أن يعرفه عن الإخلاص)¹، محاولاً إيصال رسالة مشفرة للطبيب مفادها أن لا تحسب زوجتك عفيفة، وتوقع كل شيء من النساء، بيد أن الطبيب ظلَّ يُدافع عن زوجته نافيةً عنها التهمة.

هاته الشخصية اليهودية تتمتع بقدرة استفزازية عالية، وطبع متعنت، لا يَأْتَمِرُ العرب ويشككُ في مصداقيتهم، فمن شدة ضغط النقيب على الطبيب أثناء استجوابه قام الأخير بدفعه بقوة (لشدة ما دفعته بحقد، كاد يقع فوق المنضدة الزجاجية الصغيرة خلفه)²، فالطبيب لا زال تحت وقع الصدمة والآخر يحاول جاهداً استنطاقه هنا دلالة على أن الأنا الفلسطينية متمثلة في الطبيب لم تتقبل الآخر اليهودي المتعطر (النقيب موشي)، فبرغم تحالطهم وعيشهم على نفس الأرض إلا أن هناك من العرب من يحمل كرهاً لعدائية اليهود وحقداً لا يمحوه الزمن، فقد سلبوهم أرضهم وهويتهم وحتى حياتهم، فجاءت ردّة فعل النقيب عنيفة تنمُّ عن كرهه الداخلي قائلاً للطبيب: (لا تلمسني إياك أن تضع يديك علي)³، هذا الصنف من اليهود لا يحتل الأنا العربية، ولا يعترف بوجودها، وفيه دلالة على نكران للذات الأخرى وتحقيرها، وهذا ما يسبب القطعية ويضع حواجز للعزوف عن التعامل والاحتكاك مع الأنا.

يستخدم النقاش بعدها بين (النقيب موشي) والطبيب جعفري وتزداد الاتهامات والتهديدات من قبل النقيب، تقوم الشرطة الإسرائيلية باحتجاز الطبيب والتحقيق معه مع تسليط شتى أنواع العنف إذ يقول البطل الراوي (يُيقيني النقيب وأعوانه مستيقظاً أربعاً وعشرين ساعة متواصلة، يتناوبون بعضهم تلو بعضهم الآخر في الحجرة الوضيعة التي يجري فيها الاستنطاق... جرّوني جرّاً لإعادتي إلى قفصي،

¹ - ياسمينة خضرا: الصدمة، ص 51-52.

² - المصدر نفسه، ص 52.

³ - المصدر نفسه، ص 53.

ثم تواصلت المضايقة، والأسئلة، والضربات على الطاولة، والصفعات الخفيفة لئلا يغمى غلي¹، يبين هذا مدى عدوانية الجيش الإسرائيلي تجاه الأنا الفلسطينية، وممارسة أشنع أنواع التعذيب لمن يقع بين أيديهم دون أية رحمة، فالكاتب يصور النقيب والشرطة الإسرائيلية الحاقدين على العرب بموجب السلطة المخولة لهم، إنَّ العقلية الصهيونية مبنية على تصغير الأنا الفلسطينية والعمل على تشويه صورتها وإحاق الأذى أيّاً كان نوعه بها، فالنقيب "موشي" يتعجب من امرأة فلسطينية تحظى بمكانة مرموقة بين الإسرائيليين نظراً للمنصب الذي يشغله زوجها الدكتور، قائلاً: (لابد لي حتماً أن أعلم السبب الذي يدعو امرأة تحظى بإعجاب محيطها، جميلة، ذكية، عصرية، مندجحة، يدللها زوجها وتعبدها صديقاتها اليهوديات بمعظمتهم لتتحزم بالمتفجرات، وتقصد مكاناً عاماً لتعيد النظر بكل ما منحتة دولة إسرائيل إلى العرب الذين استقبلتهم في كنفها).²

يُدي النقيب تعجباً ويطرح عدة تساؤلات حول المكانة التي كانت تحظى بها سهام زوجة الدكتور جعفري، وتعايشها مع اليهود فقد كانت علاقتها طيبة مع جيرانها اليهود فما الداعي إذا إلى هذا التصرف الذي لم يجد له مبرراً، كما أنه يستغرب من فعلة سهام وكيف لها أن تكافأ حسب قوله دولة إسرائيل بصنيعها هذا، فهو بهذا يسلب المكان والهوية، ويعتبر الأنا الفلسطينية دَحِيلَةً على ما أسماه دولة إسرائيل بدّل أرض فلسطين، فقد عمَدَ الكاتب للاشتغال على المكان الذي يُعدّ حيزاً مهماً في إثبات الذات لأحقيقته به، ونكران الآخر اليهودي واغتصابه للأرض عنوةً من أصحابها وفرض سلطته المدمّرة، فبمجرد حمل العرب للجنسية الإسرائيلية يحق لهم الاندماج معهم تحت لواء دولة إسرائيل، والتمتع بامتيازات عديدة، خاصة إذا كان هؤلاء العرب مثقفين يخدمون مصالحهم، كما هو الحال مع الطبيب جعفري وزوجته، وهذا الشيء يُقْضُ مضجع النقيب الذي انتفض علناً مبدياً

¹ - ياسمينة خضرا: الصدمة ص 56.

² - المصدر نفسه، ص 61.

رفضه للامتيازات التي نالها الطبيب قائلاً له (أنا اليهودي والضابط في الأجهزة الأمنية الإسرائيلية، لا أنعم بثلاث التَّبجيل الذي تكنه لكما هذه المدينة يومياً، وهذا يزعزع كياني بشكل يفوق الوصف).¹

فلفظة "أنا" التي قالها النقيب تدلُّ على التعالي وعُقم العقلية الإسرائيلية، كما تفضح عقدة الأنا عند (النقيب موشي) والمكبوتات النفسية التي أفرغها في وجه الدكتور جعفري فقد اتضحت غيرته من المكانة التي حظي بها الدكتور وزوجته والتي لم يستطع إدراكها رغم أنه إسرائيلي ويتمتع بمنصب هام.

● شخصية الشرطي الإسرائيلي المتعطر:

يركز الروائي (ياسمينه خضرا) على تيمة الأنا والآخر، إذ يورد كلمة الآخر في عدة مواطن، للدلالة على وجود الصراع المحتدم بينهما، فهاهي ذي شخصية أخرى ضمن الرواية، تمثل الصورة العدوانية واللاأخلاقية لأحد عناصر الشرطة الإسرائيلية، إذ يقوم أحد الموظفين في السجن بإعطاء الطبيب أغراضه بعد إطلاق سراحه، يقول الطبيب (تناولت ستري، ومضيت أمسح بجسدي المترنح جدار الرواق حيث رمقني بصمت ضباط شمرّوا عن قمصانهم، وحلوا ربطة عنقهم. يلوحون مثل زمرة من الذئب تراقب الفريسة التي ظنت أنها اصطادتها تتبعد أرجع لي موظف جالس وراء كوة، متحرك السحنة، ساعتى وعلاقة مفاتيحي ومحفظة نقودي، طلب مني التوقيع على إخلاء السبيل، ثم أغلق بضربة جافة المنور الصغير الذي يفصلنا الواحد عن الآخر).²

هذا التصرف النابع عن الموظف يدل على مكبوتات النفس اليهودية، قصداً منه لبث الرعب والخوف في نفس الطبيب تماماً كتلك النظرة التي أرسلها الضباط الإسرائيليون الموحية بقوتهم وجبروتهم، فالأزمة الحاصلة هنا هي أزمة إنسانية قبل أن تنتقل إلى طمس للهوية، وسرقة الأرض

¹ - ياسمينه خضرا: الصدمة، ص 61.

² - المصدر نفسه، ص 62.

والحرية وتحويل الأرض الفلسطينية إلى دولة إسرائيلية باستعمال مختلف أساليب العدوان الجسدي واللفظي والمعنوي لكن (العدوان اللفظي هو أكثر أنواع العدوان تعبيراً عن الاتجاه العام سواءً بالنسبة لانفعال الغضب أو بالنسبة لانفعال الحزن، وعلى أي حال فإن ذلك يتفق تماماً مع ما تقول به قواعد المنطق من أن العدوان هو العدوان سواء كانت ممارسته بالفعل أو بالقول أو بالإشارة).¹

المخابرات الإسرائيلية في "الصدمة":

يزداد العدوان بتطور أحداث السرد في الرواية، وتتضح صورة خاصة مع الأمن الإسرائيلي، فعند زيارة الدكتور أمين لبيت لحم الواقعة على بعد اثنين كيلومتر جنوب مدينة القدس أي في الضفة الغربية، في محاولة لمقابلة الشيخ مروان، والذي يُعد من أبرز القياديين الفلسطينيين وهو محلُّ بحث من قبل الأمن الإسرائيلي، إذ يقول أحد رجاله للطبيب (الإسرائيليون يبحثون عن أية ذريعة لانتهاك سيادتنا وإخضاعنا لنظام المعازل، إننا نعلم ذلك ونحاول ألا نرتكب الخطأ الذي يتقبونه بثبات)²، فعند حدوث أي عملية تفجيرية تبدأ المخابرات الإسرائيلية بتعقب أثر المخططين لهاته العمليات وفي ذلك دلالات على قوة جهاز الأمن الإسرائيلي، ويردف قائلاً (الأجهزة الأمنية الإسرائيلية تتعقبه، لقد نشرنا كتيبة من المخبرين لدق ناقوس الخطر كلما خرج من مخبئه، منذ سنين. نجا بأعجوبة من صاروخ مُسيّر لاسلكياً أُلقي من طائرة مروحية. لقد فقدنا الكثير من القياديين خلال نضالنا بهذه الطريقة، تذكر كيف استهدف الشيخ أحمد ياسين، وهو في نهاية عمره ومقعد في كرسيه المتحرك)³.

إن السلوك العدواني من قبل الإسرائيليين يُعتبر حالة مرضية مُتأصلة في النفس الإسرائيلية، مدعومة في نصوصهم الدينية، المحرّضة على القتل والحرق والضرب وغيرها من بواعث العنف التي نشهدها في النصوص الروائية، هاهو إذا الطبيب يحكي لصديقه رونين نافيد عمّا تلقاه من معاملة من

¹ - قدرى حنفي: الإسرائيليون من هم؟، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1982، ص 406.

² - ياسمينه خضرا: الصدمة، ص 158.

³ - المصدر نفسه، ص 158.

طرف الشرطة الإسرائيلية قائلاً له: (... كان زملاؤك كريهين، لو شئت أن تعلم إنهم عنصريون، كان الآخر هو البادئ، ولكن سُحنتي تلائمهم. لست ذمياً مجرد أنني خارج من مركز للشرطة. لقد اكتفيت بما قاسيته هذا المساء).¹

يشير الكاتب إلى سمة أخرى تميز السلوك البنائي للشخصية اليهودية، ألا وهي العنصرية، والنظر إلى العرب أنهم متخلفون، حين يتعاملون معهم باستعلاء وسادية.

مظهر آخر من مظاهر العدوان، تتضح صورته عندما ينتقل بنا الكاتب إلى الضفة الأخرى تحديداً إلى (جنين) والتي تُعدُّ بؤرة ساخنة لتبادل الهجمات، فالوضع فيها لا يطمئن أبداً لكن الطبيب في رحلة بحثه عن الحقيقة يقرر الذهاب إليها رغم محاولات أصدقائه اليهود ثنيه عن فكرة المجازفة، فقد كان الإسرائيليون يمارسون شتى أنواع العذاب على الفلسطينيين، يقول البطل الراوي (الطبيب) عما رآه من خراب في جنين، أقدمت القوات المحتلة الإسرائيلية هناك على رسم صورة الدمار والاضطهاد بكل تفاصيله ف (البلدات المحاصرة، نقاط التفتيش عند كل طريق فرعية، الطرقات التي تنتشر فيها السيارات المحروقة، بعد أن جندلتها الطائرات المسيرة لاسليفاً، جحافل المستضعفين الذين ينتظرون دورهم على حواجز التفتيش، ويتعرضون للإهانة، وغالباً ما يمنعون من المرور، جنود لم يطر شارهم ينفذ صبرهم فيسددون الضربات عشوائياً، نساء يعترضن، لا تحميهن من ضربات المهرات سوى أياديهن المكلومة، سيارات الجيب التي تجوب السهول، والسيارات الأخرى التي ترافق المستوطنين اليهود الذاهبين إلى أماكن عملهم كما يذهبون إلى حقل ألغام...)²

يتجلى لنا إبداع الكاتب في رسم مشهد من مشاهد المأساة اليومية التي يعايشها الفلسطينيون، كيف لا وهو يصور القمع والعنصرية من طرف جنود الاحتلال والذين يعتبرون طغيانهم (وسيلة لإثبات الذات، لإقناع الأغيار واليهود بالدرجة الأولى بأنهم تحرروا فأصبحوا قادرين على

¹ - ياسمينة خضرا: الصدمة ص 226.

² - المصدر نفسه، ص 230-231.

إلحاق الأذى والضرر بالغير والعرب خاصة، انتقاماً عما لحق اليهود من إذلال واضطهاد طيلة قرون طويلة في أوروبا)¹، كما أن الكاتب يبين مدى حقد الإسرائيليين على العرب، وكيف أعمى أبصارهم، فهم يحسون بنشوة بمجرد تسليطهم شتى أنواع التعذيب والإهانات للنساء أو الأطفال أو الرجال لا يهم من، المهم أنهم عرب، لكنهم في الوقت نفسه يحرصون على توفير الحماية للمستوطنين اليهود، هاته المشاهد تفتح عيني البطل الروائي على بشاعة العمل الإجرامي الذي يمارسه الإسرائيليون، فقد كان يعيش في رفاهية في تل أبيب، وكان يحظى بتكريم اليهود، لأنه كان بالنسبة لهم أداة لخدمة مصالحهم لا غير.

الحركات الصهيونية في "سوناتا" و "الصدمة":

في رواية (سوناتا لأشباح القدس) يكاد نفس المشهد يتكرر، عبثية الحرب ودكتاتورية الآخر الإسرائيلي الساعي لإشغال فتيل الحرب والقتل والتنكيل بالأنا العربي الفلسطيني، يحاول والد "مَي" أن يشرح لها الوضع المأزوم لذي آلت إليه فلسطين والذي اضطره للهروب رفقها إلى نيويورك فيقول لها: (أستغفر الله، كل شيء كان ينذر بكارثة صارت اليوم مؤكدة، لم تقض معركة دير ياسين التي انتهت إلى مجزرة 9 أبريل ولا سقوط حيفا، على روح المقاومة العربية في القدس، فقد حاولت قوات الهاجاناه استغلال ما حدث في دير ياسين لتعزيز قواتها المعزولة في جيب على جبل المشارف Scopus في القدس الشرقية. بعد دير ياسين بأيام أرسلت الهاجاناه إلى جبل المشارف، وعبر حي الشيخ جراح العربي، قافلة مكونة من عشر مركبات: باصات مصفحة وسيارات شحن محملة بالمؤن وسيارتي إسعاف ومصفحتين حراسة. كان على متنها جميعها أكثر من مئة شخص. وكن لها المقاومون وكانت النتيجة، تدمير معظم الآليات وقتل ما لا يقل عن 77 من ركبها واعتقال الباقين. لكن القدس كانت مستهدفة بموجب الخطة (د) ووضع لها اسم ييوسي Jevussi وجعل توقيتها متزامنا

¹ - محمد ربيع: أزمة الفكر الصهيوني المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط2، 1979م، ص 168.

مع يافا، في 23 أبريل، في اليوم الذي كنت أواجه فيه الموت في حيفا، كانت قوات الهاجاناه والإرغون والشتيرن، تشن هجوماً عنيفاً على أربعة محاور: الأول شمالاً، في اتجاه قرية صموئيل المشرفة على القدس بأسرها من أعاليها... تمهيداً لاحتلال سائر الأحياء العربية فيها).¹

يُمثل هذا المشهد جزءاً من يوميات الشعب الفلسطيني على أيدي الجنود الإسرائيليين، فالكاتب يصور همجية العدوان الصهيوني وتمكّن القوات العسكرية الإسرائيلية من الزحف عبر الأراضي الفلسطينية للاستحواذ على كل شبر منها، فالمغتصب الصهيوني كان ولا زال يخطط ويدبر للقضاء على الهوية الفلسطينية ونهب الأرض شبراً شبراً، والد (مَي) لم ينسى ما حدث في القدس فقد حكى لها باسترسال ما جري، وكيف حاولت الجيوش العربية التدخل لِفكّ العزلة المفروضة من طرف اليهود ولكن دون جدوى فقد (عقدت الحركة الصهيونية العزم على جعلها جزءاً من الدولة اليهودية)²، فبعد أن عمد الكاتب إلى محاكاة التاريخ، ها هو ذا يُدرج الحيز الجغرافي، باختراقه الأمكنة والفضاءات، كما أنه وثق الأحداث بتواريخها في دلالة على مرجعيته الثقافية الغنية، وإطلاعه على الأحداث بدقة، بهدف محاورة الشعوب وتلاقيها عبر بوابة الرواية التي تفتح مصراعها على كل ما من شأنه التعريف بالآخر في صورته الحقيقية، في محاولة منه للموازنة بين كفتي السلب والإيجاب.

تتقاطع العديد من المشاهد الروائية داخل الروایتين، هاته المشاهد تدور في فلك الحرب والدّمار ففي "الصدمة" يتكرر نفس مشهد التخريب إذ (اجتاح الجنود البستان عند الفجر، وصلوا بشاحنات مسيّجة، وحاصروا بيت الجد. كانت تتبعهم عن قرب حاملة دبابات تنقل جرافة. طلب الضابط أن يقابل العجوز. بما أن عمرو متوعك، قابلته بالنيابة عنه. أعلمني الضابط أن لدينا نصف ساعة لإخلاء الدّار والسماح له بمباشرة تدميرها).³، لقد جاء هذا الهجوم على المنزل العائلي رداً

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 295-296.

² - المصدر نفسه: ص 297.

³ - ياسمينه خضراء، الصدمة، ص 283.

على ما قام به أحد أقارب الطبيب أمين جعفري (على إثر العملية الانتحارية التي نفذها وسام جعفري ضد حاجز تفتيش)¹. تعترى الطبيب أمين موجة غضب مما قام به الجنود الإسرائيليون إذ يقول: (جاش الغضب في داخلي، وانقضت على الجرافة، اعترض أحد الجنود سبيلي، دفعته، وهاجمت الوحش الذي يدمر تاريخي صرخت عالياً: "توقف"،.. حذرتني الضابط: "توقف". أوقفني جندي، وضربني على حنكي بعقب رشاشة، فتهاويْتُ مثل الستارة التي تنزلها)²، إن هاته الصور العدائية من طرف الجنود الإسرائيليين، تُجسد واقعاً مأساوياً يعيشه الفلسطينيون يومياً، لا تعدوا أن تكون سوى عادة ورداً عن كل رصاصة أو عملية يقوم بها المقاومون الفلسطينيون، دون أي شعور بالذنب، فالإحساس قد انعدم بداخل اليهود، والسلوك هذا نابع عن نفسية محبة للعنف والقتل فبحسب الدكتور رشاد الشامي فإن (العدوانية عند اليهود نابعة من الإحساس بالذنب اتجاه البلاد العربية، لأن اليهود كانوا مرغمين على الوصول إلى هذه البلاد، ولكن محاولة إخفاء الإحساس بالذنب هذا هو أحد الأسباب الرئيسية للروح وعدم الراحة التي تجتاح اليهود)³، فالكاتب يسرد نماذج من الواقع، فمسلسل الدمار عند الإسرائيليين لا ينتهي أبداً، فجّل الصور التي قدمها تبرز مدى قدرتهم على القيام بأي فعل مشين في أي وقت وأي مكان، إذ أن السلطة المخولة لهم تمنحهم حرية التصرف دون حسيب ورفيب، فلهم أيادي طائلة تتحكم في الأرض المقدسة تفرض جبروتها وقوة جيشها، زد على ذلك السمات التي تتمتع بها الشخصية اليهودية الحقودة، والتي يطغى عليها الفكر المتقزم المنحصر في دائرة القضاء على الأنا الفلسطينية وإبراز الذات اليهودية عبر استرجاع حقها المسلوب في الأرض حسب زعمهم، فالجنود في الرواية يُدمرون آخر ذكرى للطبيب جعفري تحت التهديد من طرف أحد الضباط إذ قال البطل الراوي (قال الضابط: هذا ليس شأني جرافتي تجبظ

¹ - ياسمينة خضراء: الصدمة ص 283.

² - المصدر نفسه، ص 285.

³ - رشاد الشامي: عجز النصر، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1990، ص 215.

خبط عشوائي. حين تنقض، تمضي حتى النهاية. لقد أنذرتكم¹، ففي هذا دلالة على انعدام الرحمة والإنسانية من قلوب الجنود الإسرائيليين، وكذا جبروتهم الذي ضرب جذور الأرض المحتلة، فالحقد ينتقل عند اليهود عبر الوراثة من جيل إلى جيل، فالكاتب يؤكد معاناة الشعب الفلسطيني خاصة الأطفال منهم فمُد نعومة أظافرهم، وهم تحت رحمة الكيان الصهيوني الذي شوه البراءة وجعل لعبتهم الوحيدة ملمة الأحجار ومطاردة المحتل الجبار، فهاهو ذا البطل الراوي يحكي يومياتهم في جنين (...). فتحت النافذة التي تطل على وسط المدينة، في البعيد، ترمي مجموعات من الصبية الدبابات الإسرائيلية بالحجارة قبل أن تتفرق بسبب النيران التي فتحتها عليهم الجنود، تسفح القنابل المسيلة للدموع دخانها الأبيض في الأزقة المشبعة بالغبار² وهذا بالفعل حال الفلسطينيين اليوم على أيدي المحتل الصهيوني، تدور أحداث الرواية في (جنين) بعد (تل أبيب) والتي يصورها الكاتب على أنها مسرح للجرائم والاعتقالات التي لا تنتهي، يصفها الكاتب على لسان بطله الراوي "الطبيب أمين" (كانت جنين تبدو لي غامضة مثل بابل، يخلو لي فيها أن أتخيل بُسْطها مثل بُسْط الريح... كانت جنين المدينة المنشودة للملائكة المتهتكين بمظهرها، مظهر البلدة الكبيرة التي تحاكي المدن)³، فهي مدينة لها عطر وسحر خاص تشدُّ زائريها، كما أنه شبهها بمدينة بابل العريقة والضاربة جذورها في عمق التاريخ وبأسوارها المنيعة وحضارتها وتفوقها في العديد من العلوم، لكن الجيش الإسرائيلي تفانى في تخريب وتشويه هذا الجمال، وأبدع في رسم صورة مناقضة حتى (أصبحت جنين مدينة منكوبة، وتلفاً هائلاً لا معنى لها، غامضة مثل ابتسامة شهدائها، المعلقة صورهم في كل شارع. ترتع في لعنائها، مقطوعة الأنفاس، وقد نفذت منها الأدعية، بعد أن شوهتها الغارات الكثيرة للجيش الإسرائيلي، تارة يصر إلى التشهير بها، وطوراً إلى إحيائها لإدامة المتعة...)⁴

¹ - ياسمينة حضرا: الصدمة، ص 284.

² - المصدر نفسه، ص 238.

³ - المصدر نفسه، ص 239-240.

⁴ - المصدر نفسه، ص 240-241.

يشير الكاتب إلى لب القضية التي تتمحور حول تيمة المكان، فكل شبرٍ في فلسطين لم يسلم من عدائية المحتل الصهيوني، فهمجيته ووحشيته جعلته لا يفرق بين الأخضر واليابس، كما أنه أبدع في رسم صور الدمار ف (الجيش الإسرائيلي أخلى المكان مؤحراً لأن الطريق المليئة بالحفر تحتفظ بعضة المجزرات مثلما يحتفظ شخص خضع للتعذيب بآثار عذابه)¹، هاته الصورة النمطية والواقعية تترجم السلوك الجائر للنفس الصهيونية المتعطشة لسفك دماء الفلسطينيين وتشويه المكان وتاريخه ومحو الهوية من جذورها، إذ أن مخبرات الكيان الصهيوني تسعى إلى تدمير التنظيمات والحركات الفلسطينية التي تعرقل خططهم وتُعيق تحركاتهم.

يلتقي الطيب (أمين جعفري) بقيادة الجبهة الفلسطينية في جنين، لكنه يكون محل شك وريبة بالنسبة لهم إذ يقول أحدهم للطيب (يرسلك (الشيين بت) لتسدد رفسة في كر النمل، وتخرجنا من مخابئنا، وترميننا لقمة سائغة للطائرات المسيرة لاسلكياً)²، يركز الكاتب هنا على الأسلوب المخادع الذي ينتهجه الجيش الإسرائيلي في الإطاحة بهاته التنظيمات، فحرب الأنا والآخر المتقدمة تنخر عبر الزمن تاريخ وحضارة القدس الأبية، لكن الطيب أمين ينفي أي اتصال له بالآخر اليهودي، وبأن تكون له أية علاقة بالمخابرات قائلاً: (لستُ مُسيراً من أجهزة المخابرات)³، لكن انتحاله للجنسية الإسرائيلية كلفه الكثير وجزَّ به إلى برائن الدل والإهانة بحثاً عن الحقيقة، ليتذوق ما يتجرعه أهله من ألم في خضم الحرب الشرسة، وفي معرض لجبروت الكيان الصهيوني يقول أحد قادة كتائب الأقصى (لا أحد ينضم إلى كتائبنا من أجل المتعة يا دكتور، كل الشبان الذين شاهدتهم، بعضهم بالمقالع

¹ - ياسمينة خضرا:الصدمة، ص 241.

² - المصدر نفسه: ص 243.

³ - المصدر نفسه، ص 244.

وبعضهم الآخر بالراجمات، يكرهون الحرب كرهاً أعمى لأن رصاص العدو يحصد كل يوم واحداً منهم في شرح شبابه).¹

فالأنا أُدخِلت إلى لعبة الحرب قصراً لا طواعية، بينما الآخر الإسرائيلي هو الذي يُسيّر هاته اللعبة حسب أهوائه ورغباته الشنيعة.

إن السياسة التي ينتهجها اليهود في زرع الرعب في نفوس الفلسطينيين وإذلالهم من خلال سلب أراضيهم، نابعة عن تراكمات نفسية واعتقادات وهمية تضعهم موضع الشعب الذي فُهِرَ وحُفِّرَ وطُرد من كل بلاد حطوا بها، فتولدت بداخلهم مشاعر الحقد والانتقام، وأصبحت لغتهم مترجمة عبر أسلحتهم ودباباتهم، كيف لا والمشاهد عينها نستقيها من ساحات المعارك المبتوثة في رحاب الرواية، فالروائي واسيني الأعرج يشير إلى قضية الاحتيال التي انتهجها اليهود في الاستحواذ على كل شبر في فلسطين، والدليل على ذلك عندما تحكي الخالة (مامي دنيا) ل (ممي) عن أرضهم التي باعها والدها للإنجليزي، فالإنجليز اتخذهم اليهود كواسطة لشراء أراضي الفلسطينيين إذ تقول (... الإنجليزي الذي اشترى الأرض، كان بالنسبة للعائلة مسلماً تقياً، بل أكثر تشدداً على الدين من المسلمين العرب، ومع الزمن عرف جدك أنه لم يكن أكثر من مرابٍ عندما أراد أبي أن يسترجع أرض العائلة بإعادة شرائها، ضحك موظفو الوكالة اليهودية منه كثيراً وقالوا له إن أرضاً تخرج من يد فلسطيني لن تعود له أبداً. ثم طمأنوه أنه حتى ولو وصل إلى أن يسترجعها قانونياً بمساعدة الإنجليز، فستأخذها منه الهاجاناه بالقوة، وسيطردونه).²

أسلوب الاستهزاء والسخرية الذي اتبعه الإسرائيليون مع الأنا الفلسطينية يدل على قوة سلطتهم وأيديهم الطائلة وإمكانياتهم العسكرية الضخمة والمسيطرة على كل القطاعات في الأراضي المحتلة، تواصل الخالة سرد أحداث الثورة لِمِي قائلة لها (...المشكلة ليست هنا. كل الحروب عمياء -

¹ - ياسمينه خضرا: الصدمة، ص 253.

² - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 275.

لقد صمموا على أن يسرقوا الأرض ويخرجوا الناس منها بالقوة - ومن لم يخرج قتلوه. أمك وجدتك وعليان وغيرهم - كانوا حجر عثرة في طريقهم. المشكلة كبيرة يا ابنتي، كبيرة جداً، وأكثر من كل ما تتصورينه. هناك آلة جهنمية منظمة جداً، لقد برزت الصهيونية في مرحلة الشتات وعلى مر العصور استغرقت في النوم، ولم تمت، كان روادها يرددون دائماً: ("عائدون إلى أورشليم فرحين، في العام القادم...")¹، لغة القتل هي السّمة التي امتاز بها الإسرائيليون وإستراتيجيتهم المتبعة في نيل مآربهم تحت بردعة الدّين، وفكرهم العقيم، مُنساقيين وراء أساطير تدعو للقضاء العرقي على فلسطين، كل هذا نتيجة مرحلة التشتت التي عرفوها حين استولى (القائد البابلي "نبوخذ نصر" على القدس، وقام بتشتيتهم وتشريدهم وطردهم من أرضهم، فكانت هاته بمثابة الضربة القاضية على بني إسرائيل وتحطيم حلمهم في إقامة مملكتهم الكبرى على أرض فلسطين)²، يواصل الكاتب الأعرج على لسان سارديه توثيق الأحداث التاريخية المشكّلة للمرجعية اليهودية إذ تقول الخالة لمي (القصة جادة ولم تكن في أي يوم من الأيام طرفة عابرة أو مجرد أسطورة. في القرن الماضي ظهرت جماعة أحياء جبل صهيون* الذين يهيمون حباً بصهيون ويتمنون رؤيته قبل موتهم)³.

فقد برزت عدة حركات بقيادة شخصيات يهودية تدعو لتوحيد الصفوف ولملمة شتات اليهود في كافة أنحاء العالم، ومن بين هاته الشخصيات كما جاء في الرواية على لسان الخالة (مامي دنيا) (... فقد ظهر شخص اسمه تيودور هرتزل، وأشاع فكرة أنه لا استقرار لروح اليهودي إلا في أرض فلسطين، وأثار هذا الإحساس مشاعر يهود العالم. وأصبح باستطاعة هرتزل، هذا اليهودي

¹ - ياسمينة خضرا:الصدمة، ص 279.

² - ينظر: فوزي سعد الله: يهود الجزائر-هؤلاء المجهولون-، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر، ط2، 2004، ص 26.

*معنى كلمة صهيون هي الحصن، بمعنى الجبل المحصن، وتعني أيضا المدينة الفاضلة، أو مدينة داوود حيث أنها مرتبطة بمدينة داوود حسب ما ذكر في مزامير داوود، ذكر التوراة كلمة صهيون 196 مرة، وفي الإنجيل ذكرت مرتين في إنجيل يوحنا، ومتى، من قلم هشاً طاهر: جبل صهيون وسقوط ورقة التوت الأخيرة. الموقع: www.arabtimes.com، تاريخ الزيارة: 2019/09/27

³ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 279-280.

النمساوي الذكي أن يقف أمام السلطان العثماني عارضاً عليه شراء أرض فلسطين ليسكنها اليهود، ولكن السلطان الذي كان يحمل لقب خليفة المسلمين، قابل عرضه بالرفض، وكاد الأمل في إحياء إسرائيل أن يموت. لقد خططوا لذلك كله، وفرصة لأوروبا لكي تمحو عقد الهولوكوست)¹.

لقد كان اليهود يخططون ويُسخروون كل ممتلكاتهم من أجل امتلاك أرض فلسطين بشتى الطرق، فتيدور هرتزل هو شخصية حقيقية (كان صحفياً نمساوياً مجرياً، كاتب مسرحي، ناشط سياسي وكاتب، كان والد الصهيونية وشجع الهجرة اليهودية إلى فلسطين في محاولة لتشكيل دولة يهودية، على الرغم من أنه توفي قبل إنشائها، إلا أنه معروف بأب دولة إسرائيل)² بناءً على الظروف الزاھنة في الأراضي المحتلة ومحاولة الإسرائيلي طرد الأنا الفلسطينية، فإن هاته الصورة تُعدُّ خير دليل على أن الآخر الإسرائيلي يعاني أزمة الهوية، ومن أجل تداركها يحاول جاهداً السيطرة على كل الأمكنة كَمكون أساسي لتشكيل هويته، هاته العقدة الملازمة لطبيعة التكوين النفسي اليهودي، كانت دافعاً قوياً لمحاولة تجريد الأنا الفلسطينية من هويتها بواسطة سلب المكان واللغة بكل الطرق المتاحة، فالمكان هو أحد أوجه الهوية الذاتية فهو يشكل كياناً مستقلاً للإنسان، إمام الكاتب بالجوانب التاريخية للقضية الفلسطينية جعله يُوفق في تدعيم روايته بمختلف الأحداث الموثقة للوقائع والحيثيات الحقيقية لبناء دولة إسرائيل على أرض فلسطين، ويُورد أيضاً شخصية يهودية أخرى ساهمت في بناء دولتهم المزعومة وهو حاييم وايزمان، واحد من العديد من اليهود الذين تسري في دمهم الروح العدائية وحبُّ الحرب والقتل والتنكيل، هؤلاء الذين شاركوا في الحرب دون رفع السلاح، لكن حرهم كانت باستخدام عقولهم، وإعمالها في كيفية الاستيلاء على فلسطين، تقول الخالة (لمي) (... لولا اعتراض رجل كانت تجري الصهيونية في عروقه ودمه، بقوة هو حاييم وايزمان. كان يعمل مدرساً للكيمياء في جامعة مانشستر، وفي أثناء الحرب، أصبحت الحاجة الماسة إلى البارود TNT ضرورية،

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 280.

² - ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة: الموقع <http://ar.wikipedia.org/wiki>، تاريخ الزيارة: 2018/09/21.

واتضح أن مادة الأستون المكونة له لم تكن متوفرة خارج أميرا. وكان الكيميائي اليهودي وايزمان هو من حل المشكلة، وتم توفير الأستون. وسجل وايزمان براءة اختراعه ولم يطلب أي مقابل له. ولكنه طلب من الإنجليز، مقابل جهده العلمي، تأييد قضيتة الحيوية، فكان وعد بلفور المتعاطف علنا مع اليهود : (إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، وستبذل كل جهودها لتحقيق هذا الغرض. وسيتم ذلك دون المساس بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين...) ¹، هذا السرد التاريخي للحركة الصهيونية يبرز مدى الحقد الذي يُكنه الصهاينة للفلسطينيين وكيفية استغلالهم للفرص المتاحة أمامهم في تكوين دولة إسرائيلية، ودعم قضيتهم على حساب الأنا الفلسطينية، فطرق الاستعمار تعددت بتعدد الشخوص داخل الرواية، وفي هذا دلالة على أن اليهود أينما كانوا فإنهم يُسخرون أنفسهم وأفكارهم من أجل بناء وطن جديد يجمعهم، ملتفين حول المنطق الصهيوني الداعي لإقامة دولة صهيونية لكن بعض المفكرين الصهاينة لم يتوقعوا هذا الإقبال الكبير للمهاجرين فلقد (كتب آحاد هاعام بعد زيارته لفلسطين في مقال بعنوان "حقيقة من فلسطين" (1891) يقول: "ماذا يفعل إخواننا المهاجرون اليهود في فلسطين؟ لقد كانوا عبيداً في بلاد الدياسبورا، وفجأة وجدوا أنفسهم وسط حرية لا رادع لها. ولقد وُلد هذا التحول المفاجئ في نفوسهم ميلاً إلى الاستبداد، كما تكون الحال عندما يصبح العبد سيداً. إنهم يعاملون العرب بروح العدا والشراسة، ويهينون حقوقهم بصورة معوجة وغير معقولة. ثم يوجهون لهم الإهانات دون أي مبرر كاف ويتفاخرون بتلك الأفعال فوق كل ذلك. وليس هناك بيننا من يقف في وجه هذا الاتجاه الخسيس والخطير في آن واحد" ²، فعقدة الاضطهاد والمشاعر المكبوتة في الروح التكوينية للسيكولوجية اليهودية جعلتهم يحرصون على الوصول لأرض فلسطين من أجل

¹ - واسيني الأعرج، سوناتا لأشباح القدس، ص 281.

² - ينظر: رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 1978، ص 158. /راجع: الشامي رشاد، التيار الروحي في الفكر الصهيوني الحديث، أطروحة دكتوراه غير منشورة.

الانتماء لتلك الأرض وإفراغ الشحنات السلبية من عنف وكرهية وانتقام على العرب، مستندين في ذلك إلى الدافع الديني الذي يزعمون أنه يأمرهم بالتخريب والتدمير والانتقام، وحمل السيف من أجل الخلاص وإثبات الذات المنبوذة.

● شخصية الشرطة اليهودية في "الصدمة":

يتجسد السلوك العدواني في صورة المرأة اليهودية كما رسمها الكاتب (ياسمينه خضرا) في روايته (الصدمة)، فحين تدهورت حالة الطبيب أمين جعفري النفسية، يبحث لنفسه عن متنفس لينسى فقط صدمته بأي وسيلة، فيقصد حينها الحانات المشبوهة ويحدث جلبة في إحداها حين يفقد السيطرة على نفسه ل يتم استدعاء الشرطة له إذ يقول (وصلت الشرطة كان الضابط سيده شقراء، عريضة النهدين، أنفها مضحك وعيناها موقدتان، شرح لها الرجل الفظ كيف تدهور الموقف. تعززت إفادته بفضل شهادة النادلة وعدد لا بأس به من الزبائن. أخرجتني السيدة التي ترتدي البدلة الرسمية إلى الشارع، وطلبت أن ترى أوراقى الثبوتية. رفضت أن أسلمها إياها).¹، فحتى النساء اليهوديات تم تجنيدهن، وتقلدن العديد من المناصب في السلك الأمني الإسرائيلي، فمن أجل تعزيز هذا الجهاز تم ضم المرأة اليهودية إليه، هاته الأخيرة تسعى إلى الالتحاق بالجيش من أجل دولة إسرائيل والحفاظ على الأرض التي سرقوها من أصحابها، كما أن المرأة اليهودية كانت مضطهدة من طرف أبناء جلدتها، فهي ترى في عملها خلاصاً من الاحتقار الذي مجدت له الأساطير والخرافات التي تبناها ورَسخت ضمن معتقداتهم، بيد أن عقيدتهم تُهمش المرأة ولا تضع لها مكانة خلافاً عما يُشاع أن الإسلام يضطهد المرأة، بل العكس فالإسلام يُجدد المرأة ويحفظ لها كرامتها وحقوقها، تتعامل (الشرطة اليهودية) بحشونة مع (الطبيب جعفري) فبعد أن (غمغم أحد عناصر الشرطة: لقد شرب حتى طفح.قررت الضابط: -سنضعه في الحجز.

¹ - ياسمينه خضرا: الصدمة، ص223-224.

دفعوني داخل سيارة، وقادوني إلى أقرب مركز للشرطة وهناك، أرغموني على إبراز أوراقي، وإفراغ جيوبي، واحتجوني في زنزانة ينام فيها سكيران نوماً عميقاً، وهما يشخران).¹

يُصور الكاتب قساوة الشرطة الإسرائيلية في تعاملها مع العرب خاصة، دون أية رحمة، فالسلوك الخشن في التعامل يُعد سمة متأصلة في الشخصية اليهودية الإسرائيلية، يصف البطل الراوي "الطبيب جعفري" عناصر الشرطة قائلاً لصديق له: (كان زملاؤك كريهين، لو شئت أن تعلم إنهم عنصريون)²، فالمجتمع الإسرائيلي قائم في أساسه على مبدأ العنصرية والتفريق بين اليهود والعرب وعدم المساواة، هاته السمة تقوم على تحفيز الروح العدوانية للإسرائيليين لكن (لا يمكن الاقتصار في تفسير العدوانية لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية، على العوامل الخارجية أو المثيرات الخارجية الموضوعية فحسب، بل لابد من تقصي جذورها الضاربة في التكوين السيكولوجي التاريخي والعقائدي للشخصية اليهودية الإسرائيلية)³ فاليهودي غالباً ينشأ في بيئة ملغمة بالأحقاد، شعارها هو الحرب لاسترجاع الأرض، وتوراقتهم تضج بالدعوة إلى الحرب والقتل وسفك الدماء، هاته النظرة التي تصاحبه أثناء تكوينه تجعل منه آلة حربية تطغى عليها العنصرية، ومتجردة كلياً من الإنسانية، إن عقدة الاضطهاد التي مورست على الشعب اليهودي في كل الشُّعاب التي حلُّوها، ظلت لصيقة بنفسيتهم وتكوينها، وولدت بداخلهم شعوراً بالنقص، وأرست في عقولهم مبدأ الانتقام من كل من كانت له يدٌ في تشيبتهم، فلم يجدوا سوى العرب الفلسطينيين ليفرغوا شحنات غضبهم وأحقادهم عليهم، ليصبح بعدها من كانوا عبيداً أسياداً على أسيادهم العرب، (وهكذا فإن العنف يصبح الأداة التي يتوسل بها الصهاينة لإعادة صياغة شخصية اليهودي، فاليهودي - في هذا التصور - يحتاج إلى ممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه، ومن ذاته الطفيلية الهامشية، إن العنف يصبح هنا مثل

¹ - ياسمينه خضرا: الصدمة: ص 224.

² - المصدر نفسه: ص 226.

³ - رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، ص 144.

الطقوس الدينية التي تستخدمها بعض القبائل البدائية حينما يصل أفرادها إلى سن الرجولة لأن اليهودي حينما يمارس العنف والقتل يتخلص من مخاوفه ويصبح جديراً بالحياة¹، فالذات اليهودية التي تحمل تراكمات نفسية ومشاعر متضاربة تنشأ على مبدأ الكراهية منذ الصغر لتتطور بعد ذلك إلى عدم تقبل الأنا العربية، وكأن هاته الأخيرة كانت السبب في شتائم وضعفهم، فالآخر اليهودي يحاول دوماً الظهور بمظهر المضطهد، المسلوب والمغلوب على أمره والذي يسعى إلى استرداد حقه، فلم يجدوا سوى العرب ليضعوا جام سخطهم وجبروتهم عليهم كأنهم شماعة يعلقون عليها جُلَّ حبياتهم ومخططاتهم المخزبة عبر التاريخ.

إن العدوانية صفة أساسية مكتسبة بالفطرة أُلقت بظلالها على شخصية الآخر اليهودي والصهيوني خاصة، الذي يستهويه القتل والعنف ضد كل العرب (وللأسف أن هذا الميل للعنف ناتج عن الأساطير التي دائماً ما نسجت عن اليهودي بأنه البطل الذي يُبذل كل شيء على بكرة أبيه بمجرد أن تطأ أقدامه، فللأسف أن العهد القديم في كل الأسفار تقريباً لا يخلو من سرد قصص هجوم اليهود على مدن وإبادتها على بكرة أبيها لا يقون فيها لا طيراً ولا نباتاً ولا حيواناً ولا إنساناً، فكل ما هو غير يهودي هذا مصيره الذي يرضاه الإله - تعالى الله عما يصفون²، وهذا تماماً ما تحاول الرواية إظهاره، وتعربة الحقيقة التي ظل مسكوتاً عنها داخل المساحة البيضاء، فقد عمد الروائيان ياسمينه خضرا وواسيني الأعرج إلى كسر تراتبية السرد المعهود، وإبراز جوانب من الشخصية اليهودية العدائية والحقودة، بموجب السلطة التي تسيرها، وهذا عبر إقحامها ضمن الصّرح الروائي الذي تفنن في تصوير هاته الفئة المأزومة نفسياً وتاريخياً.

¹ -رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، ص 160.

² - محمود فتوح محمد سعادات: سمات الشخصية اليهودية الإسرائيلية مقالة: تاريخ الإضافة 2014/12/16، تاريخ الزيارة: 2019/10/06.

صورة اليهودي العنصري والمتطرف:

تندرج صورة اليهودي الحاقد على العرب والعنصري ضمن تلايب الرواية الجزائرية، فنجدها مجسدة في شخصيات يغلب عليها الطابع الاستعلائي، والنظرة الفوقية، وكره الأنا العربية، فالآخر اليهودي معروف عنه الغموض الذي يَلْتَبِسُ حول تركيبته النفسية، فكل الإذلال والمهانة التي تعرض لها جعلته يغدو إنساناً قاسياً وحاقداً، كما أن الأساطير التي تبناها وجعلوها شعاراً لهم بأنهم شعب الله المختار، وكل من ليس منهم وُجِدَ لخدمتهم جعلتهم يميلون لاحتقار الأنا العربية.

الجيران اليهود في "الصدمة":

وهذا ما حاول الروائي "ياسمينة خضرا" إبرازه من خلال تسليط الضوء على بعض الشخصيات اليهودية مصوراً الجانب العنصري الطاغوي على تصرفاتهم، فبعد الذي حصل للطبيب (أمين جعفري) من طرف عناصر النقيب (موشي) أثناء التحقيق معه وبعد إطلاق سراحه يعود إلى بيته منهكاً ليجد أن بعض اليهود قاموا بالصاق (الصفحة الأولى لصحيفة يومية واسعة الانتشار، فوق صورة كبيرة تعكس الفوضى الدموية حول المطعم الذي استهدفه الإرهابيون، يقرأ المرء بحروف عريضة: الوحش الخسيس بيننا. ويتوزع هذا العنوان على ثلاثة عواميد)¹، لتواصل بعدها تلك الحملة الشرسة على الطبيب من طرف يهود عنصريين فيقول: (لحمت مراهقين ينقبان حديقتي، وتحت إبطهما لفائف ورقية. تغطي العشب عشرات الصور المقتطعة من بعض الصحف. تجمع بعض المارة أمام بيتي. صرخت بهم: "انصرفوا". لم أفلح في فتح النافذة فوثبت وثباً إلى الفناء. لاذ الفتيان بالفرار لحقت بهما حتى الشارع، حافي القدمين. محموم الذهن... "إرهابي قذر حثالة عربي خائن" كبحت الشتائم جماعي على الفور إنما بعد فوات الأوان، فقد ألغيت نفسي وسط رهط هائج. بصق عليّ رجلان ملتحيان قد ضفر كل منهما سالفه. دفعت بي بعض الأذرع. "أهكذا يقولون شكراً عندكم، أيها

¹ - ياسمينة خضرا: الصدمة، ص 67.

العربي القدر؟ تعضون اليد التي تحسن إليكم؟... " تسلل بعض الأشباح خلفي للحؤول دون هروبي، يصيب وجهي سيلٌ من البصاق. تجذبي يدٌ من باقة مبدي... " أنظر إلى القصر الذي تقطن فيه يا ابن العاهرة. ماذا تطلبون بعد لتعلموا أن تقولوا شكراً؟... " يتجادبوني من كل الزوايا. " لا بد أولاً من تطهيره قبل حرقه... " تجدلني رفسة في بطني، تنهضني رفسة أخرى. ينزف أنفي، ثم شففتاي، لا تكفي ذراعي حمايتي. ينهال عليّ وابلٌ من اللكمات، وتتداعى الأرض تحت قدمي...¹، يصور الكاتب مشهداً حقيقياً عن الواقع المعاش في الأرض الفلسطينية، يضحج بالكره المكنون داخل النفس اليهودية، فالطبيب بعد الحادثة يُعدُّ هو الآخر مشتبهاً فيه، إذ لم يتقبل اليهود فكرة خداعهم كما يزعمون من طرف شخص تتمتع بكل الامتيازات التي تضمن له عيشة كريمة بين اليهود، فالشتائم التي سمعها تنم عن السخط الذي يحمله هؤلاء اليهود للعرب، ولفظة العربي الخائن تكررت في دلالة على أنهم يعتبرون العرب كلهم ضدهم وخائفون وأقل شأناً منهم، بالإضافة إلى الرجلان الملتحيان اللذان بصقا على الطبيب، فاليهودي المتطرف والمتعصب هو الآخر يُكْرهُ للعرب كرهاً يدفع به إلى إهانة الأنا وتحقيرها، فالشّر محفور في أنفسهم الضعيفة وما إن سمحت لهم الفرصة حتى أفرغوا شحنات غضبهم، وهذا دليل على نفسيتهم المريضة، التي تترصد عثرات العرب ولتنزع عنها القناع وتنفضح دواخلهم الخبيثة، يقول بعدها الطبيب لـ (كيم) بعد أن وجدته مرمياً أمام منزله (طاردي المعتدون عليّ إلى داخل حديقتي، وظلوا يوسعوني ضرباً بعد أن طرحوني أرضاً ظننت، أمام عيونهم التي تقدح شراً وأفواههم المزبدة، أنهم سوف يجروني ويعدموني)² فالكاتب صوّر اليهود على حقيقتهم وأبان ذلك الوجه الوحشي الذي يحركه التعنيف والقتل بدافع الدين والسلطة ضدّ العرب.

إن المحتل اليهودي يعتبر نفسه صاحب الأرض الفلسطينية، ويعمل على استفزاز العرب وإثارتهم، وإنتهاجهم مبدأ العنصرية (فالاستعمار لا يستطيع أن يرى نفسه دون هذا المفهوم

¹ - ياسمينة حضرا : الصدمة: ص 72.

² - المصدر نفسه، ص 72.

العنصري، إذ بغير هذا المفهوم للعنصرية فالحرب تصبح مجرد غزو، ولكن مع العنصرية فالحرب تصبح استعماراً¹.

رَكَزَ الكاتب في روايته (الصدمة) على البعد النفسي لشخص الرواية، فمع تأزم الأوضاع في الأراضي المحتلة ووجود مجموعة من اليهود الناقمين على العرب في الوسط المعيشي للطبيب، تبدأ المرحلة الأكثر تأزماً في حياة هذا البطل الراوي، فلا جنسيته الإسرائيلية ولا مكانته شفعت له عند اليهود بعد الحادثة، يكفي أنه عربي الأصل ليتلقى كل أنواع الاستفزاز والاحتقار من طرف اليهود الذين تسيروهم عنصريتهم (فإن ما حدث بالنسبة للشخصية اليهودية الإسرائيلية هي أنها وجدت متنفساً دائماً على امتداد مراحل الصراع العربي الإسرائيلي، في أشكال الصدام المختلفة التي وقعت بين المستوطنين والفلسطينيين في مراحل الاستيطان الأولى)²، فالأرض واحدة تجمع العرب باليهود لذا كانت تُعد ساحة للمشاحنات بين الأنا والآخر، وخبلة للصراع الممتد على مرّ العصور، فالشخصية اليهودية تسيطر عليها مكبوتات سلبية تنامت عبر الزمن ضد الفلسطينيين، لذا لا يفوتون أي فرصة في إفراغ هذا الكبت في وجه أي فلسطيني يتصادمون وإياه، فالكثير من الإسرائيليين لم يتقبلوا فكرة التعايش مع العرب (فبقدر ما تنظر الأنا إلى الآخر بصفته عدواً، بقدر ما تبحث عن أصدقاء محتملين لتقوية عود المنافسة سعياً إلى كسب الرهان المنشود وهكذا تميز الوحدة بين الصديق والعدو أي بين من يساند الأنا وينتمي إلى حلفها ومن يعارضها ويخرج عن ولائها، ومن ثمة يتضح أن الأنا، سواء أكانت محايدة أم منتمية إلى كتلة، تفترض وجود عدو محتمل يُهدد كيانها وهويتها

¹ - مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي - المسألة اليهودية- دار الوعي للنشر والتوزيع، روية، الجزائر، ط1، 1434 هـ / 2013م، ج2، ص 84.

² - رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، ص 193.

باستمرار)¹، تتضح الرؤيا الدونية للأنا الفلسطينية من قِبل الآخر الإسرائيلي وهذا التحقير والتصغير نابع عن أنفُسٍ يجرّكها هاجس الانتقام والتأمر لِمَحْوِ الشعب الفلسطيني.

فالحادثة التي ألمت بالدكتور (أمين جعفري) جعلته يستفيق ويكتشف الوجه الآخر لليهود الذين كان يعيش بينهم، بعد الذي تلقاه من شتم وضرب على أيدي بعض اليهود العنصريين، لتجده بعد ذلك الطيبة اليهودية (كيم) مطروحاً أرضاً فَتَهَبُّ لنجدته، في مفارقة عجيبة ولعب على وتر الشخص من لَدُنِ الروائي الذي عَمَدَ إلى التغيير على المستوى الفكري والنفسي لأبطال روايته حيث أخذته (كيم) (مباشرة إلى أحد المستوصفات قرب "يافو")²، لكن البطل الراوي يقول في نفسه بعد تعرضه لهاته الحادثة (لَمْ يَهَبَّ جار واحد لنجدتي، ولا خطر ببال نفسٍ نبيلة الاتصال بالشرطة)³. وكأنه يتلقى صدمة أخرى من جيرانه الذين كان يخالطهم ويحتك بهم عندما كان يحظى بمكانة مرموقة بينهم قبل أن تقوم زوجته بالعملية الانتحارية، هاته الحادثة التي قلبت حياته رأساً على عقب، وأثناء طريقه إلى المستوصف يقول البطل الراوي (صرخ أحدهم بكيم: دعيه يموت، إنه مجرد حثالة...)⁴، وهذا يَدُلُّ على انعدام الرحمة والشفقة من قلوب بعض اليهود الذين لا يعرفون سوى منطق الموت للعرب، فعنصريتهم تظهر لتكشف عن معدنهم الحقيقي الزائف والمنكسر فقد تحول عندهم (هذا الاستعلاء العنصري المشحون بالكراهية وعدم الاعتراف بنديّة الآخرين... فالعالم عاجز عن فهم اليهودية، وما برح المفكرون يتساءلون عن كنه الطبيعة اليهودية).⁵

1 - محمد الداوي: صورة الأنا والآخر، سلسلة السرد العربي، 2013، القاهرة، مصر، ص 12.

2 - ياسمينة خضرا: الصدمة، ص 73.

3 - المصدر نفسه، ص 73.

4 - المصدر نفسه، ص 73.

5 - رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، ص 28.

تقوم كيم باصطحاب البطل الراوي إلى شقتها في (سيديروت يروشالايم)¹ فحتى الأمكنة سميت بأسماء يهودية، فالاستيطان الإسرائيلي لم يتواني في تغيير مسميات الأمكنة حتى يثبت أحقيته بالأرض المحتلة، فقد شغل الحيز المكاني دوراً هاماً في الرواية إذ ركّز الكاتب على ذكر أمكنة مكناة بالعبرية لتكتمل معها شرعية سلب المكان والهوية.

يُصور الكاتب (ياسمينه خضرا) بعضاً من الشخصوس التي جاورت الطبيب جعفري وآخرين ممن يكرهون العرب ويضمرون الشر في أنفسهم ضد كل فلسطيني، شخصية يهودية أخرى تمثل مدى جرأة ووقاحة بعض الأشخاص الذين يحشرون أنوفهم فيما لا يعينهم، هو جار (بنيامين يهودا)، أخ (كيم) في القدس، يسكن في البيت رقم 38، فبمجرد رؤيته لأنوار البيت مشتعلة يسارع لمعرفة من بالبيت (كان رجل مديد القامة يعتمر القلنسوة اليهودية، ويرتدي فانلة قطنية يدفع كيم ليدخل. ألقى نظرة خاطفة خلفها، تفرّس في وجهي، وقال: -أنا جاركما، أسكن في الرقم 38. لمحت ضوءاً، وأتيت لألقي التحية على بنيامين.

-أجابت كيم، منزعة من وقاحتها: بنيامين ليس موجوداً، أنا أخته، الدكتورة كيم يهودا.

- أخته؟ لم أرك أبداً من قبل.

- الآن تراني.

رجح رأسه، ثم نقل نظرتة إلي.

- حسناً، أرجو ألا أكون قد تطفلت عليكما.

- لا بأس.

- رفع إصبعه إلى صدغه في تحية مبهمة، وانسحب. خرجت كيم تراقبه ينصرف قبل أن تغلق الباب.

¹ - ياسمينه خضرا: الصدمة، ص 74.

غمغمت، وهي تعود إلى الطاولة: لا تنقصه الجرأة)¹.

إن هاته الشخصية الفظة التي تفتقر إلى الأخلاق رغم هيئته الدالة على تدينه، لم تُعجب حتى اليهودية كيم، وهذا ما يؤكد على أنها شخصية متخلفة رغم تدينها. فالجار اليهودي كما يصوره الكاتب شخص شكك، إذ أنه لم يُصدق الطيبة كيم حين أخبرته أنها شقيقة (بنيامين)، فأحضر الشرطة الإسرائيلية بمجرد رؤيته للطبيب (أمين جعفري) برفقتها إذ يقول البطل الراوي (قُرْع الباب ثم رن الجرس. ذهبت كيم لتفتح كانت الشرطة التي يرافقها الجار الذي يسكن في الرقم 38 الضابط أشقر متقدم في السن، هزيل ومهذب، يرافقه ثلاثة عناصر، مدججين بالأسلحة، اعتذر لإقلاق راحتنا، وطلب أن يرى أوراقنا الثبوتية. قصد كل منا غرفته لإحضار الوثائق المطلوبة، وعناصر الشرطة يتبعوننا عن كثب.

دقق الضابط في بطاقتي الهوية والمهنة. تلكاً وهو يدقق ببطاقتي.

- هل أنت إسرائيلي يا سيد جعفري؟

- ألدك مشكلة في ذلك؟

قاسني بنظرته، مغتاضاً من سؤالي، وأرجع لنا الأوراق، ثم خاطب كيم:

- سيدتي، هل أنت أخت بنيامين يهودا؟

- أجل

- أخوك معرفة قديمة. ألم يرجع بعد من الولايات المتحدة؟²

¹ - ياسمينة خضرا: الصدمة، ص 162.

² - المصدر نفسه، ص 169.

فبعد تفتيشهما يعتذر الضابط عن الإزعاج، فالإسرائيليون يَشْكُون بمجرد رؤية سحنات عربية، فهي تثير الرّئية في أنفسهم، فهم يعتقدون بأن كل العرب مجرمين لا يستحقون أبداً العيش فوق هاته الأرض، وهذا ما أبرزه تصرف الجار اليهودي المتطرف والعنصري وحتى الضابط.

صورة أخرى يعرضها الروائي في صدمته، فحين يعود الطبيب أمين إلى شقته أخيراً ليمارس حداده، ويستعيد رباطة جأشه، يلمح جاره هذا الجار اليهودي الذي كان يتبادل معه التحية فقط، أصبح يتجاهله منذ وقوع الحادثة (يُلْمَعُ الجار الساكن قبالي الزجاج الوافي من الهواء في سيارته، إنه أول المستيقظين في الحي. يحرص على الذهاب إلى السوق قبل منافسيه... يصدف أحياناً أن نتبادل التحية في العتمة، هو متأهب للذهاب إلى السوق، وأنا عائد من المستشفى. منذ العملية التفجيرية يتجاهل وجودي كلياً).¹

لقد صور الكاتب هاته الشخصية على أنها حريصة وملزمة بالعمل، والمعروف عن اليهود أنهم أصحاب تجارة منذ القدم فقد برعوا في هذا المجال ونجحوا فيه، إلا أنه يتّسم بالعنصرية والحيادية بمجرد وقوع الحادثة بدأ يتحاشى الطبيب جعفري، وكأن العرب وحوش تبعث الذعر في أنفسهم المريضة لكننا نلمس غياباً للشخصية العنصرية في رواية "سوناتا لأشباح القدس" فالكاتب ركز على الشخوص العدائية والفرق الإسرائيلية الباعثة للرعب والمتبينة لفكرة القتل والتنكيل ضد العرب الفلسطينيين مقارنة بشخوص رواية "الصدمة"، إلا أنّ معظم اليهود والإسرائيليين في هذا الشق من الدراسة، تطغى عليهم السمات العدوانية والتّرجسية، وكذا النزعة العنصرية التي غلبت على تصرفات فئة من اليهود الإسرائيليين في رواية "الصدمة" و "سوناتا لأشباح القدس"، وعلى ضوء ما سبق ("نجد أن الشخصية اليهودية الإسرائيلية تعبر عن طاقات الحقد والشّر والرّغبة في الإيذاء البدني لتفريغ سحنات مكبوتة أيقظها الصراع العربي الإسرائيلي لذلك فهي تتعامل وفق أفكار ومبادئ تقليدية ثابتة

¹ - ياسمينة خضرا: الصدمة، ص203.

لتحقيق الطموح والحلم الإسرائيليين).¹ فالتركيبة النفسية لليهود تعود إلى عوامل متعددة ساهمت في تكوين شخصية متسلطة تميل إلى العدوان بالفطرة، فهي سمات متوارثة جيلاً عن جيل تتضح مخلفاتها خيالياً وحقيقة ضمن الرواية.

2- الصورة الإيجابية ليهود فلسطين في الرواية الجزائرية:

يتوالى السرد في كلتي الروائيتين فاسحاً المجال أمام الشحنة الإيجابية التي تبعثها الشخصيات اليهودية، لينفتح أفق توقع القارئ على جانب آخر لآخر اليهودي، في صورة تعكس ذلك الجانب الإنساني الذي يتسم به ثلثة من اليهود، هؤلاء الأشخاص الفاعلين الذين يستنكرون العدوان المفروض على الأنا العربية، كما هو ظاهر ضمن تلايب الروائيتين.

أ- صورة اليهودي المتعاش:

أبان الكاتب ياسمينة خضرا في رواية "الصدمة" عن عدة أوجه لليهودي، مصوراً إياه من زوايا مختلفة، ليفتح بذلك أبواب الإنسانية المتأصلة في النفس، بعيداً عن غطاء السياسة والديانة والتوجهات الإيديولوجية، وهو ذاته التوجه الذي انتهجه الكاتب واسيني الأعرج في رواية "سوناتا لأشباح القدس"، في المزج بين ثنائية السلب والإيجاب، لثمين مجربات السرد الحكائي، الذي توخى فيه كلا الكاتبين مبدأ الحياد أو إصدار أحكام مسبقة على الشخصية اليهودية .

شخصية عزرا بن حاييم في "الصدمة": ركّز الكاتب "ياسمينة خضرا" على الشخصية اليهودية المثقفة، إذ يصور هاته الشخصية من منظور إيجابي، فهو يمثل شخصية اليهودي المثقف والمتعاش مع الأنا المتمثلة في شخصية البطل الراوي (أمين جعفري) هذا الأخير الذي لقي دعماً من عزرا بن حاييم، إذ يقول الكاتب على لسان بطله (مرّ مديرنا عزرا بن حاييم بمكتبي بعد انتهاء العملية

¹ - صبيحة عودة زعرب: الشخصية اليهودية الإسرائيلية في الخطاب الروائي الفلسطيني، 1967م، 1997م، عمان، دار مجدلاوي، ط1، 1426هـ - 2006م، ص 191.

الجراحية. إنه رجل نشيط ويقظ مع أنه تخطى الستين وبدأ كرشه يتكور في المستشفى، يلقبونه بالرفيق لفرط استبداده الذي تزيده سوءاً روح دعاية لا تتلائم دائماً مع موضوع الحديث، ولكنه أول من يشمّر عن ساعديه في الحوادث الأليمة وآخر من ينصرف).¹

كان يشغل عزرا اليهودي منصب مدير المشفى الذي يعمل به الطبيب أمين جعفري، يصوره الكاتب بأنه شخصية منضبطة قيادية، متفانية في عملها، كما أنه وقف بجانب الطبيب أمين في بداياته بالمشفى حين يقول: (قبل حصولي على الجنسية الإسرائيلية، حين كنت جراحاً شاباً، لا أدخر وسعاً لأتثبت في الوظيفة، وقف إلى جانبي كان لا يزال رئيس قسم متواضعاً، ولكنّه وظّف النفوذ القليل الذي يمنحه إياه منصبه لإبعاد خصومي في ذلك الحين)²، فرغم المضايقات التي تعرض لها الطبيب جعفري إلا أن اليهودي عزرا بن حاييم، لم يدّخر جهداً في درء هاته المنغصات عن طريقه، يقول: (حين يستفزني أحدهم، لا يحاول عزرا حتى أن يعرف من البادئ، بل يتضامن معي تضامناً منهجياً)³، وفي هذا دلالة على إيجابية وانفتاح الآخر اليهودي، وقدرته على التواصل مع الأنا العربية، كما أن الكاتب يوسّع الدائرة التواصلية بين البطل الراوي وعزرا بن حاييم، فلا تنحصر في أطر العلاقات العملية داخل المشفى، وإنما تشمل الحياة الخاصة والاجتماعية حيث كان صديقاً مقرباً من الطبيب جعفري، فأسلوبه وكلماته تدل على حبه للأنا، يصفه الكاتب على لسان بطله (وضع نظاراته على أنفه القبيح المنخرين ثم هزّ رأسه برفق، وبعد تأمل وجيز، استعادت نظرتة صرامتها).

- هل تأتي إلى النادي هذا المساء؟

- لا أستطيع، فزوجتي تعود اليوم.

- وثأري

¹ - ياسمينة خضرا: الصدمة، ص 13.

² - المصدر نفسه: ص 13.

³ - المصدر نفسه، ص 14.

- أي ثأر؟ لم تفز عليّ بشوطين واحد).¹

فقد كان عزرا برغم فارق السنّ بينه وبين الطبيب جعفري لا يفوت الفرصة في قضاء وقت مع الطبيب داخل النادي، كما أنه كان مطلعاً على حياته الشخصية، وتبرز إنسانيته وخلفيته الفكرية بعد الحادثة التي ألمت بالطبيب جعفري على إثر إقدام زوجته على عملية انتحارية راح ضحيتها عدد من اليهود، فلم تثني هاته الحادثة عزرا عن الوقوف بجانب الطبيب كما كان دوماً معه، فيسترسل الكاتب في تبيان هاته الصورة الإيجابية وحرصه على نفسية الأنا (البطل الراوي) حين يقول على صديقه اليهودي (وصل عزرا بن حاييم بعد عشر دقائق من ذهابي إلى المشرحة. كان في حالة متقدمة من الإجهاد، يترنح تعباً. عانقني وضممني بشدة إلى صدره. لم يعرف ماذا يقول لي، وقد تجمد الكلام في حلقه).²

يُظهر عزرا تعاطفه مع الطبيب جعفري إثر مصابه عند فقْد زوجته، فالكاتب هنا يُعطي صورة عن اليهودي المتعاطف المتقبّل للأنا الفلسطينية خارج قُبة العقيدة والتّوجه والهويّة، ليس هذا فحسب بل تعدّدت الصور التضامنية من طرف اليهودي عزرا تجاه الطبيب جعفري وحرصه على راحته ونفسيته حيث يقول البطل الراوي (زارني عزرا بن حاييم عند كيم. لم نتحدث عن استئناف عملي المشكوك فيه، ولا عن إيلان روس. استفسر عزرا عن صحي، وعمّا إذا كنت أستعيد توازني. اصطحبني إلى مطعم ليثبت لي أن الخروج برفقتي لا يخرجه. ألححت لتسديد الحساب بعد العشاء. وبما أن كيم كانت مناوبة، قصدنا إحدى الحانات لتشمل مثل إلهين تخليا عن طيشهما بعد أن استنفذا كل لعنائهما).³ يريد الكاتب ربما من خلال هذا التصوير الإيجابي بعث رسالة مشفرة للدلالة على أن هناك جانباً آخر لا بد أن يُنظر إليه، وهو الجانب الإنساني لليهود الذين يتعاملون ويتواصلون مع

¹ - ياسمينه خضرا: الصدمة، ص 14.

² - المصدر نفسه، ص 41.

³ - المصدر نفسه، ص 118.

الفلسطينيين العرب، فالرغبة في التعايش يتولد عنها التواصل الإيجابي بين الأنا والآخر، فبالرغم من كل الذي حصل مع الطبيب جعفري إلا أن هناك عينة من اليهود لم يغيروا نظرتهم إليه وعزار بن حاييم واحد منهم، فهاته الصور تُعدُّ حوافز إيجابية تقوم في جوهرها على كوامن الشخصية اليهودية.

● شخصية هرمون سيمون في "السوناتا":

تقاطع شخصية اليهودي (عزرا بن حاييم) في "الصدمة" مع شخصية اليهودي (هرمون سيمون) في "السوناتا"، حيث أنه في الأولى نجد تعاطفاً للآخر اليهودي مع الأنا الفلسطينية، أما الثانية فنلمس فيها تعاطف الأنا الفلسطينية مع الآخر اليهودي، لتكتمل صورة التعايش التي فتح كل من الكاتبين نافذة للتواصل بين الأنا والآخر في أنساق مضمرة داخل الرواية.

إن شخصية اليهودي الطبيب "سيمون" تتحلى بالطيبة كما صورها الكاتب واسيني، فالذاكرة تعود أدراجها لتسترجع ماضيها لدى (مَي) حين تُقْصُّ على ابنها يوبا، صُحبة والدها مع الطبيب اليهودي قائلة: (... ومع ذلك يتذكر جيداً أنه عندما نزل الألمان في طبرق تحت قيادة رومل، كان طبيب العائلة اليهودي واسمه هرمون سيمون في حالة لا توصف من الرعب. قال له بابا حسن عندما زاره في بيته في شارع الملك جورج، وكان مرعوباً هو وعائلته: تعال إلى بيتي يا سيمون. لن يمسسك أحد بأذى وعرض عليه البقاء عنده في حالة ما إذا تمكن الألمان من الدخول إلى فلسطين)¹، فاليهودي ظل ولازال هاجسه وخوفه الأكبر من الألمان متقوقعاً في أعماقه، بدليل أن الطبيب اليهودي كان يفضل أن يموت أي مودة عدا أن تكون على أيدي الألمان، فالخرقة لا زالت نارها متأججة بأنفس اليهود الذين ترعرعوا على فكرة الانتقام لماضيهم الأسود، لكن الأنا الفلسطينية استطاعت أن تُخمد النار في نفسية الآخر اليهودي، نظراً لتجاوزها وقدرتها على التسامح، فهاهو والد (مَي) يفتح قلبه وبيته للطبيب اليهودي (وتقاسم بيته معه هو وزوجته وابنته، لكن هرمون بعد أن

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 43.

شكره وباسه على رأسه اعترافاً، قال له: يا صديقي وحبيبي، مجبر أن أقول لك الحقيقة، فبيننا ملح وخبز وصحبة كبيرة. أفضل الموت على السقوط بين أيدي القتلة الألمان. وأشار إلى ثلاث إبر جاهزة بالسُّم له ولزوجته ولابنته)¹، يشير الكاتب إلى قضية تعايش بعض اليهود مع العرب الفلسطينيين ورفضهم للفكر المناهض للقتل والتنكيل، فهذا هو ذا هرمون سيمون يعترف بفضل والد (مَيّ) وتصرفه الشهم معه، هذا الأخير الذي يسترجع من حين لآخر ذكرى صديقه اليهودي قائلاً على لسان ابنته البطلة (مَيّ): (من حين لآخر يسألني بابا حسن عندما تصفو ذاكرته: يا ترى؟ هل ما يزال هرمون سيمون كما تركته، رجلاً طيباً متعايشاً بإنسانية عالية ومؤمناً بأرض طيبة هي لجميع الفلسطينيين عرباً ومسيحيين ويهوداً؟)²، فالكاتب يصور اليهودي على أنه شخصية متعايشة تؤمن بمبدأ السلام والعيش على أرض فلسطين دون رحمة المعتقدات والأساطير، التي تبناها الفكر العقائدي الصهيوني الدّاعي إلى محو الهوية العربية والأنا الفلسطينية، فالكاتب يُفرق هنا بين اليهودية والصهيونية، وفي هذا دلالة قوية على أن الديانة لا دخل لها في هاته الحرب المحتدمة، وإنما عدم قدرة النَّاس على التعايش بسلام هو المُشكِّل، فنظرة الأنا الفلسطينية لليهود ليست سيئة كما يُخيَّلُ إلينا، فهناك من يصادق ويجاور ويتعامل مع الآخر اليهودي دون أية قيود تحت لواء السَّلَام.

● شخصية اليهودي الصديق:

يؤكد الكاتب في عرض صورة أخرى عن اليهودي سَمّة الطيب فتلك المظاهرات التي خرجت لتندد بالقرار الصادر عن الهيئة العليا العربية، القائل بضرورة تقسيم فلسطين سنة 1947 حينها كانت البطلة لا تزال صغيرة فقد طُلب منها حمل الحجارة وتكسير المحلات، تقول (سَلَّم لي الكثير من الأطفال الحجارة التي كسروها على حواف الطرقات، وطلبوا مني أن أكسر زجاج أحد المحلات اليهودية، ولكن الحجارة التصقت بيدي، ليس خوفاً، فتريبة خالي غسان جعلتني لا أتحمل ولا

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 44.

² - المصدر نفسه، ص 44.

أخاف، ولكن لأن صاحب المحلّ كان صديق خالي غسان وكان يهودياً طيباً¹ وهذا دلالة على أن التربية التي نشأ عليها الفلسطينيون بالرغم من الحرب الإسرائيلية وانتهاك الصهاينة لحرمة الوطن، إلا أنهم أنشؤوا أطفالهم التنشئة الصالحة بعيداً عن الظلم والحقد، مبنية على احترام الغير والتفريق بين الصالح والطالح، فليس كل اليهود حسب الكاتب سفاحين وإنما يوازن الكفة وإن ثقلت الأولى، إلا أن البعض منهم طيبين.

تتضح الصورة الإيجابية المحفزة للعلاقات التواصلية بين الأنا العربية والآخر اليهودي المنبعثة من السوناتا، فالأنا الفلسطينية منذ القدم عُرِفَتْ بتعايشها وتقبلها للآخر اليهودي، تتجلى صورة التعايش في جملة التساؤلات التي باتت تُورق (مَي)، وإلى الحال الذي وصل إليه شعبها من اضطهاد على يد شعب فُتِحَتْ له كل أبواب فلسطين قائلة: (... لا أفهم؟ اليهودي الذي بكنهه جدي عندما اقتيد لحمامات الموت والهولوكوست، وبكاه أحوالي وأمي، هو نفسه الذي قتلهم ونكّل بهم واحتل بيوتهم؟)²، ففي كلامها دلالات على روابط اجتماعية وإنسانية جمعت بين المسلمين واليهود إلا أن لعنة الاستيطان الصهيوني كسرت تلك الروابط باستيرادها لشعوب مشتتة، عملت على زعزعة استقرار الوضع وزرع الفتن كما جاء على لسان البطلة (مَي) (الكثير من الذين وفدوا من أراضي الدنيا، اغتصبوا حتى حميمة اليهودي الطيب وابن البلد، الذي توارث تلك الأرض أباً عن جد).³

فالمشكلة حسب البطلة، هي مشكل عقليات تَبَنَّتْ الفكر الاستيلائي الاستعلائي، الرّامي إلى فبركة سيناريو الملكية والاستحواذ على الأرض الفلسطينية، فذاكرة البطلة الراوية لازالت تفوح بعبق الماضي الجميل مسترجعة أحداثه. (-الشعب اليهودي.

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 139.

² - المصدر نفسه، ص 359.

³ - المصدر نفسه، ص 359.

-أنا لم أعرف فلسطين أخرى، بكل مشاكلها، إلا فلسطين التي سكنها العرب واليهود المسيحيون، ولا أرى أي مشكل في ذلك، كلهم فلسطينيون. اليهود المقيمون في أرض فلسطين أبناء البلد، ولا يوجد عاقل في الدنيا يطالب بطردهم أو رميهم في البحر).¹، فلا عائق الدين واختلاف الهوية كان سبباً في تفشّي الأحقاد واشتعال الحرب الدّموية، وإنما مُزور التاريخ الدّاعين للانتماء للحركة الصهيونية، الذين توقعوا خلف راية العقائدية، المؤمنين بالبروتوكولات الصهيونية، هؤلاء عكفوا على ملمة شتاتهم، من أجل نشر التفرقة بين العرب المسلمين واليهود.

لكن الكاتب واسيني الأعرج يؤكد على أقدمية العلاقات الطيبة بين الأنا والآخر، فههو ذا يحكي على لسان بطلته الراوية (مّي) حين تذكرت أرض أجدادها بالأندلس (ثم اندفنت في عمق الحي اليهودي)² في طليطلة، فجدها كان خطاطاً يُدعى (الروخو الخطاط)³ الذي لم يطمئن إلا عندما دخل عليه خطاطه اليهودي يوسف بوخريس وطمأنه على وصول المخطوطة إلى العُدوة الأخرى سالمة كاملة)⁴، وهذا يدل على الثقة التي كانت بين الأنا والآخر، في صورة تبين أن الديانة لا تمنع الإنسان من أن يكون منفتحاً ومتقبلاً للآخر، فتوافق الدّيانا يُسهل عملية التعايش، تقول (مّي) لابنها (يوبابا): (هل تصدق هذا؟ خط عربي، زخرفة إسلامية أنيقة، داخل كنيس يهودي؟ أي زمن نعيش؟ صحيح أن الحياة لم تكن سهلة، لكنهم كانوا على الأقل هاهنا يجلسون، يتبادلون الأفكار، يتناقشون وربما يتخاصمون أحياناً، ويصطدمون بسبب الاختلافات في التّصور، لكنهم كانوا يحبون بعضهم بعضاً)⁵، خلفية الكاتب التاريخية الملمّة بالحقب الزمنية، أثرت السرد وأغنّته بتسليط

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس: ص 360.

² - المصدر نفسه، ص 387.

³ - المصدر نفسه، ص 394.

⁴ - المصدر نفسه، ص 395.

⁵ - المصدر نفسه: ص 396-397.

الضوء على يهود الأندلس، وكيف كانت علاقاتهم وتوجهاتهم مبنية على أساس التفاوض وتقبل الرأي و الرأي الآخر، وهذا من شأنه إزالة اللبس عن ماهية الدين ما دام المعبود واحداً، كما أن بعض اليهود كان لهم موقف إيجابي إزاء حادثة احتراق المسجد الأقصى فقد (بكى الكثير من اليهود الطيبين عندما أتلقت أجزاء كبيرة من المسجد الأقصى، وساهموا في إعادة تأثيثه وشراء أخشابه وأبوابه...) ¹، فهذا يدل على التعاون والتآزر في المحن بين الآخر اليهودي والأنا الفلسطيني، كما أنهم تشاركوا المصير نفسه ف (المشكلة ليست في أن تتصل عن إسلامك أو عن يهوديتك وتصير مسيحياً أو بوذياً... الآن أفهم لماذا اختار جدي وخطاطه المساعد سيدي يوسف بوخرس أن يحترقا بدل أن يبيعا مدينتهما) ² فالمسألة تتعدى الانتماء العقائدي إلى الانتماء الروحي والإنساني.

● شخصية نافيد رونين في "الصدمة":

أن تكون يهودياً، ليس بالضرورة أن تنضوي تحت لواء العنصرية الصهيونية، هكذا ربما يرمي الكاتب "ياسمينه خضراء" من خلال تسليطه الضوء على صور فاعلة ومتعاونة ضمن حلقة العلاقات القائمة بين الأنا العربية والآخر اليهودي، شخصية (نافيد رونين) في رواية "الصدمة"، تُمثل صورة أخرى عن اليهودي المتعايش مع الأنا الفلسطينية، فهو يشغل منصب مسؤول رفيع في سلك الشرطة الإسرائيلية، وله علاقة طيبة مع الدكتور (أمين جعفري)، فهو الذي سارع للاتصال بأمين ليلة الحادثة ليخبره بضرورة حضوره للمشفى، إذ يقول البطل الراوي (... استغرقتُ بعض الوقت للتعرف إلى الصوت المخرّش لنافيد رونين، وهو مسؤول رفيع في الشرطة...)

- نعم، نافيد؟

- اتصل بك من المشفى. يحتاجون إليك هنا.

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس: ص 397.

² - المصدر نفسه: ص 398.

-

- آسف ، عليك أن تأتي. إذا كنت لا تشعر بأنك على ما يرام، فسأرسل من يحضرك¹ ، فبعد إلحاح نافيد على أمين بالحضور لأمر ضروري، يطلب هذا الأخير من نافيد أن يبلغ حواجز التفتيش حتى لا يزعجوه بكثرة التفتيشات وهو في طريقه إلى المشفى، فيسأله نافيد (أما زلت تقود سيارة الفورد البيضاء نفسها؟

- أجل -

- سأبلغهم)².

لقد جمعت بين نافيد رونين اليهودي، والطبيب أمين صداقة قوية بعد أن كان نافيد أحد مرضى الدكتور أمين، وقد عارض هذا الأخير قطع رجله إلا بعض الستميترات منها حيث يقول (كان نافيد رونين من أكثر مرضاي جاذبية، يتحلى بمعنويات حديدية وبحس دعاية خاضع للنقاش لا ريب إنما مواظب. هو الذي أخبرني الدعابات السفهية الأولى عن الشرطة. ولاحقاً، أجريت عملية جراحية لوالدته، الأمر الذي عزّز تقاربنا)³، يحاول الكاتب تسليط الضوء على الجانب الإنساني الذي يتحلى به هذا الشرطي اليهودي، رغم اختلاف التوجهات الدينية والسياسية، إلا أن الجنسية الإسرائيلية للدكتور أمين جعلته محطّ تقبل من الآخر اليهودي الذي يعاني أزمة تقبل للعرب في غالب الأحيان، كما يؤكد على الثقة التي يمنحها رونين في شخص الطبيب أمين الذي يقول: (ومنذ ذلك الحين، كلما احتاج أحد زملائه أو أقاربه إلى جراحة، يعهد به إليّ)⁴، بعد وصول أمين للمستشفى يطلب من رونين نافيد، هذا الأخير الذي لم يستطع إخباره بأنه استدعي للتعرف على جثة زوجته

¹ - ياسمينة خضراء: الصدمة، ص 33.

² - المصدر نفسه، ص 34.

³ - المصدر نفسه، ص 35.

⁴ - المصدر نفسه، ص 35.

التي كان يظن أمين أنها لم تُعدُّ بعدُ من كفر كنا ، وكانت الصدمة عظيمة حين رأى زوجته سهام التي لم يبق منها سوى الرأس بعد تفجيرها لنفسها في عملية انتحارية، حينها لم يتوانى عزرا بن حاييم في مواساته داخل المشفى بالرغم من الشكوك التي تُؤكدها تلك التمزقات الحاصلة في جسدها والتي لا تصادف إلا (أجساد الانتحاريين الأصوليين)¹، لكن نافيد يحاول أن يشرح له الواقعة ويخفف من وقع الصدمة قائلاً: (شرح لي نافيد:

لا يتعلق الأمر بقتيلة إنما بعملية انتحارية. أغلب الظن أن الشخص الذي فجر نفسه في المطعم هو زوجتك يا أمين)².

فتبدأ سلسلة الاعتقالات وعمليات التفتيش تطال الطبيب أمين، لكنَّ نافيد لم يتخلى عنه، فبعد خروج أمين من السجن وجد نافيد بانتظاره، وهو الذي تدخَّل من أجل إخلاء سبيله، هذا اليهودي بمواقفه يمثِّل صورة عن الإنسانية، فهو لا يهتم لا بالجنسية ولا بالعملية الانتحارية، وإنما بصديقه الطبيب، كَوْنُ العلاقة مبنية على روح أخلاقية، رغم اختلاف الدين والهوية، ففُور الإفراج عن أمين يقول (في أسفل السُّلم، سيارة ضخمة يهدر محركها. يقودها نافيد رونين. يترجل ويسند مرفقه إلى الباب... أدركت على الفور أنهم أفرجوا عني بفضل تدخله)³، يأسف رونين على حال أمين جراء أثار التعذيب التي مُورست عليه، فبالرغم من كل هذا تتدخل الروح العربية والنفس الأبية للطبيب العربي الأصل قائلاً (انكافأت لأتهرب من يده، لم أعد أطيع أن يضع أحدهم يده عليّ، ولا حتى لمواساتي)⁴، يُسلط الكاتب الضوء على حساسية التعامل بين الأنا والآخر التي ستظل تنخر في نفوسهم، رغم تقارب العلاقات والاندماج بينهم، لم تكن تلك المرّة الوحيدة التي يتدخل فيها نافيد

¹ - ياسمينة خضراء: الصدمة ، ص 43.

² - المصدر نفسه ، ص 43.

³ - المصدر نفسه، ص 63.

⁴ - المصدر نفسه، ص 64.

رونين من أجل صديقه أمين لإخلاء سبيله، فحسب الكاتب ليست كل عناصر الشرطة اليهودية تميل إلى العدوانية، فبعد اختفاء الطبيب أمين لا يتوانى اليهودي نافيد في البحث عنه والسعي إلى إخراجه من السجن، إذ يقول البطل الراوي (كان نافيد رونين هناك، متكئاً على مكتب الاستقبال مذهولاً.

صرخت بفضاظة: - ها قد جاءت قدوتي الحسنة.

صرف نافيد الشرطي بإيماءة من رأسه.

أجاب بصوت متعب: - لا شيء من كل هذا يا أمين. أنا مسرور لأنك واقف على قدميك، كنت أتوقع الأسوأ).¹

فخوف رونين وإحساسه بالمسؤولية تجاه أمين، يُعطي صورة إيجابية عن اليهودي المتسامح، فالصداقة التي تجمع بين الأنا والآخر تتخطى حدود الاختلافات على جميع المستويات، يختفي كل شيء ولا تبقى سوى العاطفة التي تُسيّر أصحابها، تلك الصداقة جنبت أمين الوقوع في العديد من المآزق، فقد كان رونين يتدخل في اللحظة التي تسبق وقوع الكوارث والمواقف التي يضع أمين نفسه فيها، يُحس هذا الأخير بالإهانة والانكسار فقد تحطمت حياته وانقلبت رأساً على عقب، ويزيدها سوءاً المعاملة التي يتلقاها من طرف الإسرائيليين سواءً من جيرانه أو من عناصر الشرطة، أو حتى في العمل، فهو قد أصبح محلّ شُبْهة في حين لم تشفع له جنسيته، لكن نافيد يؤكد له أنه ليس وحيداً حين يبادره قائلاً (... وتخطى لو ظننت أنك وحيد ما زال لديك أصدقاء يمكنك الاعتماد عليهم)²، يصوّر الكاتب "ياسمينه حضرا" شخصية اليهودي المسؤول المتقبل للأنا العربية، الذي يحمل القيم الإنسانية، ويُقدر العلاقات الإنسانية التي تنهض في جوهرها على مبدأ التواصل والرغبة في المشاركة والتعايش، فالسلوك الإيجابي الذي ينتهجه رونين مع الطبيب أمين تجلّى في العديد من المواقف التي أبانت

¹ - ياسمينه حضرا: الصدمة، ص 224.

² - المصدر نفسه، ص 226.

عن معدن رونين نافيد، فهو الذي سهّل إجراءات دفن زوجة الطبيب أمين الذي يقول (... أحضر لي نافيد استمارات معبأة حسب الأصول ليعفيني من غضب لا يجدي نفعاً، كان بحاجة فقط إلى توقيعي)¹، ليتخطى أمين أولى العقبات بدفن زوجته.

يُقدم الكاتب صورة عن يهودي مثقف وواعٍ، ومنفتح فرونين ورغم فظاظة أمين معه، إلا أنه يُقدّر موقف صديقه ويحاول تجاهل تلك التصرفات حفاظاً على الود الذي بينهما، ومراعاةً لنفسية أمين المنكسرة، وهذا تصرف لبّق من يهودي يعلم للتو أن زوجة صديقه العربي الأصول قامت بتفجير نفسها وقتل عدد من اليهود، هنا يبين الكاتب مدى تأثر نافيد رونين بما أصاب أمين فحين يدخلان في نقاش عميق حول قضية موت سهام يُحسّ نافيد بصديقه الذي يقول (تنهد نافيد ريشما يبحث عن كلماته. لاحظ ألمي، وبدا عليه أنه يتألم له)²، لكن بقاء العلاقة بين أمين ورونين يُنمّ عن شجاعة من طرف اليهودي فحسب البطل الراوي (ليس من السهل على شرطي أن يواصل الاختلاط برجل زوجته انتحارية...) ³، ففي هذا دلالة على تعاطف الآخر اليهودي مع الأنا الفلسطينية، فكُلٌّ من عزار ورونين ظهر بصورة إيجابية بين تلايب السرد الحكائي، ليوازن بذلك الكاتب قليلاً بين دقّتي السلب والإيجاب، رغم الصورة التي تأصلت في أذهان العرب عن معدن اليهود، وأهدافهم.

حاول أصدقاء أمين اليهود الوقوف بجانبه، من زاوية الحياد، دون التطرق إلى تفاصيل تثير حفيظته، وهذا للاطمئنان عليه مخافة أن يتهور ويُقدم على إيذاء نفسه، فنفسيته في الحضيض، يبادر نافيد رونين بالاتصال به ودعوته إلى العشاء (قال لي نافيد مسروراً لسماع صوتي عبر الهاتف:

¹ - ياسمينة خضراء: الصدمة، ص 78.

² - المصدر نفسه، ص 110.

³ - المصدر نفسه، ص 104.

- كيف حالك يا أخي؟ هل فقدت ذاكرتك أم أنك شارد الذهن فقط؟ ترحل، تعود، تختفي ثم تظهر، ولا يخطر ببالك للحظة واحدة أن تتصل بصديقك العزيز، وتترك له عنوانك¹.

يعتمد الكاتب في "الصدمة" على أسلوب الحوار الذي يبرز وجهات نظر شخوصه خاصة الإيجابية منها، حول القضية الفلسطينية، هاته الثلة المثقفة من اليهود، وهم أصدقاء أمين الذي يسمع تحاورهم دون التدخل، فكل منهم مثقف وواع بالصراع القائم بين الطرفين، لكن تعلق أصوات تفكيرهم الذي أبدى الكاتب من خلالها رأي هؤلاء اليهود حول القضية، متجلباً ذلك على لسان البطل الراوي (لم يسمعي أحد أدخل... سمعت صوت عزرا بن حاييم، والصوت الأكثر ثقلاً لنافيد رونين، والصوت السلس لبنيامين، الشقيق البكر لكيم.

قال عزرا متنحنحاً: لا أفهم الصلة.

قال بنيامين الذي لطالما درس الفلسفة في جامعة تل أبيب قبل الانضمام إلى حركة سلمية تثير لغطاً شديداً في القدس:

- ثمة صلة دائماً حيث لا تثار الشكوك، لذلك، نحن لا نكف عن عدم استيعاب الأمور²، يبرز الكاتب تساؤلات الآخر اليهودي الذي يحاول إيجاد المتسبب في هاته المهزلة القائمة وعن الداعي لإراقة الدماء من كلا الطرفين، فيواصل الراوي البطل (اعترض عزرا بلباقة:

- دعنا لا نبالغ.

- هل المواكب الجنائزية التي تتقاطع من هذا الطرف والطرف الآخر قد جعلتنا نحز تقدماً؟...

- الفلسطينيون هم الذين يرفضون الاستماع إلى صوت العقل.

¹ - ياسمينة خضراء: الصدمة، ص 204.

² - المصدر نفسه، ص 80

- ربما نحن الذين نرفض الاستماع إليهم.

قال نافيد بنبرة هادئة وملهمة: بنيامين على حق. الفلسطينيون الأصوليون يرسلون فتياناً لتفجير أنفسهم في موقف الحافلة. وريثما نللمم قتلاتنا، ترسل لهم قياداتنا العسكرية مروحيات لقصف بيوتهم في اللحظة التي يتهايم قيادنا لإعلان النصر، يأتي تفجير آخر ليعدل في موقفهم، إلى متى سيدوم ذلك؟¹

صَوْتُ الحقيقة غير مسموع، إلا أن صوت التفجيرات وحده هو المدوي في حلبة الصراع، هذا الحوار يدل على استنكار اليهود كذلك لمنطق القتل والتنكيل، وطرحهم لأسئلة نابعة عن قناعة في أن الحرب ليست السبيل للحصول على حريتهم.

أراد الكاتب من خلال هذا الحوار الذي دار بين الشخصيات اليهودية المثقفة تبين الجانب الواعي بمدى خطورة الوضع، وعدم تقبل الآخر لهاته الحرب التي لا زالت بين مدّ وجزر، كبحر هائج في ليل عاصف لم تشرق شمسها بعد.

ب- صورة اليهودية المتعايشة في "الصدمة":

● شخصية كيم يهودا في "الصدمة":

لم يكن حضور المرأة اليهودية مكثفاً في كلتي الروايتين، عداً عن شخصية يهودية، قدّمها الكاتب (ياسمينه خضراء) في "الصدمة" في صورة إيجابية، هي الطيبة (كيم يهودا)، التي تعمل في نفس المشفى الذي يعمل فيه الطبيب أمين جعفري، والتي تمثل صورة عن المرأة المتفتحة والمثقفة، فقد كانت تهتم لأمر الطبيب أمين الذي يقول (سمعت الدكتورة كيم يهودا تبادرني، وهي تقنحم خلوتي: لا

¹ - ياسمينه خضراء: الصدمة، ص 80.

تشغل بالك كثيراً!)¹، (كيم) تمثل صورة اليهودية المتعايشة مع (الأنا) الفلسطينية، فقد كانت تعرف (أمين) من أيام الجامعة حسب البطل الراوي (أعرف كيم منذ أيام الجامعة، لم نكن في الدفعة نفسها... ولكن كلاً منا استلطف الآخر لقاءاتنا الأولى كانت جميلة وعفوية، لا تتردد في المواقف التي يأبى ويحجم فيها الطلاب الآخرون عن طلب ولعة لسجائرهم من قداحة طالب عربي)²، يتضح من خلال هذا أن العلاقة التي جمعتهم قديمة ومتينة، كما يصورها الكاتب، فقد عمد إلى التركيز على الصفات المعنوية والجسمية لشخصه، لتبيين صورة الآخر من منطلق الأسلوب الذي اتكأ عليه، وهو الأسلوب السردي الوصفي، مركزاً على قوة شخصية (كيم) وجاذبيتها وإعجابها بالأنا الفلسطينية، فهي لم تخفي إعجابها بأمين (كانت كيم مرحة وسخية، ومغازلاتها مؤثرة بسبب سداحتها)³، لكنه لم يفلح في علاقته العاطفية معها بسبب ضعفه وعدم ثقته بنفسه فأخذها منه الروسي، في حين تزوج هو بسهام، لكن بقيت صداقته بكيم وطيدة حسب ما جاء على لسانه (... فبقينا صديقين حميمين، ونسجت زمالتنا الوطيدة حولنا انسجاماً رائعاً)⁴، يصور الكاتب انضباط اليهود في عملهم، فبعد الحادثة مباشرة أُقيمت خلية أزمة داخل المشفى هرع كل من هناك إلى أداء عمله الإنساني و(كيم) هي الأخرى متفانية في عملها، يقول البطل الراوي: (أخبرتني كيم وهي تبادر إلى تشغيل الأجهزة: - سقط أحد عشر قتيلاً على الأقل)⁵، فالعلاقة بين الأنا والآخر ضمن أطر العمل تُعدُّ جيّدة، يبرز الكاتب الجانب الإنساني ل (كيم) وحزنها عند فقد أحد مرضاها (... أما كيم فقد فقدت ثلاثة أشخاص، الواحد تلو الآخر، كأن لعنة تستمتع بتحويل جهودها إلى هباء، غادرت

¹ - ياسمينة خضراء: الصدمة، ص 15.

² - المصدر نفسه، ص 16.

³ - المصدر نفسه، ص 16.

⁴ - المصدر نفسه، ص 16.

⁵ - المصدر نفسه، ص 21.

الغرفة 5 وهي تصبُّ على نفسها اللعنات. أظن أنها صعّدت إلى مكتبها لتذرف كل ما في جسها من دموع)¹.

سمة أخرى امتازت بها شخصية (كيم) هي الطيبة، فبعد كل الذي جرى مع أمين حين تلقيه صدمة تفجير زوجته نفسها لم تتركه وحيداً فحين ذهابها لتفقد حالة أمين في بيته وجدته عارياً داخل حوض الحمام، بعد أن أمضى ليلته داخله من شدة التعب، لتتضح صورة الحرص على سلامته من طرف (كيم) والتي تتجلى في قول البطل الراوي (وقفت كيم يهودا في الحمام، لا تصدق ما تراه عيناها... صرخت مروعة ومغتاظة...

- ماذا تفعل بنفسك يا أمين؟... ساعدتني على النهوض...)²

مثل هذا التصرف كان يمكن أن يودي بحياة أمين لولا تدخّلها في اللحظة الأخيرة قائلة له (... أنبأني حدسي هذا الصباح أن عليّ زيارتك قبل الذهاب إلى المستشفى)³، حاولت كيم الاعتناء بأمين بعدما شاهدته (قالت لي، وهي تغطيني: سأعدلك بسرعة شراباً ساخناً)⁴، كما أنها خشيت أن يكون قد أصابه مكروه (... عندما رأيت البوابة محلولة، وباب الدار مفتوحاً على مصراعيه، خشيت فوراً أن يكون قد حصل ما لا يحمد عقباه... ينتابها القلق لأنها مضطرة لمفارقتي بدون مراقبة)⁵، يدلُّ هذا الاهتمام من لدن كيم اليهودية على الجانب الإنساني الذي تتحلى به، كما أنها كانت تتفادى التحدث مع أمين حول الحادثة مراعاة لنفسيته إذ يقول (بقينا جالسين في الوضعية نفسها لمدة ساعتين، الواحد قبالة الآخر. ونظرتنا تائهة في خواترنا)⁶ وفي هذا دلالة على تلك الحساسية

¹ - ياسمينة خضراء: الصدمة، ص 25.

² - المصدر نفسه، ص 69.

³ - المصدر نفسه، ص 70.

⁴ - المصدر نفسه، ص 70.

⁵ - المصدر نفسه، ص 71.

⁶ - المصدر نفسه، ص 77.

الموجودة بين الطرفين، والتي يتدخل فيها دوماً عامل الهوية، فالأنا الفلسطينية تحشى التصادم مع الآخر اليهودي هنا خشية كسر علاقة الوُد التي قد تنقلب بمجرد إبداء رأي أو تعليق حول القضية، فيقول البطل الراوي (... تستضيفني كيم، وتحرص على مراعاة مشاعري

- لما كان خبيرٌ متفجرات يتفحص فتيلة بهذا القدر من الرفق الذي عاملتني به)¹، فإن دَلَّ هذا التصوير الدقيق على شيء فإنه يدلُّ على محبة وتقدير كيم لزميلها وصديقها أمين، بعيداً عن العامل الدِّيني أو الخلاف الوطني، وإنما من باب الرُّوح المتخلقة والإنسانية المفتحة، يصور الكاتب كيم على أنها ذات جمال خلاب، فاحتكاكها بأمين الدائم بعد الحادثة جعله يلحظ بهاءها ويتأثر به (...). يباغتني كذلك رونقها. يخال المرء أنها جنية خارجة من نبع الفتوة، بشعرها الفاحم المتهدل على ظهرها، وعينيها النجلاوين المكحلتين)²، هذا الجمال الذي أسر وسحر أمين بعد تحطيه الحالة التي مرَّ بها.

كيم هي الأخرى انجذبت لأمين وكانت تتغزل به في عزِّ صدمته، ربّما لأنها كانت معجبة به من قبل أو أنها لم تلاحظ ذلك الانجذاب من قبل بينهما حين تقول له: (...وتهمس لي همساً يريد أن يكون متواطئاً:

- بأي حال، كنت تبدو مع رفقة ممتعة. حزنك يزيدك وسامة)³، وكأن كلا منهما بدأ في اكتشاف الآخر، مع إمكانية نشوء علاقة بين الأنا والآخر، فقد صوّر الكاتب تلك المغازلات في قلب الأزمان، بعيداً عما يحدث من صراعات داخل الأرض الواحدة، يقول البطل الراوي (تقدمت يداها لمواساة يدي.. تقاطعت نظراتنا، ثم هربت على الفور، خشية اكتشاف برائق قد تسبب لها الحرج)⁴،

¹ - ياسمينه خضراء: الصدمة، ص 77.

² - المصدر نفسه، ص 99.

³ - المصدر نفسه، ص 100.

¹، فوقوف كيم بجانب أمين ساعده على النهوض من جديد حسب قوله (أتحرق رغبة لأضع يدي على يديها، وأقول لها كم أسعفني الحظ لأنها تشدُّ أزرِي، ولكني لا أجد في أي مكان القوة لأجعل هذه الحركة ممكنة)²، كيم يهودا صورة حيّة التقطها الكاتب ليترجمها بلغته وأسلوبه تحكي عن المرأة اليهودية القوية والعاشقة، فقد أحبت شخصاً تخلى عنها في منتصف طريق الحب، كانت تظن أنها لن تستطيع مواصلة الطريق بمفردها وبدونه، لكنها تخبط ألمها، ويتجلى هذا في سردها لتفاصيل قصتها لأمين قائلة له (عرفت رجلاً فيما مضى... أصبح عندي مركز الكون إثر مغازلة بيننا، كنت أقع في حبه من النظرة الأولى كلما ابتسم لي... أحببته كما ينذر العشق... وبلا سابق إنذار، رمى أمتعته في حقيبة وخرج من حياتي... تراءى لي أنني شرنقة مهملة بعد انسلاخ غشائها... ولاحظت أنني باقية... وفجأة، استعدت رباطة جأشي...) ³، تقول كيم هذا لتبين لأمين أن الفقد ليس نهاية الدنيا، وأنه لا عليه من النهوض واستئناف حياته المعلقة، وعدم ترك النفس تنقاد وراء حماقاتها المودية للتهلكة، فحياته قد توقفت وانقلبت رأساً على عقب، كساعة توقفت عقاربها عن الدوران فلا هي تقدمت ولا استطاعت العودة للوراء.

تعددت المواقف التي صنعتها كيم بإنسانيتها وطبيعتها، فهي هي تمثل مهنتها النبيلة والإنسانية أحسن تمثيل، فقد اعتنت بأخت أمين بالرضاعة (ليلي) حين وجدتها مريضة (...بقينا قرب ليلي... انضم ياسر إلينا لاحقاً. وجد كيم تعنى بزوجته، ولم يستفسر ما إذا كانت صديقة لي أم طبيبة استدعيت بصورة طارئة)⁴، وهنا دلالة على تفريقها بين مبدأ الديانات، وعدم إشراك المرضى في خِصَم النزاعات.

¹ - المصدر نفسه، ص 100.

² - ياسمينه خضراء: الصدمة، ص 101.

³ - المصدر نفسه، ص 168.

⁴ - المصدر نفسه، ص 175.

رحلة البحث عن الحقيقة، لم تثني كيم عن المجازفة واللحاق بأمين أينما ذهب، فعندما قرّر أمين الذهاب إلى بيت لحم عارضته بشدة حيث (كادت كيم تقتلع شعرها)¹، وهذا خوفاً عليه قائلة له (هل تدرك ماذا تقول؟ أذكرك بأنهم إرهابيون، هؤلاء الناس لا يمزحون)²، تصفُ كيم أهل بيت لحم بأنهم إرهابيون ووحوش، فهناك تكثر الجماعات الجهادية الفلسطينية وهي تعلم أن هاته المجازفة قد تؤدي بحياة أمين فتقول له (أقسم لك أنني أشعر بالهلع بمجرد أن أتخيلك تحوم حول وكر الأفاعي ذلك)³، كيم اليهودية تحمل فكرة سوداوية مثلها مثل الكثير من اليهود عن الحركات الفلسطينية والتي تدافع عن أرضها، إنهم كمن يعيشون بمنأى عن الأحداث الحاصلة في الأرض المحتلة، ويكتشفون أن الرّغد والرّفاهية التي كانوا يتمتعون بها، ما هي سوى هدوء يسبق العاصفة، أو ربح عاتية تنفض الغبار عن الحقيقة وعن المشهد الحقيقي للقضية الفلسطينية.

يصف الكاتب حساسية كيم تجاه أمين (انقبضت كتفاً لكيم، وتألأت دمعة حفرت في عينيها حاولت أن تكفكفها وراء ابتسامة لم ألمحها عند أية امرأة منذ أن تعلمت مقارنة النساء)⁴، فخوفها الشديد على أمين في رحلة بحثه عن سبب تهور زوجته، جعلها تذرف الدموع وتحرك مشاعر أمين هو الآخر، فقد كانت كيم تمثل ملاكته الحارس الذي يحرص على مراعاته ومشاركته أحزانه، وهذا يُعزّز من علاقة التواصل بين الأنا والآخر الإيجابية، التي ركّز الكاتب على إبرازها في طرحه، فهو كمن يقدم رسالة مشفرة مفادها أن اليهود ليسوا كلهم إسرائيليين، فاليهودية تعتبر هوية دينية، أما الإسرائيلية فتعدُّ هوية قومية تَعَيْتُ فساداً في أرض القدس المحتلة تحت شعار (نحن شعب الله المختار).

¹ - ياسمينة خضراء: الصدمة، ص 119.

² - المصدر نفسه، ص 119-120.

³ - المصدر نفسه، ص 121.

⁴ - المصدر نفسه، ص 125.

شخصية المرأة اليهودية لم تتجسد سوى في الطيبة (كيم يهودا) في رواية (الصدمة)، فالكاتب يasmine خضرا ركّز على الشخصية اليهودية الذكورية، في حين أن صورة العنصر النسوي اليهودي جاءت ماثلة في شخصية واحدة فقط.

● شخصية إيفا موهلر في "السوناتا":

أما الكاتب واسيني الأعرج في "السوناتا" لم يعرض في روايته سوى صورة لامرأة نازية من أب يهودي وأم ألمانية، هاته المرأة التي كانت عشيقة والد (مَي) كما صورها الكاتب، والذي سلط من خلالها الضوء على قضية حقد اليهود على النازيين، الذين استطاعوا التغلغل في تركيبة الذات اليهودية، وبث كل أنواع الحقد والكراهية والانتقام في روحها، فالشريعة اليهودية تنص على أن كل من هو من أم يهودية فهو يهودي، (إيفاموهلر) حُرمت من هاته الشرعية كونها من أم ألمانية، ولا يحق أن تنسب لأبيها اليهودي، كما أنها كانت مُتابعة من قبل الأجهزة الإسرائيلية.

فقد كانت تعمل ممرضة في أحد المستشفيات الألمانية بالقدس ذكرت (إيفاموهلر) في إحدى الرسائل التي كانت تبعثها لوالد (مَي) قائلة (...مازلت سجين في القدس... لم تعد القدس تعرفني... عيون المخابرات لا تضيع أي وقت في مطاردة من أسمتهم قتلة الدم اليهودي... لم يعرفوا مكاني وإلا لما ترددوا في قتلي وقتل من يلومني، يقولون عني إني كنت من وراء ترك العشرات من اليهود يموتون عند باب المستشفى الذي كنت أعمل به)¹. هاته المرأة النصف يهودية والتي تعرفت على والد (مَي) حين كان في المستشفى الذي دخله مصاباً ليخرج عاشقاً، تعترف بأنها لم تكن وراء موت اليهود كما اتهمتها المخابرات (لم أفعل ذلك إلا مرة واحدة، مات على إثرها صبي كان في حجر أمه ولم أكن أملك الدواء المناسب له، فقلت للمرأة اليهودية المهاجرة، ذات الأصل البولوني: لا يوجد دواء

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 482.

لإبنك... شتمتني وهي تستعد للقيام)¹، يُصور الكاتب (إيفاكراوس موهلر) بأنها تحمل في دواخلها حقداً على اليهود كما جاء صريحاً على لسانها (كنت أكره اليهود الروس والرومان والبولونيين ليس لأني نازية كما أشاعوا ذلك عني، ولكن لأني كنت أرى فيهم أبأس المخلوقات وأكثرها عطالة من الناحية الإنسانية. غطرتهم لا حدود لها. ربما كنت مخطئة، ولكني مازلت أعتقد أنهم هم من دمّر النظام القائم بين المسلمين والمسيحيين واليهود)²، حاول (الأعرج) من خلال هذا المشهد أن يُصور مختلف الأجناس المشتة اليهودية الوافدة إلى فلسطين، وما تحمله من أمراض نفسية تجاه الأنا الأخرى أيضاً كانت عقيدتها أو توجهاتها وأفكارها الإيديولوجية، (إيفاموهلر) تمثل نموذجاً متناقضاً لما هو معهود، فالكاتب حاول من خلالها إبراز الحقد الدفين لليهود على النازيين وكذا العكس، فهي تُقر بأن يهوديتها من والدها، لن تثني اليهود عن مضايقتها وإيذائها وهذا بملاحقتها محولين قتلها قائلة (أعرف أن ملفي أسود ولن تشفع يهوديتي من أبي أمامهم، فهي غير محسوبة مادام الدين مقروناً لديهم بالأم)³ لكن وبالرغم من كل هذا فقد كانت تُحبّ القدس ومتعايشة مع الأنا الفلسطينية يقول عنها والد (مَي) (... يستحضر لي الجميع إيفاموهلر، وكأنها هي من قادني نحو الكراهية، فأنا لا أكره أحداً، لا أحد يعرف جرح هذه المرأة ولا جرحي معها،... كلكم تتهمون إيفاموهلر وأنتم لا تعرفون عنها شيئاً... لم تكن إيفا تكره اليهود ولا قتلت أحداً، كما يشيعون)⁴ فهذا دلالة على حُب والد مَي لإيفا ودفاعه عنها، فالمسألة هنا هي مسألة تصفية حسابات فُجِرُ الحرقَة لم يندمِل، ونأزُه لازالت متأججة في النفس اليهودية التي لا تتوانى عن القيام بواجب التصفية الجسدية لكل من يذكرهم بعار الحرقَة المُخزية، فهاهي ذي إيفا موهلر ورغم محاولاتها في تغيير إقامتها وانتحالها لشخصية أخرى "هيلين شميدت" إلا أنها لم تُفلت من قبضة الجبروت الصهيوني، فقد وُجِدَتْ مقتولة

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 482.

² - المصدر نفسه، ص 482.

³ - المصدر نفسه، ص 483.

⁴ - المصدر نفسه، ص 88-89.

في منزلها في فيينا من قبل القوات العسكرية الصهيونية، فالصهاينة ممتلئون بحقد رهيب تجاه النازيين، الذي لم يدفع ثمن جريمتهم ضد اليهود سوى العرب الفلسطينيين، فإيفا كانت على يقين أن كل محاولاتنا في التخفي ستبوء بالفشل ولو بعد حين فقد كانت تقول لوالد "مي" (... أنت كذلك فلسطيني ومتهم بعشق امرأة نازية. الموساد تتبع كل من كانت لهم علاقة بالنازية، وأنا لدي ما يؤهلي للموت ثلاث مرات: النازية وحب فلسطين وطفل يهودي مات بسبب إهمالي)¹، تدلُّ هاته الصورة على موقف اليهود من النازيين وعدائهم تجاههم، وكذا حب إيفا لعربي رغم يهوديتها من أبيها وتقبلها للأنا الفلسطينية، إن حضور المرأة اليهودية في الرواية الجزائرية بشكل عام لم يكن بقوة، وإنما جاء محتشماً، في حين أن المرأة تعد عنصراً هاماً في تأييد الصرح الروائي، إلا أن كلاً من الكاتبين لم يتوغلا في الشخصية النسوية اليهودية مما يؤكد ربما على عدم احتكاكهم أو تأثرهم بالمرأة اليهودية ليتم صقلها على القالب الحكائي الملائم لها.

3- صورة اليهودي الحيادي وجرح المحرقة:

● شخصية العجوز سابا يهودا في "الصدمة":

صورة أخرى تحملها رواية (الصدمة) بين طياتها، تبرز وجهاً آخر لليهودي الذي يعيش على أنقاض الذاكرة، "يهودا العجوز" وهو جد "كيم يهودا"، التي تسعى لإبعاد الدكتور أمين عن الجوّ المكهرب الذي يعيشه، فتأخذه إلى بيت جدها (اصطحبني كيم عند جدها الذي يقطن في بيت صغير على شاطئ البحر. لا يعرف يهودا العجوز ما جرى لي، وهذا أفضل)²، العجوز يهودا يُمثّل صورة عن اليهودي المتقوقع داخل دفة الذكريات، يصوره الكاتب على أنه شخصية طيبة ومسالمة وكذا لبقاً حين يقول البطل الراوي (...استقبلنا يهود العجوز بلباقته المعهودة ترمل منذ ثلاثين عاماً

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 492.

² - ياسمينه خضرا: الصدمة، ص 89.

يعيش متنسكاً رغماً عنه... وسط كتبه وصوره التي تروي بالطول وبالعرض فظائع الإبادة. ولذلك، عندما يدق بابُه قريب أو صديق، يكون الأمر كما لو أن أحدهم رفع الفتحة التي يختبئ تحتها لإشاعة بعض النور في ليله الدّامس)¹، يعيش العديد من اليهود الذين شغلوا حيناً مهماً في تكوين المجتمع الألماني، فالتّاجون من اليهود الألمان لازالوا عالقين في محراب الذّاكرة السوداء، وأوجاع الماضي، لهذا اتّخذ العجوز يهوداً من البحر سبيلاً للنسيان، ودرياً للهجران، وأنيساً لوحدة الزمان قائلاً للدكتور أمين (-ولهذا السبب، اخترتُ، في آخر حياتي، الموت في بيتي على شاطئ البحر... فمن ينظر إلى البحر ينسى مآسي الدنيا، ويقنع بها إلى حد ما)²، فضّل العجوز أن يكون حارساً لذكرى النكبة، حريصاً على نقلها للأجيال، فاليهود بطبعهم حريصون على تلقين تاريخهم المزيف، والظهور مظهر المضطهد المسكين، المسلوبة حقوقه، المهانة كرامته، ويتجلى هذا في قول العجوز يهوداً للدكتور أمين (...كنت مؤمناً أنه لم تكتب لي النجاة من المهلكة إلا لأصون ذكراها... كنت أسجل كل المحاضرات التي لها صلة بإبادة اليهود، وأجوب أنحاء الكرة الأرضية لأروي معاناة شعبنا في معسكرات الإبادة)³، فالبدخ الذي ترعرع فيه العجوز يهوداً في ألمانيا، جعله يحقد على النازيين الذين حولوا سعادته إلى تعاسة، متمثلاً هذا في قوله (ولدت لأكون سعيداً. تراءى لي أن العناية الإلهية قد وضعت كل الحظوظ إلى جانبي... أسرتي ثرية، والدي الطبيب... وأمي تدرّس تاريخ الفن في الجامعة. كنا نقطن بيتاً رائعاً في أحد الأحياء الراقية)⁴، كل هذا النعيم لم يدم طويلاً إذ طالتهم حملات التهجير حين يقول (اضطررنا ذات صباح للتخلي عن ملاذنا الهادئ للانضمام إلى زرافات العائلات الحائرة، المطرودة من بيوتها... أما ذلك الصباح في خريف 1938، فهو بلا شك أكثرها انحداراً إلى قعر

¹ - ياسمينة حضرا: الصدمة، ص 89.

² - المصدر نفسه: ص 94.

³ - المصدر نفسه: ص 94.

⁴ - المصدر نفسه: ص 95.

الهاوية)¹، تدلُّ كلُّ هاته التفاصيل على الخلفية التاريخية التي ألمَّ بها الكاتب ياسمينة خضرا بُغية كشف الذهنية اليهودية المعاشية لأحداث المحرقة والأثر الذي خلَّفته في نفسية اليهودي الأشكنازي، فيتراءى لنا الشرخ التاريخي في حياة العجوز سابا يهودا حين يقول مستطرداً (... سأتذكر طويلاً ذلك الصَّمْت المرافق لمأساة أولئك الأشخاص الذين تفرَّغت نظراتهم، وكانت النجمة الصفراء* تشوه تشويها مهيناً تفصيل ثيابهم.

- لقد ظهرت النجمة الصفراء في أيلول/سبتمبر 1941)².

إن الإذلال الذي تعرض له اليهود على يد الألمان جعلهم يتبنون مبدأ الانتقام والكراهية وتلقين أبنائهم كيف أخرجوا قصراً من أوطان لم ترضى احتضانهم، ليجدوا فلسطين ملاذاً لإفراغ حقائبهم، وإفراغ جام غضبهم وسخطهم على شعب لا شأن له بمحرقتهم وذاكرتهم، إلا أن ضُعف اليهود أمام الألمان جعلهم ينتقمون من العرب الفلسطينيين، وهاهو ذا العجوز سابا يهودا لا يتوانى في عرض شريط ذاكرته على الدكتور أمين، لكن ومن جهة أخرى، فالعجوز بمنأى عن كل ما هو حاصل على الأراضي المحتلة، فهمه الوحيد إحياء ذكرى المحرقة، فهو بهذا يصنف ضمن الشخصية اليهودية المحايدة، والبعيدة عن لغط الأحداث الحاصلة على الأراضي المحتلة، فهاهو يستقبل أمين في بيته دونما أي حرج ليفتح له نوافذ الذاكرة، في علاقة تواصلية إيجابية بين الأنا والآخر.

¹ - ياسمينة خضرا: الصدمة: ص 95.

*الشارة الصفراء بالإنجليزية Yellow Badge، هي شارة صفراء تعلق في ملابس اليهود، والتي طبقه الحكومة الألمانية منذ عام 1938، وهذه الشارة هي تمييز اليهودي عن المسيحي والعجري وغيرها من الشعوب الأوروبية، استمر هذا الشعار الذي يرتديه اليهود خلال فترة حكم الزعيم الألماني أدولف هتلر، حتى سقوط برلين سنة 1945، الموقع على الإنترنت: <https://ar.m.wikipedia.org>، يوم الزيارة: 2019/12/22.

² - ياسمينة خضرا: الصدمة، ص 95-96.

4-صورة اليهودي الناسك:

● شخصية شلومي هيرش في "الصدمة":

أثناء بحث الدكتور أمين جعفري عن حقيقة زوجته، يعود إلى أمكنة طفولته بحثاً عن يواسيه، وليقف على أطلال الذاكرة، يلتقي أثناءها رجلاً يهودياً، يقول البطل الراوي (سمعت صوتاً خلفي يقول لي: شارون يقرأ التوراة بالمقلوب).

كان كهلاً ملفوفاً بثوب باخت ألوانه ولكنه نظيف، وقف خلفي، يقيس الجدار الذي يخفي الأفق، متكئاً على عصا، حائر الملامح، وأبيض الشعر، لكأنه موسى أمام العجل الذهبي).¹

يصف الكاتب الرجل اليهودي على لسان بطله، على أنه بهيئة الطلّة وذو هيئة مرتسمة على ملامحه، هذا الأخير جمعته صداقة بوالد الدكتور أمين، وقد تعرف على أمين من خلال الشبه الكبير بينه وبين والده قائلاً له (-عذراً على تطفلي. لمحتك قادمًا، وظننت أنني لمحت صديقاً قديماً...أفتقده. لديك هامته، ومشيته... أأست أمين، ابن رضوان جعفري الفنان؟

- هذا صحيح.

مدّ لي يداً معروقة

- اسمي شلومي هيرش، ولكن العرب يدعونني (زيف) الناسك، بسبب أحد الزاهدين... في الماضي، كنت أعمل سمساراً عند كبير أسرتكم، منذ أن خسر أراضيه، تحولت إلى دجال).²

يبرز الكاتب أنه منذ القدم قد نشأت صداقات بين اليهود والعرب المسلمين فالأنا بحاجة دوماً للآخر، وهذا ما يصوره في علاقة الصداقة التي جمعت اليهودي شلومي هيرش بوالد الدكتور

¹ - ياسمينة حضرا: الصدمة، ص 275.

² - المصدر نفسه، ص 276.

أمين، وهو بدوره ساخط على الجدار الذي أقامه اليهود والذي يقف قبالته هو وأمين قائلاً له (قلما يتنزه الناس في الجوار هذه الأيام بسبب الجدار، إنه شنيع حقاً هذا الجدار، أليس كذلك؟ كيف يمكن تشييد مثل هذه الفضاء).¹ لقد اتخذ اليهود الجدار الفاصل بين المسجد الأقصى والجهة الغربية، حائطاً يكون عليه مجدهم وتاريخهم القديم، فهم يطلقون عليه حائط المبكى أو حائط البراق، يردف اليهودي شلومي قائلاً (لقد ولد اليهودي حراً مثل الريح، منيعاً مثل صحراء يهودا...
أخفى العجوز رأسه.

غرف بيده حفنة من التراب، وفتتها بين أصابعه.

- ما فائدتي من كثرة ذبائحكم، يقول الربُّ؟

قلت له: سفر أشعيا، 1، 11.

حرك العجوز حاجبيه، مبدياً إعجابه:

- عافاك!)²، يتحدث الحوار بين الدكتور أمين والعجوز شلومي، ليتبين من خلال تحاورهما رفض اليهودي شلومي لفكرة الحرب وكثرة القتل والتنكيل بالفلسطينيين، كما يثير الدكتور أمين إعجاب العجوز اليهودي لدرايته بكلام توراتهم، حين يواصل قائلاً (- كيف صارت المدينة الأمينة زانية؟

لقد كانت مملوءة عدلاً

وفيهما كان مبيت البرُّ

أما الآن فإنما فيها قتلة

¹ - ياسمينة حضرا: الصدمة ص 276-277.

² - المصدر نفسه، ص 277.

- يا شعبي، إن مرشدك يضلونك

وقد أفسدوا سبيل طوقك

- فكان الشعب مثل وقود النار

لا يشفق واحد على أخيه

فيقطع عن اليمين ولا يزال جائعاً

ويلتهم عن الشمال ولا يشبع

يلتهم كل واحد لحم مساعده

- ويكون، بعد استكمال السيد عمله كله في جبل صهيون وفي أورشليم، أني أعاقب ثمرة قلب ملك أشور المتكبر، وافتخار عينيه الطامحتين.

- وما على شارون إلا أن يحترس، أمين!¹

ينبهر العجوز كيف لشاب عربي حتى وإن كان حاملاً لجنسيتهم أن يحيط علماً بآياتهم قائلاً
لأمين (-لقد أفحمتني، أين تعلمت هذه الآيات من سفر أشعيا؟)²، لكن الدكتور أمين يعقب على
كلامه فيقول له (كل يهودي من فلسطين هو عربي بعض الشيء، وما من عربي من عرب إسرائيل
يستطيع الادعاء أنه ليس يهودياً بعض الشيء)³، وهنا دلالة على أن الدكتور أمين فيه شيء من
الآخر اليهودي، كما أن الآخر فيه من الأنا ما لا يستطيع نكرانه، فيوافق العجوز كلامه (-أوافقك

¹ - ياسمينة خضرا: الصدمة، ص 277-278.

² - المصدر نفسه، ص 278.

³ - المصدر نفسه، ص 278.

الرأي تماماً، فلماذا كل هذا الحقد وأواصر القربى هي نفسها؟¹. كل هاته التساؤلات لا تفسر إلا من جانب واحد، وهي حاجة الأنا للآخر، والعكس صحيح، فهناك قلة من اليهود من يبغض هاته الحرب، تماماً مثل الفلسطينيين، والكاتب (ياسمينه خضرا) حرص على تبيين هذا الاعتراض من ناحية الآخر الراض لفكرة الحرب، فأرض الله واسعة، تَسْعُ كل الطرفين في نظر كل منهما، دون اللجوء إلى سفك الدماء، فالآخر الناقم يَجِدُ متعة في إرضاء أهواءه الناقمة والمحملة بأفكار سوداوية تجاه الأنا العربية الفلسطينية.

يقول الكاتب على لسان بطله الراوي أن شخصية اليهودي العجوز الملقب بـ ((زيف)) شخصية ساحرة، فيه لوثة جنون قليلاً ولكنه حكيم، بمثابة الولي الذي يعيش على هامش المجتمع... تعلمت الكثير عن البشر وعن نفسي برفقته. كان ظرفه يخفف صروف الحياة²، فالكاتب يصوره على أنه شخصية ساذجة، لكنه يعي تماماً أن الحرب ليست الخيار الأنسب، وهو ما اتفق عليه مع الدكتور أمين، فمن مظاهر التوافق بين الأنا والآخر يقول البطل الراوي (استقرت نظرتي في نظرتي: "حياة البشر أهم بكثير من تضحية، مهما كانت سامية فأعظم القضايا وأكثرها عدلاً ونبلاً على الأرض هي حق الحياة...")³، فهذا التشارك في الرأي يكفي لبيان أن هناك من اليهود من يستنكر العمل الإجرامي للمنظومة الصهيونية، ويُسلم بحق العيش لكل من حملته الأرض سواءً عرباً أم يهود.

تمكن الكاتبان من رسم صورة واقعية، عن واقع مرير وصراع محتدم على أرض مرْدُ كل من فيها إلى رب السماء، فيتفنن كل من الروائيان ياسمينه خضرا، وواسيني الأعرج في تصوير شخوص روايتيهما، المتضاربة بين الآخر اليهودي المتعاش ورؤيته الإيجابية للأنا العربية وتقبله، وبين الآخر اليهودي المتخلف والحاقد الذي يتمتع بإعاقه فكرية تسيرها الروح المحبة لسفك الدماء، كما يصور كل

¹ - ياسمينه خضرا: الصدمة، ص 278.

² - المصدر نفسه، ص 282.

³ - المصدر نفسه، ص 282.

من الكاتبان الأنا المتعايشة والمندمجة، والأنا الساخطة والمستنكرة، لتبقى معادلة الالتقاء وفك النزاعات والتعايش في سلام، أسيرة الأيام الكفيلة بفك شفراتها.

- صورة المكان وسيطرة اليهود عليه:

المكان هو العنصر الذي يؤثت الرواية، ويجعل لها عطراً خاصاً نشمه عند ترحالنا بين أسطرها، وهو الفضاء الذي تدور في فلكه جُلُّ الأحداث المبنية على أساسها الرواية، وبما أن دراستنا تركز على اليهودي وصورته في الرواية الجزائرية، كان لزاماً علينا أن نسلط الضوء على بقعة الأحداث، التي اتخذها كل من الكاتبين ياسمينه خضرا، وواسيني الأعرج مسرحاً لمجريات روايتهما، كيف لا والقضية الفلسطينية، جرحها مكان مغتصب من طرف الإسرائيليين، فقد تفنن كلاهما في رسم صورة فلسطين المسلوقة، والمنتهكة حرمتها من طرف المحتل الإسرائيلي، وتصوير فلسطين بلباس الحداد الذي أبت أن تنزعه عنها حزناً على أبناءها المشردين على أرضهم.

الكاتب الشعاري واسيني الأعرج يضع لمسته كعادته على روائعه، وهامي السوناتا تصور فلسطين عبر نعماؤها ولوحاتها، وهامو (يوبو) ابن (مَيّ الحسيني) يزور فلسطين لينثر رماد أمه في أرض حُرمت حتى أن تتوسد تربتها بعد موتها، فالمسألة تبرز مدى همجية اليهود المحتلين، وحقدهم الدّفين تجاه الفلسطينيين، فهي تحرمهم حق العيش بكرامة، وحتى حقّ الموت والدّفن في تربتهم التي سلبتهم إياها، تقول (مَيّ) (...ناهيك عن رفض السلطات الإسرائيلية لطلبي بالدّفن في القدس، الذي لم أعره أية أهمية. تخيل نفسك تطلب إذنا للدخول إلى تربة هي منك وفيك؟... أرض سرقت منك، ثم نُسبت لسارقها الذي يمنعك اليوم من العودة؟)¹

إن رفض السلطات الإسرائيلية لطلبها جعلها تلجأ إلى إحدى الشركات في نيويورك تختص في حرق الموتى، هاته الحادثة استقاها الروائي واسيني من الواقع وتأثر بها حقيقية حين يقول: (وهنا أشير

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 456.

إلى أن ثمة تقاطع مع تجربة المفكر الفلسطيني الكبير إدوارد سعيد الذي رُفض طلبه بدفنه في مدينة القدس، فيطلب من زوجته حرقه ودفن رماده في بيروت)¹ وجاء هذا الكلام أثناء حوار أجراه مع الكاتب كمال الرياحي تونس 23 أبريل 2009.

فأي احتلال هذا الذي يمنعك حق الموت بسلام، فمأساة الشعب الفلسطيني أنهم ملاحقون أحياءً وأمواتاً يزرعون، فعبثاً يحاولون ردع المحتل ولكن لا حيلة مما يصنعون، أمام كيان بني صهيون الذين (... يستأهلون سحق الرومان وقبله يهوذا الأسخريوطي* الملعونة والكاذبة).²

يتحول بنا واسيني عبر أزقة وحارات القدس، حين يزورها يوبا ويندهش من جمالها قائلاً (...). تدور في الحارات زاوية زاوية وباباً باباً: الحرم القدسي الشريف، قبة الصخرة، المسجد الأقصى، باب الرحمة، حارة الشرفة وحارة اليهود في الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة وحارة المغاربة وباب المغاربة، ثم حارة الأرمن وباب النبي داوود وجبل الزيتون، وحارة النصارى في الجزء الشمالي الغربي من المدينة وكنيسة القيامة والباب الجديد، وحارة السعدية وباب حطة)³، إلمام الكاتب بكل هاته التفاصيل التي تثرى جغرافية المكان يدفعك بالإحساس أنه قد سكنها وعاش في حاراتها، وتجول بين أزقتها، والحقيقة أن الكاتب زار فلسطين بالفعل، فالخلفية التي يحملها الكاتب أياً كانت تمتن القاعدة البنائية للرواية، لكن كل هذا لم يبقى على حاله فقد (ذهبت فلسطين كلها وهودت الأحياء والمدن التي ظلّت واقفة

¹ - سلسلة أدباء جزائريون، زهرة ديك، تقديم وإعداد: واسيني الأعرج، هكذا تكلم هكذا كتب.. دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص 212..

² - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 178.

*-الأسخريوطي: يهوذا الأرسخريوطي هو واحد من تلاميذ المسيح الإثني عشر، ويسمى أيضاً يهوذا سمعان الإسخريوطي، وبحسب الأناجيل القانونية، فإن يهوذا هو التلميذ الذي خان يسوع وسلمه لليهود مقابل ثلاثين قطعة فضة، وبعد ذلك ندم على فعلته ورد المال لليهود، وذهب وقتل نفسه، وبعد قيامة يسوع من الموت اختار متياس بدلاً عن يهوذا ليكون في جملة الإثني عشر. ينظر: الموقع <https://ar.m.wikipedia.org>، تاريخ الزيارة: 2018/09/21

³ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 12-13.

زمناً¹ وفقدت (ألوان القدس)² ألقها وبريقها حين جاء قرار تقسيم فلسطين سنة 1947 على يد الإسرائيليين والتخريب الذي طال شوارعها وحرارتها.

إن الأنا الفلسطيني حاول ولازال، التعايش مع الآخر اليهودي، حسب الرواية، كما أن الديانة والتوجه العقائدي والفكر الإيديولوجي لا يشكل عائقاً في التعامل، في صورة إيجابية قدمها الكاتب حول تقبل الأنا للآخر، شريطة أن تبقى فلسطين للفلسطينيين، لا دولة إسرائيل، فالساردة مَيّ تحكي كيف أن زوجها كوني (يريد الذهاب إلى إسرائيل بوصفها أرضاً كبقية أراضي الدنيا، وكنت أريد الذهاب إلى فلسطين. فأنا غادرت أرضي قسراً، كنت أعرف أرضاً يسكنها المسلمون والمسيحيون واليهود اسمها فلسطين)³، فحيز المكان يشغل الخطاب بحضوره المكثف، وقد عكف الكاتب على ذكر حارات القدس التي سكنت روح (مَيّ) ولم تستطع حتى تقبل فكرة أن فلسطين أصبحت دولة إسرائيل، فالأنا بالرغم من كونه مسالماً تجاه الآخر، إلا أن الوطن رُقعاً لا جدال فيها، ففلسطين للفلسطينيين، كما أنها لم تنسى ما فعله اليهود بأرضها، وذلك الخوف ظل يطاردها فعندما اقترح عليها زوجها كوني قائلاً (كنت أفكر أن ندخل من هنا إلى إسرائيل أو فلسطين، لا تهم التسميات، الأرض نفسها)⁴.

لكنها ردت بأنها لا تستطيع قائلة له (كيف سأتعامل مع من طردني من أرضي وقتل أمي وأهلي؟ لست حقودة ويمكنني أن أغفر وأنسى، ولكن الألم ما يزال حياً، والجرح مفتوحاً)⁵، إن القضية تدور حول أزمة الفكر اليهودي المتعصب، الذي يحاول بكل قوته ترسيخ فكرة أن فلسطين هي أرضهم، وهم شعبها المختار، هذا الصِّراع الفكري أدى إلى صراع دموي، لتحصيل كل ممتلكات

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 44.

² - المصدر نفسه، ص 13

³ - المصدر نفسه، ص 352.

⁴ - المصدر نفسه، ص 358.

⁵ - المصدر نفسه، ص 359.

الأراضي الفلسطينية، فالكاتب ركز على المكان ليعين أن الآخر اليهودي يعاني أزمة هوية، يحاول من خلالها تجريد الأنا الفلسطينية من هويتها، وهذا بسلب المكان واللغة، في حين تظل الأنا الفلسطينية متمسكة بأرضها وهويتها سواء عاشت على تلك الأرض أم سُلبت منها في محاولة لترسيخ هوية الأنا وتغليبها على الآخر المستبد، وهذا من خلال ترجمة بطله الرواية أحاسيسها إلى لوحات فنية تحكي كوامنها وتصوّر آهاتها.

تأخذنا رواية الصدمة إلى أمكنة أخرى غير التي شهدناها في رواية "السوناتا"، وتسمياتها التي تحيلنا إلى أزمنة متقدمة من الحرب، وكيف استطاع الكيان الصهيوني إحكام قبضته على فلسطين وتغيير تسميات الحارات والشوارع إلى العبرية، بالموازاة مع ما شهدناه في رواية "واسيني الأعرج"، إن المكان يصبح فاعلاً بتفاعل الشخصيات على أرضه لتصبح أرضاً خصبة منتجة لعمل مقنن تحركه أحداث متسلسلة، الدكتور أمين جعفري في الصدمة يروي بلسانه تلك المسالك التي عبرها وصولاً إلى بيته في تل أبيب. (لدى خروجي من المستشفى... تحتاح صفوف لا تنتهي من السيارات خط (بتاه تكفاه) الإضافي، تعج المقاهي والمطاعم بالزبائن... أسلك جادة (جيفرول) حتى (بيت سوكولوف) حيث يرغب حاجز التفتيش... السائقين على تفادي حي (حكيرية)... أفلحت في التسلسل حتى شارع (حسمو نعيم))¹، نلاحظ أن معظم أسماء الشوارع تحمل أسماء عبرية، وفي هذا دلالة على احتكار واستيلاء المستعمر الإسرائيلي على جُلّ الأمكنة الفلسطينية، في خطوة واهمة تبعث على القدرة السلطوية في ضمّ جميع أنحاء القطر الفلسطيني إلى صالحها.

تسحبنا رواية (الصدمة) إلى أعماقها لنشتم عقب القداسة يفوح من جنباتها حتى وإن سلبت ألقابها، التي حرص الكاتب على وضع أسماء الشوارع والأحياء بين قوسين ليُدلّل على المكان، وكأنه يكتب من أجل فلسطين فقط وهمه الأرض المصادرة إلى أجل غير مسمى، فها هي كيم بعد أن وجدت الدكتور أمين مرمياً أرضاً جراء الضرب الذي لحقه من اليهود المتعصبين، تأخذه إلى (أحد

¹ - ياسمينة خضرا: الصدمة، ص 27

المستوصفات قرب يافو)¹ حسب البطل الراوي ثم يستطرد قائلاً بعدها (اصطحبني إلى شقتها في "سيديروت بروشاليم")²، فتفاعل أحداث الرواية مع شخصها وأمكنتها يعطي لها مميزات لغوية تزيد جمالياتها فتل أيب هي مسرح الأحداث التفجيرية، كما أنها مكان إقامة أمين وزوجته في أرقى أحياءها يقول البطل الراوي أمين (إنه حي جميل وهادئ، غيور على دوره الفخمة، وأويقاته الساكنة التي تسترخي خلالها أعظم ثروات تل أيب، إلى جانب مستعمرة من محدثي النعمة، وبعضهم من المهاجرين الروس الذي يسهل التعرف إليهم من لهجتهم الفظة)³، وهذا يدل على أن الكيان المحتل أحكم سيطرته على موقع استراتيجي مهم من القدس المحتلة، حيث استولى على تل أيب واستقدم اليهود من كل صوبٍ لإنشاء مستعمرة الخاصة على حساب الفلسطينيين الذين طردوهم وأخرجوهم قصراً من ديارهم، وحتى المستشفيات والحانات والمحلات غُيرت أسماءها إلى العبرية كمركز (إيشيلوف)⁴ الطبي وحانة (صهيون)⁵ وضاحية (المدينة اليهودية)⁶، لكن بين الجنة والنار خط رفيع جداً، فحين يقرر الدكتور أمين البحث عن الحقيقة، يترك النعيم والبذخ الذي كان يعيشه، لينسلخ من أثوابه المزيفة التي تماشت مع جنسيته الإسرائيلية، عائداً إلى أصله في الضفة الأخرى حيث وُلد ونشأ وترعرع قائلاً (تغيرت بيت لحم كثيراً منذ زيارتي الأخيرة لها قبل أكثر من عشر سنوات)⁷ كما أنه يزور القدس ف (بوسع المرء أن يرى أضواء القدس، بماذن جوامعها وأبراج كنائسها التي يمزقها ذلك الجدار المدنّس للمقدسات)⁸، يسترسل الكاتب في وصف القدس وهي ثاني مسرح للأحداث بعد

1 - ياسمينة خضرا: الصدمة، ص 73.

2 - المصدر نفسه، ص 74.

3 - المصدر نفسه، ص 81.

4 - المصدر نفسه، ص 29.

5 - المصدر نفسه، ص 104.

6 - المصدر نفسه، ص 128.

7 - المصدر نفسه، ص 130.

8 - المصدر نفسه، ص 162.

تل أيب، لتكتمل معها صورة شخصها المائلين في روايته، قائلاً على لسان بطله الراوي (... لا تتخاذل القدس* المشوهة، فهي منتصبه دوماً، متكورة بين رحمة سهولها وقساوة صحراء يهودا** كانت تحالجي الرعشة نفسها أما قبة الصخرة وعند حائط المبكي... ولا أستطيع إلا أن أتأثر بالسكينة المنبعثة من كنيسة القبر المقدس)¹، يدل هذا على قوة ومكانة هاته البقعة من أرض الله، التي شهدت حروباً دامية وحملت نفوساً متعادية، لا تدري متى سيفصل الله في أمرها لكنها بإذن الله منصوره محروسة.

يخط بنا (ياسمينه خضرا) في صدمته الرحال هاته المرة (إلى جنين)² حين قرر الدكتور أمين الذهاب إليها ليبادره نافيد رونين قائلاً (ستذهب إلى أرض ملغومة لا أمارس فيها أية سلطة، ولا نفوذ لي فيها. أجهل ما تسعى إلى إثباته، لا شيء هناك يعينك. القتل مستعر أينما كان، والعيارات الطائشة تلحق أضراراً أكثر من المعارك النظامية أحذرك، فبيت لحم منتجع صيفي بالمقارنة مع جنين)³

يصور لنا الكاتب مشهداً من المشاهد التي تعيشها الأراضي الفلسطينية وكيف أن المحتل استطاع السيطرة على ربوعها قاطبة.

¹ - ياسمينه خضرا: الصدمة، ص 163.

(*)- تقع في مدينة القدس في جبال الخليل، ويسمىها اليهود باسمها القديم أورشليم، والذي يتكون من مقطعين، المقطع الأول، وهو (أور) ومعناه مدينة، والمقطع الثاني (شاليم) وهو إله وثني عند الكنعانيين يعرف بإله السلام، أي أن أورشليم تعني مدينة إله السلام، تعتبر القدس من أقدم المدن التاريخية في فلسطين وهي المدينة الأكثر تقدساً في الديانة اليهودية، ينظر: raffef22.com، اطلعت عليه بتاريخ: 2018/12/30.

(**): جبال يهودا في التاريخ والثقافة العبرية تطلق بشكل أساسي على جبال الخليل ومن ناحية جغرافية فهي المنطقة الممتدة من تل العاصور شمالاً إلى وادي بئر السبع جنوباً، وتمتد إلى صحراء الضفة الغربية، (صحراء يهودا) شرقاً، وهي تشكل قلب مملكة يهودا، ينظر: جبال يهودا، ويكيبيديا الموسوعة الحرة: الموقع: <http://ar.m.wikipedia.org>

² - ياسمينه خضرا: الصدمة، ص 228.

³ - المصدر نفسه، ص 228.

لعب المكان دوراً مهماً لاكتمال صورة اليهودي ضمن الرواية الجزائرية المعاصرة، فقد استطاع كل من الكاتبان، أن يضعاً أنماطاً متنوعة لشخصيات تحمل أفكاراً وإيديولوجيات متفاوتة، تعيش واقعاً اجتماعياً تحكمه علاقات بين الأنا والآخر، هاته الثنائية التي يميزها التوتر، وتسودها هالة سوداوية تسيروها مختلف الطوائف اليهودية والتوجهات، ليخترق بذلك الكاتبان واسيني الأعرج وياسمينه خضرا، ما ظل مسكوتاً عنه في الساحة الأدبية، وكسر بوتقة التشدد العقائدي اليهودي المحتمل وغير المتقبل للأنا العربية، لكننا نلمس تلك الاحترازية في الطرح، والبعد عن الخطابات التقليدية التي تهجم على اليهودي مباشرة، وتركز على الإنسان ومأساته، فكلى الكاتبين يعالجان قضية إنسانية بعيدة كل البعد عن أي جانب سياسي، فالرواية هي حوار للحضارات وإعادة إنتاج التاريخ بلمسة أدبية راقية، تصور شخصاً خيالية لكنها تتأثر بالواقع وبشخصيات حقيقية، فالأدب الحقيقي هو الذي يُصور عوالم لم تُدس أقدام الكاتب أراضيها، ولكنه استطاع الغوص في عقليات شعوبها وتصويرهم بعدسات أقلامهم، إن الكتابة توثيق للواقع، وإحياء للتاريخ، وإبحار في عوالم الخيال، وتبني قضية ما، إنها فسيفساء حقيقية لا يُجيدها إلا كاتب عبقري يهدف إلى إثراء المكتبة الأدبية، عبر تلاقح وتداخل الثقافات والكشف عن الأنا والتعريف بالآخر.

ومن جملة ماتوصلنا اليه في هذا الفصل تلك الصورة الواردة في كل من الروايتين مع الحرص على المقارنة بين الشخصوس اليهودية، وتبيان السمات السائدة في كل نموذج وأثرها في بلورة أحداث الرواية، محصورة في النقاط التالية :

*تعددت وتباينت الصور التي تمثل شخصيات يهودية إسرائيلية بفلسطين مُعاديةً للأنا في الروايتين(الصدمة - سوناتا لأشباح القدس)، فالآخر بجوازه التي يفرضها يُنشأ تقاطعاً وإعاقة في التعامل مع الأنا العربية خاصة الفلسطينية متجليةً في الصور السالبة التي غلبت على عناصر الشرطة الإسرائيلية والمنظمات الإرهابية والحركات الصهيونية والمخابرات الإسرائيلية، وبعض الشخصيات اليهودية، متنوعة بين روايتي (الصدمة وسوناتا). فعناصر الشرطة الإسرائيلية في الروايتين شكافة،

عنصرية، مُضْطَهدةٌ للأنا العربية الفلسطينية، لكنها مسالمة مع الأجانب الأوروبيين وحتى المتجنسين من الفلسطينيين. أما العساكر الإسرائيليون والمنظمات الصهيونية بفرقها (الهجاناه، الشيتزن والإرقون) فقد ظهرت في صورة العدو الذي لا يرحم، الهمجي، المدمر، اللاإنساني، المخرب، الدكتاتوي، فقد عمّلت هاته العناصر اليهودية على زعزعت الاستقرار في الأراضي الفلسطينية وبث الرعب والدمار في نفسية الأنا الفلسطينية.

*فصورة الأنظمة اليهودية بمختلف مراتبها في روايتي (الصدمة وسوناتا) مشابهة لتلك الصور الرابضة في المخيال العربي عن العدو الغاصب والمحتل، المتجرد من الرحمة والإنسانية، بكل تقلباته وسيطرته وعقليته السادية والمحبة للسلطة، وهذا على المستوى الجمعي، حيث يغلب عليه السلوك العدواني الهادف لإلحاق الأذى والضرر بالغير خاصة الفلسطينيين.

*أما على المستوى الفردي فقد جاءت شخصية النقيب "موشي" التابع لسلك الشرطة الإسرائيلية في (الصدمة) تَصُجُّ بسوداوية في التفكير تجتمع تحتها عديد السمات السلبية (عنصرية إلى أبعد الحدود حاقدة على الأنا العربية، مستفزة، شخصية عدائية، فظة، ناقمة، معقدة، تحتقر الأنا وتستصغرها). نفس السمات تجتمع في شخصية يهودية لأحد عناصر الشرطة الإسرائيلية في "الصدمة"، تحمل صوراً عدوانية ولا أخلاقية بشتى ممارساتها المتنوعة تجاه الأنا الفلسطينية.

*وحتى العنصر النسوي اليهودي، ويتجلى في صورة الشرطة الإسرائيلية صاحبة السلوك العدواني في رواية "الصدمة"، والتي تجردت من أنوثتها، هي التي كانت منبوذة محتقرة من أبناء جلدتها، فاليهود الإسرائيليون مخادعون، حريهم بُنيت على باطل، فالظالم الجائر الإسرائيلي واقعاً وتخيلاً، يحمل كل الصفات التي تنزع عنه صفة الإنسانية، فهو يشبه الآلة الجهنمية الحاصدة للأرواح، تُسيرها أزرار لا عقول، متشعبة بفكر متعفن مُحِبٌّ للدمار والخراب.

*استعان الروائي واسيني الأعرج بشخصيات يهودية إسرائيلية حقيقية أمثال (تيودور هرتزل، حاييم وايزمان) لإبراز تلك الروح العدوانية التي تغمر الصهيوني، مسخرين كل قدراتهم وإمكاناتهم من أجل تكوين دولة إسرائيل. فالجتماع الجزائري كما يصوره الكاتب ياسمينة خضرا يقوم على مبدأ العنصرية والتفريق بين العرب واليهود، وعدم المساواة بينهم، تصاحبه عقدة الاضطهاد التي شكلت شخصيته وطغت على نفسيته ومشاعره المضطربة.

*صورة اليهودي العنصري والمتطرف تجلت ضمن الرواية الجزائرية المعاصرة، في (الصدمة) من خلال تصرفات الجيران اليهود المتعصبين مع الأنا الفلسطينية وكرههم الشديد للعرب، وعدم تقبلهم بينهم، فجُلُّ الشخصيات تطغى عليها سمات نرجسية محرّكها الصّراع العربي الإسرائيلي. فالصورة السلبية لليهود هي إذا ما قارنا بين روايتي (الصدمة) و (سوناتا لأشباح القدس)، فقد اعتمد الروائيان على التصوير الفني الواقعي، معتمدين على مزج الحقيقة بالخيال لإبراز صورة مشابهاة للصورة النمطية التي عهدناها في الروايات العربية وحتى الغربية.

*أما عن الصورة الإيجابية في (الصدمة) و (سوناتا لأشباح القدس) فقد جاءت عاكسة للجانب الإنساني لليهود الفلسطينيين داخل الرواية الجزائرية المعاصرة، فاليهودي المتعايش يحمل عديد السمات الإيجابية ففي (الصدمة) (عزرا بن حاييم) (مثقف، صاحب شخصية قيادية، متعاون، محب للأنا، متفاني في عمله) حيث أن علاقته كانت طيبة مع صديقه العربي الأصل (أمين جعفري)، كما أنه رجل مواقف، متضامن مع الأنا الفلسطينية، تتقاطع هاته الصفات الإيجابية مع شخصية (هرمون سيمون) في (سوناتا) مقارنة بشخصية عزرا حيث تربطهما علاقة صداقة مع الأنا الفلسطينية، فاليهودي الصّديق يرفض الفكر العدائي، والحرب التي تشهدها فلسطين من طرف المحتل الصهيوني، فالموقف الإيجابي هو ما يظهره الروائيان من خلال صور التعايش بين الأنا الفلسطينية والآخر اليهودي، مفرقين في هذا بين اليهود والصهاينة. تعددت الشخصيات الصديقة في الروايتين، جمعتهم

علاقات إنسانية من باب الجيرة والصدقة، والزمالة والأخوة على أرض فلسطين، فلا الدين ولا الهوية كانا عائقاً في سيرورة هاته العلاقات.

* لم تكن جُلُّ الشخصيات اليهودية العاملة في سلك الشرطة شريرة، فهناك شخصية نافيد رونين في (الصدمة) تمثل صورة إيجابية لليهودي الصديق والمتعايش وهو المسؤول في الشرطة الإسرائيلية، جمعته علاقة طيبة بالأنا الفلسطينية، فهو متعاون، مثقف، متفتح، لبق، يمقت الحرب، وهذا ما يتنافى مع ما عهدناه عن اليهودي المسؤول الذي كانت صورته مشوهة عدائية وعنصرية.

* المرأة اليهودية لم تكن حاضرة بقوة في كل من الروايتين (الصدمة، السوناتا) عدا عن شخصية اليهودية كيم يهودا في (الصدمة)، فهي تمثل صورة عن المرأة (المثقفة والمتعايشة، المنفتحة، الجذابة، العفوية، والقوية المعجبة بالأنا الفلسطينية، الصديقة، المتميزة في عملها، إنسانية، حساسة)، تشبه هاته الشخصيات إلى حدٍّ بعيد شخصية ايفاموهرل في (السوناتا) مقارنة بالجوانب الإنسانية والسّمات المشتركة بينهما، وعشقها للأنا الفلسطينية، هاته المرأة النصف يهودية (من أب يهودي، وأم ألمانية)، تُمثّل نموذجاً متناقضاً لأنها تعتبر نازية بالنسبة لليهود، والمعروف عن اليهود أنهم يُكنون حقداً للنازية. فحضور المرأة اليهودية في الرواية الجزائرية المعاصرة جاء محتشماً في حين أن المرأة تُعدُّ عنصراً هاماً في تأثيث الصّرح الروائي، فعدم احتكاكهم بالعنصر النسوي اليهودي أو تأثرهم به، نابع ربما عن عدم إدراجهم ضمن السرد الروائي.

*تقدم (الصدمة) نموذجاً عن اليهودي المحايد الذي يعيش على ذكريات المحرقة، والشاهد على أحداثها، شخصية تميل إلى العزلة والابتعاد عن هرج الحياة، وإبراز أثر النكبة على نفسية اليهود الأشكيناز، متعايش، صديق، يعيش على ذكرى العلاقات القديمة التي جمعت بين العرب واليهود قبل اندلاع الحرب، فهو ناغم على الحرب التي خربت تلك العلاقة، شخصية ساذجة تصل إلى العزلة وتتمنى زوال الحرب.

الفصل الثالث: صورة يهود
الجزائر في الرواية الجزائرية
المعاصرة في روايتي

– (أنا وحايم) و

**-Le dernier juif
de Tamantit-**

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة في روايتي - (أنا وحايم) و
(آخر يهود تمنطيط) -

توطئة:

أ- الصورة الإيجابية ليهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة:

1- صورة اليهودي المثقف المتعايش:

* شخصية حايم بنميمون في -أنا وحايم.

* شخصية ابراهام بن سعيد في -آخر يهود تمنطيط.

2- صورة اليهودية المتعايشة:

* شخصية لالة زهيرة سماح - أنا وحايم.

* شخصية لالة صافو (صافية) - آخر يهود تمنطيط.

* شخصية لالة رميلة - آخر يهود تمنطيط.

* شخصية سارة بنت نحون - آخر يهود تمنطيط.

* شخصية تاميرة- آخر يهود تمنطيط.

3- صورة اليهودية المتطفلة:

* شخصية العجوز اليهودية - آخر يهود تمنطيط.

4- صورة اليهودي التقي الملتزم:

* شخصية الحاج ميمون بن سعيد - آخر يهود تمنطيط.

5- صورة اليهودي الوطني:

* شخصية زوهار بن سعيد - آخر يهود تمنطيط.

6- صورة اليهودي الانطوائي:

● شخصية رسلان بن سعيد - آخر يهود تمنطيط.

ب- الصورة السلبية ليهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة

1- صورة اليهودية العنصرية:

* شخصية كولدار فاييل - أنا وحايم.

2- صورة اليهودية البغي:

* شخصية زوجة حارس المقبرة - آخر يهود تمنطيط.

3- صورة اليهودي الشاذ:

* شخصية داوود بن سعيد - آخر يهود تمنطيط.

4- صورة اليهودي الماجن :

* شخصية عمران بن سعيد - آخر يهود تمنطيط .

5- صورة التُّجار اليهود :

* شخصية التاجر رامون نبيكيكي - أنا وحايم.

*شخصية اليهودي المسيطر على مكس الأسواق - أنا وحايم.

*شخصية المرابي سمير مردوخ - أنا وحايم.

ج-صورة عن الطائفة اليهودية بالجزائر في الروايتين.

توطئة:

الرواية الجزائرية تسعى جاهدة للحفر في ذاكرة الأمة الجزائرية، والتنقيب عن تاريخها القديم، والرجوع بالزمن للوراء فاتحة بذلك أبواب التاريخ العتيق والمعَبَّق بنفحات الماضي الجميل، مازجة بين الحاضر والماضي، وبين الخيال والحقيقة، مستدعيةً العنصر التاريخي كتوثيق للعنصر السردي، لتصبح بذلك الرواية التاريخية منتهجة للأسلوب السردى و الوصفي الإبداعي.

الأعمال الروائية انتقيناها بُغية البحث في تلايبيها عن صورة اليهودي الجزائري، الذي حطَّ رحاله على أرض الجزائر، ليكون جزءاً من تركيبها وثقافتها مُلمماً شتاته في شتى أصقاع المعمورة، فلقد استطاع اليهود الاندماج والانصهار داخل المجتمع الجزائري، فارضين بذلك أنفسهم في مختلف المجالات والميادين، متمسكين بديانتهم وطقوسهم التي مُورست غالباً في احترازية تامة، وهذا ما لمسناه في الأعمال التالية: (آخر يهود تمنطيط) للروائي أمين الزاوي، و(أنا وحايم) للروائي الحبيب السائح، هذين الروائيين الجزائريين اللذين أبدعا كعادتهما في تركيب فسيفساء عجيبة، مازجين بين المعاصر والقديم، طارقين أبواب الذاكرة والأمكنة المنسية، مبرزين صور اليهود على اختلافهم في البيئة الجزائرية ضمن الأعمال الروائية.

1- صورة اليهودي الجزائري في الرواية الجزائرية المعاصرة:

سلط الروائيان أمين الزاوي والحبيب السائح الضوء على صورة اليهود في الجزائر، صورة تعود بنا إلى الزمن البعيد الذي عاش فيه اليهود جنباً إلى جنب مع الجزائريين المسلمين، وإن لم يعيش الكاتبان تلك الحقبة بكل تفاصيلها، إلا أنهما استطاعا أن يَنقُلا بعض السمات التي ميزت الشخصية اليهودية، عبر خلق شخوص من الحياة الواقعية بجوهرها وملاحمها التي تكسبها واقعية تتماشى تقريباً مع أهم المميزات التي عُرف بها اليهود وأنماطهم السلوكية مع مراعاة أن الشخصية

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

يمكنها أن تحمل العديد من السمات التي تعكس الصورة الحقيقية لشخصية ما بالنظر للبيئة والظروف المحيطة بها ذلك (أن السمة هي الصفة الثانية نسبياً برغم تغير الظروف البيئية والبارزة في الشخص بحيث تميزه عن غيره تميزاً واضحاً)¹ فالسمة هي التي تميز مجتمعاً ما، وتُكسبه طابعاً قومياً، حيث أن جُملة من السمات الاجتماعية والنفسية وغيرها هي التي تحدد وتُميز أمة ما عن غيرها من الأمم.

أ- الصورة الإيجابية ليهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة:

بعيداً عن الصورة النمطية المسيطرة على الذهنية العربية إزاء الشخصية اليهودية، عكف الكاتبان إلى تسليط قلميها صَوَّبَ النموذج اليهودي، ضمن الإطار الجغرافي المتفرق داخل رقعة الجزائر، محاولين إبراز ملامح الآخر اليهودي وعلاقاته مع الأنا الجزائرية، داخل النسيج السردى الحافل بمختلف الشخصوس، وتصويرها من الزاوية الإيجابية والسلبية، وهذا ما حاولنا تعقبه ضمن تلايب الروائتين. وهذا الجدول يحمل ضمنه الشخصيات الإيجابية بصفاتها ودورها في الرواية كالاتي:

الشخصية	الصفات المادية	الصفات المعنوية	الدور في الرواية
حايم بنميمون رواية (أنا وحايم)	ملاحه لطيفة - سحنة هادئة	له جاذبية خفية-عينان حاملتان - كان متفوقاً في الدراسة الابتدائية - محبٌ للمغامرة - صاحب عزيمه قوية - روحه مرحة - محبٌ للمطالعة-يحمل الجنسية الفرنسية- ذكاؤه متوقد-هيئته	صديق للبطل الراوي أرسلان يعمل صيدلانياً ويقدم المساعدة لجيش المقاومة الجزائرية

¹ - محمود محمد الزين: سيكولوجية الشخصية، القاهرة، دار المعارف، 1994م، ص 84.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

	سميحة-رزين-نفسه طيبة-نشيط		
يهودي جزائري تجمعهم علاقة حب بمسلمة جزائرية يروي لها في لقاءاتهما عن حياة عائلته اليهودية فرداً تلو الآخر.	يُلقب (جرؤ الجبل) اسمه أبراهام تيمناً بأبراهام النقاوة.	/	أبراهام أو (إبراهيم) رواية (آخر يهود تمنطيط)
والدة حايم بنميمون حاملة الجنسية الفرنسية لكنها لا تعترف بها.	نظرتها طيبة - مسالمة - متعاطفة مع الأنديجان - متمسكة بعادات الأهالي المسلمين في لباسهم.	تلبس الحلي في أذنيها ورقبتها تضع عصّابة على رأسها.	لالة زهيرة سماح رواية (أنا وحايم)
جدة (أبراهام)، وزوجة الحاج ميمون). تقوم بسرد حكايات عن تاريخ الأسلاف اليهود الأندلسيين وتُعدُّ ركيزة العائلة ورئيستها.	تغني كل الطبوع الموسيقية- تفضل ابنها داوود على أبنائها - لها ذاكرة قوية - تحب كتب التاريخ - تعزف على آلة ليمزاد في المناسبات- تحفظ الشعر والحكم- تُتقن الأمازيغية التارقية.	/	لالة صافو أو صافية رواية (آخر يهود تمنطيط)
والدة (أبراهام)، تنضم إلى زوجها في الجبل ضمن صفوف جيش	مولعة بالقراءة (أدب- تاريخ-سياسة...). -راوية جيدة.	جميلة - لها نهدان كبيران	لالة رميلة رواية (آخر يهود تمنطيط)

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

	- لها لسان منطلق وابتكاري. -تعشق الحكايات الخرافية.		
سارة بنت نحون رواية (آخر يهود تمنطيط)	مغرية-جميلة	/	زوجة ثانية للحاج ميمون.
تاميرة رواية (آخر يهود تمنطيط)	ذكية - تلقب بالمجنونة وآكلة الرجال. - تحب الرقص وتُتقنه. - مغنية في الأعراس. - حيوية - مربية للنحل. - جميلة	/	عمة أبراهام والابنة الوحيدة للحاج ميمون. *تطلقت خمس مرات وتزوجت بإمام مسلم رغم الاختلاف الديني.
العجوز اليهودية رواية (آخر يهود تمنطيط)	-تشبه والدة أبراهام. -حشرية. -ثرثرة.	عيناها لامعتان وحادتان. شعرها مغطى بخمار مزركش بالصليب نجمة داوود.-شفتاها بدبنتان.	امرأة عجوز متطفلة يلتقيها أبراهام في المقبرة بتلمسان عند ضريح افرايم النقاوة.
الحاج ميمون بن سعيد رواية (آخر يهود تمنطيط)	يعمل مصلاً للساعات اليدوية . -يقوم بخاتن الأطفال. -يتقن النجارة. -يُحِبُّ المطالعة.	/	جد أبراهام، وهو حارس قبر الشيخ عبد الكريم المغيلي.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

	-يتكلم 5 لغات.		
زوهار بن سعيد رواية (آخر يهود تمنطيط)	يلبس نظارات.	-رومانسي-محب للكتب السياسية- يُحب هوشي منه، تشي جيفارا وميصالي الحاج، وعيسات إيدير، يحفظ الشعر.	-والد أبراهام وهو منخرط في صفوف جيش التحرير الوطني.
رسلان بن سعيد رواية (آخر يهود تمنطيط)	يلبس نظارات سميقة	-يعمل خياطاً على ماكينة الخياطة سنجير انطوائي.	الابن الأكبر للحاج ميمون، كان مكرساً جُل وقته لآلة الخياطة، منزويماً عن العالم الخارجي. -يدعم مقاومي الثورة الجزائرية، بخياطة أعلام وبدلات عسكرية لهم.

1- صورة اليهودي المثقف المتعاش:

تنضوي العديد من الشخصيات اليهودية في كلا الروايتين تحت راية الإنسانية والتعاش مع الأنا الجزائرية، فقد ركّز كل من الروائيان (أمين الزاوي) في (آخر يهود تمنطيط) "le dernier juif" de TAMANTIT، والحبیب السائح في (أنا وحايم) على تيمة العنوان التي تؤكد على وجود الآخر اليهودي، هاته العتبة التي نستقرؤ من خلالها فحوى مجريات الأحداث الداخلية، لتتقاطع شخصيات الروايتين في بعض السمات الإيجابية وأخرى سلبية، لكن كل من الروائيين عمل على إبراز صورة اليهود حسب خلفيته ومنظوره الإيديولوجي، لهذا قمنا باقتفاء تلك الصور داخل الصرح الروائي، والوقوف على أهم السمات التي ميزت اليهود داخل كل رواية.

* شخصية حاييم بنميمون:

يصور لنا الكاتب "الحبیب السائح" نموذجاً بشرياً عن يهودي مثقف ومتعاش، داخل النسيج الاجتماعي الجزائري الذي يُعد ضمن التركيبة التاريخية والثقافية للمجتمع الجزائري، والذي يشكل جزءاً لا يتجزء من تاريخه وحضارته، فالروائي القُدُّ هو الذي يُعيدُ سرد التاريخ بأساليب فنية ورؤى متجددة، منبعثة من عبق التاريخ شخصية "حاييم بنميمون" اليهودي الذي تجمع صدقة وطيدة بالبطل الراوي أرسلان المسلم الجزائري، هي شخصية كما يصورها الكاتب تحمل كل معاني الإنسانية بعيداً عن سؤال الهوية واختلاف الوجهة العقائدية.

فالسرد في رواية (أنا وحايم) يدور في حلقة دائرة تبدأ من النهاية عائدة إلى بداية الأحداث الرئيسية التي تنطلق منها العلاقة التي جمعت الصديقين حين يقف البطل الراوي (أمام دار حاييم بنميمون، تبدو ساكنة مثل كائن نَحَجَّر، ملتفة على فراغ بات يسكنها منذ أن أطاح الدهر، قبل ثلاثة أشهر، بآخر أهلها الغابرين)¹ مسترجعاً ذكرياته مع صديقه اليهودي حاييم (رأيت حاييم يخرج منه

¹ - الحبیب السائح: أنا وحايم، مسكيلياني للنشر والتوزيع، 15نحج أنقلترا، تونس-تونس العاصمة، ط1، 2018، ص 11.

بمحفظته قبل ثمانية وعشرين عاماً كي نتوجه معاً لأول مرة إلى مدرسة جول فيزي¹، فالراوي البطل يتحدث عن ذكرياته مع صديقه حايم، تلك التي هجمت عليه فور فتحه لباب منزل صديقه حايم، والذي كانت تربطه به علاقة وطيدة، ينظر إلى التفاصيل المبتوثة في أرجاء الشقة (على جدارها الأول إلى اليمين ثلاث لوحات زيتية، وعلى الثاني المقابل صور نصفية مكبرة في براويز الأولى لموشي والد حايم بعمامة من الجوخ. والثانية لوالدته زهيرة سماح. كم وجدتها، في نظرتها الطيبة المسالمة وحلي أذنيها ورقبتها وشدة عصابة رأسها، تشبه جدتي ربيعة، وهذه الثالثة لحايم نفسه، وهي تعود إلى السنة الأولى من دخوله مدرسة جول فيزي²، تحمل هاته الصور العديد من الدلالات فالواضح أن الاندماج في المجتمع الجزائري من قبل اليهود كان واضحاً فالعمامة والعصابة كلها ترجع إلى تقاليد الجزائريين، فوالدا حايم كانا هما الآخرين متمسكين بعادات مجتمعا، كما يبدو البطل الراوي متعلقاً بصديقه الذي تجمعه وإياه ذكريات لا يمحوها الزمن أثارت حنينه، فقد تشاركنا العديد من اللحظات التي لا تُنسى خاصة في زنقة الدرب وساحة البلدية، إذ يقول (... إلى زنقة الدرب وساحة البلدية أيام الثلج تتراعى بكرياته، إلى الوادي، أيام القيط، حيث سبحنا مرة عارين فتكشّف لنا ختننا)³، ومن بين العادات المشتركة بين اليهود والمسلمين، هي عملية الختان، وهو ما سلط عليه "الحبيب السائح" الضوء، وصور لنا أن اليهود يقومون أيضاً بعملية ختان الأطفال، وهو نفس الشيء في رواية "آخر يهود تمنظيط" حيث أن الروائي "أمين الزاوي" أشار إلى عملية الختان عند اليهود والذي تنص عليه عقيدتهم، فقد أَلَحَّ الزاوي على المزاجية بين الديانتين الإسلامية واليهودية في أكثر من موضع عبر تكرار جملة (... مذهل، هذا القضيب المبروم جيداً! مختن حسب التقاليد اليهودية الإسلامية

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، المصدر السابق: ص 11.

² - المصدر نفسه، ص 13.

³ - المصدر نفسه، ص 13.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

المقدسة)¹ وهذا القول كانت تردده بركاهم المسلمة على مسامع (أبراهام) اليهودي الجزائري، هاته الشخصية التي تتمتع بالعديد من السمات المتفرقة أولها التعايش مع المسلمين، والدليل هو تلك العلاقة الغرامية التي جمعتهم مع بركاهم المسلمة الجزائرية، فالعلاقة بين الأنا والآخر اليهودي تقوم في رواية (أنا حايم) على روابط الصداقة المتينة، أما العلاقة في رواية (آخر يهود تمنطيط) فتقوم بين الأنا والآخر على علاقة عشق ومحبة، تجمعهما الصدفة في تلمسان يقول البطل الراوي أبراهام (... في اليوم الذي التقيت فيه بهذه المرأة الجميلة بتلمسان، بركاهم، على قبر سيدي إبراهيم، كل شيء قد تغير)²، تقوم معظم لقاءاتهما في بيتزيريا (دولصي فيطا في أعالي الجزائر العاصمة)³، أين يَسْرُدَان جملة من الذكريات حول حياتهما في منطقة تمنطيط التي جرت فيها معظم أحداث الرواية، يصور الكاتب اليهودي (أبراهام) على لسانه حين يحكي لبركاهم (... صغيراً، الجميع يسميني جرو الجبل، كلب الجبل، كان هذا اللقب يلائمني جداً. لقد وجد من أجلي، على مقاسي. كنت أحب الكلاب والخيل، كنت أعرف تقليد الصهيل ونباح الكلاب تقليداً تاماً... منذ طفولتي خلال المسرح المدرسي كنت أتولى كل أدوار الحيوانات... كنت أقلد دور الحمار بشكل رائع! كنت أنبح. كنت أصهل، كنت أنحق. سكنت أشعر أني سعيد بتحسيدي الحيوانات، أرواحها ولغاتها)⁴، يعتبر هذا التصوير لحالة اليهودي أبراهام وحبّه للحيوانات دليلاً على وفائه نسبة إلى الكلاب، وأصالته نسبة للخيل، والغباء نسبة للحمير، لقد كان يلقب أبراهام بجرو الجبل رغم معارضة والدته التسمية إلا أنه كما قال (منذ الأيام الأولى في الأدغال اكتشف المجاهدون هذا الاسم جرو الجبل في البداية والدتي رفضت تسمية جرو الجبل هذه المذلة، لكنها مع مرور الزمن مثل الآخرين انتهت بنسيان اسمي الحقيقي، أنا

¹ - Amine Zaoui: le dernier juif de Tamantit: Barzakh et agence Pieere Astier et associer, 2012, P 9.

² - Ibid, P 142.

³ - Ibid, p 09.

⁴ - Ibid, P 10.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

أيضاً ضيقت اسمي الحقيقي، إبراهيم أو أبراهام الذي لم يخدمني أبداً، لم يعد يصلح لشيء أبداً¹، وفي هذا دلالة على علاقة بالجهاديين إبان الثورة التحريرية، فوالده قد انضم إلى الجبهة من أجل التصدي للمستعمر الفرنسي، فالكاتب هنا يبرز الدور الذي أداه بعض اليهود خلال فترة الاستعمار، ووقوفهم جنباً إلى جنب مع المجاهدين الجزائريين، بالرغم من أن التاريخ لا يذكر الكثير عن هاته المشاركة، وإنما يُرجح فرضية كون اليهود طرفاً هاماً في قيام الثورة الجزائرية، وكذا دعمها المطلق لفرنسا.

يصف الكاتب "الحبيب السائح" (حايم) اليهودي بأنه جميل المٌحَيَا حين يُخاطب البطل الراوي صورته قائلاً (منذ ذلك العمر، ملامحك اللطيفة وسحتك الهادئة وعينيك الحاملتين، كنت ذا جاذبية)²، وهنا يركز الكاتب على البناء الخارجي للشخصية اليهودية وما تحمله من صفات خارجية، فكل هاته الصفات تدل على أن (حايم) كان يبدو مسالماً وهادئاً من خلال الملامح التي رُسمت له في الرواية.

تشير أحداث الرواية (أنا وحايم) إلى العديد من صور التعايش والعلاقة الإيجابية التي جمعت بين حايم اليهودي وأرسلان المسلم، والتي يسترجع ذكرياتها الأنا الجزائرية، فيحكى عن المغامرات التي قضياها سوياً حين يخاطب صورة حايم قائلاً ("هل تذكر آخر عفرتاتنا؟". تلك التي ارتعبنا خلالها من صرخة ألفونسو باتيست فينا عالقين بشجرة إحص في بستان مزرعته قرب ضفة الوادي الغربية بالضاحية الجنوبية)³ مغامرات الصغر بقيت محفورة في ذاكرة الأنا وحتى الآخر، اللذان لم يفرقهما سوى الموت، فعندما لاحقهما صاحب المزرعة فرا هارين خشية أن يمسك بها يقول البطل الراوي (...متخيلاً وكان ذلك إحساسي كيف سيفعل بابن العربي وابن اليهودية.)⁴

¹ -Amine Zaoui: le dernier juif de Tamantit.p11.

² - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 13.

³ - المصدر نفسه، ص 13.

⁴ - المصدر نفسه، ص 14.

وهنا دلالة على أن نسب الأطفال المسلمين يكون للأب حسب الشريعة الإسلامية، حين يكون نسب الأبناء إلى الأم حسب الشريعة اليهودية.

أحداث الفصل الأول من الرواية تدور في الدرب بمدينة سعيدة يقول البطل الراوي (في طريق عودتنا إلى الدرب، وقد عَبَرْنَا السُّكَّةَ الحديديَّة، دخلنا في شارع جير يقيل)¹.

وبعد تلك المغامرة (رفع حايم قبضتيه، تعبيراً عن انتصار ضاحكاً ضحكة فرح رافقته فيها)². وهنا دلالة على التآلف بين اليهودي والعربي المسلم الجزائريين، يردف البطل الراوي بعدها قائلاً (ثم، يداً في يد، انعطفنا نحو الدرب شرق دار البلدية ذات السطح الأردوازي الأسود، عن يميننا فندق الشرق في نهاية شارع إيزلي)³، لقد جمعت مقاعد الدراسة بين حايم اليهودي وأرسلان المسلم، ولم يفرقهما شيء بعدها، فأصبحت صداقتهم مَضْرِبَ مَثَلٍ آنذاك وبُنيت عليها أحداث الرواية فهي تعتبر بؤرة العمل الروائي، حيث جرت أحداثها قُبيل الحرب العالمية الثانية، وكان الطفلان على مشارف الثانية عشر من عمرهما، فكانت بدايتها عبارة عن استرجاع لذكريات مضت جمعت بين (أرسلان ابن القايد وحايم ابن اليهودي)⁴، اللذان تدرسا معاً في مدرسة جول فيري لينتقلا بعدها لإكمال تعليمهما في مدينة أخرى يقول البطل الراوي (فرحت أعوض من رضوض الخيبة بما أستعيده من أعوام طفولتي مع حايم وفي ما تلا تلك الطفولة منذ أن كنا، بحلول الدخول المدرسي المصادف لبداية الخريف، انتقلنا إلى ثانوية مدينة معسكر البعيدة، بحوالي ثمانين كيلومتر إلى الشمال على طريق

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 15.

² - المصدر نفسه، ص 16.

³ - المصدر نفسه، ص 16.

⁴ - المصدر نفسه، ص 17.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنظيط"

وهران، فمدينة سعيدة، بوابة الصحراء كما تسمى، لم يكن متاحاً فيها خلال تلك السنين تعليم إكمالي وثانوي)¹.

يسترسل أرسلان في سرد ذكرياته مع الآخر اليهودي حايم مبيناً تلك الروابط المعززة لصداقتهم وأخوتهم حين يقول (إذ أذكر أني ركبت بمفردي، مثل بالغ، الحافلة من محطة الدرب للمسافرين، جنباً إلى جنب مع حايم، راضين عن أننا أفلحنا في عنادنا)² قيام الأنا والآخر بالسفر لوحدهما يعتبر إنجازاً بالنسبة لهما، فالكتاب هنا يوثق للحظات الالتقاء بين الأنا المسلم والآخر اليهودي ويقوي حلقة التواصل المفقودة، باعتبار أن اليهود جزء من التركيبة التاريخية للمجتمع الجزائري.

ومن مظاهر التوافق بين الأنا المسلم والآخر اليهودي الجزائريين هو اتخاذ كل من والد أرسلان وحايم قراراً بتزكهما يسافران بمفردهما (والغريب في الأمر، أن السيد بن حنيفة والدي، وبنميمون والد حايم لم يعترضا كلاهما عن قرارنا الذي كنا اتخذناه أسبوعاً من قبل)³، ولشدة الاحتكاك بينهما وملازمة كل منهما للآخر يقول (فقد استرعى انتباهي، مثلي مثل حايم)⁴.

حتى المشاركة في التفكير نفسه، كان قاسماً مشتركاً بينهما، ففي المرحلة الثانوية التي كان بها نظام داخلي صارم يتشارك أرسلان وحايم نفس المرقد (وذلك ما تجاذبته مع حايم همساً بمرقد تلاميذ الطور الإكمالي جنب بعضنا بعد انطفاء الأنوار في العاشرة ليلاً)⁵، هاته التفاصيل من شأنها أن تصور لنا تلك العلاقة المفعمة بالحُب والتواصل اللامشروط.

1 - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 19.

2 - المصدر نفسه، ص 20.

3 - المصدر نفسه، ص 20.

4 - المصدر نفسه، ص 21.

5 - المصدر نفسه، ص 21.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

يؤكد الكاتب في العديد من المواقف بين الأنا والآخر، على نقاط التقاء اليهود مع الجزائريين في تناولهم اللحوم الحلال فقط، فقد رفض إرسال تناول غذاءه إلا مع حايم مما عرضته لمساءلة من طرف المدير، والذي برّره البطل الراوي قائلاً له (...أجبت أن عائلتي مثل عائلة حايم لا تأكلان من تلك اللحوم... كما كنت أراها أحياناً في دكاكين الجزائريين غير المسلمين واليهود مسلوخة معلقة من قوائمها)¹.

يصرّح البطل الراوي بإعجابه بشخصية حايم اليهودي في سياق حديثه عن نظرة الفرنسيين إلى الأهالي أو كما كان المستعمر يلقبهم بالأنديجان*، حيث كان ينظر إليهم بنظرة استعلائية وروح عنصرية، حتى اليهود الذين كانت تربطهم علاقة مع الجزائريين لم يسلموا من عنصرية وهمجية المستعمر الغاشم يقول البطل الراوي (كان لا ينظر إلى التلاميذ الأهالي، على قلتهم في الفصل الدراسي، النظرة نفسها إلى غيرهم، فحايم ذاته، في ملامحه وفي هيئته وحتى في لكنته، برغم فرنسيته المتقنة، لم يكن هو أيضاً مثلي مستثنى، فأنا وإياه كنا من مدينة موغلة في الجنوب نحو الصحراء، وكان ذلك يعني لهم أننا نأتي من قفر الدنيا)².

استعمل الكاتب ضمير الجمع المتكلم المستنبط من الأقوال ليُتّحم بذلك البطل الراوي مع صديقه اليهودي في كل تفاصيل حياته المشتركة معه، وأحلامهما التي يقودها حماس المراهقة وإقبالهما على الحياة بجرعة تفاعل متقدمة.

يرسم الكاتب صورة جُذِّ إيجابية عن اليهودي (حايم) من قبل الأنا الجزائرية المسلمة (إرسال)، هاته الصورة التي سرعان ما تتغير ضد الأهالي وضد اليهود من قبل (الأوروبيين والأقدام

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 22.

*- وصف وضع أطلقه المختلون الفرنسيون على سكان الجزائر الأصليين، الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 16.

² - المصدر نفسه، ص 24.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

السوداء)* الذين كانوا يحتقرون وجودهم معهم، خاصة حين اشتد التنافس بين الأنا والآخر ضد باقي التلاميذ.

يقول البطل الراوي (...ينظرون إلينا أنا وحايم، نظرة أهل المدينة إلى الريفيين. وكانوا لاسيما قد رتبونا بقوة أحكامهم المسبقة، ضمن خانة الأنديجان)¹، والمعلوم أن اليهود عاشوا مع الجزائريين جنباً إلى جنب قبل دخول المستعمر الفرنسي، وقد تشاركوا كل شيء مع الأهالي، فسكنوا أرض الجزائر وتمتعوا بخيراتها ومارسوا حياة طبيعية خالية من أي منغصات، إلى أن جاء المستعمر وقلب كفة التوافق، فمن اليهود من لم يسلم من قمع المحتل، كما هو حال حايم (...فدليلهم، بالنسبة إلى حايم بنميمون، أنه لا يزال يستعمل اسماً كان يجب على عائلته أن تغيره باسم أوروبي، كما فعلت ذلك عائلات من اليهود المستفيدين من قانون التجنيس).² وفي هذا دلالة واضحة على أنه من اليهود من بقي على وفائه لاسمه وللوطن الذي احتضنه حين رفضه الجميع، وهو حال حايم وعائلته، فبالرغم من تجنسهم إلا أن هذا كان حبراً على ورق فقط، دون الإيغال في سياسة التجنيس واتباع أهواء المحتل الغاشم، بُغية نيل رضاه ومُجارة خُطاه وهو ما فعله بعض اليهود في تلك الحِقبة التاريخية.

يصور الكاتب شخصية حايم اليهودي على أنها شخصية متفوقة وذات عزيمة وإرادة قوية، ويتضح هذا جلياً في الحوار الذي دار بين البطل الراوي وحايم (...مازح أحدنا الآخر راضيين. وتساءلت أمام حايم، مرة في تلك الأيام التي تسبق الاختبارات، ونحن بالمرقد في غمرة المراجعات... فاسرّ لي بأنه ليس لديه متسع من الوقت ليهدره في الهذر)³ لأن هدفه كان واضحاً حين أردف قائلاً

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 24.

* يقصد بالأولين الفرنسيون وبالثانين باقي الذين دخلوا أرض الجزائر خلال الاحتلال خاصة ذوي الأصول المالطية والإيطالية والإسبانية، لأنهم كانوا يلبسون جزمات سوداء. المصدر نفسه، ص 24.

² - المصدر نفسه، ص 24.

³ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 24، 25.

للبطل الراوي (لأننا لا نحب أن نعود إلى أهلنا منكسين رأسينا)¹ فالنجاح هو كل ما كان يفكر به حايم حين عودته لأهله، ولا شيء كان يثني من عزيمته، رغم كل المضايقات التي كان يتعرض لها رفقة صديقه أرسلان، وذلك بنيلهما للمراتب الأولى، فتبدأ جملة الاستفزات من قبل بعض الزملاء الغيورين (الأنديجان لا همّ لهم غير الدروس ينكبون عليها، كما الجياع على طعام، وبمجرد أن يشبعوا شبعتهم الأولى سينامون)²، يحمل هذا الكلام الكثير من الاستحقار واستصغار الذات المسلمة وحتى اليهودية، باعتبار أن حايم متمسك بجزائريته التي لم تلوثها قذارة الفكر المستعمر وانحطاطه.

لكن كل هاته المحاولات باءت بالفشل، ولم تثني من عزيمة كل من الأنا والآخر في إدراك النجاح المنتظر وهو ما يؤكد حايم لصديقه ("يبدو أننا سنزداد شراهة ونهماً" كذلك تلتطف لي حايم في السنة التالية)³، في دلالة على قوة وإصرار وعزيمة لا تشيها أية عقبات وتراها فارغة من عقول بليدة ومتخلفة.

يصور الكاتب حايم اليهودي في صورة المثقف، المُحِب للمطالعة، وما يؤكد هذا عندما (عاد من دورة المياه وبين أصابع يده ريشة حمام يتخذها محمداً للكتب التي يقرأها)⁴ فقد كان لا يتوانى في ملئ فراغه بالتهام الكتب بغية التوسيع في معرفته، وهذا ما نستشفه من خلال تلك المقاطع التي كان يستعملها هو وصديقه للسخرية من الحارس مسيو ويل لومباردو، الذي كان يترصد تحركاتها ويكِنّ لهما الحقد ويعاملهما بعنصرية كونهما من العرب الأهالي فيشبهانه حسب قول البطل الراوي (بشخصيات شريرة قرأنا عنها في مطالعاتنا الأدبية. قلت: "يشبه تيناردييه الجشع"، فاستدرك: "بل

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 25.

² - المصدر نفسه، ص 25.

³ - المصدر نفسه، ص 26.

⁴ - المصدر نفسه، ص 30.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

ييلي بونز المتهتك"¹ ويُضيف الصديقان في مضرب آخر ضحكاتهما التي لم يسلم منها مسيو ويل حين يقول البطل الراوي (...همست لحايم: "بم تشبهه الآن؟

سجين مونت كريستورنو إلى البحر الهائج؟" أجاب)² يدل هذا على اطلاع حايم اليهودي على العديد من الروايات وتأثره بها بالنظر إلى الاقتباسات الميَّنة آنفاً، فكلها شخصيات شريرة تلك التي شبهوا بها مسيو ويل، فالأولى من رواية "البؤساء" للروائي الفرنسي (فيكتور هوجو)، والثانية من "جزيرة الكنز" للكاتب الإسكتلندي (روبرت لويس ستيفسون)، والثالثة من رواية "الكونت دي مونت كريستو" للكاتب الفرنسي (ألكسندر دوما)، فالصورة تعكس مدى تطلُّع حايم على الثقافات المتنوعة وولعه الشديد بالقراءة خاصة الروايات.

الحِسُّ الفكاهي هو أيضاً أحد السمات التي صور الكاتب لنا شخصية حايم اليهودي يتمتع بها وروحه المرحة التي طغت على الأوقات التي يقضيها رفقة صديقه في المدرسة، وهذا عندما (قرب حايم فمه من أذني، هامساً لي "ونظقت له اسمك كما هو!)³، ونجدها في موضع آخر (فهمزني حايم بمرفقه، قائلاً: "انظر أيشبه تمثال مدرسة جول فيري)⁴، وقد تعددت اللحظات التي تُبين عن الروح المرحة التي تمتع بها حايم، وتلك الضحكات التي تقاسمها مع صديقه أرسلان، ويدل هذا على صدق المشاعر ورابط الأخوة الذي جمعهما بعيداً عن العلاقة التي أثارت حارس المدرسة الثانوية مسيو ويل وجعلته يتساءل معرباً عن استغرابه من صداقة عربي يهودي، فالكاتب هنا يسلط الضوء على قضية التمييز العنصري الذي طال الجزائريين، فقد أمر مسيو ويل حايم بعدم التكلم باللغة العربية وقد أذعن حايم لطلبه (ثم طلب منه ألا يجيبه عن أي سؤال يلقيه عليه إلا بالفرنسية من غير

1 - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 32.

2 - المصدر نفسه، ص 33.

3 - المصدر نفسه، ص 30.

4 - المصدر نفسه، ص 31.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

أخطاء، ففعل حايم كل مرة من غير هفوة، محولاً لسانه فرنسياً بلا لكنة)¹، وهذا يدل على فَرْنَسَة اليهود طبقاً (لقانون كريميو عام 1870)* وإعطائهم الجنسية الفرنسية، وهذا ما أحدث القطيعة وأجج وضع العلاقات، بتأزيمها بين اليهود والجزائريين وأعطى لليهود امتيازات دون العرب، ثم أردف مسيو ويان قائلاً لحايم (ولكن قل لي ما طبيعة هذه العلاقة التي تربطك بمسلم غير فرنسي! أنت حايم بنميمون مواطن فرنسي أعلى من إرسال حنفي درجة! فكيف تقبل مصاحبة أنديجان مثله والحديث إليه بتلك اللهجة كأنه أحد أفراد عائلتك!)²، يُظهر الكاتب صورة واضحة عن التمييز العنصري الذي طغى في تلك الفترة لكن حايم لا يتوانى في الرد عليه (ببداهة: لا أشعر أي فرنسي وأرسال مثل أخي)³ هذا الرد يشير إلى دلالة تصريحية تُعبر عن عمق العلاقة بين الأنا والآخر، بعيداً عن أية تدخلات أجنبية يمكنها زعزعة وخلخلة نظام العلاقة الإنسانية التي تجمع بين الأنا (أرسال) والآخر (حايم)، وكذا عن هاجس الديانة والهوية التي تشكل أحياناً عائقاً في ديمومة تلك العلاقات، مؤدية إلى نشوب صراعات لا متناهية، فتيلها كلمة، ونهايتها مخزية ومؤلمة.

وإذا كانت مشكلة مسيو ويان نطق حايم اللغة العربية فإن (عائلة بنميمون التي نزلت من مدينة الأغواط بعد احتلالها في بداية المنتصف الثاني من القرن الماضي، كما حدثني حايم عنها ذات مرة)⁴، كانت تنطق الحروف العربية نطقاً سليماً كما ذكر حايم (كان لسان أفرادها مستقيماً وسليماً في نطقهم الأصوات العربية مثلهم مثل بقية اليهود الأهالي في جهات ومدن أخرى)⁵

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 34.

*صدر هذا القانون في 24 أكتوبر 1870م، وينسب إلى اليهودي الفرنسي إسحاق يعقوب كريميو المعروف بأدولف كريميو (1796-1880م) والذي صار وزيراً للعدل منذ 04 سبتمبر 1870م، ينظر: كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسي، ص 192.

² - المصدر نفسه، ص 34.

³ - المصدر نفسه، ص 35.

⁴ - المصدر نفسه، ص 29.

⁵ - المصدر نفسه، ص 30.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

فاندماج اليهود وانصهارهم داخل المجتمع الجزائري، جعلهم يتقنون اللغة العربية يقول البطل الراوي حين بدأ حاييم في تأويل اسم مسيو ويل (اسم أوله لي حاييم بحيث إلى وِيلْ لمعرفته اللهجة العربية لأن أمه زهيرة كانت لا تكاد تتكلم غيرها عكس والده موشي الذي علّمه العبرية وبها صار يقرأ التلمود والتوراة)¹، فالكاتب يصور لنا تمسك اليهود بتعليم أبنائهم اللغة العبرية رغم تتلمذ أبنائهم في مدارس تُدرس اللغة العربية، وهذا حفاظاً على لغتهم التي تُعدّ من مقوماتهم، فقد (كان لاحتكاك اليهود بالعرب أثر عميق في لغتهم، فقد ازدادت عبريتهم فصاحة بمجاورتها اللغة العربية التي تُعدّ أرقى لغات المجموعة السامية كلها)².

يصور الكاتب شخصية حاييم اليهودي من المنظور الثقافي، حيث يتمتع بقدرة عالية على الإنشاء والوصف، ويلمس هذا البطل الراوي من خلال الرسالة التي خطّها حاييم له، يَصِفُ فيها مدينة البيض التي زارها في الصيف قائلاً: (...يصف لي كأنه رخالة، مرتفعات جيريقيْل التي تبدو فيها السماء أقرب إلى الأرض من غيرها في أي مكان آخر...)³.

كما تمتع حاييم بأسلوبه الشعري، وكلماته الحاملة التي تُنمُّ عن رِقَّتِهِ، مخاطباً (أرسلان) البطل الراوي (مثل طائرَيْن أَرانا ننشر ذراعينا جناحين محلّقين فوق هذه الثانوية النائمة!)⁴.

يشير الكاتب في العديد من المواطن إلى قضية التعايش بين الأنا والآخر وتلك اللّحظات التي جمعت بينهما بجلوها ومُرّها، ففي إشارة إلى التعايش والجانب الإنساني الذي جمع يهود الجزائر بقاطنيها المسلمين العرب يدعو أرسلان حاييم للغداء، كما يقوم هذا الأخير بدعوة البطل الراوي

¹ - الحبيب السائح: أنا وحاييم، ص 31.

² - عبد الوهاب المسيري: من هم اليهود؟ وما هي اليهودية؟ - أسئلة الهوية وأزمة الدولة اليهودية، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط4، 2008، ص 27.

³ - المصدر نفسه، ص 40.

⁴ - المصدر نفسه، ص 47.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

للعشاء وهذا يدل على كرمه، فيقول البطل الراوي (وتعشيت مع حايم في بيتهم عشاء من طبق زيتون بلحم الأرنب حضرته أمه زهيرة)¹، وهذا من شأنه تعزيز الروابط الاجتماعية بين يهود ومسلمي الجزائر آنذاك.

لم يكن من السهل على اليهودي حايم إتمام الدراسة الثانوية دون تعرضه وصديقه إلى مضايقات إمّا من طرف الأهالي أو الآخرين من الأوروبيين أو الأقدام السوداء، لكن اتحادهما كان يمنع الأذية عن أحدهما الآخر في كل مرة، فقد اعترض سبيلهما في إحدى المرات شابان من الأهالي، أمرين حايم بنزع معطفه، كونه يهودياً فالكاتب يشير إلى قضية التمييز العنصري والتنكر والتنمر على الآخر اليهودي من قبل بعض الجزائريين، وعدم تقبلهم في المجتمع حين يقول البطل الراوي (اعترض سبيلنا شابان من الأهالي وطلب أحدهما من حايم نزع معطفه... وجه حايم لكمةً إلى وجه الآخر أتبعها بركلة في حجره)²، وهذا يدل على قوته، وعدم انصياعه لأوامر أناسٍ يحملون أحقاداً ضد الآخر أياً كان دينه أو توجهه.

المعروف عن اليهود أنهم يسعون إلى تحقيق ذواتهم وأحلامهم، والكاتب يقوم بتصوير شخصية متقدة بالأحلام والطموحات، لا يثنيها عائق، ولا يثبطها حاقد، فحايم كان متميزاً في دراسته، متبصراً لمستقبله، حين شارك صديقه البطل الراوي قائلاً: (تعرف يا أرسلان؟ حلمي أن أصير طبيباً أو صيدلياً)³، فقد كان يعرف جيداً مبتغاه والطريق التي يسلكها للوصول إلى أهدافه.

كما أن روح المنافسة كانت مشتتة بين الأنا والآخر حيث كان كلاهما ذكياً خاصة (حايم العفريت! لأنه لكان مثلي شعر بارتياح)⁴، فالبطل الراوي يصفه بالعفريت، لأنه لا يضيع فرصة إلا

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 36.

² - المصدر نفسه، ص 45.

³ - المصدر نفسه، ص 46.

⁴ - المصدر نفسه، ص 47.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

اغتنمها فيما يفيد، مركزاً على أحلامه غير مكترث بسفاسف الأمور، متجاوزاً كل العقبات التي واجهته، وتلك السقطات التي ما فتئت إلا أن تزيده عزيمته في المضيّ قُدماً.

لم تكن المشاركة بين الأنا والآخر مقتصرة على المنافسة الدّراسية فحسب، بل تعدّت إلى مشاركة الحماقات، وتجربة كل شيء جديد في معبر الحياة، الذي قطعاه سوياً كما جاء على لسان البطل الراوي (دخلنا أول حانة في طريق صعلكتنا الأولى وشربنا أقداحاً)¹، وهنا خروج عن مألوف وخرق للعادات وكسر لقواعد العقيدة، فكلا العقيدتين الإسلامية واليهودية، تحرمان شرب الخمر، لكنهما حتى في حماقاتهما اتفقا، ليطرقا بعد هذا أبواب الجامعة في الجزائر العاصمة بعد نجاحهما في الثانوية، متشوقين يقول البطل الراوي (...تحضيراً لسفري أنا وحايم إلى مدينة الجزائر)².

فالكاتب يفتح فصله الثاني من الرواية معنوناً إياه ب (ما أبعد جامعة الجزائر)، حيث تتداعى الذكريات، ويواصل البطل سرد كرونولوجيا الأحداث التي جمعته رفقة حايم اليهودي إذ ظلّ السفر والتنقل للدّراسة يُمثّل متعةً لكليهما (يظل متحكماً بي شعور بأن الأوقات التي قضيتها مع حايم... كانت أجمل تذكّار وأعذبه وأشدّه إثارة)³، فالعلاقة الإيجابية بين الأنا والآخر تزداد تطوراً، وتشتدّ متانة في كل مرحلة من مراحل حياتهما، ويزدادُ تَقَبُّلُ الآخر بشكلٍ ترفض الذاكرة معه مَحْوُ أدق تفاصيل الحياة التي جمعتهما.

يحقق حايم هدفه بالتسجيل في الجامعة (...بأنه لذلك اختار التوجه الصيدلي بدل الفلسفة)⁴، لكن وبالرغم من اختلاف توجهات الأنا والآخر في الجامعة، إلا أنهما ظلاً يُجِسَّانُ أنهما جزء لا يتجزأ من ذات واحدة منشطرة على الأنا والآخر، فالواقع يؤكد أن هاتين الدّاتين انصهرتا في

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 49.

² - المصدر نفسه، ص 54.

³ - المصدر نفسه، ص 61.

⁴ - المصدر نفسه، ص 69.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

ذات واحدة، مكملتين لبعضهما رغم كل الظروف، كما قال حايم (القدر هو الذي شاء لنا أن نفترق في اختصاصينا كي يُكَمَّل أحدهما الآخر)¹.

فكل المؤشرات عبر السرد، كانت توحى بأن الصديقين قد يتخصصان في نفس التوجه، إلا أن الكاتب يُغير أفق توقعاتنا، فبالنظر إلى نتائج الصديقين الجيدة إلا أن الأنا (أرسلان) اختار التوجه الفلسفي بدل التخصص بالطب أو الصيدلة مثل الآخر، الذي يعتقد أن القدر هو الذي يُسيره بدل الرغبة الذاتية.

يصور الكاتب حايم بأنه شخصية نشطة ومنضبطة، نشاطه وقر عليه الاتكال على رنة المنبه (ولولا أن حايم كان من المبكرين المنتظمين جداً الذين تتوفر أجسامهم على ساعة بيولوجية أكثر دقة من أي ماركة سويسرية)²، وهذا يدل على أن اليهودي حايم ملتزم بمواعيده، منضبط بُجَاه أولوياته، فجدُّه وحرصه لم يمنعه من ممارسة حياته الطبيعية، وهذا ما نستشفه من خلال إعجاب البطل الراوي (بقدره حايم على المزاجية بين الجدِّ والهزل بالشكل الأكثر طبيعية)³، فَرُوْحُه المرححة هي التي جعلته محبوباً لدى صديقه (أرسلان) البطل الراوي المسلم.

بالرغم من العلاقة الوطيدة التي جمعت بين الأنا والآخر، إلا أن النقاش حول الدين أو الأمور العقائدية كان بعيداً عن نقاشاتهما ربما تفادياً للدخول في جدل بين الأنا (أرسلان) مع الآخر (حايم اليهودي)، كما حصل حين كان البطل يمازحه في قضية التّحرر عند الدّخول الجامعي إذ جاء على لسان هذا الأخير (ومثل هذا القدر الذي وضع لنا على كتفينا رقيبين على أفعالنا الحيرة والشّريرة يسجلانها للجزء والعقاب . - عندما حرّك حايم رأسه ويديه معا بإيماءة كفى فقد كان يخشى أن أدرجه، كعادتي معه غالباً في مثل تلك المجادلات، إلى الإرادة والصدفة والخلق، وكنت أدرك أنه لا

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 70.

² - المصدر نفسه، ص 72.

³ - المصدر نفسه، ص 72.

يجب أن يخوض معي فيها لأنه يشعر أنها تترك أساسيات إيمانه)¹، فقد كان الأنا (أرسلان) متشبعاً بالفكر الفلسفي، هذا ما دفعه إلى التخصص فيه في المرحلة الجامعية، ولم يمنع حايم تخصصه في الصيدلية، من التوغل في الفكر الفلسفي، فقد كان هو الآخر مولعاً بهذا الجانب (لأن حايم كان يتابع، كمستمع محاضرات أساتذة متخصصين في ماركس ونييتشيه وسارتر المثيرين للجدل، وكان يجد نفسه من وقت لآخر يتصفح كتبهم التي أعتمدها في قراءاتي وتحضيراتي في الأستوديو)²، فقد كان حايم شخصاً متفتحاً، شغوفاً وطموحاً جداً، ولا نغفل ذلك التوجه الفلسفي للعديد من اليهود (فاليهودي كارل ماكس وراء الشيوعية التي تخدم قواعد الأخلاق والأديان. واليهودي دوركيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة... واليهودي -أو نصف اليهودي - سارتر وراء الوجودية... وقل مثل ذلك في العلامة سيجموند فرويد اليهودي الذي هو من وراء علم النفس)³ هذا الشيء الذي ربما دفع حايم إلى عدم الدخول في نقاشات مع الأنا (أرسلان).

كما يبين الكاتب الجانب الدّيني لليهودي حايم على لسان البطل الراوي (وجدت حايم دخل سريره وبين يديه كتاب التوراة الذي غالباً ما يقرأ منه حين يكون في حالات من الحزن أو التوتر)⁴، فاليهود متمسكون بتوراتهم، وهاهو حايم يتبع تعاليم العقيدة اليهودية المعروفة باسم العهد القديم والتوراة تتكون من خمسة أسفار كما جاء في الكتاب المقدس (الأسفار الأولى الخمسة من الكتاب المقدس تُكون ما يسمونه التوراة، والتوراة كلمة عبرية معناها: الشريعة)⁵.

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 70.

² - المصدر نفسه، ص 78.

³ - محمد خليفة التونسي: الخطر اليهودي: تقديم: عباس محمود العقاد، برتوكولات حكماء صهيون - الإنجيل البلشفي، أوراق ثقافية للنشر والتوزيع، ط2، 2015، ص 82-83.

⁴ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 123.

⁵ - الكتاب المقدس: كتب الشريعة - الرهبانية اليسوعية، ص 59.

هذا الكتاب المقدس الذي طاله التحريف والتبديل عبر العصور والذي لم يُنقل نقلاً متواتراً في مراحلهِ يُعاب عليه الرجوع إلى الأخذ به في تقرير الشرائع والعقائد، لكن ومع هذا فاليهود يؤمنون بكتابتهم وبقدسيته رغم درايتهم بالتحريف الذي مسّه وبالتناقضات في مُتونه.

كما يشير الكتاب إلى (أن حايم غسل يديه ووجهه قبل أخذه كتابه)¹ فليهود طقوس يؤدونها ويتبعونها أينما حلّوا واستقروا، فبالنظر إلى اليهودية والتي نعتبرها ديانة لاجنسية، فالكتاب في روايته يؤكد على احترام ديانة الآخر اليهودي كما جاء على لسان بطله الراوي (ولا وقع يوماً أن حاول أحدنا رد الآخر عن دينه، واجدين ذلك في سلوك عائلتنا ومن غيرها من المتجاورين من المسلمين واليهود في الدرب خاصة)²، فالتنشئة الإسلامية قائمة على احترام جميع الديانات والكتب السماوية، وهو ما عكف المجتمع الجزائري على تلقينه لأبنائهم، وكذا بعض العائلات اليهودية المندمجة التي احترمت الشريعة الإسلامية وزرعت في أبنائها أخلاق تُنم عن احترام مختلف العقائد السماوية.

وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدلّ على حُسن أخلاق كل من الأنا والآخر، فالجانب العقائدي بالنسبة لهما يبقى مسألة شخصية ما دام المعبود واحداً، ليختم حايم قراءته بدعاء قائلاً للبطل الراوي (فلتطب روحانا المعنيتان بما قرأناه!)³، وهنا يقصد روحه التي قرأت من التوراة، وروح صديقه أرسلان حين كان يقرأ القرآن الكريم، فالصورة هنا أبلغ من التعبير عنها، فالكتاب هنا يدعو إلى قضية السلام والتآخي العقائدي.

شخصية اليهودي حايم جمعت تحت رايتها العديد من السّمات، فهي بهذا شخصية محورية تتقاطع فيها العديد من الإيجابيات بُجَاه الأنا الجزائرية المسلمة، حايم بالإضافة على حسّه المرفه

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 123.

² - المصدر نفسه، ص 123.

³ - المصدر نفسه، ص 123.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

وإيمانه المحتشم، كان يُحِبُّ سماع الموسيقى، ويتجلى هذا حين يهديه صديقه البطل الراوي، مقطعاً قائلاً له (أسمعك السيدة التي تحبها... قلت

فتهلل وجه حايم لأول نوته.

"يُياف" قال منجذباً بإعجاب نحو الكراموفون، مضيفاً "آه! هي! في" نشيداً للحب"...

"أحب يُياف في هذه الأغنية بالذات!"¹.

يشعر حايم بسعادة لسماعه يُياف التي يحفظ أغانيها فقد كان يردد مع صديقه (أرسلان) كل مقاطع الأغنية، فهو ذو شخصية حسّاسة وحاملة، فمعظم اليهود كان لهم ميول موسيقي فالعديد منهم امتهن الطب أو الفلسفة بالإضافة إلى العزف أو الغناء، وها هو حايم رغم توجهه الصيدلاني إلا أنه (ظل ولعه بالموسيقى وبالكتب خاصة متقدماً)².

اهتمامات حايم تعددت في رحاب النص الروائي، الذي جعل من شخصية حايم اليهودي تكاد تخلو من أي نقائص، مما جعل الكاتب يغلو في مدح حايم من خلال إعجاب البطل الراوي به، وهذا ما لمسناه في العديد من المحطات في المتن الروائي، فقد أشار الحبيب السائح إلى قضية الاستعمار الفرنسي من وجهة نظر حايم، الذي أبدى اهتمامه بحيثيات القضية الجزائرية، بعد إعلان حالة الطوارئ أو بعد ليلة عيد الأموات الحمراء كما أسماها الكاتب حين يقول حايم (هؤلاء الكولونياليون حمقى لا يستفيدون من التاريخ! تاريخ أمس فقط مع الفيتناميين)³، وهذا في خضم احتدام الصراع بين المستعمر الفرنسي والأهالي واعتبار الفرنسيين أن الجزائر فرنسية، وهذا ما أثار حفيظة حايم اليهودي فهو الآخر أصبح حاقداً على الوضع الذي آلت إليه حالة الأهالي مع

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 150.

² - المصدر نفسه، ص 151.

³ - المصدر نفسه، ص 131.

المستعمر المستبد، فزُغم بجنسه إلا أنه كما أشرنا سابقاً يَعدُّ نفسه ابن الجزائر غيوراً على أرضها ناقماً على الأوضاع حين يقول ("كيف لا يثور بركان الغضب!" قال حاييم خافضاً صوته)¹، إلا أن صوته ظل منخفضاً غير مسموع كغيره من الساخطين على الأوضاع المربكة التي تحصل للجزائريين من طرف المستعمر الفرنسي، وبالرغم من معرفته بانضمام صديقه الأنا (أرسلان) إلى اجتماعات خلية المقاومة إلا أنه أبقى على صمته تحزراً أو خوفاً من الدخول في متاهات لا آخر لها، لكن ومع انتهاء المرحلة الجامعية للأنا (أرسلان) الذي يعود إلى سعيدة، تاركاً حاييم ليكمل سنتين أخريين قائلاً له حاييم ("أنا الأكثر شعوراً بالسعادة والغبطة والاعتزاز أما هذه الحرب فستعرف النهاية التي تتوقعها، كنت لي الصديق والأخ والرفيق. وأنا سأبقى لك كذلك"، ردّ حاييم واضعاً يمينه على يساري على الطاولة)²، فالتألف والتناغم، وتعبير الأنا والآخر لبعضهما البعض عن مدى اعتزازهما بصداقتهما يدُلُّ على أن العلاقة الإنسانية التي جمعتهم أكبر من هاجس الهوية واختلاف العقيدة الدينية، وحتى حيثيات القضية الاستعمارية، التي حاولت بشتى الطرق زرع الفتن والأحقاد بين يهود ومسلمي الجزائر، وتشتت وحدتهم، فحاييم وصديقه عجزت الحرب عن التفريق بينهما بكل ما خلّفته من مآسي ودمار، فبعد زيادة الاحتدام بين الأقدام السوداء والأوروبيين مع الأهالي بدأ اليهود في الهجرة من الجزائر إلى فلسطين، وهو ما شغل (حاييم) وبدى واضحاً عليه خلال حديثه مع صديقه (أرسلان)، فحاييم اليهودي هو الآخر عُرض عليه مغادرة الجزائر يقول البطل الراوي (باح لي أنه جاءه قبل أسبوع، برفقة كولدا، من حاول أن يقنعه بأن يغادر مثل المغادرين)³، لكنّه أبى ورفض رفضاً قاطعاً، يئنُّ عن حُبه للأرض التي وُلد فيها، راداً على اليهود الذين حاولوا إقناعه بالهجرة معهم (قلت له إلى أين تريدونني أن أغادر هذا وطني هنا ولدت وولد آبائي. وأخلط جسدي من تربة هذه الأرض.

¹ - الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص 132.

² - المصدر نفسه، ص 133.

³ - المصدر نفسه، ص 162.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

وفيها أُدْفِن مثل آبائي. فلسطين ليست أرضي ولا وطني¹، حاييم اليهودي يُمَثَلُ صورة نموذجية عن يهود الجزائر المتمسكين بجزائريتهم والمعتزين بالتربة التي استقبلتهم فاتحة أحضانها لكل يهودي وطأ أرض الجزائر، حافظة لكرامتهم وملممة شتاتهم. (ورغم كل ما قيل عن اضطهاد اليهود في المجتمع الإسلامي في شمال إفريقيا، فإن الإسلام في الجزائر قد كفل لهم حرية تنظيم علاقاتهم الداخلية، تحت رئاسة زعماء الطائفة في إطار حقوق أهل الذمة، حيث تمكنوا من مزاولة شعائهم، وتعليمهم ونشاطاتهم الاقتصادية بحري تامة)²، وما يؤكد هذا ضمن الرواية هو قيام حاييم اليهودي بفتح صيدليته في شارع إيزلي بمساعدة صديقه، وقد كان دائم الخوف عليه من الشكوك التي تساور البوليس الفرنسي تجاهه (ومن دون أن يصرح لي أي مراقب أخبرني أن المفتش آلان بورسييه كان قد جاءه صباح ذلك اليوم وسأله خلال معاينة محل الصيدلية)³، يتفطن البطل الراوي إلى حدس صديقه حاييم والذي يعلم انضمامه إلى جماعة المقاومة فيعاتبه حاييم على عدم أخذه معه قائلاً (ولم تستدعني يوماً إلى الخلية!)⁴ وهذا يدل على أن اليهودي حاييم كان في نيته المشاركة من أجل وقف مسلسل الإهانات التي يتعرض لها الأهالي من قبل الأقدام السوداء والأوروبيين فقرر أن يُقدم يد المساعدة خوفاً على صديقه (فأخرج لي من جيبي مفتاحاً "تستطيع أن تدخل به من باب الصيدلية الخلفي للضرورة")⁵ كما أنه قدم مبالغ مالية لدعم الثورة التحريرية، كما وجدت زليخة زوجة أرسلان في ملفات والدها الشهيد قائلة (كنت نشبت في حافظة أوراق جلدية أخرجتها أمي، من بين حجرتين داخليتين من دعامة بئر الحوش، فوجدت بينهما قوائم بأسماء من كانوا يدفعون له اشتراكات دعم الحرب... قرأت اسمكما أنت وحايم ومقابلهما مبلغ كل منكما)⁶، فالواضح أن حاييم خرج عن

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 162.

² - كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسية، ص 187.

³ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 166.

⁴ - المصدر نفسه، ص 172.

⁵ - المصدر نفسه، ص 172.

⁶ - المصدر نفسه، ص 181.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

صمته وحياده لينضم إلى صفوف جيش التحرير بالطريقة التي يعرفها ويتقنها، فالكاتب يسترسل في استرجاع مجريات أحداث السرد على لسان بطله الراوي (أرسلان)، التي لا تزال عالقة بذهنه وكأنه لم يمضي عليها دهر من الزمن، فيقدم لنا صورة لليهودي الداعم للمقاومة، فحايم قام بإسعاف زليخة بعد إقدامها على تنفيذ إحدى العمليات ضد المستعمر الغاصب (دَخَلْتُ الصيدلية من بابها الخلفي حسب مخطط الانسحاب وجدت حايم في انتظارها. أدخلها المخبر وربط على ساعدها لإيقاف النزيف)¹، فبعد كل هذه المجازفات لم يسلم حايم من همجية العدو المستعمر فقد تم حرق صيدليته، وظلّ مهدداً لأنه صار محلّ شكٍ (وابتسم لي قائلاً إنه صار يتوقع أن تُنسف الصيدلية في أي لحظة أو أن تحرق أو تدهمها عناصر الكومندو لتصفيته)²، لكنه ظل مسانداً للقضية الجزائرية، ولم يتخلى عن صديقه الذي التحق بالمقاومة فحايم (كان يعرف أنه لن يرحني. وذلك لصداقتنا التي ضُرب عليها سور مودة يمنع كل تشويش على حميمتها)³، فالكاتب هنا يُجسد صورة حقيقية لمعنى الصداقة الضاربة جذورها في عمق القلب والذاكرة.

فحايم اليهودي، وإن لم يُبد رأيه في مجريات المقاومة بدءاً، إلا أنه تبيّن أن الحرية لا تُستردّ إلا بالسلاح والحرب لذلك يخاطب صديقه أرسلان قائلاً (...تعرف يا أرسلان؟ كل يوم أزداد شعوراً بأن مكاني يجب أن يكون إلى جانبك أحمل السلاح مثلك من أجل شعب يستحق الحياة!) قال حايم ذلك بإيماءات الرغبة من يديه)⁴، فهذا الكلام يحمل دلالة رمزية على انفعال حايم جراء الوضع الذي وصلت إليه الجزائر في فترة الاستعمار، ورغبته الملحة في الانضمام إلى الجبهة وحمل السلام، فكل المؤشرات تنبئ بأن القتال هو السبيل الوحيد لنيل الحرية.

1 - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 182.

2 - المصدر نفسه، ص 185.

3 - المصدر نفسه، ص 187.

4 - المصدر نفسه، ص 188.

حايم اليهودي تُحرق صيدليته للمرة الثانية عَقِبَ الشكوك التي كانت تحوم حوله، فهو لم يخشى تبعات مخاطرته في مساندته للمقاومة، لأنه كان مؤمناً بضرورة تحرير الأرض الجزائرية من قيد المستعمر الفرنسي، لكنه وبعد هاته الحادثة يتوقع على نفسه بعد حرق صيدليته مرة أخرى، مسترجعاً ذكرياته مع والديه، ليخُطَّ على الأوراق ما كان يحمل من ودِّ وحبِّ لأبيه وأمه ولم يَبْحُ لهما بخلجاته الممزوجة بالانكسار لفقدتهما قائلاً (والدي العزيز تذكرك اليوم، لمور عام على التحاق والدي بك، وكان يُمكن أن أسجل هذا بعد خروجي من أيام الحزن عليك لكن ذلك لم يحدث، مع أنك كنت لا تفتأ توصيني بألا ننسى أننا أصحاب كتاب مقدس منه نستلهم سر كل كتابة، وبأنه لا يجدر بمن له كتابه ألا يترك أثراً مخطوطاً، وبأنه عليّ، من موقع المتعلم، أن أعوض عنك ما فاتك أنت لانصرافك كلياً إلى تأمين خبزنا وبقائنا)¹.

تلك الحيات المتتالية لحايم، جعلته ينزوي ليفرغ طاقته السلبية في الكتابة، وفيه إشارة إلى الجانب الديني لوالد حايم وتمسكه بتعاليم كتابهم المقدس وهو التوراة، وكأنه كان يريد من ابنه أن يُسجل ويؤرخ لتاريخهم على أرض الجزائر، لكن حايم يتأسف لأنه لم تكن تجمععه بوالده سوى رابط الأبوة، فلا صداقة جمعتهما، فالعلاقة كما يصورها الكاتب بين الأب والإبن كانت رسمية كما جاء على لسان حايم (... فلم تنسج، حينئذ، علاقة فوق الأبوة والبنوة. ولم نتحدث عن شؤون الرجال كالرجال، وكان ذلك انتظاري وأملي لو لم يكن سبق في لوح القدر أن شيئاً من ذلك لم يقع)²، رغم ذلك التحفظ في العلاقة بين حايم ووالده، إلا أنه كان يُحبه كثيراً، ويتضح لنا هذا جلياً في حزنه على وفاة والده، وتأثره الشديد لوفاته كما صوّره الكاتب على لسان بطله الراوي الذي أراد إخراجهم من جوّ الحزن الذي يحيم عليه وذلك بأخذه لنادي الطلبة المسلمين (... اقترحت على حايم، الذي كان قبل أيام خرج من حداده على وفاة والده فحلق شعره ولحيته، أن يرافقني يوم الأحد القادم إلى

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 199.

² - المصدر نفسه، ص 199.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

النادي)¹، كما أنه دخل في حداد بعد وفاة والدته، وهذا ما جعل البطل الراوي يكتئب لابتعاد حايم عنه أثناء ممارسته لطقوس حداده (حايم دخل لمدة ثلاثين يوماً في حداد على والدته التي توفيت قبل أيام)²، فاليهود بقدر اتصالهم بالشعوب الذين استقروا معهم، واندمجوا بينهم، أخذوا كل طقوس وعادات دفن الموتى والحداد عليهم، مع إبقائهم على بعض طقوسهم المستوحاة من توراتهم، فهناك من يدخل في حداد مدة سبعة أيام "وأقام يوسف لأبيه مناجاةً سبعة أيام"³، وهناك من يحلق شعره كما فعل حايم "فقام أيوب وشق رداءه وحلق شعر رأسه"⁴، وكذلك "في ذلك اليوم دعاء السيد رب القوات إلى البكاء والنحيب وحلق الشعر والتحزم بالمسح"⁵.

يصور الكاتب شخصية حايم القوية التي واجهت العديد من العقبات، فبعد وفاة والديه وحرقت صيدليته لأكثر من مرة، وكذا تخلي حبيبته كولدًا اليهودية عنه، والتي فشلت في إقناعه بالسفر معها إلى أرض الميعاد (فلسطين)، ظل متمسكاً بجزائريته وصداقته لأرسلان، ولم يفقد الأمل بأن الغد سيكون مشرقاً يفوح بعبق الحرية، فاليهود الذي كانوا في صفوف المستعمر بدؤوا في الهجرة من الجزائر، بعد شعورهم بأن الحرية تدق أبواب الجزائر، لتتكسر معها قيود المستعمر الغاشم.

الكاتب السائح يفتتح فصله الخامس (1962 نعم / لا) ببداية الانتخابات الفاصلة والتي شارك فيها حايم وسط ذهول من الحشود المتسارعة لاختيار (نعم أو لا) للحرية (أما حايم، وقد انتخب ورقة نعم في مكتب مدرسة جول فيري)⁶ لقد كان حايم يحلم بدولة جزائرية مستقلة مثله مثل باقي الجزائريين، فقد تمتع بكامل الحقوق المدنية على التراب الجزائري، حولت له الحق في الإدلاء

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 90.

² - المصدر نفسه، ص 109.

³ - سفر التكوين، 50: 10.

⁴ - سفر أيوب: 1: 20.

⁵ - سفر أشعيا: 22: 12.

⁶ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 213.

بصوته، ليقول نعم للحرية، نعم لبلاد حرة مستقلة، في صورة تحمل دلالات الحب والانتماء والتصالح مع الأنا، الذي يظهر واضحاً من خلال الصورة الإيجابية التي رسمها الكاتب لشخصية حايم اليهودي، الذي كان ينتظر بشوق لقاء صديقه بعد طول غياب، فرضتها حرب جاسرة عشية الاستقلال (كذلك كان حايم... كان يحضر غداءه لما طرقت عليه الباب ففتح، فإذا هو لا يتمالك إلا يشهق، وقد توهج وجهه بلون الزهر، لرؤيته إياي واقفاً في لباسي العسكري ذي اللون الغابي، نعم! بكينا لأول مرة فرحاً إذ تعانقنا. ونظر كلُّ منا إلى وجه الآخر عينا لعين. وهزَّ أحدنا الآخر من كتفيه بما وسعت الغبطة)¹، فالكاتب هنا يرسم أبهى صور التلاقي والتآلف والتقبل بين الأنا والآخر، لأنهما يمثلان صورة حقيقية عن المشاركة سواءً أفرحاً كانت أم أحزاناً، فاليهودي حايم كان ينتظر يوم الاستقلال بشغف وقلب جزائري، فالأرض تعني له الانتماء والتعايش والاندماج، ولقائه مع زليخة دليل آخر على فرحه باسترجاع الأرض المنهوبة والأحلام المؤجلة (في صباح الخامس من جويلية تبادل حايم مع زليخة قبليتين على الخدين إذ دخلنا عليه في زيتنا العسكري، وشدَّ على يدها بحرارة "غبطة عظيمة أن أراك في هذا اللباس، أنت به فاتنة!

— كل السعادة لي والفرح بلقاءك"²

لكن فرحة حايم لم تكتمل يومها، فقد قرر الأهالي الانتقام من الأوروبيين والأقدام السوداء وحتى اليهود، وحايم الذي كان أولهم إذ جاء أحد الصبية إلى زليخة يخبرها (أنه سمع من سمته الزعيم يطلب ممن معه أن يبدؤوا بدار الصيدلي في الدرب!)³ فتخبر زليخة حايم أنهم يحاصرون دار حايم، فهناك من اليهود من صفقوا للمستعمر الفرنسي بُغية نيل رضاه، لكن بالموازاة هناك من شارك من اليهود في النضال المسلح، وناصر جبهة التحرير الوطني، وإن كانوا قلائل، فيتدخل إرسال زليخة

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم: ص 215.

² - المصدر نفسه: ص 216.

³ - المصدر نفسه: ص 221.

لإنقاذ حايم في آخر دقيقة (أطل على إثرها حايم بهيئة المعذب المغشي عليه من الموت، فما أفلح في أن ينتزع لي ابتسامة)¹، ليعترف الأنا أمام الملاء بتضحيات الآخر حايم، ويقول بأعلى صوته للمتجمهرين أمام بيته (السيد حايم بنميمون هذا الذي جاء هؤلاء الأشقياء ليعتدوا عليه ويسطوا على بيته أصبح جزائرياً مثلكم، مثلي، مثل هذه المرأة أمامكم... هل فيكم واحد مثل السيد حايم خاطر بحياته ورزقه من أجل أن يصبح الحلم بالحرية حقيقة كما ترونها اليوم)².

فبعد إعلان الاستقلال يقوم البطل الراوي (أرسلان) بإضافة اسم حايم بن ميمون ضمن المستشارين في البلدية لمساعدته في عملية إحصاء الأملاك الشاغرة، وكذا توزيع المعونات على المحتاجين وغيرها من الأعمال الإدارية، وهذا يدل على ثقة الأنا بالآخر حايم، وكذا يشير الكاتب هنا إلى تقلد اليهود العديد من المناصب الإدارية، وتمتعهم بكامل الحقوق داخل أرض الجزائر، فحايم بقي على الوفاء والعهد للتربة التي احتوته هو وعائلته رغم تمسكه بدينه الذي لم يكن أبداً حائلاً لانفتاحه على الأنا وتواصله معها، هذا الأخير الذي حاول أن يقنعه بالزواج من مسلمة فيرد حايم عليه ("... أرسلان صديقي، وكيف لي بالسّد الذي لا يقدر على صدغه سوى الإله"، فكتمت في نفسي أن أقول له إني أعرف أنه لن يبدل دينه الذي رضعه مثل حليبه من ثدي أمه من أجل أن يتزوج بمسلمة لأنه كان كأني مسيحي أو مسلم على إيمان لا يززع)³، فحايم لم يخرج عن دينه لإرضاء رغباته، رغم أن العديد من الأهالي راهنوا على عدم قدرته على الصمود ورحيله بعد انتهاء الحرب مباشرة، لكن الحبل السري الذي ربطه، بمدينته كان أقوى من أية تكهنات، فكيف له أن يتنكر لمدينة أنجبته وأرضعته حُبّ الوطن، وزرعت في نفسه الروح القومية.

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 225.

² - المصدر نفسه: ص 226.

³ - المصدر نفسه: ص 301.

يبقى الصديقان على تواصل رغم بعد المسافة، إلا أن الحنين باقٍ تترجمه رسائل بينهما، ففي إحداها يقول البطل الراوي (راسلنا ببرقية أشعرنا فيها أنه سيأتي إلى وهران لإجراء فحوص وتحاليل... أصابني ببعض الارتباك لمعرفتي ظروف حايم النفسية المؤلمة التي عاشها خلال الحرب وغداها ولما خلّفته في وجدانه من انكسار إخفاق علاقته مع گولدا ولتكتمه غالباً على ما يصيبه من اعتلال)¹، فبالرغم من معرفتهم لسبب زيارة حايم، إلا أن الكاتب يصوره على أنه ذلك الشخص الإيجابي الذي تبتهج الأماكن وتتلون في حضرته رغم أوجاعه وانكساراته (... فقد جعل حضوره فضاء شقتنا يبدو أكثر ابتهاجاً)².

بعد ظهور نتائج تحليل حايم يظهر بأنه مصاب بسرطان دم في حالة متقدمة، فيصاب صديقه بصدمة عند معرفتهما، لكنهما لا يحظيان بفرصة توديعه، إذ أنه دخل مستشفى وهران ليرحل بعدها تاركاً رسالة لصديقه ("صديقي العزيز الوفي أرسلان، أعذرني إن لم أخبرك قبل هذا الوقت بأني سأرحل قريباً عن هذه الدنيا، وفي قلبي حب عظيم لك ولأهلنا وبلدنا... أحببت، وأنا واثق في وفائك أنت وزليخة أن تسهر على أن يُنقل جثمانني إلى مدينتنا، وعلى أن يُحفر لي في مقبرتها قرب والديّ، كم أحببت سعيدة هذه! ويا لها مدينة عجيبة على قدر كبير من الأسرار الصغيرة! وداعاً حايم)³.

يُصور الكاتب علاقة حايم بمدينة سعيدة التي تمنى وأوصى أن يدفن فيها، كما أنه ترك وصيته التي قام الطبيب بتقديمها للبطل الراوي (وصية حايم بنميمون إلى السيد أرسلان حنيفي)⁴ تاركاً بذلك مفاتيح للذاكرة، فيما يطمئن الراوي من أن حايم قد تلقى العناية من المستشفى بعد

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم: ص 315.

² - المصدر نفسه: ص 316.

³ - المصدر نفسه: ص 325.

⁴ - المصدر نفسه: ص 326.

وفاته (مطمئناً على أن جسده سيعامل كما تقتضيه ديانتته، لأنه كان مؤمناً)¹ وبالفعل فإن احترام الأشخاص يُفضي إلى احترام عقائدهم الدينية (اطمئن يا أستاذ! فقد أحضرنا من طائفته من وقف عليه وغسّله وكفّنه وقرأ عليه)²، فالكاتب يبرز تلك العادات اليهودية التي تتشابه مع عادات المسلمين عند وفاة أحد، وكيف أن اليهود يقومون بتغسيل موتاهم وتكفينهم وكذا دفنهم، فهم يقومون بدفن موتاهم عوض حرقهم كما تنصُّ عليه شريعتهم.

أما عن فحوى الوصية فقد جاء فيها ما يلي: (مكتب الأستاذ العربي سباح. عقد وصية. أمامنا نحن الأستاذ ... وأنا السيد حايم بنميمون المعرف أعلاه أوصي للسيد أرسلان حنيفي بما يلي: أولاً، أن يضع تحت تصرفه مسكني في الدّرب، ثانياً، أن يحول محتويات الصيدلية إلى الهلال الأحمر. ثالثاً، أن يبيع القاعدة التجارية ويقتطع من مبلغها دينه علي ويرسل الباقي بحوالة بريدية باسمي إلى بيعة الجزائر باسم الحاخام أبراهام إسحاق* . انتهى).³

يصور الكاتب شخصية حايم اليهودية التي تتمتع بكامل الأخلاق الكريمة، فهو لم ينسى الدّين الذي عليه، وكان يثقل كاهله، فأرسلان (الأنا) مدّ له يد العون من أجل النهوض ثانية وفتح صيدليته، فبقي حاملاً ثقل الدّين إلى أن وافته المنية، فها هو ذا يوصي بأن يسترد ماله من بيع صيدليته، كما يهبُّه بيته العائلي في سعادة بالتحديد في الدّرب، فالأمانة وردُّ الدّين من الصفات التي اتسم بها حايم، كما أنه تبرع بباقي ماله إلى بيعة الجزائر، فروحه الطيبة التي تمتع بها تحمل كل السمات الإيجابية المؤهلة لكونه يهودياً جزائرياً تسري في دمه شهامة ابن البلد البار بوطنه فقد عاش محبوباً متسامحاً كريماً، خصاله مهدت لتعزيز روابط العلاقة الإيجابية، وفتح أواصر التواصل والحوار وتتمين الصداقات خاصة مع الأنا (أرسلان).

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم. ص 326.

² - المصدر نفسه: ص 326.

³ - المصدر نفسه: ص 328.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

يُدفن حاييم كما أوصى في رسالته بمسقط رأسه مع والديه في (جبانة اليهود)¹، هاته المقبرة التي لا يسمح بدخولها كما قال الحارس للبطل الراوي (مبرراً لي أن الدخول ممنوع إلا على سلطة رسمية أو شخص يحمل رخصة مكتوبة تسلمها المصالح المعنية بشؤون الجالية اليهودية وعقاراتهم)².

وبما أن أرسالان كان هو الأمر الذي يُصدر تلك القرارات، لأنه كان مسؤولاً في البلدية، فقد تركه الحارس يَمْزُ، ليقف على قبر حاييم اليهودي ويقرأ على شاهد القبر (اسم حاييم بنميمون تحت النجمة السداسية محفوراً بالحروف العبرية: إنها وجهه الهادئ الباسم إذ قال لي: "نحن جميعاً أبناء أبينا آدم")³، فالأنا قام بتكريم الآخر حاييم اليهودي ووضع جملته المفضلة حسب البطل الراوي (تلك الجملة التي كتبها لي على كراسي، في عامنا الأخير، قبل انطفاء الأنوار في مرقد داخلية ثانوية معسكر، إثر نقاش بيننا حول السامية والحامية*)⁴، وقال حاييم ليلتها لأرسالان (إن ذلك أجمل ما يمكن أن ينقش على حجرة لحد)⁵ فكان له ما تمنى، وبقي الأنا محتفظاً في ذاكرته بأدق تفاصيل صداقتهما بالرغم من مضي سنوات على هاته المحادثة، حارس المقبرة اليهودية، جزائري مسلم هو الذي كان سبباً في نجاة حاييم من موت محقق يوم حاولت جماعة تصفية اليهود عشية الاستقلال، يقول البطل الراوي في نفسه حين سأله الحارس، لمن يعود القبر الذي زاره، فيقول البطل الراوي في نفسه (فكرت ماذا كان يجب أن أقول لمسلم يحرس مقبرة يهود؟ أن أعلن بأننا كنا صديقين أنا وحايم؟)⁶ فتأثره بفقدان صديقه حاييم جعله لا يجيب عن السؤال من طرف حارس المقبرة، فموت حاييم اليهودي ترك فراغاً في نفس صديقه أرسالان، ذلك أنه بالرغم من اختلاف الديانات، وبعيداً

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم: ص 329.

² - المصدر نفسه: ص 330.

³ - المصدر نفسه: ص 330.

⁴ - المصدر نفسه: ص 330.

⁵ - المصدر نفسه: ص 330.

⁶ - المصدر نفسه: ص 333.

عن سؤال الهوية والغيرية، تبقى الروح تَميلُ لميلتها الطيبة، وتنجذب بكل ما فيها، لتتأثر بكل تفاصيل الآخر، فتصبح ذاتاً واحدة.

*شخصية إبراهيم بن سعيد:

صورة عن شخصية يهودية، رسم ملاحظها الروائي "أمين الزاوي" في روايته "آخر يهود تمنطيط"، من عمق صحراء الجزائر الشاهدة على الوجود اليهودي المكثف، الذي تكيف واندمج ليصبح جزءاً من تاريخها العريق، وأحد مكوناتها التي لا يمكن للتاريخ أن يتغاضى عن ماهية وجودها. يصور الكاتب "إبراهيم" على أنه نموذج إنساني مثقف متعايش شكل نسيجاً من العلاقات الإيجابية مع الأنا الجزائرية المسلمة راصداً تفاصيل علاقته مع بركاهم المسلمة التي شاركت لحظات العشق الماجن.

إبراهيم العاشق اليهودي، يصور لنا الكاتب هاته الشخصية المتمسكة بعادات وتقاليد أسلافه وأجداده بالأندلس الذين هاجروا من إسبانيا هرباً من محاكم التفتيش نحو الجزائر، التي فتحت أحضانها لهاته الطائفة وتقبلها رغم اختلاف الديانة العقائدية، فتقبل الأنا المسلمة الجزائرية للآخر اليهودي، جعلته يتمتع بحريته داخل أرض الجزائر، ويمارس حياته الطبيعية دون أية مضايقات، مثل التي شهدتها اليهود في الدول الأوروبية.

لكن الحُبَّ جعل إبراهيم يتغاضى عن اختلاف العقيدة، مما يبرز ذلك الانصهار داخل المجتمع والتأثر به، فقد جمعته وبركاهم قصة عشق مجنونة وممنوعة، فعلاقة الأنا بالآخر تُدلي بجانب من التحرر من قيود العقيدة، وكذا التهور في ممارسة طقوس الحُب الغريبة، يقول إبراهيم (أنا إبراهيم، إبراهيم أو إفرائيم، لا يهم! الدين، لا يعني شيئاً)¹، ترمز دلالة الاسم إلى إبراهيم أبو الأنبياء، وهو اسم عبري مقدس متداول عند اليهود، وكأنه يُشبه نفسه بالإله، أو إله الحُب الذي سيطر على جوارحه من

¹ - Amine Zaoui: le dernier juif de Tamantit, P 24.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

طرف الأنا (بركاهم)، فاسمه لا يعني له شيئاً سوى تلك التساؤلات التي يطرحها على نفسه بين الفينة والأخرى، وحتى الدّين فإنه في نظره غير مهم في حضرة الحُب، فقد مارس الحب مع بركاهم في المقابر لتكون شواهدا شاهدة على انتهاكه لحرمة الأموات، وانفلاته وتحرره الخارق للشرع والدّين.

فهو يمثل صورة عن اليهودي المغرم والماجن، نستقرأ من الرواية عشق أبراهام لصحراء الجزائر التي وُلد وترعرع فيها والتي كانت تحظى بطقوس استثنائية جمعت بين الأنا الجزائرية المسلمة والآخر اليهودي، الذي أحب تفاصيل الحياة بها يقول البطل الراوي (أبراهام) (وقت القيلولة، تحت شمس الرصاص، بلا سبب، يدق الشيطان كل أبواب القرية، الواحد تلو الآخر، بلا استثناء، يبدأ ببابنا. كنا نسكن في منزل كبير من الطين الأحمر مكون من حوالي عشر غرف... رجال تمنطيط! مسلمين ويهوداً يطلبون من النساء والفتيات الشابات أن يسهرن على إبقاء الأبواب مغلقة جيداً حتى لا يدخل شيطان منتصف النهار، إيهن ليشاركهن نومهن)¹، يُصور الكاتب هنا رغد العيش في الصحراء الذي حظي بها اليهود، ويظهر هذا جلياً في قول أبراهام أنه كان يسكن منزلاً كبيراً ومريحاً، وكيف أنه كان يقضي قيلولته رفقة عشيقته المسلمة (بركاهم)، فقد كان ينعته (شيطانتني الجميلة بركاهم)²، لكن هو الشيطان بذاته كما كانت تنعته والدته ("الشيطان هو أخوك التوأم")³. فالكاتب الزاوي يصور بطله اليهودي على أنه شيطان، فقد تميز بفطنته وذكائه وتحرره الزائد، فهو يرى بأن عشيقته تمثل (صورة جريئة هاربة، فارة من اللوحة الجدارية لميشال آنج)⁴ هذا الرّسام الإيطالي الذي أنشأ العديد من الجداريات المعقّدة، والتي تصور أشخاصاً عُراة في غالب لوحاته، فمعظم الحكايات التي كان يسردها (أبراهام) على مسامع عشيقته، كانت مصاحبة لممارسته طقوس العشق الماجن

¹ - Amine Zaoui: le dernier juif de Tamantit, P 29.

² - Ibid: P30.

³ - Ibid: P30.

⁴ - Ibid: 30.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

والممنوع، ولكأن العُري يمثل عنده قول الحقيقة، أو أن لحظة الاعتراف وتعرية الحقائق تُصاحبها تعرية الأجساد، كمعظم اللحظات التي جمعت الأنا والآخر، في سردهما لحياتهما وذكرياتهما.

الرغبة هي أساس علاقة الأنا (بركاهم) بالآخر (أبراهام)، ذلك أنها طغت على فكرهما ونفسيتهما، فقد كانت رغبةً مُلحةً سكنت كلاهما لممارسة طقوس غريبة عن كلا الديانتين، فالآخر كان مهووساً بخرافات نشأ عليها، والمعروف أن اليهود يقومون بتنشأة أبنائهم مرسخين في أذهانهم ذلك الجانب من الأساطير والمعتقدات الغريبة التي تلعب دوراً مهماً في التكوين النفسي والعقلي لليهودي، وأبراهام الذي يصرح قائلاً (المقابر تنير في إحساساً بالخوف وتوقظ في، لا أعرف لماذا، الرغبة في مضاجعتها بجنون. كان الأمر لا يقاوم! كنت دائماً أحلم بممارسة الجنس مع بركاهم في مقبرة قديمة)¹، إن هذا الفكر المسيطر على أبراهام ناتج عن انحلال خلقي، لا تحكمه ضوابط دينية حين يقول (لم تكن لي العادة الدخول مقبرة بوازع ديني أو الميل إلى الخشوع، هذا لا يعني لي شيئاً، لكنه مدفعة بهذه الرغبة الجسدية التي تسكن جسدي ودمي!)²، فالآخر اليهودي (أبراهام) يعترف بأنه غير ملتزم بتاتا بتعاليم الدين اليهودي، فقط وحدها تلك الخرافات التي تسيره، فهو يمثل ثنائية متضادة (الهو والغير) فلا يلبث أن يحكي تخاريفه لعشيقته المسلمة بركاهم، رابطاً العقيدتين بجبل كلامه إذ يقول (... كنت أريد أن أحدث بركاهم عن (حضارة السرير) التي ابتكرها المسلمون واليهود. السرير عند المسلمين واليهود، يبقى مركز الأرض بامتياز. إنه أيضاً مركز الجسد. كل حكي ينطلق من السرير ليعود إليه)³، ومن بين الخرافات التي آمن بها (أبراهام) تلك الخرافة التي حضرته حين قدمت له زوجة حارس المقبرة اليهودية شراب الشاي بالنعناع، ليبدأ فجأة في الضحك يقول (انفجرت ضاحكاً. قهقهة حقيقية! مندهشة، نظرت إلى الزوجة الشابة... أرادت الانسحاب، قائلاً

¹ - Amine Zaoui: le dernier juif de Tamantit, P 120.

² - Ibid: P120.

³ - Ibid: P133.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

بلهجة مزاح: حسن كان أبي ميمون يملاً كؤوسنا بالشاي، كان يقول لنا: الذي كأسه بها كثيراً من الزيد، سيكون له في المستقبل القريب، المال الذي يستحقه!¹ فسرعان ما تدارك (أبراهام) ذلك الموقف جراء اندهاش المرأة من ضحكاته، ليحكى لها عن تلك المعتقدات التي توارثها عن أجداده.

تحمل الرواية العديد من السمات لشخصيات مختلفة، لكننا نجد لشخصية (أبراهام) في (آخر يهود تمنطيط) العديد من السمات التي تميز بها، فبالإضافة إلى المحون في ممارسة الحب وعدم الالتزام بتعاليم الديانة اليهودية والإيمان بالمعتقدات والأساطير الأولية، يصور الكاتب شخصية أبراهام أنها تتميز بالجبن والخوف، فمنذ صغره كان يخشى القبور، ففي جنازة والدته كان الخوف جلياً من خلال ما جاء على لسانه، خاصة وأنها تركته في سن صغيرة (... امتنعت عن دخول المقبرة. من بعيد اكتفيت برؤية قبور مبيضة ومصطفة جيداً. كنت أرتعد، شيثان كانا دائماً يخيفاني: المشهد الجامد للمقبرة وقراءة الآيات القرآنية بصوت مرتفع. هلع!)²

هذا الخوف كان مرده حسبه إلى معلمه للغة العربية الذي لقنهم وغرس في أنفسهم عذاب القبر يقول (أبراهام) (في الأصل، هذا الرعب جاءني من خطاب أول معلم للغة العربية. يوماً، كان يقرأ لنا، ويجعلنا نقرأ ونعيد القراءة آيات كتاب الله وأحاديث نبيه محمد صلى الله عليه وسلم التي تصف بدقة متناهية تفاصيل وقوة العذاب الجهنمي الذي يتلقاه الموتى الكفار في قبورهم... تلميذاً، كنت بمجرد أن أمر أمام مقبرة، كنت أشعر بثقل ضخيم مثل سندان يجثم على معدتي).³

وفي هذا دلالة على تأثر (أبراهام) بالعقيدة الإسلامية وذلك الأثر الذي بقي راسخاً في ذهنه وأحاسيسه، فاليهودي زواج بين عقيدتين لتنجم عنها عقيدة (يهودية إسلامية) تستمد خصوصيتها من المحيط الديني الذي يخالطه اليهود، وذلك الأثر الناجم عن الاختلاط بالمسلمين خاصة في صحراء

¹ - Amine Zaoui: le dernier juif de Tamantit: P139.

² - Ibid, P 138.

³ - Ibid: P 138.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

الجزائر التي تتمتع بكتاتيبها وزواياها وشيوخها العاكفين على إرساء تعاليم الدين الإسلامي وحفظ كتابه الكريم. كما يشير الكاتب إلى قضية ممارسة اليهود لحياة طبيعية، نالهم منها الحظ في التعلم باللّغة العربية دون أية تحفظات، أو ممارسات عنصرية تجاههم، فقد وجدوا أنفسهم في بيئة رخوة، هيئت لهم جُلّ الظروف المناسبة للإقامة، دون مساس بهويتهم أو عقيدتهم، وهذا كان حال (أبراهام) الذي عاش مع عائلته في منطقة تمنطيط التي وفرت لهم دوافع العيش الكريم والمرح، فلا فرق بين مسلم ويهودي حسب البطل الراوي، ما دام المعبود واحداً.

شخصية (أبراهام) اليهودي كما يصورها الكاتب انغمست داخل المجتمع الجزائري، فانعكست تلك المضامين الفكرية والنفسية للبيئة التي عاش فيها، على عقليته، وخلفيته الفكرية، (فأبراهام) اليهودي، هذا الاسم العبراني الذي يدلّ على انتمائه للعقيدة اليهودية، لكنه كان يفضل اسم (سليم) العربي، مما يدلّ على شعوره بالانتماء للوسط الذي يعيش فيه، فاسم سليم يحمل دلالة رمزية، أراد بها الكاتب أمين الزاوي أن يظهر شخصية أبراهام على أنها تتمتع بسلامة القلب وعلى الشخص المسلم وكذلك على حلمه بالسلام الذي يحلم به أتباع الطائفة اليهودية المتشتتين في شتى مشارق ومغارب الأرض.

يبلغ أبراهام من العمر أكثر من أربعين سنة حسب ما جاء في الرواية، فوالدته حسب توفيت وهو في سن صغيرة، وبعد أربعين سنة يعود للأرض التي دفنت فيها بحثاً عن قبرها، ليصل أخيراً إلى المقبرة اليهودية ويسأل عن حارسها الذي توفي، ليدخل في حوار مع زوجة حارس المقبرة الثانية قائلاً (أبحث عن قبر والدي، ماتت منذ أربعين سنة، بل تسع وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وعدة أيام.

-هل تتذكر المربع الذي دفنت فيه؟

- لا، لم أحضر لدفنها لا أحب برودة المقابر. لا يطلع من المقابر إلاّ الخوف وصراخ الكفار الذين يعذبهم الله، لكن حسب ما سمعت، أنها قد دفنت في القبر نفسه الذي دفن فيه جدي الحاج ميمون،

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

حارس قبر المغيلي)¹، لم يجرؤ أبراهام على زيارة قبر والدته، خوفاً من وحشة المقابر، وهذا ما استغريته زوجة حارس المقبرة قائلاً لها (جئت إلى هنا لأترحم على قبرها وأشكرها على هذا الاسم الذي أعطني إياه، لأنها هي من اختارته).

- ما اسمك؟

- أبراهام.

- إبراهيم؟

- لم أحب أبداً اسمي، وصلت سنّ النبوة، حملته دائماً كعبء ثقيل.²

يعطي الكاتب العديد من الأسماء لشخصية اليهودي بطل الرواية، فيصوره الكاتب على أنه شخصية تفتقد التوازن ومتذبذبة، تائهة في بحثها عن الذات، فعقدة اسمه ظلّت تلاحقه، وفي هذا دلالة على عدم تقبله فكرة كونه مختلفاً أو الأكثر حظاً في نيله شرف هذا الاسم الذي يحمله أكبر حاخام يهودي، يقول البطل الراوي (الجميع يناديني سليم عندنا، ينادوني أبراهام، ما هذا الاسم؟ لا أحب هذا الاسم أبراهام إنه شاذ وغريب وثقيل على السمع والنطق... في المدرسة، سجلت باسم آخر أيضاً: إبراهيم، حتى هذا الاسم، إبراهيم، لم أقبله، لم أفح أبداً في حمله! في الصفحات الأولى من دفاتري، الاسم سليم كان دائماً يلي اسم إبراهيم، برفضي اسمي، كنت أتقياً جزءاً مني. كنت أشعر بعدم التوازن)³، فعقدة الاسم ظلت تلاحق أبراهام فقد ذكر هذا الاسم (أبرام) في سفر التكوين (ولا يكون اسمك أبرام بعد بل يكون اسمك إبراهيم لأني جعلتك أبا جمهور أمم)⁴، فحامل هذا الاسم يُعدّ محظوظاً، كما كانت تردد والدته على مسامعه نظراً لأصوله ودلالاته، لكنه لم يكن

¹ - Amine Zaoui: le dernier juif de Tamantit, P 142-141.

² - Ibid, P 142.

³ - Ibid, P 124.

⁴ - سفر التكوين، 17:5.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

يحمل من الخصال ما حمّله أسلافه من قبل فهو يعترف بأنه غير متدين، ويُقدم على أفعال تتعارض والشريعة اليهودية حين يقول (لست متديناً، أشرب الكحول، ضاجعت مئات النساء تعملن في عشرات المواخير. آكل لحم الخنزير ولم أصلي أبداً لا صلاة السبت ولا صلاة الجمعة)¹، فهذا التصريح اللفظي يحمل في طياته تفسيراً على إحداه، فهو لم يتبع لا ديانة اليهود ولا ديانة المسلمين، والمعروف عن الكاتب أمين الزاوي خرقه العديد من الطابوهات الخاصة بقضايا الدين والجنس وغيرها من المواضيع التي تثير حفيظة القارئ، وهذا ما تجسد في شخصية اليهودي (أبراهام) الذي وبعد أن أرشدته زوجة حارس المقبرة، إلى قبر والدته وجدده، وجدّ الحُضرة المفرطة تغطي قبرهما، لتخبره المرأة أن ذلك الحشيش هو مصدر رزقها، فتأخذ بالتدخين وتعطي أبراهام هو الآخر ليدخن ويدخل في نشوته المصحوبة بجنونه وهذيانه (... أحب النمل النحل، هل أفكر في النمل والنحل؟ أنا أيضاً نزعت قميصي وسروالي. كانت جواربي تصدر رائحة قوية. طاعونية، صمت قرأت ما كان مكتوباً على شاهدة القبر هنا يرتاح الشيخ عبد الكريم المغيلي)²، فقد دفنت أمه بجانب جده الذي كان حارساً لقبر عبد الكريم المغيلي، يقوم (أبراهام) بالتعري رفقة عشيقته المسلمة (بركاهم)، ليكسر خوفه ويتحدى عزلة المقابر التي كان يخشاها بممارسة الجنس فوق القبور، متجرداً وعشيقته من مذهبيهما، فالمتعة وحدها كانت مذهبيهما في الحياة، يقول(.. سمعت صوت والدتي. كانت تقول لي: "مطروود من الأندلس، حيث كان طبيباً وفيلسوفاً للسلطان بعد ريكونكيسطا، جدّ جدّك الذي أحرق حياً، في الشارع بطليطلة)³.

فالكاتب يصور ذلك المشهد المعبر عن الانحلال الأخلاقي في صورة تشبه كثيراً تلك الجداريات التي أبدعها (مارك أنجلو)، والتي تصور أشخاصاً عراةً، هي نفسها تلك الصورة التي التقطها الكاتب

¹ - Amine Zaoui: le dernier juif de Tamantit, P 142.

² - Ibid, P 147.

³ - Ibid, P 149-150.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

بعده، صورة يهودي ومسلمة، يمارسان الحُب على أرضحة الموتى، فهذا تعد على الدين، وخرق للقيم والمبادئ الإسلامية أولاً وحتى اليهودية، كما أنها تحمل العديد من الرؤى المنافية للجانب الديني والتاريخي، فقد كانت تحرم علاقة اليهودي بالمسلمة والعكس صحيح.

شخصية (أبراهام) اليهودي كما يصورها الكاتب تتمتع بالعديد من التناقضات، التي تولدت عن البيئة التي عايشها، ونتيجة للتنشئة المزوجة التي حَضِيَ بها، بين أحضان بيئة مسلمة وتربية قائمة على عقيدة يهودية، فنجد أنه بالرغم من أنه شخص زنديق، يحاول الانقلاب من كلا العقيدتين، إلا أننا نلمس في نفسيته المتضاربة ميلاً للدين الإسلامي، فجعل العلاقات التي تولدت بين مسلمي ويهود الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي خاصة كانت مبنية على الاحترام المتبادل بين الأنا والآخر، فالكاتب يحكي على لسان بطله كيف أن اليهود كانوا يحترمون حرمة رمضان حين يقول (بالرغم من أننا يهود، كل عائلتي، جدي، جدتي، أعمامي وعماتي كانوا يراعون رمضان احتراماً لأبناء عمومتنا المسلمين، نقوم بما يقوم به جيراننا. لا نأكل إلا عند آذان المغرب. كنت أتحدى كل أطفال تمنطيط، الذين هم في سني بتقدير الصيام في سن الثانية عشر، كنت أصوم الثلاثين يوماً من رمضان، فخوراً بقراري وبقدرتي على رفع التحدي)¹، (أبراهام) يحكي كيف أن عائلته تحترم قُدسية الشهر الفضيل، وكذا تحديه كيهودي أطفال تمنطيط المسلمين لصوم الشهر كاملاً، وهنا دلالة على الانغماس في الحياة العربية الإسلامية بالجزائر من طرف اليهود، والتأثر بمعتقداتهم الإسلامية وحتى ممارسة شعائرهم الدينية، ولكن يظهر التناقض جلياً حين يصاحب صومه بقراءة كتاب (عنوانه حيل النساء، كتبه ابن الجوزي (510-592 هـ)²، وكان لجدته الذي نهاه عن قراءته وقام بضربه بحجة أنه كتاب للكبار فقط يقول البطل الراوي عن الكتاب (إلهي، ليس سوى الفجور في هذا الكتاب، مفضل جدي)³،

¹ - Amine Zaoui: le dernier juif de Tamantit, P 33.

² - Ibid: P 32.

³ - Ibid: P 33.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

فقد كان للكتاب أثر على خلفية (أبراهام) الفكرية، والذي فتح أمام عينيه طريقاً للانحراف، لنجد هذا متجسداً في أفعاله المخلة بالحياء وممارساته في العلن والخفاء مع عشيقته (بركاهم).

يصور الكاتب (أمين الزاوي) شخصية (أبراهام) اليهودي، على أنها شخصية مثقفة بالرغم من أنه يظهر للوهلة الأولى شخصاً زنديقاً في الصفحات الأولى من الرواية وفصولها، لكن عشيقته المسلمة تعتبره مرآة لها حين تقول (مرآتي، هي إبراهيم الفيلسوف. قضى أكثر من اثني عشر سنة لإنهاء أطروحته الموسومة بالأساطير المؤسسة لشعوب إفريقيا الشمالية)¹، والمعروف عن اليهود حبهم للأساطير والخرافات نظراً لتاريخهم الذي عرف تحريفاً كبيراً من قبل العديد من الحاخامات والمؤرخين اليهود، فأبراهام يُعدُّ واحداً من اليهود الذين لم يكونوا متدينين، لكنهم كانوا متحمسين ومولعين بشدة بالأساطير اليهودية، فقد مثل نموذجاً عن اليهودي المتحرر والجريء، الذي يفتقد إلى الوازع الديني، والمتحرر من كل المعايير والقيم الدينية التي من شأنها أن تصنع نموذجاً إنسانياً يتمتع بمبادئ وأخلاق تليق بمقامه.

اليهودي (أبراهام) وإن لم يُظهر تدينه وولاءه لعقيدته، إلا أنه ككل اليهود الذين حطوا رحالهم بأرض الجزائر، وسعوا للوصول إلى قبر وليهم الصالح ليحفظوا بتبريكاته، فهاهو الآخر يزور ضريح (أفرايم النقاوة)* جدُّ جده الذي دفن في مدينة تلمسان ليخاطبه بنبرة المستاء والمتحسر على حال اليهود، كرسالة اعتراف على شتات وضياح اليهود، وعدم تقبل الأنا لهم، كما يحكي له عن مآثر تلك المدينة الجميلة التي فضّلها عن بقية المدن، تلمسان وحدها سحرته وظلّت تسخرُ أبناء جلدته مخاطباً

¹ - Ibid: P 71.

*- الحاخام إفرايم بن كاوا، المولود عام 1359، فيعرف في الموسوعة اليهودية بأنه "الطبيب والحاخام، والكاتب اللاهوتي، ومؤسس الطائفة اليهودية في تلمسان وشمال إفريقيا، توفي عام 1442، وحسب الأسطورة المتداولة، فإنه فرّ من محاكم التفتيش الإسبانية وهناك فقد والده وأمه "... عُرف بشخصيته المؤثرة وسط الجالية اليهودية التي وطّنها في بلاد المغرب وتلمسان". ينظر: "إفرايم بن كاوا"... من هنا بدأت قصة يهود الجزائر، عبد السلام البارودي، أصوات مغربية، 27 أكتوبر 2017، الموقع:

إياه ("...أيها الجد الوقور باسمك، والذي نسجوا اسمي: أبراهام، إبراهيم أو أبراهام، لا يهم اسم قوي، الذي يثقل كتفي الهزليتين، جئت إلى هنا، في هذه المدينة الجميلة القديمة التي كنت تحبها والتي كنت تفضلها عن طليطلة ومراكش، جئت إلى تلمسان، مدينة التسامح، مدينة أجمل نساء العالم! مدينة الشعر الدقيق والماء العزير. جئت إلى هنا لأستغرق في التأمل وأسألك: لماذا هذا الحقد المتواصل بينكم، أنتم المنفيون من الأندلس، المطرودين من جنتكم اليهودية الإسلامية المفقودة؟ أيها الجد العزيز والشريف "أنتم كلكم، يهوداً ومسلمين، لقد عانيتم المصير الحزين ذاته"¹) يطرح الكاتب تساؤلات على لسان بطله الراوي (أبراهام) حول الهوية المسلوقة، والمصير المشترك مع المسلمين في الأندلس، فالآخر يربط مصيره دوماً بمصير الأنا، وهذا ما لمسناه في رواية (آخر يهود تمنطيط)، وكأن الكُلَّ يعيش تحت وطأة اللاقبول، فالكاتب يربط بين الأنا والآخر في عديد المواطن داخل روايته، ليعزز العلاقات ويبرز المصير المشترك الذي شهده الوجود اليهودي داخل المجتمع الجزائري، وليحي تاريخ يهود الجزائر الوافدين من الأندلس متقبلة إياهم رغم اختلاف ديانتهم وثقافتهم وعاداتهم، فالمقبرة حسب (أبراهام)، ترمز للالتقاء الأبدي بين أناس اختلطت دياناتهم ولغاتهم حين يقول (...شواهد قبور مكسرة أو بالية، مليئة بالكتابة باللغات الثلاث، العربية العبرية والفرنسية...) ² فهاهو الولي الصالح لليهود يرقد في مقبرة يهودية على أرض السلم والسلام، في تلمسان مزار اليهود وقبيلتهم، فهم يعتبرون ضريحه مزاراً يَحْجُونَ إليه، ففي نهاية شهر أفريل ككل سنة إنه موسم الحج. الناس يصلون، فرادى وجماعات أو عائلات أجنب وتلمسانيين هي تلك الحشود المتوافدة من كل حَدَب وصوب، ومن مختلف البلدان لنيل البركة من وليهم، فقد سميت تلمسان بقدس الجزائر لأن (عدد كبير من الحجاج ويهود العراق أو المغرب، كل واحد يؤدي صلواته بلغته. كثرة! حشد! لغة الطير كان من

¹ - Amine Zaoui: le dernier juif de Tamantit, P 121.

² - Ibid : P 122.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

بينهم مسلمون يقرأون القرآن. أنا قرأت ما حفظته بالميزابية. أحب هذه اللغة. أفضلها عن العربية أو الفرنسية. دائماً كنت أفكر أن الله يتكلم بالميزابية أو القبائلية زيادة على اللغة العربية لغة القرآن¹.

يعتبر اليهودي حسب العديد من الروايات العربية التي جعلته محوراً أساسياً في البناء الداخلي لها، أنه يمثل دوماً شخصية متكيفة فهو يسخر ويوظف إمكاناته وحياته لمصلحة الجيتو الذي ينتمي إليه، بغية التأقلم والشعور بالأمان الذي يصبو إليه، بعيداً عن هاجس الالاقبول والرفض والعنصرية، فالكاتب في (آخر يهود تمنطيط) يسلط الضوء على يهود الجزائر، وكيف تأثروا بالأمكنة التي عاشوا فيها، فهاهو ذا (أبراهام) اليهودي يتقن اللغة العربية ويقرأ القرآن منذ كان صغيراً، بالإضافة إلى إتقانه الميزابية التي كان يحبها أيضاً، فقد خالطت ألسنتهم ألسنة العرب الجزائريين، فما كان منهم إلا أن تبعوا الملة وساروا على النهج الإسلامي، دون التخلي عن أصولهم وعقيدتهم، التي مارسوها خفيةً في عديد المناسبات والأماكن.

يصور الكاتب حدثاً مهماً في حياة اليهودي (أبراهام) مع عائلته الكبيرة، وهو يوم اقتنائهم لآلة الخياطة (سنجير)، والتي اعتبروها حدثاً جليلاً أقيمت على شرفها الولائم، ويتجلى هذا في قول (أبراهام) (إنه يوم كبير! إنه يوم مهم أكثر من الأيام المقدسة، أيام الأعياد الدينية... آلة الخياطة سنجير صنعت في و.م.أ أنا كنت أنظر إليها من بعيد، لم أتجرأ على لمسها)².

فشيء غريب أن تحظى آلة خياطة بكل هاته الحفاوة، فالكاتب يبرز مدى انبهارهم بها لمجرد أنها تمثل كنزاً سيكون لا محالة مصدر رزق وفير للعائلة بأكملها، كما لا يفوتنا أن اليهود معروف عنهم الجدُّ في العمل وحبُّ المال، وكذا ميولهم لممارسة التجارة التي برعوا فيها، وكانت لهم حظوة كبيرة في شتى النشاطات في مختلف الميادين التجارية والاقتصادية وما غير ذلك، من الامتيازات التي نالوها قبل وحتى بعد الاستعمار الفرنسي.

¹ - Amine Zaoui: le dernier juif de Tamantit: P122.

² - Ibid, P 36-37.

وإذا ما قمنا بمقارنة بين شخصية (أبراهام) في (آخر يهود تمنطيط)، وشخصية (حايم) في (أنا وحايم)، نجد أنهما يلتقيان من حيث تعايشهما مع (الأنا) الجزائرية المسلمة، كونهما شخصيتين مسالمتين، فلكل منهما مميزات التي تباينت في تشكيل عقليتهما ونفسيتهما، لاسيما أنهما عايشا الحقبة الاستعمارية نظراً للزمن الروائي الذي اشتغل على هاته الحقبة، لكن الاختلاف يظهر جلياً في التمسك بالقيم الأخلاقية والدينية، ف (حايم) كان يهودياً طيباً متعاوناً ومتعايشاً نلمس فيه شيئاً من البراءة التي طغت عليها تلك الصورة النمطية التي ترسخت في الأذهان عن اليهود بصورة عامة، لكنه يمثل حالة استثنائية وصورة نادرة عن التسامح بين الأنا والآخر بكل ما تحمله من مميزات إيجابية، نظراً للدور الذي لعبته الشخصية حيال مقاومة المستعمر مع الجبهة التحريرية، وكذا العديد من المواقف التي صوّرها الكاتب مؤكداً على أن هناك أقلية من الطائفة اليهودية انصهرت داخل المجتمع الجزائري بكل مقوماته لتصبح هويته (جزائرية يهودية إسلامية)، لكن (أبراهام) ترمز شخصيته -برغم أنه مثقف مثل (حايم) - إلى أنه صورة عن اليهودي الماجن والمتبع لنزواته التي تقودها وتسيرها شهوانية حيوانية.

كما تسيطر عليه فلسفة سارتر الوجودية وهاجس الغريزة الجنسية لسيجموند فرويد¹، كلا الشخصيتين حايم وأبراهام يمثلان بطلان لكل رواية تحكي عن يهود الجزائر، فالأول متزن سليم العقل والنفس لكن الثاني وبالرغم من أنه يجب أن يطلق عليه اسم (سليم) إلا أنه يفتقد للاتزان فشخصيته متذبذبة يميل إلى الخوف حيناً والتحرر حيناً آخر فكل من الكاتبين عكف على تصوير نموذج مستمد من الواقع الجزائري، باعتبارها نماذج ملتحمة مع الأنا وشبكية العلاقات المبنية مع شخصيات أخرى، وهذا لإبراز سماتها، وكذا المواقف التي تعرضوا لها ، لتصوير ردود أفعالهم وأفكارهم وآرائهم من خلال علاقاتهم وحواراتهم ومجادلاتهم مع الأنا الجزائرية المسلمة ، للوقوف على أهم المميزات التي طغت على شخصية كل منهما.

¹- ينظر: محمد خليفة التونسي: بروتوكولات حكماء صهيون، ص82-83.

2- صورة اليهودية المتعايشة:

*شخصية لالة زهيرة سماح:

يقدم الكاتب (الحبيب السائح) في روايته (أنا وحايم) نموذجاً عن المرأة اليهودية في الجزائر، فهي تشبه إلى حد بعيد المرأة الجزائرية المسلمة في تصرفاتها وعلاقاتها وحتى لباسها وكلامها، والدة حايم (بنميمون) لالة زهيرة التي تمسكت بهويتها الجزائرية رغم تجنسهم، فهي حسب ما جاء على لسان ابنها (ظَلَّتْ مثله لا تشعر بأنها فرنسية، وأنا طفل كنت لا أجد لها شبيها يقربها من نساء الأقدام السوداء والأوروبيات)¹، فلشدة تشبهها بالأهالي المسلمين ومحافظتها على عاداتهم في اللبس ظنها أحد التجار الأوروبيين أنها من الأهالي عندما ذهبت مع ابنها لشراء بدلة المدرسة يقول حايم (لن أنسى ما قاله لنا التاجر الذي دخلنا محله، وكان من الأقدام السوداء العنصريين. أنت تعرفه. صاحب دكان ملابس الأطفال في شارع كمبيطة. ولأنها جربت علي أكثر من لباس ولم يعجبها واحد، وهي في ثوبها العادي بالشدّة على الرأس والشال على الكتفين والعباية الطويلة بالحزام والبلغة المزركشة في القدمين، قال لها بتهكم: ولم لا ترسلين ابنك إلى المدرسة في ثيابكم التقليدية أيضاً!)². فالكاتب يصور هنا المظهر الخارجي، ويصف بدقة مظهر لالة زهيرة، الذي يشبه كثيراً مظهر النساء الجزائريات في تلك الحقبة الزمنية من الاحتلال الفرنسي، كما يشير إلى قضية التمييز العنصري الذي طال اليهود من قبل الأقدام السوداء، كما يؤكد حايم لصديقه أرسلان تمسك أمه بعادات وراثتها عن الجزائريين الذين خالطتهم وانصهرت في قلوبهم وتشبهت بهم متأثرة بكل تفاصيل الحياة في المجتمع الجزائري قائلاً له: (...لأن أُمِّي لا تنقصها غير الملحفة مثل جدتك وأمك!) هذا الرّي الذي يدخل ضمن تراث الأزياء التقليدية المعروفة لدى المرأة الجزائرية، وهو رمز على التعفف والسترّة.

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 76.

² - المصدر نفسه: ص 76.

تُمثل لالة زهيرة في رواية أنا وحايم صورة عن المرأة المضحية، والتي ضحت من أجل ابنها، وذلك حين قامت ببيع ذهبها كله من أجل ضمان إتمام تعلمه، يقول حايم بعد وفاتها (أعدك أني إن تزوجت يوماً وولدت لي طفلة اشتريت لها المجوهرات نفسها التي رهنتها من أجل دراستي)¹، فالمعروف عن اليهود أنهم يحبون جمع الذهب، لكن والدة حايم كانت تريد لابنها مستقبلاً أفضل وأن يصير مثقفاً، بالغاً أعلى درجات النجاح، وقد كان لها ما تمنت، فهي لم تتواني لحظة في رهن مجوهراتها من أجل ابنها، وهذا يدل على حرصها وتضحيتها وحبها الشديد لابنها حايم، الذي تعلق بها، وكان لها محباً مطيعاً، لكن الموت فرق الأحبة وترك فراغاً رهيباً في نفسية حايم، ففراق والدته سبب له جرحاً عميقاً وانكساراً قوياً، لم تفلح الأيام في ملامته وتضميده، ويتجلى هذا حين يكتب في مذكراته مخاطباً والدته (والدتي الغالية، عُدتُ من عِلْمين بإحساس أن السماء قد تحطمت من فوق رأسي فلم يعد هنا ما يسرني)²، لالة زهيرة مثال عن المرأة اليهودية الجزائرية الطيبة والمضحية، فقد كانت علاقتها مع الأهالي طيبة تجمعهم أواصر الجيرة بجلوها ومرها، امرأة لشدة اندماجها حسب الكاتب تحسبها جزائرية بالدم والهوية، تميزها الروح الإنسانية التي ترعرعت بين أحضانها، في مجتمع احتضن كل الطوائف دون تمييز وحق، تحت راية التعايش في سلام.

* شخصية لالة صافو: (صافية):

يصور الكاتب أمين الزاوي في (آخر يهود تمنطيط) صورة عن المرأة اليهودية المتعاشية المندمجة في المجتمع الجزائري، وهي جدّة (أبراهام) يقوم بتعريف لها على لسانه (جدتي، هي أيضاً تسمى لالة صافو أو صافية. كانت تحب الموسيقى وتعزف على ليمزاد في الأعياد العائلية والدينية، كانت تحفظ ألفي بيت شعري وحوالي مائة حكمة تارقية، ذكية، لم تكن تعرف الحديث سوى بأمازيغية

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم: ص 201.

² - المصدر نفسه، ص 200.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنظيط"

التوارق)¹ تمثل الجدة نموذجاً عن المرأة اليهودية، ربّة البيت التي تسعى جاهدةً إلى لمّ شمل عائلتها تحت سقف واحد، والتي تتمتع بذاكرة قوية، وذكاء خارق في الحفظ السريع، ورجاحة العقل، كما أنّها تُتقن الطبخ وتعيش حياة هادئة في تمنظيط، يميزه جَوٌّ من الاندماج والتعايش مع الأسر الصحراوية، يقول البطل الراوي (أبراهام) عنها يوم إحضارهم لآلة الخياطة والتي اعتبرت حدثاً جليلاً، أقيمت على شرفها الولائم التي لا تكون إلا في المناسبات الدينية اليهودية (...حضرت لنا جدتي وجبة خاصة واحتفالاً، دفينه، هذا الطبق مكون من الحمص محضّر بلحم الديك الرومي وكثير من التوابل عادة، لا نأكل هذا الطبق إلا في المناسبات الدينية وأيام الفصح، هيلولة)² ، فبالرغم من ممارستهم لشعائر الديانة الإسلامية، إلا أنّهم متمسكون بعاداتهم وتقاليدهم وأعيادهم اليهودية، وهذا حال الجدة وعائلتها التي مارست طقوساً خاصة بالطائفة اليهودية ويتجلى هذا حسب البطل الراوي حين يقول (جدتي بحركة بطيئة ومكررة، قامت وبدأت تنثر حبات ملح بيضاء مثل الثلج على آلة الخياطة سنجير)³.

لالة صافو اليهودية وبرغم الحياة الهادئة التي نَعِمَت بها رفقة عائلتها إلا أنّها تُحجُّ للوطن الذي أجبروا على هجره بطليطلة في إسبانيا، الملقبة بمدينة الثقافات الثلاث نظراً لاحتضانها الثقافة المسيحية واليهودية والإسلامية، حين يقول البطل الراوي (كانت عيني جدتي مليئتان بدموع الفرحة أو المرارة، أخرجت بعناية من علبة حديدية، مفتاحاً كبيراً من النحاس الأصفر... قبلته سبع مرات، ثم مدته إلى جدي... قالت جدتي أنه مفتاح بيتنا بطليطلة، البيت الذي هجرناه يوم التضحية في ملء الشارع،

1-Amine Zaoui: P 134.

2 - Ibid: P 38-39.

3 - Ibid, P 38.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

الجد الأكبر الطيب والحكيم النقاوة. حدث هذا سنوات قبل غزو الأندلس من قبل الملوك الكاثوليك¹.

اليهودية لالة صافو زوجة الحاج ميمون، يصورها الكاتب أنها من العجائز اللواتي يؤمنن ببعض الخزعبلات والخرافات المتوارثة عن اليهود، فحين وُلِدَتْ حفيدتها مريومة التي لم يكتب لها من الحياة سوى واحد وعشرين يوماً، صاحت الجدّة بهم فور صرختها الأولى (... صرخت جدتي: لا تقصوا أظافرها وإلا ستكون سارقة!)²، كما أن الجدّة كانت مولعة بالغناء حين يقول البطل الراوي (جدتي كانت كما كانت، كنا نحبها حتى حين كانت تتكلم لتقول لا شيء، كنا نسمعها كي لا نسمع أي شيء. حين كانت تغني، كانت تضحكنا، كانت تغني كل الطبوع ودائماً خطأ)³، فهي من النساء اليهوديات اللواتي يعشقن الطبوع الغنائية القديمة، عُرفت الجدّة وسط عائلتها بميلها نحو أحد أبناءها وتفضيله على الآخرين وهو ابنها داوود، لأنها كانت ترى فيه علامات النبوة قائلة (لعمك داوود سبع تجاعيد على جبينه العريض. إنها تجاعيد علامات النبوة، كانت تقول لنا جدتي).⁴، فاليهودي مهما خُيِّلَ للجميع أنه غير ديانته إلا أنه يبقى محافظاً على ديانته سرّاً، فالجدّة مثلها مثل كثير من اليهود الذين يؤمنون بوجود نبي منتظر يكون خلاصهم على يده، فهذا النبي المحتمل كانت تراه في عيني ابنها المفضل.

تبقى العجوز اليهودية مشدودة لأصولها الأندلسية، ذلك الحنين إلى الماضي الذي يسترجع خلاله الكاتب ذكريات مَضَتْ وأحداثاً راسخة في ذهن الجدّة العجوز، التي لا تتوانى في سردها عند

¹ - Amine Zaoui, P 39.

² - Ibid.: P 40.

³ - Ibid: P 41.

⁴ - Ibid: P 41.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

اجتماع عائلتها متى ما سنحت لها الفرصة، فهذا هي ككل مرة تُسردُ أحداث خروجهم من الأندلس (... بإشيلية في سنة 1391، هياج شعبي وجه ضد المسلمين واليهود تسبب في موت ألفين شخصاً.

إن إيفرايم، اقتنع بممارسة اليهودية في السر، اعتقل وحوكم ثم أحرق حياً، نذيف! يوم الثلاثاء 31 جويلية 1492، هاجر أكثر من مائتي ألف شخص¹، فاليهودي أينما كان يُجرّ معه خيبات الماضي ومآسيه، ليكون دوماً موضع المضطهد المظلوم، بغية نيل الرضا والاستعطاف من الآخرين، وهو حال العديد من اليهود الذين يعيشون على أنقاض الماضي مهما رحلوا وارتحلوا، وأقاموا واندمجوا فماضيهم لا يمكنهم التخلي عنه، لأنهم ببساطة شعب مشنت يصعب القبض على تاريخ محدد يصنع هويتهم، فهم يعملون على تمجيد تاريخهم بطريقتهم وأسلوبهم وسرده على الأجيال المتعاقبة.

ذاكرة الجدّة العجوز الحيّة والقوية جعلتها تحفظ العديد من التواريخ والأحداث ما يميز المرأة اليهودية حسب الكاتب الذي صورها على أنها ذكية رغم تقدمها في العمر، وعدم دخولها أية مدرسة، تسترجع حكايا أجدادها بكل تفاصيلها على مسامع عائلتها (جدٌ جدي كان يحترم الموسيقى. منذ وصوله إلى تلمسان، المدينة الملجأ، مدينة العلماء، الماء والموسيقى... كانت الموسيقى تمثل بالنسبة إليه نوعاً من الديانة قادرة على العمل على نسيان كل الذين يزرعون الحروب والأحقاد... إنها تأتي من الطب السحري. المرضى في حاجة إلى سماع الموسيقى الجميلة، لمقاومة الأمراض الأكثر شراسة... هياً في عيادته الطبية، قاعة حيث تعزف مجموعة من العازفين، باستمرار الموسيقى الأندلسية رفقة جوقة حيث تترج أصوات الفتيات واللحن العاصمي...)² والمعروف عن اليهود أنهم برعوا في المجال الموسيقي، وغناؤهم وليد البيئة الجزائرية قلباً وقالباً، فكان لهم لسان عربي يتغنى بما تغنى به المسلمون قبل وإبان الاحتلال الفرنسي، كما أصبح بعض المطربين اليهود جزائري

¹ - Amine Zaoui: 42.

² - Ibid: P 42-43.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

الأصل رواداً في فن الرّاي وحتى المالوف والذّين عكفوا على ممارسته وتعليمه للأجيال المتعاقبة الجديدة، تاركين بصمتهم في هذا المجال الذي لا يمكن للتاريخ إغفاله ونسيانه.

يُجسد أمين الزاوي شخوص روايته في صورة السارد للتاريخ، كُـلٌّ من جهته، فهي هي الجدّة تحكي تاريخ اليهود القادمين من الأندلس على غرار باقي الشخصيات اليهودية داخل البناء النصّي المتضمن لعديد الحوادث التاريخية التي تمثل هوية اليهود بالجزائر، تستدعي الجدّة حادثة قدوم الطبيب إفريام* لمدينة تلمسان فاتحةً باب الذاكرة مرة أخرى لسرد تاريخ أسلاف اليهود وأجدادهم الذين فُتحت لهم أبواب مدينة عريقة كتلمسان، مدينة العلم والعلماء قائلة (... في سنة 1391، ممتطياً ظهر أسد بثعبان كلجام، الحكيم إفريام وصل إلى تلمسان، مدينة التوت، هذه الفاكهة الملك، الأرض المختارة ومهد العلماء الثمانية. السلطان أبو تشفين، الذّي كان يحكم في تلك الحقبة هذه العاصمة لبني زيان... نادى الملك على هذا الحكيم إفريام... سمح أبو تشفين لليهود بالقيام بالمدينة والسماح لهذه الطائفة ببناء أول كنيسة في المدينة، كنيسة الغسالين)¹، بعد هاته الحادثة التي عزّزت ثقة اليهود بأنفسهم وجعلتهم يشعرون بانتمائهم للوطن الجزائر، زاد تحررهم وسط القبول الذي فتح لهم أبواب العيش الرّغيد، وثمّن من جهة أخرى علاقات الأنا الجزائرية بالآخر اليهودي، فالكاتب من خلال روايته يسرد أحداث قضية تشبه إلى حد بعيد السير الذاتية، إذ يميل فيها إلى عرض أفكاره

¹ - Amine Zaoui: P 44.

*إفريام الحكيم: الطبيب والحاخام، والكاتب اللاهوتي، ومؤسس الطائفة اليهودية في تلمسان وشمال إفريقيا، توفي عام 1442، وحسب الأسطورة المتداولة، فإنه فرّ من محاكم التفتيش الإسبانية، وهناك فقد والده وأمه. يؤكد الباحث في الثقافة الصوفية حكمت صاري هذه الأسطورة مشيراً إلى أن السلطان أبو تشفين عرض على الحاخام بعد قدومه في 30 أكتوبر 1394، مقابلاً من الذهب والفضة نظيراً لعلاج ابنته، وبعدها شفيت طلب الحاخام توطين الجالية اليهودية المقيمة خارج أسوار المدينة في بلدة أعادير، فوافق السلطان، وأعلن حمايته لليهود الذّين استقروا على بعد أمتار قليلة من القصر، وأقاموا الحي اليهودي والمعبد الموجود وكان ضريحه مقصداً للحجاج على مدى القرون حتى أصبحت تلمسان في شمال غرب الجزائر اليوم، تسمى قدس الجزائر.

عنوان المقال: "إفريام بن كاوا... من هنا بدأت قصة يهود الجزائر"، بقلم: عبد السلام بارودي، 2017، 27 أكتوبر 02:49 Pn مجلة maghreb Voice، اطلعت عليه يوم: 2020/03/29، 19:37 .

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

وإيديولوجيته التي انحاز فيها إلى كفة اليهود، فالرواية تتخللها بعض الأحداث التاريخية المغلوطة التي من شأنها أن تحيلنا دوماً إلى التحقق من صحتها والرجوع إلى مصدرها، فقد أضاف العنصر التخيلي على روايته على حساب العنصر التاريخي الذي أدرجه ضمن تلايبيها.

اليهودي أينما وضعته لا يمكنه التخلي عن جلبابه وهويته الحقيقية، ويتجلى هذا في معارضة الجدّة لزواج ابنتها اليهودية بشخص مسلم، لكن هاته الأخيرة كانت مجنونة في قراراتها، إذ تقول الجدّة (لا غناء النحل، لا الأذان يعطينا ما نأكل! صاحت جدتي، مغتاظة جداً)¹، فالجدّة لم تكن راضية عن هاته الزيجة فكلتا الديانتين ترفض وتحرم هذا الزواج فمنذ (أن اكتشفت جدتي هذا الميل للمسلمين عند ابنتها أبدت استيائها علانية)² لكن لم تكن بيدها حيلة، فابنتها تخطت كل معارضيتها وتزوجت بالمسلم، لكن وبعد موت ابنتها يأتي ابنها داوود يوم وفاة أخته والذي (جلس على الأرض مباشرة، بجانب رأس المرحومة وبدأ يرتجل بقيتارته الطليطلية، بلهجة ذات نبرة دينية، بحزن عميق. جدتي، أسفت أسفاً شديداً على وجود الموسيقى وقت الحداد)³، وهو الشيء الذي استنكرته العجوز اليهودية، في صورة تبين احترام الميت اليهودي، وكذا التعجيل بدفنه، تظهر الجدّة العجوز في العديد من المواقف مظهر المرأة القوية، والمسيطرة على زمام أمور بيتها، فهي تحب التحكم في كل شيء يخص أبناءها، لكن يوم وفاة ابنتها يقول البطل الراوي (لم تستطع جدتي كضم غيظها، في الوقت الذي كان الناس يسارعون في تقديم العزاء ويقترحون المساعدة. همست في أذن جدتي... يجب الإسراع في رفع الجسد الميت لا ينتظر سوى دفنه)⁴، نلاحظ تلك الصورة التي طعنت على ممارسات اليهود والتي تشبه إلى حدّ كبير ممارسات وعادات المسلمين، فالإتصال مع المسلمين جعل اليهود يميلون إلى اتباع

¹ - Amine Zaoui: P 51.

² - Ibid: P 52.

³ - ibid: P 57.

⁴ - ibid: P 57.

جيرانهم الذين احتكوا بهم وتأثروا بهم، وهو ما تعكسه بعض تصرفات اليهود، التي قام الروائي بتصويرها و القائمة على السرد الموضوعي تارة والذاتي تارة أخرى.

* شخصية لالة رملية (رميثة):

يصور أمين الزاوي شخصية يهودية أخرى، وهي والدة أبراهام، فيصفها على أنها ذات جمال أخاذ وهو ما يتضح جلياً على لسان ابنها البطل الراوي (الجميع من حولنا لم يتوقف عن ترديد جمال والدتي حيث كانت مراهقة أينما مرت كانت تلفت أنظار شباب القرية. البنت الوحيدة في القرية التي كان بإمكانها الذهاب إلى المدرسة معاشررة الأطفال البيض... الإغواء! جدها لاحظ أن تهديدها قد كبرا قرر توقفها عن الدراسة... من أجل إخفاء هذا الإغواء وهذا الاستفزاز الجسدي، وضعت لمدة ثمانية عشر شهراً في مركز تكوين شبه طبي... كانت والدتي تحب قراءة كتب التاريخ، الأدب وحتى كتب السياسة. قليلاً من السياسة)¹. يُردف الكاتب صفة الإغواء لوالدة أبراهام، التي كانت مشعة ومليئة بالحياة وتزعزع كل من يراها، فكل ما تتطلبه الغواية يتمثل في الجانب الجسماني الذي يصوره الكاتب لهاته الشخصية، هاته الأخيرة التي التحقت بزوجها المنظم لصفوف جيش التحرير وهناك أيضاً لم تسلم من النظرات التي أشعلتها حسب الكاتب في نفوس بعض المجاهدين ويتجلى هذا في قول أبراهام (...منذ وصولنا إلى هذه الأدغال، رئيس الكتبية السي موسى لعور، لم يرفع نظره عن صدر والدتي. ذئب. كنت أتساءل لماذا هذا الرجل يحدق فينا بهذه الطريقة.

كان والدي سعيداً برؤية والدتي تلتحق بالمجاهدين)² فمضمون هذا القول يحيلنا إلى أن الكاتب لا يقوم بسرد أحداث فقط، وإنما يشير إلى قضية مفادها مشاركة بعض اليهود وانضمامهم إلى صفوف الجيش التحرير، إبان الثورة الفرنسية على الجزائر، وهاته الحقيقة التاريخية التي تُغفلها

¹ - Amine Zaoui: P 11-12.

² - Ibid: P13.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

العديد من الأبحاث التاريخية، والتي إن وجدت فإنها تحكي تفاصيل تواطؤ اليهود مع الفرنسيين ومساعدتهم للمستعمر من أجل احتلال الجزائر.

فهاته الصورة الإيجابية في مضمونها تحيلنا إلى نتيجة مفادها أن والدة أبراهام (لالة رميلة)، تُعد شخصية قوية وشجاعة نتيجة اتخاذ قرار التحاقها بزوجها للجبل، كما أنها تحمل صفة اليهودية المثقفة، هاته الصفة التي تصاحب أغلب شخصيات الرواية، فالكاتب يصور والدة (أبراهام) على أنها تملك لساناً فصيحاً يقول عنها ابنها البطل الراوي (والدتي، لالة رميلة، راوية جيدة. كانت تريد إعطائنا أدوار صور شخصياتها في حكاياتها... يجب القول، وأفضله، أن والدتي كانت راوية ممتازة. كان لها لساناً متملقاً وابتكاري)¹

شخصية (لالة رميلة) تمثل نموذجاً عن المرأة اليهودية المثقفة الواسعة الخيال، فهي تستطيع تأليف حكايات من نسج خيالها. تجذب مستمعيها بجلاوة كلامها، وكذا مولعة بالأساطير والخرافات كما يصرح ابنها قائلاً (...والدتي هي أيضاً، مسكونة بالحكايات الخرافية)²، فكما أشرنا سابقاً أن اليهود يميلون إلى تصديق والتأثر بأساطير وحكايات تدخل ضمن التركيبة الشخصية لليهودي، الذي ينشأ في بيئة مشبعة ومؤمنة بالخرافات والحكايات الغريبة.

لكن ومن جهة أخرى يُظهر الكاتب شخصية لالة رميلة في صورة المرأة الخائنة، فقد كانت عينها على والد زوجها، وكانت قصة حبهما تتردد على ألسنة سكان تمنطيط (... قصة الحب التي كانت تجمع والدتي بجدي)³ كما صرح به البطل الراوي، وهو ما نستشفه من تشبيهها الدائم لابنها بجده في تصرفاته وطباعه، مصرحة على لسان البطل الراوي (لم تتوقف والدتي عن القول لي، أي أشبه

¹ - Amine Zaoui: P 124-125.

² - Ibid: P 125.

³ - Ibid: P 127.

جدي)¹، وهذا دلالة على تأثرها بالجدِّ وميلها نحوه، فهنا الكاتب يسلط الضوء على قضية غياب الوازع الديني الذي كان غائباً عن جُلِّ أبطال وشخصيات روايته، فلا هم اتبعوا طريق الإسلام ولا تمسكوا بعقيدتهم اليهودية، فكلا الديانتين تحرمان الزنا، والعلاقات الخارجة عن نطاق الزواج والارتباط الشرعي، وقد بدى واضحاً تأثرها بوفاة والد زوجها، فقد فضح حزنها دَوَاحِلها وهذا ما يصرح به البطل الراوي (لم تستطع والدتي إخفاء ألمها. لقد قلبها اختفاء الحاج ميمون رأساً على عقب، هو من شجعها على الالتحاق بابنه زوهار بالمقاومة. وهو من جعلها تعود إلى هذه القرية بعد تصفية والدي زوهار)² كما أنها قامت بالتصدق بعد وفاته، في دلالة على سخاءها وكرمها حين يقول البطل الراوي (رحمة على روحه قدمت والدتي قصعة كبيرة لمتسولي يوم الجمعة، الذين يتجمعون وقت صلاة الجمعة أمام مدخل المسجد)³. فعند رحيله لم تتوانى في إخفاء ذلك الحبِّ الذي جمعها حين يقول البطل الراوي (للمرة الأولى لم تخف أُمِّي حبها للحاج ميمون، تحرت من دموعها)⁴، لكنها لا تلبث كثيراً لتلتحق به في استراحته الأبدية، يقول البطل الراوي (... يوم دفن والدتي، كان عمرها تسع وثلاثون سنة بالتحديد وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً)⁵، فقد ماتت في عزِّ شبابها وهي على أبواب الأربعين، لكن لم يمشي في جنازتها سوى بضعة أشخاص أغلبهم من شيوخ القرية، في دلالة على عدم تقبلهم لتلك العلاقة السرية، التي تسربت إلى مسامع سكان القرية، لكن الأمر الغريب الذي أثار دهشة وحفيظة المشائين حسب البطل الراوي (سمعت، عند المرور أحد يندهش: لماذا وضعوها في القبر نفسه مع أب زوجها؟)⁶، فوضعها في نفس القبر مع الحاج ميمون يعد أمراً غريباً، وكأن قصة حبهما التي لم يكتب لها الحياة في الدنيا، أبت إلا أن تُرسخ وتعيش تحت الشرى في دنيا البقاء التي

¹ - Amine Zaoui: P127.

² - Ibid: P 155.

³ - Ibid: P 155.

⁴ - Ibid: P 155.

⁵ - Ibid: P 137.

⁶ - Ibid: P 140.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

هيات لهما لقاءً أبدياً يشهده قبر جمعهما سوياً، لعلها وصية أحدهما، فهذا الأمر الذي يبقى مبهماً داخل الرواية، يبعث في نفس القارئ الإبحار في أفق التأويلات المبهمة، المصاحبة لأفق تطلعات القارئ يمكننا القول أن شخصية لالة رميلة اليهودية تحمل في طياتها بعض الغموض، لكنها في الجمل تحمل صفات إيجابية كما يصورها الكاتب تميل بكفتها عن الصفات السلبية.

*شخصية سارة بنت نحون:

يبرز الكاتب أمين الزاوي صورة عن المرأة اليهودية التي تُمثل نفسها بمعزل عن الآخرين، بعيداً عن علاقتها بالأنا الجزائرية المسلمة، اليهودية (سارة بنت نحون)، والتي أدرجها الكاتب ضمن شخصياته داخل الرواية في صورة مقتضبه، حيث لعبت دور الزوجة الثانية للحاج ميمون، يصفها الكاتب على أنها جميلة وامرأة مغرية، لأن الحاج ميمون افتتن بجمالها، فقد حاول الكاتب أن ينسب صفة الإغراء والغواية لمعظم الشخصيات النسوية اليهودية في روايته بدليل أن سارة استطاعت أن تسحر الحاج ميمون، وهذا قبل أن يسافر للحج في آخر مضاجعة لهما تقول (تضاجعنا، مضاجعة السفر... تحت هذا الضوء الصغير المحتشم استطعت تفحص اللون المثير لعيني سارة بنت نحون، زوجتي الأخيرة، من نظرتها كان ينبعث نور رباني يسمح بمرور بريق الحزن)¹، وكأنه يراها للمرة الأولى مسلوباً بنظرها، سارة اليهودية كانت تتضرع لله أن يرزقها ولداً من جماع السفر، وهذا حين يصرح الحاج ميمون قائلاً (... كانت زوجتي تصرخ لذتها... كانت تطلب من الله أن يعطيها من جماع السفر هذا ابناً، أنا أيضاً تمنيت ابناً)²، فبالرغم من أن الحاج ميمون لديه أولاد إلا أنه وزوجته الأخيرة كانا يريدان ابناً ليضمن بقاء (السلالة ضد اللعنة والنفي الأبدي)³، فاليهودي أينما كان يحرص على

¹ - Amine Zaoui: P62.

² - Ibid :P 63.

³ - Ibid: P 63.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

مسألة بقاء السلالة اليهودية والمحافظة عليها من الاندثار وهذا يعتبر عنصراً مهماً في التركيبة النفسية لليهودي الذي يخشى من التشتت الذي عاشه أينما وُجد.

لكن سارة اليهودية لم تكن تلك المرأة العفيفة المكتفية بزوجها وحُبِّه لها، وإنما كانت تميل إلى ابنه زوهار هذا الشيء الذي لم تستطع إخفائه عن زوجها، فإعجابها بابنه كانت تفضحه نظراتها، يقول الحاج ميمون (كنت أعرف أن زوجتي الثانية، أصغر مني سنّاً بخمس وعشرين سنة، كانت عينها على ابني زوهار)¹، ربما فارق السنّ الكبير بين سارة وزوجها جعلها تميل لابنه دونه، ولكن هذا ليس مبرراً للخيانة، في حين أن ابنه لم يُعرها أي انتباه فقد كانت (عينه ورأسه على كتب ماركس ولينين)²، فالكاتب يعطي نموذجاً عن امرأة يهودية مغربية تتزوج برجل أكبر منها سنّاً، وتؤدي معه دور الزوجة المطيعة، مؤدية كامل واجباتها الزوجية، لكن ميلها نحو ابن زوجها يجعلها في خانة الاتهام، ويُسقط صِفة العفاف، ويُدرجا في صورة المرأة المنحلة أخلاقياً.

* شخصية تاميرة:

تحفل رواية (آخر يهود تمنطيط) بنماذج لنساء يهوديات يُسَيَّرُهُنَّ الدافع الجنسي، الذي طغى على عديد الشخصيات اليهودية، فالكاتب (أمين الزاوي) يجسد شخصية (تاميرة) اليهودية، وهي عمّة البطل الراوي أبراهام، وابنة الحاج ميمون الوحيدة، تلك المرأة الغاوية، التي تسخر جسدها بحثاً عن اللذة وإشباع رغباتها الجنسية عبر زيجاتها المتعددة، فقد كانت تصبو إلى مغامرة العشق الجنون، وممارسة جنونها علناً، يقول عنها الكاتب بلسان البطل الراوي (أعجبت برفض عمتي تاميرة الشيطانة قصوف! المجنونة. لقد طلقت خمس مرات لتتزوج أخيراً بإمام القرية المجاورة تيديكلت، الذي تحبه حتى الجنون رغم الاختلاف الديني)³ هاته المرأة اليهودية المجنونة كما نعتها الكاتب في عديد المواطن،

¹ - Amine Zaoui: P 63.

² - Ibid: P 63.

³ - Ibid: P 38.

تزوجت وتطلقت خمس مرات لتجد ظالتها في إمام قريتهم، الذي سحرها بصوته العذب، فرغم اختلاف الديانة ورغم معارضة أهلها، إلا أنها تزوجت منه، وهذا يدل على تأثر اليهود بالمجتمع الجزائري، والصحراوي خاصة، وانغماسهم في العادات الإسلامية دون التَّحَيُّز للمعتقدات اليهودية، مما أدى إلى بناء علاقات اجتماعية نظراً للمرحلة التاريخية التي سبقت دخول الاستعمار الفرنسي، والتي عرفت تحرر اليهود داخل الأراضي الجزائرية وممارستهم حياتهم الطبيعية دون أية ضغوطات، وتقبل الأنا المسلمة الجزائرية للآخر اليهودي الجزائري بينهم.

يصور الزاوي (تاميرة) اليهودية على أنها رمز للمرأة اليهودية الجميلة، التي تحرص على جمالها وأناقته، وكذا العناية بنفسها ويتجلى هذا في قول البطل الراوي (... كان يتقاسم مع عمتي تاميرة منتوجات التجميل ذاتها: حنة فاس، سواك السودان وغاسول تافيلالت وكحل بشار، وصابون حليب ماء الزهر، ماء ورد البرتقال للبيدة)¹. وبالإضافة إلى حرصها على نفسها والعناية بها كانت امرأة حيوية ومميزة في عائلتها فحسب البطل الراوي كانت (حيوية، كانت مغنية وراقصة خلال الاحتفالات العائلية المسلمة واليهودية)²، فتاميرة كانت من بين اليهود الذين تجمعهم مع المسلمين الجزائريين علاقات طيبة، تتسم بالإيجابية.

يصور الكاتب تاميرة المرأة النشيطة والحيوية، التي امتهنت تربية النحل، وقد كانت تُلقَّبُ بأكلة الرجال أيضاً (تسمى آكلة الرجال، كانت تحب اللون الأصفر والرجال، مهما كان لوْنهم عمتي آكلة الرجال كانت تُحب لقبها وتربي حوالي عشر خلايا نخلية، لماذا النحل؟)³، لقد كانت تاميرة مقتنعة بأن للنحل ملكة وليس ملك، فكانت ملكة على رجالها الذين تزوجتهم، كما يرمز النحل إلى حُب السيطرة والتحكم، وقد كانت ذكية متأثرة بالكيوس أبوليوس، (وفوق كل شيء، كانت تاميرة

¹ - Amine Zaoui: P 47.

² - Ibid: P 47.

³ - Ibid: P 47.

تحب اللاتينية. لماذا لغة لكيوس أبوليوس؟ لا أدري! علاوة على ذلك، فلا أحد يعلم! كانت تظن أو بالأحرى كانت مقتنعة أن النحل يتواصل فيما بينه باللاتينية... كانت تقرأ كتب لكيوس أبوليوس، في نصوص، الحمار الذهبي والطحالب الحمراء. كانت تتحدث لنحلها مستعملة لغته لكيوس أبوليوس البربري... هذا البربري هو الذي أثر فيها. لقد سكنها. لقد جعلها مجنونة! هو أيضاً كان مريباً للنحل مشهوراً¹، فرواية الحمار الذهبي بما تحمله من تخيلات وأساطير وخرافات أثرت في تاميرة، خاصة وأن الرواية تقوم على أعمال السحر في مضمونها، فيظهر جلياً في سحرها الخاص بها وعلاقتها بالنحل وتأثيرها على رجالها، كما أن تاميرة لم تخفي أبداً ميلها وإعجابها بالرجال المسلمين، إذ لم تهتم بتاتاً بالديانة، فهمها الوحيد إشباع رغباتها رغم معارضة والدتها ورضوخ والدها، لقد كانت قوية لدرجة التهور كما يصورها الكاتب (زوجها الأخير إمام ومؤذن مسجد تيديكلت، اصطادها بصوت آذانه الجميل... يوم زفافها، لم يجد شيئاً يهديه لها كمهر، تلا المؤذن، لها سورة النحل كاملة... كانت عمتي امرأة رائعة، حساسة للرجولة، لم تخف أبداً ميلها نحو الرجال المسلمين، إنهم ودودين حتى في عنفهم الجسدي الأقصى. في السرير، إنهم أقوياء ورائعون، هؤلاء المسلمون)²، تاميرة اليهودية تمثل رمزاً للمرأة المتحررة والقوية، وللانفتاح، فهي امرأة بلا قيود، فلم يتوانى الكاتب في عديد المرات من نعتها بالمجنونة وكذا الملعونة فقد (تزوجت تاميرة خمس مرات، في الثامنة من عمرها. لم تبحث على أن يكون لها ابناً ولا منزلاً ولا ضماناً لمستقبلها. كل ما كانت تبحث عنه، هو رجل على علم ويقظ في سريره، ليلاليه الطويلة والخرساء. أزواجها الأربعة المتتابعين وجدوا ميتين في سريره، مع ذلك، لم تكن لها قطرة دم في اليدين! البريئة ملعونة!)³، فهو يصورها على أنها امرأة خارجة عن السيطرة بفكرها وجنونها، فهوسها بتربية النحل وبإيجاد رجل يلي رغباتها الجنسية هو كل ما كان يشغلها قائمة (الرجال الحقيقيون، ولدوا ليموتوا في مضاجعة معطرة، فوق جسد أنثوي متفجر من

¹ - Amine Zaoui: P 50, 51.

² - Ibid: P51.

³ - Ibid: P 52.

الرغبة. لم يخلق الرجال لا للحروب ولا لتربية النحل، والذي يبرع في ممارسة الجنس يريح للتو كل عنف الحروب!¹.

والمعلوم أن النحل لا يتكلم، لكنه من الحيوانات الذكية التي تعتمد على لغة التخاطب بالرقص لِلفتِ الانتباه، وكذلك ذكور النحل تعيش حياةً أقصر من الإناث، وملكة النحل تُحصب من قبل العديد من ذكورها، فالكاتب هنا يستعمل النحل كدلالة رمزية على أن تاميرة هي ملكة النحل، تُحب السيطرة على رجالها الذين ماتوا على فراشها، دون أن تُتهم بقتلهم، وهاهو رجلها الأخير المسلم يستعمل لغة تخاطبية تُدخلها في حالة من النشوة، فقد كان (المؤذن من أجل ألا ينقض وضوئه، كان يكتفي بممارسة الجنس مع زوجته عن طريق صوته المؤثر كان صوته يجن عمتي تاميرة، بالنسبة إليها كانت تبحث عن تعظيم الروضة السرية لجسدها البركاني الهائج!)²، لكن لم يستطع هو الآخر أن يصل بها إلى ذروة اللذة التي تمنها فقررا التخلي عن بعض قائلاً لها (ولأني لم أستطع بلوغ اللذة الفردوسية التي يمنحها لسع النحل البربري اللاتيني، قررت أن أذهب، قال المؤذن، بلهجة تقي)³. مارس اليهود على أرض الجزائر كامل معتقداتهم وطقوسهم دون تدخّل الأنا المسلمة الجزائرية في حريتهم، هذا الشيء الذي لم يغفله الكاتب في رحلة كتابته الروائية، التي تؤكد على شرعية الآخر اليهودي داخل الجزائر، وكأنه جزء لا يتجزأ من ثقافتها وحضارتها، عبر سرد تاريخها على لسان اليهودية تاميرة، والذي زواج فيه بين ديانتين وعقليتين وشخصيتين متناقضتين، فتاميرة لا تتوانى في ممارسة جنونها علناً، فهاهي ذي تقوم بشرب الخمر علناً أمام زوجها المسلم دون أي حرج، يقول البطل الراوي (عمتي كانت تحب هذا الشراب القوي المسمى البوخة، كانت تحضره بمفردها ... صبت لنفسها كأساً كبيراً من البوخة حاكية قصة جبل يد اليهودي... كانت تحكي مدننة قصة التين. إنها

¹ - Amine Zaoui: P 52.

² - Ibid: P 52.

³ - bid P53.

تحكي ذاتها. تقف على الخشبة مرة بالميزابية وأخرى بالعربية. كما أنها تريد هدهدة رجلها بصوتها قبل أن تباشر عالم الغيب)¹، تاميرة المجنونة والمسلوقة في عشقها تترامى منتشية دون حياء أمام زوجها المؤذن، وبينما هي كذلك يقوم هو بتلاوة سورة النساء تارة وسورة النحل تارة أخرى، يحمل هذا المشهد في طياته العديد من الدلالات الإيجابية، إذ أن الكاتب يرنو إلى فتح قنوات التواصل بين ثقافتين وديانتين وشخصيتين متناقضتين، وبعث أواصر الحوار من خلال تصويره للعلاقة المضطربة والمجنونة بين الأنا (المؤذن) والآخر (تاميرة)، تلك العلاقة التي تعكس مدى تعايش الأنا والآخر بعيداً عن منطق الدين، حتى وإن عرفت اختلالاً في مضمونها، إلا أن ظاهرها يفسر جوهر التواصل الذي عرفه يهود الجزائر داخل المجتمع الواحد مع الأنا المسلمة الجزائرية، ومدى تأثير الآخر اليهودي الجزائري بالأنا المسلمة الجزائرية، فقد برع الكاتب في المزج بين النقيضين في لوحة واحدة، بين الدين واللادين وبين الوجود واللاوجود، وهذا حين تدخل تاميرة في حالة هذيان منقطع (ثملت بالبوخة، آكلة الرجال فقدت خيط حكاية الجبل بالجناح)²، ينتصر زوجها المؤذن هذه المرة، وينجو من لعنتها التي أصابت أزواجها الخمسة، لتصيبها لعنة السكر و الجحون ففي (الصباح، تاميرة وُجدت ميتة ممددة على سريرها الكبير. كانت محاطة بآلاف النحل على شكل غريبان. كانت تبعث نوعاً من الطنين شبيه بلحن حداد أو آذان)³، فهاهي ملكة النحل تنطفئ، لتتطفئ وتخبو معها الرغبة المجنونة، والخرافات العشقية التي سكنتها، فقد كان هدفها البحث عن المتعة بدافع إشباع الغريزة، التي تذوقتها مع الأنا (المؤذن)، ذلك الانجذاب الحاصل بينهما، فالأقطاب المتناقضة تجذب بعضها البعض، فتاميرة اليهودية هي نموذج عن المرأة المتحررة والرومانسية، تسيرها دوافع شخصية تصبو للعيش مع رجل قوي، يقدر رغبتها، ويلبي حاجتها الجنسية، كما تريد هي. لكن الموت فاجأ شغفها، وأسكن رغبتها المتأججة.

¹ - Amine Zaoui: P54.

² - Ibid: P56.

³ - Ibid: P56.

قامت عائلتها بتغطية جثمانها بمنديل أخضر، أقيمت لها مراسم دفن يهودية إسلامية فقد كان حسب البطل الراوي (أمام الباب الخارجي لمنزلنا الكبير، حوالي عشرة مرتلين للقرآن الكريم قد جلسوا أرضاً في نصف دائرة وشرعوا في القراءة بصوت مرتفع لكتاب الله.

-تقرأ آيات قرآنية على روح ميتة يهودية ! إنها عادات سكان مدينتنا بلا حدود وبلا حقد¹
تاميرة اليهودية استطاعت أن تجمع ديانتين تحت سقف واحد حتى عند موتها، لتمارس عليها طقوس كل من الديانتين، وهذا يدل على أن يهود تمنظيط اختلطوا بالمسلمين الذين تقبلوا وجودهم في وقت ما، محترمين الآخر اليهودي، لتتضح علاقات التوافق بين الأنا المسلمة والآخر اليهودي الجزائريين، فلا الدين ولا العقيدة كانت حائلا للممارسات الحياتية اليومية لليهود داخل إقليم توات بتمنظيط.

3-صورة اليهودية المتطفلة:

*شخصية العجوز اليهودية:

يصور الكاتب أمين الزاوي نموذجاً عن المرأة المتطفلة، التي تتدخل فيما لا يعينها، وهي شخصية العجوز التي يلتقي بها أبراهام عند ضريح وليهم الصالح النقاوة أفرايم، تبدو حشرية هاته المرأة ومؤمنة بالخرافات والأساطير التي تُبنى عليها حياة اليهودي، يقول عنها البطل الراوي (امرأة عجوز كانت تنظر إليّ في إلحاح، يبدو أنها كانت تعرّيني بالنظر نظرت إليها بدوري لم تخفض نظرة الصقر. عينان لامعتان غارقتان في ماء أسود، الشعر مغطى بخمار مزركش بالصليب ونجمة داوود إنها تشبه والدتي)². يصف الكاتب على لسان بطله البناء الخارجي للعجوز، بنظرتها الفاحصة المربكة، والتي أدخلت القلق في نفس أبراهام، حتى أنها لم تترك له مجالاً لطلب أمنياته، فقد قطعت سكينته وخلوته مع نفسه قائلاً (... لم أتمنى شيئاً. استحوذت المرأة على فكري. لقد أربكتني لم تترك لي الوقت في

¹ - Amine Zaoui: P57.

² - Ibid: P123.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

طلب أي شيء. اقتربت العجوز مني في صمت. يجب أن تشرب من هذا الماء المبارك)¹، هاته العجوز التي اخترقت عزلة أبراهام لتقنعه بضرورة شرب الماء المبارك، مدّعية أن فيه شفاءً للأمراض المستعصية، كانت حسبه امرأة ثرثارة، ويتجلى هذا في سئل من الأسئلة التي وجهتها لأبراهام حاشرة أنفها في خصوصيته، فهي كما يصورها الكاتب امرأة متبصرة ، مؤمنة بالخرافات التي تنبني عليها عديد الشخصيات اليهودية في الواقع، فبمجرد رؤيتها لأبراهام مع حبيبته بركاهم تبدأ في مسألتته (هل هي أختك؟ سألتني المرأة العجوز...

-هل هذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها إلى الحج؟

- هل هي مسلمة؟²

لقد كان في المرأة العجوز شيء من والدة أبراهام حسب رؤيته فالكاتب يجعل ولع المرأتين بالخرافات والأساطير مشتركاً ويتضح هذا في قول البطل الراوي (تشبه هذه المرأة، أكثر فأكثر والدتي هي أيضاً، مسكونة بالحكايات الخرافية)³.

يبرز الكاتب الجانب الدّيني لليهود الذين يميلون إلى ممارسة طقوسهم داخل المجتمع الجزائري، فالعجوز تمثل نموذجاً حقيقياً في حقبة زمنية مضت عن اليهود المتدينين، الذين مارسوا طقوساً تملّيها عقيدتهم ويتجلى هذا في قول البطل الراوي (حققت، في الحال أنّ الولي الصالح، نحو القبر الذي يسرع إليه كل واحد ليقبل الشاهدتين التي كتبتها بالعبرية الكلاسيكية، يسمى أبراهام النقاوة، المرأة العجوز هي التي أثارت انتباهي لهذا الاسم)⁴. هذا الضريح الذي لازال ليومنا هذا مزار العديد من اليهود من كل أنحاء العالم، لنيل التبريكات والبروح بالأمنيات، فكل من يزور قبر وليهم الصالح، لا بُد

¹ - Amine Zaoui: P123.

² - Ibid :P123-124.

³ - Ibid: P125.

⁴ - Ibid: P125.

أن ييوح بأمانيه ويتلو صلواته، وهذا ما سمعه أبراهام في تمتات العجوز التي ذكرته بوالدته يقول (جلست بجانب العجوز الثرثرة كانت تتلو بصوت مرتفع دعوات وصلوات كنت أتابع حركاتها. كانت شفتها البديتان تتحرك وتلتوي ويديها ترتجفان)¹، يُشبه الكاتب العجوز إلى الكاهنة أو الساحرة إلى حد بعيد، وهذا من خلال نظراتها وطبيعتها وتركيبها الموحية بالغرابة، والباعثة للنفور منها، فها هي تلقي بتمتماتها وأمنياتها على أبراهام وبركاهم دون أن تعرفهما، في مشهد درامي يميل إلى الخيال، يقول البطل الراوي (وضعت يدها اليسرى على رأسي، واليمنى على رأس بركاهم، كانت تقول أشياء، دعوات وتمتمات).

لقد استجاب أبراهام لتمنيك، هذا الرجل هو زوجك)² يدل هذا القول بأن العجوز تعدت التدخل في خصوصيات أبراهام لتدخل في علم الغيب وتعلنهما زوجين وأن الولي الصالح قد استجاب لأمنية بركاهم التي لم تصرح بها، وإنما العجوز الغريبة الأطوار تكهنت بها، فهي إذن تمثل نموذجاً عن المرأة اليهودية المتبصرة التي تميل إلى أعمال المشعوذين في تصرفاتها الموحية بإيمانها بالأولياء الصالحين واستجابتهم لدعواتهم، وكل هاته الأمور هي من الشرك بالله، فالإيمان لا يكون إلا به عز وجل وعلا.

إن النماذج النسوية اليهودية موجودة بكثرة في رواية (آخر يهود تمنطيط) تحمل سمات متفرقة يغلب عليها حب السيطرة والقوة والذكاء، كما يصور الزاوي أغلب النساء اليهوديات على أنهن جميلات وغاويات، لكن بالمقارنة مع رواية أنا وحاييم فنجد نموذجاً نسوياً واحداً لوالدة حاييم (لالة زهيرة) التي تتسم بالهدوء في سلوكاتها، كما أنها تمثل نموذج متعايش للمرأة اليهودية في المجتمع الجزائري، وبالرغم من كل السمات التي تحملها النماذج التي وردت في الروايتين إلا أن سمة التعايش هي السمة التي ميزت جُلّ النماذج النسوية اليهودية.

¹ - Amine Zaoui: P125.

² - Ibid: P126.

4-صورة اليهودي التقي:

*شخصية الحاج ميمون بن سعيد:

الحاج ميمون أو (حيم بن سعيد) شخصية يهودية يصورها الكاتب في رواية (آخر يهود تمنطيط) على أنها شخصية تقيّة ورعة، مثقفة، فقد كان مطلعاً على عديد الكتب، منقسماً على ديانتين، فحسب البطل الراوي حين يحكي عن جده قائلاً (جدي الحاج ميمون، شيخ الختان، منقسم بين دينين وإله واحد)¹، فقد كان متعاشياً مع الأنا الجزائرية المسلمة، وما يدل على هذا هو أنه كان مسؤولاً عن (ختان كل أطفال القرية المسلمين مثل اليهود، كان العمل السحري ليد الحاج ميمون)²، لم تكن هاته الحرفة الوحيدة التي امتهنها الحاج ميمون، فالكاتب يضع هاته الشخصية في صورة اليهودي النشط فبالإضافة إلى إشرافه على ختان الأطفال (كان مُصَلِحاً للساعة اليدوية والجدارية، ماهراً، بالتحديد ساعات المساجد. رغم أنه لم يرتد المدرسة المهنية... كان هو وحده من يثبت خلال أيام رمضان المعظم وقت الفطور وأوقات الصلوات الخمس، لا أحد يشك في هذه المواقيت)³، كل هاته المعطيات تدل على أن الحاج ميمون كان متعدد المواهب، فالكاتب يستثنيه هو وحده دون غيره من اليهود أو حتى المسلمين، ويُردف هاته المهنة له، فنجد من خلال هذا القول أنه محل ثقة من قبل المسلمين الذين يقصدونه، ونلمس كذلك تلك العلاقات الناجمة عن تعامل الأنا مع الآخر في إطار المعاملات التجارية، والمعروف أن اليهود برعوا في مجال الحرف والصناعات التي مارسوها قبيل وإبان الاحتلال الفرنسي على الجزائر.

من ناحية أخرى يصور الكاتب الحاج ميمون على أنه مُتَمَكِّنٌ من حِرْفَةِ النجارة، ويتجلى هذا في قول البطل الراوي فور وصول آلة الخياطة سنجير لمنزل عائلة الحاج ميمون حين (وضعت آلة

¹ - Amine Zaoui: P127.

² - Ibid: P 134.

³ - Ibid: P 133.

الخيطة بجلال على طاولة صنعت للمناسبات من قبل جدّي. لم أكن أعرف أنه مُدبّر جيّد في النجارة، هو الذي يقضي أيامه منكباً على الكتب¹، هاته الآلة التي اعتبرها اليهود من عائلة الحاج ميمون مصدر خير وبركة، وأنها آلة مباركة يقول البطل الراوي (في ذلك المساء، أمطرت على تمنطيط. مطر رومنسي، رقيقة ومعتدلة، جدّي الحاج ميمون فسّر هذا العطاء من السماء برسالة البركة جاءت من عند الخالق. آلة الخياطة سنجير هكذا هي حاملة للخير والغنى لكل أطفال قريتنا المباركة!)²، فهي تعتبر مصدر رزق وغنى، والمعروف عن اليهود حُبهم للمال وتقدّيس كل ماله منفعة مُدرة للمال على اليهود عامة، والدليل على هذا، هو إقامة وليمة على شرف آلة الخياطة، واحتفال العائلة بقدمها لبيتهم، حيث يقول البطل الراوي (ذبح جدّي تيساً كبيراً الذي كان قرنيه يشبهان قرني غزال ... واقفاً أمام آلة الخياطة، كان يتلو تراويل صنع المعجزات، كان يتلو صلوات تلمودية، كان يميل رأسه المحلق بكيبة بيضاء، من الأمام إلى الورا ومن الورا إلى الأمام)³، هاته الصورة تعكس لنا عادات وتقاليد اليهود الجزائريين، وكذا ممارستهم لطقوسهم المميزة لعقيدتهم، كما يُعزّز الكاتب تلك العلاقات الإنسانية التي جمعت بين يهود ومسلمي الجزائر، ومشاركتهم بعضهم البعض أفراحهم وحتى أقراحهم، ويتجلى هذا حين يشارك شيخ الجامع الحاج ميمون بتلاوته للقرآن الكريم خلال الاحتفال بالآلة، فقد كان (إمام المسجد واقفاً بجانبه يتلو بصوت منخفض آيات من القرآن. في تأرجح روتيني، هو أيضاً مثل جدي كان يميل رأسه المحلق بطاكية بيضاء منسوج عليها نجوم صفراء. كان لهما الصّوت نفسه. الموسيقى نفسها في الكلمات)⁴، فالكاتب كان يركز على الروابط المشتركة بين اليهود والمسلمين من أجل إبراز نقاط الالتقاء بين الديانتين .

¹ - Amine Zaoui: P38.

² - Ibid: P38.

³ - Ibid: P37.

⁴ - Ibid: P37.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

أما عن الكيبة التي كان يعتمرها الجد فهي تدل على تدينه وحرصه على أداء الشعائر اليهودية التي يُنصُّ عليها دينهم، وتلك النجمات الصفراء المزينة لطاقيته البيضاء فهي تحمل دلالة رمزية، فقد عمَدَ الأوروبيين تمييز اليهود عن غيرهم من خلال إجبارهم على وضع النجمة الصفراء على ملابسهم، والتي كانت تُعدُّ بمثابة إهانة لليهود وعنصرية من طرف الرِّيع الأوروبي، فبقيت متوارثة عن أسلافهم رغم أن الجزائر لم تفرض عليهم أية شروط لتمييزهم عن غيرهم عدا دفع الجزية، فإن (الإسلام في الجزائر قد كفل لهم حرية تنظيم علاقاتهم الداخلية، تحت رئاسة زعماء الطائفة في إطار حقوق أهل الذمة، حيث تمكنوا من مزاولة شعائرهم، وتعليمهم، ونشاطاتهم الاقتصادية بحرية تامة. ورغم أن المطلوب منهم لم يكن أكثر من دفع الجزية والتقييد بضوابط المجتمع، فإنهم كثيراً ما تهربوا من دفعها)¹.

فلقد كان حق العيش الكريم لليهود داخل الجزائر مكفولاً منذ الفتح الإسلامي، وقد انتشر اليهود في كامل التراب الجزائري، خاصة الصحراء. فلا تجد منطقة من مناطقها تخلو من أصحاب الطائفة اليهودية.

الحاج ميمون واحد من اليهود الذين اتخذوا الصحراء ملجأ للعيش الكريم وهو حال العديد من اليهود، فبالإضافة إلى كونه صاحب حرفٍ وموهاب، كان يتقن القراءة أيضاً حسب البطل الراوي حين يسترجع ذكرياته قائلاً (... كتاب قديم كان جدي يقرأه ويعيد قراءته كل عام خلال شهر رمضان وفي عيد الفصح اليهودي، كتاب قال أنه اشتراه من عند تاجر مخطوطات معروف بتومبوكتو، عنوانه حَيْلُ النساء، كتبه ابن الجوزي (510-592 هـ))² وهذا الكتاب يتحدث عن الفجور

¹ - كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسية، ص 22-23. يراجع: عبد الرزاق بن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال (رحلة ابن حمادوش): تقديم وتحقيق وتعليق أبي القاسم سعد الله، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، ص 64.

² - Amine Zaoui: P32.

والفسق حسب ما قاله البطل الراوي حين تفاجأ بمحتواه عند قراءته خلسة عن جدّه الذي كان يدّعي أنه كتابٌ لا يقرأه سوى الكبار (... ليس سوى الفجور في هذا الكتاب مُفضّل جدّي ! لم أتصور أبداً جدّي الذي حجّ إلى القدس وإلى مكّة، يمكنه أن يتجرأ على قراءة مثل هذه الأشياء الخطيرة. كتاب يتحدث عن نساء يضاجعن نساء أخريات. خيانة نساء يعاشرن أئمة... أي عالم هذا!)¹، فرغم كل الجوانب الإيجابية التي يصور الكاتب فيها شخصية الحاج ميمون، إلى أنّ للذات دوماً جانباً مظلماً تخفيه، وهذا هو الجانب الذي يُخفيه الحاج ميمون اليهودي، الذي يُظهر من جهة تقديسه لشعائر الإسلام، لكنه يمارس طقوسه في احترازية تامة، وكأنه يخشى أن يُفتضح أمره.

يُعنون الكاتب أمين الزاوي فصلاً من روايته بـ "الحاج ميمون"، يسرد فيه هذا الأخير أصله قائلاً (... رغم أن أصلي من مدينة تلمسان، أحب هذه الأرض المختارة المسماة توات. باب الجنة الجنات في هذه القرية تمنطيط، ولدت وترعرعت. من رملها الوقور يتضوع عطر عدني. سماؤها الزرقاء المسيرة التي تقذف في قلبي نوراً رانياً. في تمنطيط يمكن جسُّ الله)²، يبرز الكاتب الرقعة الجغرافية والمكانية التي عاش فيها اليهود بكثرة، فقد كان اليهود في المجتمع الجزائري متعايشين جنباً إلى جنب مع الأهالي الجزائريين، كما تمتعوا بخيرات أرضها الطيبة، فأينما حطوا رحالهم وجدوا كل الأبواب مشرعة، فاتحة أحضانها للآخر اليهودي، متقبلة إياهم بلا شروط، هذا ما جعل اليهود ينصهرون داخل المجتمع بكل سلاسة، الزاوي يؤكد في روايته التواجد اليهودي بالجزائر، عائداً بنا إلى ما قبل الاستعمار، في دلالة على المخزون الثقافي للروائي ذاته، فهو مطلع على تاريخ الدخول اليهودي للأراضي الجزائرية، خوفاً وهرباً من محاكم التفتيش في الأندلس، ويجسد تلك الحقائق التاريخية عبر سردها بلسان اليهودي (الحاج ميمون) يقول (عمري تسع وستون سنة في الحقيقة ست وسبعون. والدي لم يكن يسجل أبنائه في الحالة المدنية إلا حين يبلغون سن السابعة... في صورة كل من هم في

¹ - Amine Zaoui: P 33.

² - Ibid: P58.

سني في مملكة توات، إخترت للذهاب إلى مكة المكرمة... عيني رئيساً للبعثة تفاجأت، بهذا التمييز الديني بيد مرتجفة مدّ لي نسخة من المخطوط المشهور للقرآن الكريم، علامة احترام... يحكون أن هذا المخطوط للقرآن الكريم قد كُتِبَ بيد عبد الكريم المغيلي¹، فقد حظي الحاج ميمون اليهودي بفرصة وتقدير عظيمين من قبل مسلمي المنطقة، هو نفسه تعجب من ذلك التمييز الإيجابي الذي ناله من إمام منطقتهم، فالحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، فكيف لليهود أن يؤدوا شعائر الإسلام؟ نفسر هذا من منطلقين، المنطلق الأول هو تحلي اليهود عن عقيدتهم، واعتناقهم الإسلام، أما المنطلق الثاني هو إعلانهم لإسلامهم خوفاً من رفضهم من طرف المسلمين وممارستهم عقيدتهم اليهودية في احترازية تامة. لكننا نأخذ بالتفسير الثاني وهو أقرب إلى الواقع، لأن اليهودي صعب أن يتخلى عن ديانته، فالإسلام دين تسامح يجمع تحت رايته جميع الطوائف وينبذ التمييز، وهذا ما لمسناه حين صوّر الكاتب موقف إمام المسجد الكبير بغرداية الذي قام بتعيين الحاج ميمون رئيساً للبعثة، حين يقول (... في آخر خطبته، دون استشارتي عيّني رئيساً للبعثة، تفاجأت... قبلت رأس الإمام)². فالكاتب يضع اليهودي (الحاج ميمون) محلّ ثقة من طرف إمام المسجد حين يُوكله بمهامة المهمة النبيلة، فهو يبرز بواعث التلاقي بين الأنا والآخر عبر ذلك التواصل الذي تشهده العلاقة بينهما، ويوثق من جهة أخرى العلاقات التي جمعت المسلمين باليهود عبر سرد أحداث في الزمن الماضي البعيد، زمن لم يكن للضعيفة والأحقاد الدفينة موطن، عبر استحضار حفنة من الذكريات لأسلاف الحاج ميمون وجذوره عبر (بعض المخطوطات وكتب قديمة الورق، يظهر شجرة النسب لعائلتنا الكبيرة المنحدرة من إشبيلية)³، إذ يعزز الكاتب روايته (آخر يهود تمنطيط) بما جاء في المخطوطات التي تحمل حسب الحاج ميمون (العديد من العناوين، بالعربية والعبرية، منقولة بالخط العربي، مخصصة حياة معذب أحد المحاربين وقائد روحي يسمى عبد الكريم المغيلي، هذا الأخير رغم

¹ - Amine Zaoui: P58-59.

² - Ibdi: P59.

³ - Ibid: P60.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

أنه قد رمى جزءاً من عائلتنا في طريق جديد من المنفى نحو غرداية، عاصمة المزابيين أو نحو بلدان الساحل الإفريقي. بعد إشبيلية، مراكش وتلمسان وتمنطيط، جزء كبير من عائلتنا الذي رغم الخوف لم يريدوا مغادرة تمنطيط، تومبكتو توات)¹، والتي تحوي تاريخ اليهود مع الشيخ عبد الكريم المغيلي الذي حاربهم وطردهم من تمنطيط، فقد جاء في المخطوطة التي كتبها أحد اليهود الذين يضمرون كرها نحو المغيلي (... إذا كان إفريم حكيم إشبيلية جد جد جدي، قد أحرق حياً في أزقة هذه المدينة الملعونة، مهنة والدي بناء، هو أيضاً قد قتل على عتبة بيت الله، كنيسة بنا في إطار البناء بتمنطيط... بدورنا فررنا من الحرب الدينية بتمنطيط وجدنا استقبالاً جيداً بغرداية... جزء كبير من عائلتنا مشوا نحو مدينة غرداية... قادتها وقادتنا اجتمعوا ليتناقشوا طويلاً وبسرية. مرتبطين بتمنطيط، رغم الفوضى والحدق بعض أعضاء عائلتنا فضلوا البقاء، كانوا مجبرين على الاختباء وراء أسماء مستعارة وتغيير العقيدة)²، يفتح الكاتب أبواب التاريخ ليطلعنا على الصراع الذي كان قائماً بين عبد الكريم المغيلي واليهود، لكن وبرغم تصدّي عبد الكريم المغيلي لليهود إلا أن أبواب الصحراء ظلّت مشرعة لليهود تفرقوا فيها (في بوابة الصحراء، استقبلنا بجمرة من قبل منتحبي المدينة، منذ وصولنا، وحسب الاتفاقيات المبرمة بين قادتنا وقادتهم، أجروا لنا ثلاثة آبار من أجلنا ومن أجل بهائمنا... خلال أيام، تعلمت الميزابية، لغة مستضيفينا... كانت جدي تجبرنا على التحدث بالعبرية في المنزل. لم أكن أحب هذه اللغة الدينية. الأطفال الميزابيين نظيفين ومؤدبين)³، هكذا تفرق أجداد الحاج ميمون في الصحراء الشاسعة، ليندمج مع بني ميزاب ويلقى مع عائلته الترحاب من قبل ساكنيها، وبهذا يصور الكاتب الزاوي تلك المرحلة التي قطعها اليهود من أجل أن يحطوا رحالهم في إقليم آخر احتواهم، فاندمجوا فيه وتعايشوا مع الأنا المسلمة.

¹ - Amine Zaoui: P60.

² - Ibid: P60-61.

³ - Ibid: P61.

يُبدى الكاتب تعاطفاً كبيراً مع اليهود على حساب الجزائريين، إذ يضعهم في خانة المظلومين، فاليهودي معروف أنه يضع دوماً نفسه موضع المضطهد فيأخذ دور المسكنة والاستعطاف، وهذا يظهر جلياً من خلال استياء الحاج ميمون عند اطلاعه على كتابات الماوردي الذي لم يتقبل وجود الآخر اليهودي، ورفض تلك الحرية التي وصلوا إليها (وجدت كتاباً عنوانه الأحكام السلطانية، لأحد الفقهاء المسمى علي بن حبيب الماوردي، وقرأت أيضاً: "واجب على اليهود ألا يلبسوا إلا اللباس الداكن الأبيض والأخضر مخصصان للمسلمين. ممنوع على اليهود بناء منازل أعلى من منازل جيرانهم المسلمين ممنوع على اليهود قراءة نصوصهم الدينية بصوت عال، لازم على اليهود أن يذيعوا دفن موتاهم وألا ينوحوا أو يبكون عليهم. محرّم على اليهود ركوب الخيل، لا يسمح لهم إلا بالبغال والحمير". كتابات الماوردي أحزنتني. كلمة الله استيقظت فيّ تضرعت إلى الله وطلبت من الله أن يسامح كل الضالين)¹، تتضح الرؤية الذاتية للكاتب من خلال التعاطف الكبير الذي أبداه بُجَاه اليهود، نتيجة التأثير بهم ومخالطتهم في الواقع، فالمعروف عنه أن له علاقات مع اليهود.

مخالطة اليهود للمسلمين جعلتهم يسيرون على نهجهم، والمعروف عن اليهود أن ديانتهم تنص على عدم التعدّد في الزيجات، إلا أن الحاج ميمون قد خرق القاعدة، وسار على نهج الإسلام وتأثر بالنبي صلى الله عليه وسلم، حين يقول (إن السفر قطعة من جهنم، قال رسول المسلمين (صلى الله عليه وسلم))²، فقبل سفره للحج يقوم بمضاجعة زوجته الأخيرة، بغية حملها لصبي يضمن بقاء السلالة اليهودية (... سارة بنت نخون، زوجتي الأخير... كانت تطلب من الله أن يعطيها من جماع السفر هذا ابناً. أنا أيضاً، تمنيت ابناً... يضمن السلالة ضد اللعنة والنفي الأبدي)³، فهو يعلم أن مصير اليهود هو التيه والشتات في جميع البلاد عريّة كانت وأوروبية.

¹ - Amine Zaoui: P 61-62.

² - Ibid : P62.

³ - Ibid: P63.

يعتمد الحكيم في الرواية الرجوع إلى الخلف، واسترجاع أحداث تتخطى نقطة الحكيم الأول، حين يسترجع الحاج ميمون ذكريات ما قبل ذهابه للحج يقول (سمعت، رغم صممي الجزئي، مثل صوت رباني ينبعث من السماء، من أعلى الأعالي، يشبه صوت والدتي عزيزة بنت شوعمة، المختفية منذ أربعين سنة همست في أذني اليمنى نصف صماء الكلمات التالية: اذهب في مسعاك، حين تعود، ستجد صبياً مشعاً في يدي زوجتك المخلصة)¹، لكن الحاج ميمون يعلم في قرارة نفسه أن زوجته ليست بالإنسانة الوفية والمخلصة، لأنها كانت معجبة بابنة زوهار.

يرسم لنا الكاتب تلك الطريق التي مرَّ بها الحاج ميمون ليصل إلى الحج، مركزاً بذلك على سطوة المكان، فالعنوان وحده كفيل بأن نفهم مغزى الرواية (آخر يهود تمنطيط) فالكاتب يصور تلك العلاقة العضوية الجامعة بين الإنسان والمكان، فقد ارتبط اليهودي بمدينة تمنطيط التي أثرت في تكوين شخصيته وبنائها الروائي. لذلك لم يتوانى الكاتب في سرد تلك الأماكن التي شهدت وطأة اليهود. وكذا ليبين المشقة التي اجتازها الحاج ليصلوا إلى البقاع المقدسة انطلاقاً من مدينة أدرار نحو وهران، حين يقول الحاج ميمون (... أخذنا أماكننا داخل هذه الحافلة التي تربط مدينة أدرار بوهران، سنمتطي باخرة تركية تسمى البوسفور، باتجاه الإسكندرية)². يبرز الكاتب الرأوي انفتاح المجتمع الجزائري على جميع الديانات، واحتضانه لمختلف الأجناس دون النظر إلى الهوية والعقيدة، فقط إنسانية الإنسان كفيلة بتوطيد العلاقات وبث روابط الاتصال والتوافق اللامشروط والمتقبل للآخر، أيّاً كان، فهاهو الحاج ميمون حين وصل إلى وهران ونزل في (حيّ شعبي مكتظ بالسكان يرتاده كل الأصناف الإنسانية والدينية من العرب، البربر والميزابيين واليهود والإسبان)³، فقد قام بزيارة بعض الأماكن هناك مبدياً إعجابه بشيوخها وشوارعها، مصرحاً بإعجابه علناً حيث يقول (زرنا مدرسة

¹ - Amine Zaoui: P63.

² - Ibid : P65.

³ - Ibid: P67.

الفلاح حيث التقينا الشيخ الميلود ماهدجي... لقد أعجبت بثقافة هذا الشيخ وبشجاعته السياسية)¹، ومن جهة أخرى يبرز الكاتب اشتغال اليهود بالتجارة ومدى براعتهم في هذا المجال. فقد أقدم الحاج ميمون مع جموع الحجاج لأسواق وهران، يقول (اشترينا عند أحد يسمى شقرون تاجر في درب اليهود، حي اليهود، بوسط المدينة كل ما نحتاجه في سفرنا إلى البقاع المقدسة: مناديل الإحرام وأشياء ضرورية للحج وإقامتنا. التجار اليهود كانوا لا يتكلمون إلا العربية الوهرانية أو الإسبانية)²، وهذا يدل على تعامل اليهود مع المسلمين، خاصة مع ملابس الإحرام، أما عن اللغة فالواضح أن اليهود الجزائريين انصهروا في المجتمع وخالطت ألسنتهم اللسان العربي. فأصبحت لهجتهم تجاري لهجة سكان المنطقة التي عاشوا وتعايشوا فيها. لكن مهما أقنع اليهودي من حوله بإسلامه أو تخليه عن عقيدته، إلا أن حنينه لتلك العقيدة يبقى متقدماً، وهذا ما يسلط الكاتب الضوء عليه حين يزور الحاج ميمون الكنيسة قائلاً (...وحيداً زرت كنيسة وهران الموجودة بشارع الجرف ومن ناحية تطل على شارع ماجينطا في بيت الله هذا، صليت بكيث، طلبت من الله أن يوقف هذه الحرب التي تزرع الأحقاد)³، مبرزاً ثنائية الانفصال والاتصال التي تحكم علاقة الأنا بالآخر، والتي تترسّم حدودها في منعرج ما لتحافظ على جزء من الهوية الآخريّة، فخلال رحلته إلى مكّة لم ينسى كما لم يفوت زيارة القدس، يقول البطل الراوي (...خلال رحلته للبقاع المقدسة، قد انتهر الفرصة لإتمام حجين مرة واحدة... زار كل البقاع الإسلامية المقدسة خلال ذهابه إلى القدس، استغرق في تأمل حائط المبكى البعض الآخر، قال أنه توقف بميناء الإسكندرية ثم ذهب ليتأمل قبر الفيلسوف ابن ميمون، حيث بقي شهرين في انتظار عودة مجموعته من الحجاج، تحت قبة قبر ابن ميمون، أعاد قراءة ما كتبه جدُّ جده، إفرام النقاوة كحاشية لهذه الفلسفة)⁴ فاليهودي أينما ذهب لا بد أن يعود إلى الأرض التي يزعمون أنها

¹ - Amine Zaoui: P69.

² - Ibid: P69.

³ -: Ibid: P69.

⁴ - Ibid: P128.

أرض الميعاد، فبعد رحلته الطويلة تلك ينعزل في بيته بسبب الحرب التي استنكرها الحاج ميمون فقد (حبس نفسه في الصمت، في عمق دهليزه، الرطب لم يكن يريد سماع سوى صوت آلة الخياطة سنجير، وينظر بافتخار عمل ابنه أرسلان الذي كان يخيط بدّل جنود جيش التحرير الوطني الجزائري)¹، فالكاتب هنا يشير إلى تضامن عائلة الحاج ميمون مع المقاومة الجزائرية، عكس ما أظهره معظم اليهود من خلال موالاتهم للمستعمر الفرنسي وهذا ما تصرّح به كتب التاريخ وتُقرُّ به.

تحمل بعض المقاطع في رواية (آخر يهود تمنطيط) دلالات نفسية تحملها الذات اليهودية من خلال شعورها بالغرابة الدائمة والحتمية التي فرضت عليها، فالكاتب يؤكد أنّ لا موطن لليهود، من خلال تلك الأحاسيس التي يصرّح بها على لسان الحاج ميمون (إن هذا البيت الكبير، الذي كان في القدم ضاحاً وحيوياً بحضور كثرة أبنائه، التي هي اليوم مهجوراً تماماً. فراغ. أطلال. حزن. حداد... كل واحد نحو أفق نحو قدره)²، فكأنما كُتب على اليهود أن لا يستقروا في أرض واحدة، وأن يستمر شتاتهم إلى أجل غير معلوم، فالله وحده يفرق ويجمع الشتيتين بقدرته وحده.

اليهودي المتفوق على نفسه هي صورة رسمها الكاتب للحاج ميمون، ليتبين من خلالها ذلك التّيّه الداخلي الذي يسكن خلجات اليهودي الضائع في اللاّذات، فالصدمات التي تلقاها الحاج ميمون من تفرق أبنائه وموت ابنه أرسلان، جعلته ينزوي عن العالم الخارجي، وينعزل مكتفياً بقراءة مخطوط يحمل سيرة عبد الكريم المغيلي، الذي حظي بحفاوة استقبال في تمنطيط سنة 1452، جعلته يحظى بشرف إمامة مسجد القرية الكبير، فيبرز الكاتب تلك الحفاوة التي لم تكن من جانب المسلمين فقط بل (يهود تمنطيط، من جانبهم وحسب عاداتهم، سارعوا هم أيضاً في استقباله جيداً.

¹ - Amine Zaoui: P128.

² - Ibid: P128.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

بلا تردد، أرسلوا أبنائهم إلى الدروس التي كان الشيخ يلقيها من أجل الاستفادة من التعليم ذاته مثل أصدقائهم المسلمين)¹.

لكن وحسب المخطوطة التي بين يدي الحاج ميمون، تصرح بتلك العداوة التي شنها المغيلي على يهود تمنطيط (داعياً المؤمنين لشن "حرب مقدسة" ضد اليهود الكفار)²، ليتفاجأ الحاج ميمون بمعارضة الأنا لوجود الآخر اليهودي بينهم، فتلك الحرب التي شنها المغيلي على يهود تمنطيط أطفأت الحياة فيها وقرت شمل اليهود بالمنطقة ليتفرقوا بعدها ويتكرر مسلسل الشتات من جديد.

عاش الحاج ميمون حياة مستقرة في مجملها، منعزلة في آخرها، لتوافيه المنية ذات جمعة صيفية ماطرة، وتنطفئ حياته المليئة بالتقلبات، والمثقلة بأوهام التاريخ، لقد بكته جميع القرية كبيرها وصغيرها، مسلمين ويهوداً جمعهم حزن مشترك، فقد كان (أول من وصل إلى بيت الحداد... صديقه غمام مسجد القرية... مرر يداً مرتجفة على العينين التائهتين المنفرجتين ليغلقها. قرأ بعض الآيات من كتاب الله، ثم تتم ببعض الدعوات ثم ابتعد عن الجثة ليتأمل هذا الصمت. للغياب. لرحيل هذا الرجل)³، وتمت مراسم الغسل والتكفين على يد مسلمين (...باشر الإمام، بمساعدة رجلين طقوس تغسيل الميت)⁴.

الكاتب يؤكد هنا صور الصداقة التي جمعت الحاج ميمون بالإمام (الذي كان صهره وصديقه في السلم والحرب، كان يرفع صوته بالتراويل والدعوات)⁵، كما أن كل العيون بكته وشيعته إلى مثواه الأخير، فقد كان مميزاً بطباعه وسماته التي أكسبته فُرادةً حبيت إليه كل عارفيه، فمنذ (أكثر من

¹ - Amine Zaoui: P130.

² - Ibid: P130.

³ - Ibid P 153.

⁴ - Ibid: P153.

⁵ - Ibid: P154.

عشرين سنة، كان هو القائم بضريح الشيخ المغيلي وعلى المقبرة اليهودية الصغيرة، كان يبحث عن نسيج علاقة حب بين الموتى. حب دائماً ضده المقابر أو محارب من قبل الأحياء)¹ فبعد دفنه مباشرة طلب الإمام صديقه (أن يغلق باب الضريح لمدة أربعين يوماً. أربعون يوماً من الاعتذار الكبير بين الشيخ المغيلي والحاج ميمون)² وهنا يستغرق القارئ في فهم وجهة نظر الكاتب، التي تهدف من خلالها إلى وجوب التسامح بين عبد الكريم المغيلي والحاج ميمون، كأنهما ثنائية متضادة (حب/كره)، (إسلام/يهود)، (تعایش/لاتعایش) فلكل منهما رسالته، وحسبنا أن نزيح الستار عن تلك الصورة التي رسمها الكاتب للحاج ميمون ماثلة في شخصه المتزن والمتعایش، بعيداً عن أية أحقاد دفينه ليعطي بذلك خلفية مخالفة للصورة النمطية المتوقعة في الذهنية العربية المسلمة وخاصة الجزائرية عن اليهود.

5- صورة اليهودي الوطني:

* شخصية زوهار بن سعيد:

شخصية يهودية مثقفة، يصورها الكاتب (أمين الزاوي) من منظور إيجابي، يتجلى في مناصرة (زوهار) اليهودي للمقاومة الجزائرية، وانخراطه في صفوف التحرير.

زوهار هو والد البطل الراوي (أبراهام)، نموذج مميز عن باقي أفراد عائلته كما يصرح البطل الراوي عن اختلافه عن إخوته (قال شيلوف أن والدي بمزاجه لا يشبه عمي رسلان وعمران. أنا أشبهه سمة سمة، تماماً منذ البداية، اختار الكتب، السياسة والدفاع عن الجزائر المستقلة والحرّة. لم يكن له في الموسيقى. لم يكن يحب ركوب الخيل النبيلة. كان عادلاً. لم يخف أبداً حقه للمستعمرين الفرنسيين أو غيرهم. كان يحب هوشي منه . تشي جيفارا وميصالي الحاج وعيسات إيدير)³، من

¹ - Amine Zaoui: P155.

² - Ibid: P155.

³ - Ibid: P 11.

خلال هذا الوصف يتضح لنا أن زوهار شخصية مثقفة ومتحررة، كما أنها تنبذ الحروب وتبذ العيش في سلام، كما يدل هذا المقطع على تأثره بشخصيات تُعد أيقونات زمانها في الحروب التي عرفتها دول العالم، وكذا تأثره بزعماء وقادة الحركات الوطنية بالجزائر، مما يبعث ذلك الحسّ الثوري الذي يطغى عليه، كما صورّه الكاتب في روايته، فالزمن الروائي يدور حول الحقبة الاستعمارية سنة 1956 على الجزائر من قبل المستعمر الفرنسي، وزوهار كان في تلك الفترة مهتماً بالأمر السياسي، محباً للاطلاع على مختلف الكتب السياسية والفلسفية وغيرها، يقول عن ابنه البطل الراوي (والدي، الذي رأيته لأول مرة في الأدغال، كان ملتهما لكل ما يشبه للوثائق السياسية. مكتبته الصغيرة... كانت غنية بكتب ماركس، لينين وماو التي يضاف إليها بعض الدواوين الشعرية وبعض الروايات. كان يحفظ شعر أراجون، لوركا وبودليير وسيدي لخضر بن خلوف ومحمد بلخير... كان والدي أول من يحمل نظارات في قريتنا!)¹، يعد زوهار حسب هذا المقطع نموذجاً يميل إلى الانفتاح الفكري، والانصهار ضمن الإيديولوجية الماركسية، لكنه من اليهود القلائل الذين ثاروا ضد المستعمر الفرنسي وأبدوا تضامناً مع المقاومة الجزائرية فالكاتب يبين على لسان بطله أبراهام انخراط والده في صفوف جيش التحرير، عندما يحكي لعشيقته عن والده قائلاً (...حكاية والدي المنخرط في صفوف جيش التحرير الوطني)² لكنه بالموازاة ينسب هذا الفعل إلى وطنية كل اليهود، وأنه من المسلمات انخراط جميع اليهود الجزائريين، وهذا ما تنفيه كتب التاريخ التي تتعارض مع هذا الطرح، فحين يسترسل البطل الراوي في سرد حكاية والده يقول (... لا يهم، حكايته ليس بها ما هو غريب ومسكوت عنه. كل الجزائريين الوطنيين المتطلعين للحرية، قد حاربوا الجيش الاستعماري الفرنسي)³، فالكاتب ينسب صفة الهوية الجزائرية لجميع اليهود، لكن لا يمكن أن نعتم صفة الوطنية في روح كل يهودي، فالكاتب يضم شخصية اليهودي زوهار إلى زمرة الوطنيين المتشبعين بالفكر الجهادي وحب الوطن، هو الذي

¹ - Amine Zaoui: P12.

² - Ibid: P30.

³ - Ibid: P31.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

يرى نفسه وعائلته جزائريين بموجب الهوية والدّم. لكن ما يغفله الروائي أن من اليهود من أشعلوا فتيل الحرب بالجزائر وقبلوا الأقدام الفرنسية هاتفين مجلدين مبجلين الجبهة المعادية فقط من أجل مصالحهم وحرّيتهم لا غير.

لا يكتفي الكاتب بذكر خصال زوهار اليهودي، خاصة بعد انضمامه لصفوف جيش التحرير، بل ويضيف على لسان بطله أنه يمثل (صورة كل رجال تمنطيط، التحق باكراً بصفوف جيش التحرير بأعالي جبل العصفور، بالحدود الجزائرية المغربية)¹ لكنه سرعان ما يُلقي حتفه حين يقول البطل الراوي (... قاتل عمي هل هو الذي قتل أبي زوهار في المقاومة)² ليبقى السؤال مفتوحاً حول القاتل الحقيقي لوالد البطل الراوي أهم الفرنسيون أم الأصوليون، وتُبقي الرواية أفق توقعات القارئ مشرعاً نحو النهاية الحقيقية التي لقيها اليهودي زوهار. الذي يمثل نموذجاً عن اليهودي الإنساني الذي تسري في دمه روح الوطنية، والانتماء لأبناء الوطن الجزائري بعيداً عن الخلفية العقائدية التي لم تشكل حاجزاً في ظل العلاقات التي أرسنها الأنا الجزائرية المسلمة مع الآخر اليهودي الجزائري، والتواصل الذي عُرف بين الأنا والآخر خلال الحقبة التي تسبق الاستعمار الفرنسي وكذا إبان هاته المرحلة.

6- صورة اليهودي الانطوائي :

* شخصية رسلان بن سعيد:

يصور الكاتب أمين الزاوي نموذجاً آخر عن شخصية يهودية تميل للعزلة وتجنب الاحتكاك الاجتماعي. (رسلان) الذي يمضي معظم وقته منكفى على آلة الخياطة سنجير التي تعتبر عشقه وملاذه الوحيد للهروب من ضوضاء العالم الخارجي، فقد (كان يقضي وقته وراء آلة الخياطة سنجير... لم يكن له الوقت إطلاقاً للانتباه إلى جمال زوجته. لم يستطع أبداً الاستماع إلى شكوى

¹ - Amine Zaoui: P34.

² - Ibid : P155.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

الجسد المحتدم. بعينيه المختبتتين وراء نظارة سميكة، لم يكن يرى سوى ألوان الخيوط وأحرام الإبر..¹ انشغال رسلان وحبه للخياطة جعله يُهمل زوجته، ولم يلحظ حاجتها إليه، هذا ما دفعها لخيانته مع (عمران) أخوه الأصغر، رغم فارق السن، فلوّبة تكبره ببضع سنين، لكن جمالها لم يشفع لها أمام زوجها رسلان، الذي لم تُغويه سوى آلة الخياطة فهي عشقه الأبدي. والمعروف عن اليهود أنهم أصحاب حرف وصناعة، فحسب الباحث في التاريخ العام كمال بن صحراوي فإن اليهود (عاشوا في المجتمع الجزائري حياة عادية في البداية يمارسون طقوسهم الدينية، ومهاراتهم التي استغلوها خاصة في الصناعات الحرفية)²، هاته المهارات التي كانت سبباً في تقوية وجودهم بالمجتمع الجزائري وتعزيز علاقة الأنا المسلمة بالآخر اليهودي الجزائريين.

يُظهِرُ الكاتب من خلال شخصية رسلان جانباً من اليهودي المتزمت والمنغلق على نفسه، فهو كمن يعيش في عالم آخر فقد (واصل رسلان تفضيل قضاء لياليه في ورشة خياطته، آلة خياطته سنجير في يديه. صارت هذه الآلة رفيقته وحلمه. جعلته ينسى زوجته لوبه وأخيه الذي لا يرحم. في وحدته وعزلته، بدا رسلان، هو أيضاً يفقد الذاكرة. من بين كل أفراد الأسرة، لم يتمكن من معرفة أمه وأخته تاميرة. لم يكن يتكلم إلا لآلة خياطته سنجير. كان يكتشف في طقطقات دواسته، أجمل الأغاني وعبور الموسيقى الربانية)³، هذا الانعزال، وهاته العقلية المنغلقة والمتوحدة على الذات، جعلته يفقد توازنه وحتى ذاكرته، وقد ازدادت حالته سوءاً بعد حادثة زوجته لوبه مع أخيه عمران بعد أن (انغمس في هلوسات وبدأ يهرب من أشعة الشمس. قرر ألا يغادر ورشته أبداً)⁴ أصبح رسلان غريب الأطوار، خاصة بعد انكشاف خيانة زوجته وأخيه، فتقوم والدته بربط زوجته أمام شجرة التوت بسلسلة حديدية يتملك رسلان شيء من تأنيب الضمير بُجاه زوجته (لوبه) التي بقيت مربوطة أكثر

¹ - Amine Zaoui: P80.

² - كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسي، ص 42.

³ - Amine Zaoui : P84.

⁴ - Ibid : P84.

من تسعة أشهر، ليقرر تحريرها (... أخذ زوجته في يديه. دون فك رباطها، قبلها ومارس معها الجنس... بلطف حرّرها من قيدها. ثم عاد إلى ورشته الرطبة. لم يتمكن من حبس دموعه).¹، تدلُّ تصرفات رسلان على اضطرابه النفسي فمن غير المعقول أن يمارس شخص طبيعي الجنس مع زوجته المربوطة بسلاسل في بهو المنزل، فرسلان يعاني من عقدة جلد الذات تجاه زوجته، فهو يمثل صورة عن اليهودي غريب الأطوار والمضطرب نفسياً، فلم يخرج من عزلته بعد اختفاء لوبة ولم يرى النور إلا بعد (حوالي سنة من السجن تقريباً، رسلان بلحية مبيضة وصلت إلى صدره، خرج من جحره، من دهليزه ليرافق موكب جنازة لوبة... بعد الدفن رسلان قرّر ترك آلة خياطة سنجير)². نلمس ضمن البناء الداخلي لشخصية رسلان اليهودي، تعاطفاً مع المقاومة الجزائرية، فهو ورغم اعتزاله آلة الخياطة، إلا أنه ومع اندلاع الثورة وبطلب من شخص غريب أتى إليه (تمتم ببعض الكلمات في أذن رسلان ثم انسحب في اليوم الموالي، نزل رسلان إلى ورشته لكن هذه المرة ليخيط أعلاماً بأصلبة ونجوم وبدلات عسكرية موجهة لمقاومي الثورة الجزائرية...)³. الكاتب يؤكد على مشاركة شخصيات روايته اليهودية في الثورة التحريرية، فالأعلام بالأصلبة دلالة على أن اللباس موجه لليهود الذين خاضوا تجربة النضال جنباً إلى جنب مع الشعب الجزائري، وهنا تظهر مساندة اليهودي الجزائري (لآخر) مع (الأنا) الجزائرية المسلمة، من خلال تلك الفجوة الإنسانية التي يُعربها الكاتب لليهود، والتي من شأنها صناعة أحداث إيجابية وكسر حواجز التقاطع، ليستبدلها بشبكات التواصل الفاعلة المحركة لبوتقة العمل الروائي، من زاوية نظر مخالفة للصورة النمطية المترسبة في ذهن القارئ العربي، هاته الشخصية اليهودية لا تعمر طويلاً لينتهي دورها بمقتلها في مشهد مروّع، حين يجد الحاج ميمون ابنه رسلان مقتولاً، يقول البطل الراوي (... الحاج ميمون منذ يقظته، أخذ بمشهد مرعب: جسد رسلان جامد، غارق في بركة دم. آلة الخياطة سنجير قد اختفت).

¹ - Amine Zaoui: P84.

² - Ibid: P85.

³ - Ibid: P86.

-من قتل رسلان؟ لماذا؟) رسلان تلك الشخصية الانطوائية، المحبة للعزلة، تمثل صورة عن اليهودي الغير متفاعل في المجتمع لا مع الأنا ولا الآخر، حتى مع ذاته الصامتة (وتتسم هذه الشخصية بالانطوائية والعزلة والانفصال عن الواقع وعدم الرغبة في العلاقات الحميمة، والميل إلى الأنشطة والهوايات الفردية ولا يتأثر عادة بنقد الآخرين كما يتصف ببرودة المشاعر و الانفعالات)¹، هذا التحليل النفسي ينطبق على نمط شخصية رسلان، الذي وُجد مقتولاً من طرف مجهولين، فقد سرقوا آتته للخياطة، لُتسرق بعدها روحه المنعزلة وتسكن مأواها الأبدي في حضرة الصّمت المحتم.

ب- الصورة السلبية ليهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة:

تتقاطع أحداث الروائيتين (آخر يهود تمنطيط) و(أنا وحاييم) في نماذج روائية لشخصيات يهودية بسلوكتها الموحية بعدم تقبل التعايش مع الأنا المسلمة الجزائرية، وبطباعها الحادّة في تعاملاتها أيضاً. وهذا لإبراز شكل من أشكال الفكر العنصري المسيطر على العقلية اليهودية، التي يصعب عليها تقبل فكرة التعايش بسلام تحت راية الأخوة في ظلّ الاختلاف العقائدي والمذهبي المنادي بوحداية الإله. فكل من الروائيان عكف على تقديم صورة عن الشخصية اليهودية تشبه إلى حد بعيد تلك الصورة النمطية المرتسمة في الذهنية العربية، وإن تغيرت ملامحها وسماتها وسلوكاتها، إلا أنّها تفضح وتعري من خلال هاته النماذج مدى العمق الفكري للعقلية اليهودية، هذا الآخر الذي لم يفلح في مساندة الرّكب التعايشي داخل المجتمع الجزائري المنادي بتقبل الآخر، وفتح آفاق للتواصل وبناء العلاقات الإنسانية بعيداً عن سؤال الهوية واختلاف التوجهات العقائدية.

وهذا الجدول يبين الشخصيات السلبية بصفاتها المادية والمعنوية ودورها ضمن الرواية كالاتي:

¹ - نائر أحمد غباري، خالد محمد أبو شعيرة: سيكولوجية الشخصية، دار الإعمار العلمي للنشر والتوزيع، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1436-2015هـ، ص 46.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

الشخصية	الصفات المادية	الصفات المعنوية	الدور في الرواية
كولدا رفايل في رواية (أنا وحايم)	* وجهها صغير. * جسمها هزيل في الصغر. * جبهتها بارزة. * شعرها مذهب. * أنفها كبير. * عيناها مدورتين. * جيدها خالي من الحلي * شفتاها ممتلئتين. * وجنتيها غير عامرتين.	* كانت طفلة * مشاكسة. * عنصرية. * تكره الأنديجان. * متغترسة.	* تربطها علاقة صداقة مع حاييم لتتطور إلى علاقة حُب لم تُعمر طويلاً. تعمل في مجال الاستيراد والتصدير في شركة بنكيكي.
زوجة حارس المقبرة رواية (آخر يهود تمنطيط)	* أسنانها مغلفة بالذهب.	* ابتسامتها ماكرة. * امرأة شهوانية. * ماجنة - قوية.	زوجة حارس المقبرة اليهودية، التي دفن فيها الحاج ميمون رفقة والدة أبراهام.
داوود بن سعيد رواية (آخر يهود تمنطيط)	* جميل - له أذنان كبيرتان * ضعيف البنية * له سبع تجاعيد على جبينه العريض * أزرق دائري حول العينين دائم. له كرتان مخفقتان بين الرجلين.	* له ميول نحو الرجال * المفضل لدى والدته. * شغوف بالموسيقى. * عصامي. حساس * يعزف على آلة الغيتارة.	* ابن الحاج ميمون، وعم أبراهام، عازف موسيقي. * شاذ جنسياً.
عمران بن سعيد رواية /		* مغامر * يُلقب بأبو	ابن الحاج ميمون، وعم

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

أبراهام، يمتهن العديد من المهن، وهو زير نساء.	العود،*يحب الخيل،خائن* نساء*مستهتر.		(آخر يهود تمنطيط)
*تاجر يهودي في الجزائر العاصمة، وهو أحد أصدقاء والد حايم بنميمون.	*عمره الخمسينيات. *يرتدي الزي الأوروبي.	/	رامون بيكيكي رواية (أنا وحايم)
جار والد حسبية، بيده مكسب الأسواق، ويتعامل مع المستعمر الفرنسي.	*عنصري *عدواني متسلط.	/	الجار اليهودي رواية (أنا وحايم)
يعمل مرابياً في مدينة سعيدة ويتاجر في السلاح.	*عنصري. *شديد في تعاملاته حتى مع اليهود. *متحايل. *منافق.	ذقنه يحمل لحية (كالتيس)	سمير مردوخ رواية (أنا وحايم)

1-صورة اليهودية العنصرية:

*شخصية كولدًا رافاييل:

يصور الكاتب (الحبيب السائح) نموذجاً عن الشخصية اليهودية المتغترسة، والتي تنظر للأننا بعين عنصرية، وفكر مقزوم، تفوح منه رائحة الحقد والكرهية.

(كولدًا) شخصية ثانوية في أحداث الرواية، تجمعها صداقة مع اليهودي (حايم) لتتحول إلى علاقة حُب أناني، باعدت بينهما المسافات عندما قررت كولدًا السفر إلى وهران ثم مرسيليا (فكولدًا كانت تدرس وقتها في ثانوية باستور بمدينة وهران)¹، لكن الاتصال بينهما لم ينقطع، فقد ظلَّ يتبادلان الرسائل من وقت لآخر، يقوم الكاتب بوصفها على لسان بطله الراوي ("كولدًا تلك الطفلة المشاكسة! مضى دهر لم أرها. لا بد أنها صارت امرأة"، قلت لا أتخيل لها سوى وجهها الصغير وجسمها الهزيل)².

قطعت كولدًا دراستها الجامعية بُغية العمل في المجال التجاري وهذا ما سرده حايم لصديقه أرسلان قائلاً (بيدو أنها قطعت دراستها الجامعية هناك في المتروبول والتحقت بشركة استيراد أنواع الجوخ والكتان الرّفيعّة، لصاحبها السّيد بَنكيكي، بصفتها ممثلة لها في الغرب الوهراني، فالسّيد بَنكيكي هو الذي يستضيفها، لعلاقة قرابة بينه وبينها من جهة جدتها لأُمها المقيمة في مرسيليا)³ نلمس من خلال هذا المقطع أن كولدًا اليهودية امرأة مثقفة جازفت بدراستها الجامعية لولوج عالم التجارة وفي هذا دلالة قوية على شجاعتها في خوض هاته التجربة، وإن لم يكن هذا الأمر غريباً، فاليهود اشتغلوا في مجال التصدير والاستيراد وبرعوا في ممارسة الحرف التجارية، كما أن علاقاتها مع الفرنسيين سهلت عليها المهمة بكثير وفتحت لها آفاقاً للنجاح.

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 122.

² - المصدر نفسه، ص 122.

³ - المصدر نفسه، ص 122.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

بعد غياب بين حايم وگولدا، يتفاجأ بها آتية لزيارته، حين يسرد تفاصيل لقائه بها لصديقه قائلاً: (... لم أكن أنتظر أن أرى گولدا واقفة في انتظاري عند خروجي من مخبر التجارب في منتصف النهار!)¹، يصور الكاتب تلك اللحظات التي جمعت بين اليهوديين، ليسلط الضوء على قضية العلاقات العاطفية الجامعة بين أبناء الطائفة اليهودية، ليقول حايم لصديقه عن تفاصيل لقاءه بگولدا (...قبلة خفيفة في حديقة التجارب ولا شيء بعدها! أنت تعرف نحن أشد منكم تزمناً في مسائل الجنس قبل الارتباط الشرعي)²، فديانتهم حسب الكاتب تمنع إنشاء علاقات محرمة قبل العقد الشرعي، لكن بالموازاة نلاحظ إجحافاً من طرف الكاتب تجاه الديانة الإسلامية التي تُحرم بدورها ربط علاقات خارج الإطار الشرعي للزواج.

گولدا لم تُفلح في سدّ الفراغ العاطفي الذي خلفه فراق حايم لأمه التي كانت مصدر حب وحنان له، فرغم حبه لگولدا إلا أنه لم يشعر براحة الحُب والأمان معها، ويتجلى هذا في قوله (...كنت أتصور، وأنا لم أعرف من النساء غير أمي، أن تكون گولدا تعويضاً لي في الفقد والحُب.

— گولدا أذلك لم أطمئن يوماً إلى أن أناديك حبيبي؟³ هذا الحديث النفسي الذي لم يُبَحْ به حايم إلا لكراسة يُدون عليها خلجاته وحياته، تبين لنا ملامح العلاقة المتذبذبة التي خاضها حايم مع گولدا، هاته الأخيرة لم تستطع مبادلته نفس الشعور فقد كانت تحتقر الأهالي، وامتازت تصرفاتها ومواقفها بالعنصرية والاستعلاء في مجملها، وهذا ما أثار قلق واستياء حايم، الذي يُبوح بمكنوناته لكراسته مدوناً (لطالما تساءلت منذ التقينا، بعد خروجنا من صلاة المساء في بيعة لارودوت، إن كانت الديانات صارت عاجزة تماماً عن التقريب بين أبناء آدم، إذ يبدو أن الصلوات

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 122.

² - المصدر نفسه، ص 123.

³ - المصدر نفسه، ص 202.

كلها في كنيسة هذه المدينة ومسجدها وبيعتهم لم تزد هذه الحرب إلا أوارا¹، حتى بَوَّخُه لكَولدا، لم يجدي تساؤلاته نفعاً، فاختلاف الديانات حسب حايم كان سبباً في خروج العلاقات الإنسانية، كَولدا لم تتوانى في إظهار سخريتها من تطلعات حايم للعيش بسلام بدون اختلاف وبلا حروب (...فسخرت من رومانسيتي، بل كما قلت، من صوفيتي التي لا تعني لك سوى العجز)²، فكَولدا لم تكن راضية عن علاقة حايم بالأهالي واحتكاكه بهم، كما أبدت في عديد المناسبات كرهها للأنديجان مصرحاً في مذكراته (آه ! ليتك تدرين كم كان يوجعني أن تنطقي كلمة أنديجان باستعلاء واحتقار، بل بعنصرية ! إني لا أحجل من أن أصارحك بهذا)³، يصور الكاتب نموذجاً عن المرأة اليهودية العنصرية، التي تملكها الروح السادية والمتعالية، فحايم لم يعجبه احتقارها للأهالي وغطرستها، كما كانت متحفظة في علاقتها مع حايم، من باب أن العلاقات خارج إطار الزواج في الديانة اليهودية تُعدُّ محرمة، بالإضافة إلى سعيها لإقناع حايم بالسفر معها لفلسطين، لكن دون جدوى، يقول حايم (كم وددت أن أقبلك عند باب بيتكم لولا أنك أسدلت على وجهك دون قلبي، قناع كَولدا المهمومة بما كنت ترينه لي واجباً وخلصاً يكتمل به حبنا الذي يظلُّ هنا ناقصاً ما لم نغادر إلى أرض الميعاد فيكتمل!)⁴، فكَولدا ظلَّت تربط علاقتها بحايم بهاجس المكان، لكن ارتباطه بأرض الجزائر أخلط حساباتها وأحلامها التي ربطتها بأرض الميعاد، فاختلاف وجهات النظر يجعل علاقتها على محكِّ الخطر. بتأزم وضع كَولدا، ويزيد حقدَها على الأنديجان بعد مقتل والدها، لكن محاولات حايم للتخفيف عنها لم تجدي معها نفعاً، حين يقول لها (... فأنت تعلمين أي ما كنت لأتلكأ لحظة لو امتلكت ما كنت سأصرف به عن والدك السيد سياستيان رفايل أن يُدعى ضمن صفوف الاحتياطين، لضرورات هذه الحرب الفظيعة وأن يقتل في اشتباك مسلح مع فرقة

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 202.

² - المصدر نفسه، ص 202.

³ - المصدر نفسه، ص 202.

⁴ - المصدر نفسه، ص 203.

ج.ت.و) ¹، فحقد كولدًا بات متأججاً يصعب إخماده، إذ يصور الكاتب سلوكاتها المعبرة عن سوداوية الفكر العقيم المسيطر عليها من خلال تحليلها لواقع الحرب التي تنعتها بحرب العصابات، ويظهر هذا جلياً في الحوار الذي دار بينها وبين حايم (... لا تكملين مضغة من غير أن تلفظي عبارة جديدة بحق أكبر على من قتا والدك. وكنت حاولت أن أنبهك وأسليك بأنها الحرب. فرددت أنها ليست حرباً بل هو تمرد تخوضه عصابات الأنديجان من القتلة والمجرمين) ²، فقد كانت تصفُ المجاهدين من أبناء جبهة التحرير الوطني بالعصابة والقتلة، وهذا ما يدُلُّ على عنصريتها وحقدتها الدفين، ما جعل حايم يتفاجأ من ردَّت فعلها، حين يقول لها (... لا تسيطرين على ما ينفلت من فمك من رذاذ. ثم لا تلبثين أن تمسحي شفتيك بالمنديل وتنظري إليّ مشتعلة العينين) ³.

بيد أن هذا الغضب الذي يشبه البركان لحظة انفجاره أبان عن فكر كولدًا ونفسيته المريضة، حيث يصورها الكاتب في لحظة غضبها المتأجج، بنبرتها العدائية التي تحمل دلالات واضحة عن عدم تقبلها للأنا أياً كان وحتى للآخر الداعم للأنا، فحايم هو ذلك الآخر الذي لم يتقبل أسلوبها الهمجي، ولا تدخلها في علاقته الشخصية، فهو لم يتوقع أن تصل بها الجرأة حين قال: (...وتواجهيني بقولك إنه لا يرضيك أن ترتبني بشخص مثلي بدأت تدور حوله شبهات ستورطه. أجل، قلتها حرفياً: تورطك!) ⁴، لكن حايم لم يكن خائفاً مما قد يلحق به جراء مساعداته للمقاومة الوطنية، رغم كل التهديدات التي تلقاها من العسكر الفرنسيين الذين اعتبروه خائناً بحكم الصداقة الوطيدة التي جمعتهم بأرسلان الجزائري.

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 203.

² - المصدر نفسه، ص 204.

³ - المصدر نفسه، ص 204.

⁴ - المصدر نفسه، ص 204.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

هاته الصداقة التي شكلت عائقاً في طريق (كولدا) التي لم تستطع إخفاء سخطها وحساسيتها المفرطة تجاه الأهالي الجزائريين، وهو ما لَمَسَهُ حايم خلال دعوته إياها لبيتته حين يقول (وكنت توقعت منك رد فعل آخر غير أن تنهضي فجأة وتعلمني بغضب أشد، اشتعل له وجهك كله، أنه لم يكن لك أن تلبي دعوتي إلى بيت دتسه أنديجان مثل أرسلان، وجلس حيث كنت جلست وربما أكل الأكل نفسه في الصحن نفسه وبالسكين والشوكة، وشرب من الكأس نفسها)¹، كل هاته التفاصيل التي صورها الكاتب تَضجُ بانفعالات نابعة عن إفراط في هرمون العنصرية والكراهية الذي تعكسه تصرفات كولدا الحادة، والتي هي نتيجة الخلفية العقلية والنفسية وحتى للتربية التي تلقتها على يد عائلة يهودية فرنسية التوجه والأفكار المتعصبة، والمشبعة بالمنطق الانتقامي والرؤية السوداوية للأنا على أنه عدو، ولا يمكن أن يكون غير ذلك.

يشير الكاتب إلى ردة فعل حايم وامتعاضه من أسلوب كولدا القَط. يقول (وكم شعرت بألم الذبحة إذ سألتني إن كان بقي في نفسي شيء من كرامة اليهودي وحبه لأرض الميعاد يساعدي على ملمة شملي الممزق استعداداً للرحيل عن هذه الأرض اللعينة!).²

فالثورة التي أحدثتها كولدا لحايم كانت تمهيداً لجعله يغير نظرتة للأنديجان لكنها لم تفلح في جزئه وراء أحلامها المرهونة على أرض وُعدوا بها في توراتهم، كما يقول مالك بن نبي أنه (لفهم نفسية يهودي في الشتات، هناك شيء أساسي هو أن اليهودي لا يترك وطنه نهائياً دون أمل في العودة إليه فالوطن هو الأرض الموعودة لأجداده وأحفادهم، وهو يتمثله عودة نهائية إليه في فكره وأحلامه لأنه القطب الذي يشده إلى قدره)³، هذا الشعور الذي يطغى على معظم اليهود، هو نفسه الذي ميّز كولدا التي لم تُفلح في إقناع حايم بفكرها، كما أنها لم تدري بأنها بكلامها كسرت رابط الود الذي

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 204-205.

² - المصدر نفسه، ص 205.

³ - مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي - المسألة اليهودية-، ص 55.

جمعها بحاييم، لتبني حاجزاً فاصلاً معه عازلاً للحب، هادماً للروح (كولدا ليتك تعلمين كم تسيئين إلى روعي!)¹، وسط كل هذا الغليان لكولدا يقابله حاييم بالصمت، فالصمت حكمة لا يتقنه سوى العقلاء، أصحاب النفوس الهادئة، أمام أصحاب النفوس المضطربة والمحبة للسيطرة كما هو حال كولدا، فقد كان حاييم هادئاً متزنأً، مقتنعاً بأن وجوده على أرض الجزائر كوجود الروح في الجسد، لا يمكن لأحدهما ترك الآخر إلا عند الفناء.

يقوم الكاتب بتصوير مشهد بعدسته من عمق الذاكرة، حين يقف حاييم (أمام صورة كولدا النصفية المكبرة في برواز متوسط الحجم، حدق فيها، متأملاً جبهتها البارزة، لمسكة شعرها المذهب إلى الخلف تكاد لا تطلقه، وعينيها المدورتين يشع منهما بريق حاد، وأنفها الكبير قليلاً ووجنتيها غير العامرتين، عكس شفثيها الممتلئتين، وجيدها الخالي من الحلي مثل أذنيها)²، فالكاتب يصور ملامح كولدا اليهودية، وكأنه من خلال هذا الوصف الدقيق يبرز ملاحظها النفسية من خلال شكلها الذي يعكس طباعها الحادة والجامدة واللاإنسانية.

تدقيق حاييم في مظهر كولدا الخارجي عبر صورتها واسترجاعه لكلماتها الجارحة كان كفيلاً بإسقاطها من عين القلب، والدليل أنه (قَلْب الصُّورَة قَرَب مَذِياع فيليبس من نوع فيليتا)³، فقد ضاق ذرعاً من سخريتها المفرطة وتكبرها، وكلماتها السامة التي تحاول من خلالها الاستهزاء بحاييم، فهامي تحذره من انحيازه للأهالي بنبرة ساخرة عندما يقول حاييم (ردت عليّ بأني تأخرت كثيراً في الالتحاق بصفوف مجرميها. وحذرتني لأول مرة، من أن أنسى أي فرنسي، وذكرني بمصير فاردنون إيفتون*)⁴ فهي تنعت رجال المقاومة و ج.ت.و بالجرمين، لأنهم يمثلون خطراً عليها، من وجهة نظرها

1 - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 205.

2 - المصدر نفسه، ص 205.

3 - المصدر نفسه، ص 205.

4 - المصدر نفسه، ص 208.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

هم أعداء لابد لحايم أن يعيد حسابه لاتصاله بهم، كما ذكرته بمصير أحد اليهود المناهضين للاستعمار.

عدم امتثال حايم لرغبة كولد والسفر معها، جعلها تستنزف جميع محاولاتها، لتلقي جام غضبها وتُظهر وجهاً آخر، كانت تخفيه وراء قناع المحبة المشوهة (...فواجهته، كما روى لي، بما لم يواجهه به عنصري من الأقدام السوداء أنفسهم "أنتم معشر التوشاقيم الأهالي ما أجبنكم! أنتم عار اليهود في هذا البلد")¹، كل هذا من أجل معارضة حايم لها ورفضه الرّحيل والتخلي عن أرض وُلد وعاش بها، روحه معلقة بكل تفاصيلها، فقد قدمت له عروضاً مغرية و (... ضمانات، إن هو غادر معها إلى هناك بأن يحصل على محل لفتح صيدلية وعلى قطعة أرض لبناء مسكن، وربما على حقل زيتون أو برتقال، حسب المنطقة التي سيحل بها... خفضت له من شرط زواجها به إلى أن يغادر معها إلى المتروبول)²، كل هاته الإغراءات لم تحرك ساكناً في تفكير حايم ومعتقداته وتمسكه بأرض الجزائر وبأصحابه من المسلمين، لترد كولد قائلة له (كيف ليهودي مثلك أن يرهن شرفه ودينه وحياته لهؤلاء الحثالات وفوق ذلك أن يتواطأ مع قتلهم من الفلاكة!)³ حايم كان متعاوناً مع ج.ت.و، و كولد قامت بتهديده في آخر المطاف في محاولة بائسة لإقناعه بمغادرة الجزائر (أعرف، إني أعرف كل شيء، وستدفع الثمن!)⁴، فالكاتب أعطى صورتين متضادتين عن يهوديين، أحدهما إيجابي متعايش ماثلاً في شخصية (حايم)، والآخر السلبي والعنصري متبتلاً في شخصية (كولد) التي أبانت عن حقدتها الدفين، وكرهها لتعلق حايم بأرض وشعب لا يخدمان غورها، ولا يُلبيان تطلعاتها. فنظرتهما المتعالية الفوقية تضجُّ من خلال كلماتها كما صورها الكاتب. يتضح من خلال حديثها مع زليخة الجزائرية المسلمة، عندما كانت تدرس في مدرسة جول فيري،(أنها لن تدرس مرة

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 257 .

² - المصدر نفسه ، ص 257.

³ - المصدر نفسه ، ص 258.

⁴ - المصدر نفسه، ص 258.

أخرى في مدرسة يوجد بها أنديجان)¹ وهو ما يدل على أن تربيتها وتنشأتها لعبت دوراً في بث تلك المعتقدات السلبية والنظرة العنصرية التي استفحلت في تعاملاتها وأسلوبها الوقح الظاهر عبر مواقفها، فهي تمثل نموذجاً عن اليهودي المتجنس العنصري، كما أنها متغترسة ومتكبرة على الأهالي الذين استقبلوا طائفها برحابة صدر، فكان الجزاء وليد فكرها المعاق، الذي صور لها أن الصديق عدو فابُدوا للمستعمر الفرنسي الولاء، بغية كسب المودة والامتياز.

حايم وبرغم كل الضغوط التي مارستها كولدًا عليه، إلا أنه حافظ على رباطة جأشه، وحاول التثبيت بخيط وهمي لقصة حُبٍ لا تصلح إلا للذكرى، مُطمئناً إياها أنه سيتزوج بها إن هي بقيت و (تصير مواطنة كبقية الجزائريين)²، لكن سبقها تهكمها في الإجابة (فردت بعصبيّة:

- "مواطنة مثل الأنديجان؟ يا للمأساة! تعني ذمية من جديد! تعني أن أصبح واحدة من نسائهم اللائي يعيش في رؤوسهن الجهل والتخلف والحمق؟ لا ياسيد حايم! كن أنت وحدك المواطن الجديد في هذا البلد الملعون!"³، فكولدا تمادت في محاولة فاشلة لتشويه صورة الجزائر وشعبها في عين حايم، وهذا بعباراتها وألفاظها الفظة والدالة على تركيبها النفسية المريضة، وفكرها المشبع بالروح اللاإنسانية والأحقاد الدفينة، فقد نعتت نساء الجزائر بالمتخلفات، ولا تدري أن الجهل فُرض عليهن ولم يكن اختيارهن، كما أنها لا تدري أن البلد الذي تلعنه هو نفسه الذي جعلها تصل إلى ما هي عليه من نجاح، فالحوار الذي دار بين كولدًا وحايم أبان عن معدنها، وعن مكوناتها، ممّا دفع حايم للانفجار في وجهها وتذكيرها بفضل الأرض التي سكنوا إليها جسداً وروحاً، قائلاً لها (أبوك الفرنسي هو الذي جاء إلى هذه الأرض. وأهل هذه الأرض لم يدعوه ضيفاً، ولا طلبوا منه عوناً وأمك، أمك اليهودية المهاجرة كيف تتزوج نصرانياً مثله من عائلات الغزاة فتكوني أنت هذه المخلوقة

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 258.

² - المصدر نفسه، ص 258.

³ - المصدر نفسه، ص 258.

المهجيبة الغربية)¹ ، وبما أن كولدنا إبنة يهودية، فإنها تنسب لوالدتها التي تزوجت فرنسياً والتي كانت تحلم بالذهاب إلى فلسطين، ويتجلى هذا حين واجه حايم كولدنا، بحقيقتها قائلاً: (أنت لا تبغين من مغادرتك الآن إلى هناك سوى أن تعوضني ما ضاع لأمك من حلم. ثم هناك شعب آخر كان متعايشاً مع غيره من اليهود. أنت تخطئين. لن تكوني أنت ومن معك وحدكم في تلك الأرض. ستجدين دائماً أحداً آخر من شعبها الآخر يجاورك، ومهما تفعلين فتأكدي من أنك لن تتخلصي من حملك، ثقلين متلازمين: الشعور بالضحية المزمّن وتبكيك الجلاد المؤرق!)²، يسلط الكاتب في هذا المقطع الضوء على قضية التعايش بين الأنا والآخر، والآخر مع الآخر. ونقصد هنا بالأنا (العربي المسلم) وبالآخر (اليهودي العربي أو الأوروبي)، فهناك دوماً علاقات قائمة على المشاركة الإنسانية والسياسية تنهض في جوهرها على رؤية إيجابية للآخر، مؤلدة الرغبة في التواصل، فحايم حاول أن يبرز لكولدنا أنّ التعايش وليد الرغبة لا الظروف ولا المكان من تتحكم فيه، فأينما حلّت فهناك ثنائية الأنا والآخر، فلا غنى لأحدهما عن الآخر، هاته التركيبة البشرية لا بد أن يتقبلها كل واحد حتى تسهل عملية الالتقاء والتفاعل التواصلي الإيجابي، للعيش بسلام، لكن الواضح أن كولدنا تسعى للتخلص من عقدها النفسية، فالهروب هو خلاصها الوحيد، فالكاتب جعل -من خلال الحوار الذي دار بينهما- الأحداث تصل إلى ذروتها، فالانفعال هو الذي عرى المشاعر المنمقة، والأحاسيس الدّاخلية للشخصية الثانوية (كولدنا) حين تفاجئ (حايم) بقولها (" ابق أنت ومن معك من التوشاقيم!)³ ليرد بانفعال من موقع تقاذف التهم (لأنكم أشكيناز فأنتم تعتقدون أنفسكم مثل الأوروبيين! فقط لأنكم لبستم لباسهم وتعودتم عاداتهم!)⁴، فالكاتب يشير إلى تعدد الطوائف اليهودية والتسميات التي تطلق على كل جماعة، فهاهي ذي كولدنا تقول لحايم، ابق مع هؤلاء الناس

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم ، ص 259.

² - المصدر نفسه، ص 259.

³ - المصدر نفسه، ص 259.

⁴ - المصدر نفسه، ص 259.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

الذين اخترتهم وهم فئة من اليهود الذين انصهروا في المجتمع الجزائري (فصار هؤلاء اليهود يعرفون بالتوشايم ومعناها بالعبرية "الأهالي" وهم الذين كان وجودهم بالجزائر قديماً، ورغم هذا الانصهار الاجتماعي الذي وقع بينهم وبين غيرهم من الجزائريين فإن اختلاف التعاليم الدينية والطبائع النفسية المكتسبة منها، جعلهم يحافظون على المعالم الكبرى للشخصية اليهودية)¹، فاليهود المنتمين للأهالي يطلق عليهم التوشايم، لكن اليهود (الوافدين من أوروبا سمو بالمليغوراشيم وهم ينقسمون إلى سفارد وأشكيناز)²، أما حايم فقد نعت كولدًا بالفئة المنتمية للأشكيناز، فقد (التحق الأشكيناز منذ قرون بالجزائر، حيث قدموا من إيطاليا عام 1392م، هولندا عام 1350م، فرنسا عام 1403م، إنجلترا عام 1422م، ومن تونس والمغرب في النصف الثاني من القرن السادس عشر)³. فكولدا تعتبر نفسها واحدة من أصحاب الطبقة المرموقة، لكن مواجهة حايم لها وتعرية حقيقة فكرها المتخلف جعلها تضطرب وتحاول في كل مرة الدفاع عن أصلها بضرب حايم في جذور تاريخ أصوله فقالت (أجدادك قبلك لبسوا العباية والبرنوس والحقاظ وصباط زيط زيط مثل الأنديجان، وغنوا غنائهم، وتكلموا لغتهم. وفتلوا الكسكس وأكلوه بأيديهم مثلهم قبل أن يعرفوا الملاعق!)⁴، حاولت إهانته بشتى الطرق، فالحرب الكلامية كشفت عن شخصيتين متضادتين، ليهوديين عاشا على نفس الأرض بعقليتين وخلفتين فكريتين مختلفتين، يستحيل التقاؤهما، فالآخر أنواع وأنماط وعقلييات متعددة، إذ لا يمكن أن تُسفر هاته العلاقة المكهربة عن نتيجة إيجابية، ففضاضة كولدا لم تترك مجالاً لمواصلة النقاش الذي ختمته بنصيحة تفوح بعقب السخرية والأناية قائلة لحايم (لا تنسى أن تستصدر لك بطاقة تعريف جديدة من دائرة دولة الأنديجان الجديدة)⁵ فهي تعلم حُبه وتعلقه بأرض الجزائر، فقد آثر

¹ - كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسية، ص 24.

² - المرجع نفسه، ص 24.

³ - فوزي سعد الله: يهود الجزائر - هؤلاء المجهولون - الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 2004، ط2، ص

144.

⁴ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 259.

⁵ - المصدر نفسه، ص 260.

حب الوطن على حُبه لكَولدا، فالوطن بالنسبة له كالأم يصعب التخلي عنه لأجل أي شيء مهما كان غالياً، وإرضاء لنزوات عابرة. لتنتهي العلاقة بعدها فكَولدا (أوفت بوعيدها وغادرت مع أمها، إلى المتروبول. لست حزيناَ جداً، فغداً، الإثنين التاسع عشر من مارس، سيُعلن رسمياً كما تبثه الإذاعات عن وقف إطلاق النار. إني أشعر أن هذه الأرض ستتنفس أخيراً هواء السَّلام)¹، وكأن الكاتب يريد من خلال هذا وعلى لسان حايم أن تنطفئ النار التي بداخله تجاه كُولدا التي لم تتوانى في إطلاق رصاصات الكلام الجراح لتقتل معها الحُبَّ، ويحل السلام الداخلي بنفسية حايم، لترحل هي بحياتها وفكرها المقزوم الذي تتحكم فيه عنصرية نابعة عن الخلفية الإيديولوجية لكُولدا والتي تمثل صورة عن عديد النماذج اليهودية الجزائرية التي عاشت في الجزائر دهرًا، لتطير بعدها مع الأسراب الطائفية المغردة للمستعمر الفرنسي، أو إلى أرض الميعاد كما يحلو لهم تسميتها، فمعظم اليهود يسكنهم هاجس الهوية، لذا نجدهم يبحثون دائماً عن المفر إلى المجهول، إلى أرض وعدوا بها لتنفك معها عقدة اليهودي الضحية، الذي يصنف الجميع على أنهم أعداء له، من زاوية نظر قاصرة ومحدودية فكر عقيم.

صورة اليهودي البغي:

*شخصية زوجة حارس المقبرة:

يصور الكاتب أمين الزاوي شخصية يهودية غريبة الأطوار، تشبه إلى حد بعيد تلك الشخصيات الخرافية للساحرات، ينعت الكاتب هاته المرأة التي تجاوزت عتبة الستين. لكنها لازالت تحافظ على لياقتها، في عديد المرات على لسان بطله الراوي ب صاحبة (الأسنان الثلاثة المغلفة بالذهب الأصفر)²، فهي تبدو مخيفة بتلك الأسنان خاصة بابتسامتها الماكِرة، هاته المرأة هي إحدى

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 210.

² - Amine Zaoui: P 139-141-142-143-144.

زوجات حارس المقبرة اليهودية الإسلامية حسب البطل الراوي (...إحدى زوجاته، الصغرى التي تبرز بافتخار أسنانها... قدمت لي براداً من الشاي بالنعناع)¹ فقد قصدها بغية البحث عن قبر والدته، لتستضيفه في بيتها المخاذي للمقبرة، تلك المرأة التي لم يطمئن أبراهام لنظراتها ويتحلى هذا في قوله (كان الذئب يسكن نظرتها الزائغة)² ولأنها أحست بارتباكها أخذت تسرد قصة الأسنان المذهبة قائلة (...انتزعتها من فم ميت. كان الرجل الذي أحببته، ولمدة أربعين سنة لم يستطع تقبيلي في فمي! كان يقول لي: "أن تطبع قبلة حارة على فم امرأة كما لو أنك تضاجعها، هكذا يولد الصبيان!..)³، تلك الحكاية التي تعجب منها البطل الراوي وجعلته يتقيأ مباشرة كأس الشاي المزيد الذي حضرته له، لأن الحكاية تُعدُّ ضرباً من الخيال، فامرأة تنبش قبراً لتتزع أسنان ميت لا بد أن يُسيرها دافع الانتقام الجنون، والشهوة المفرطة تقول ففي (اليوم نفسه من دفن رجلي، النذل، انتظرت سقوط الليل، وحدي، نبشت قبره الذي كان ما يزال رطباً وأخذت من فمه ما كنت أبحث عنه: الذهب والجنس! منذئذ، حين أشم رائحته تحصل لي الشهوة يومياً!)⁴، يدل هذا الفعل الذي قامت به على جرأتها وجبروتها، فقد أقدمت على خطوة جريئة جداً لا تفعلها سوى امرأة تؤمن بالخرافات والأساطير العجيبة، وكذا تعديها على حرمة القبور يُعد جرمًا لا يقوم به سوى أصحاب الأنفس المريضة.

يسألها البطل الراوي عن قبر والدته ويخبرها أنها (دفنت في القبر نفسه الذي دفن فيه جدي الحاج ميمون، حارس قبر المغيلي)⁵ ليثير كلامه استغراب المرأة، وتعجبها الذي بدى واضحاً على تقاسيم وجهها، لم تبدي ردّة فعل إلا عندما سمعت اسم أبراهام وقد روى لها قصة اسمه المبارك،

¹ - Amine Zaoui: P 139.

² - Ibid: P 139.

³ - Ibid: P140.

⁴ - Ibid: P 140.

⁵ - Ibid: P 142.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

فبمجرد سماعها له ألحت عليه أن يدخل كوخها لرؤية ابنتها (فتاة في العشرين من عمرها، صرخت من ورائنا، بصوت جارح وعنيف).

- فقدت عقلها يوم اغتيال والدها / قالت المرأة...¹ حيث يصف الكاتب الفتاة على لسان بطله الراوي (كانت الفتاة قصيرة القامة -قامة ملاك- نظيفة وجذابة رغم غضبها. تشبه بركاهم... يتشابهن مثل قطرتي ماء. دمعتان!)² ويُشبهها بحبيبتها تلك الفتاة لم تكن علامات الجنون ظاهرة عليها، لكن المرأة أصرت على أبراهام أن يراها لعلها حسب معتقدها وفكرها المحدود تنال بركة أبراهام تيمناً باسمه كي تشفى ابنتها.

تقوم المرأة باصطحاب أبراهام وبركاهم إلى قبر والدته، يقول البطل الراوي (توجهت المرأة ذات الأسنان الثلاثة المغلطة بالذهب بالأصفر نحو المربع البعيد جداً، في آخر المقبرة. يبدو أنها تعرف قبر جدي ووالدي. قبر المغيلي قد هدمه الأصوليون)³، ليتفاجأ أبراهام بقبر لا يشبه كل القبور المحيطة بهم. يقول (فجأة... توقفت عند قبر، لا يشبه القبور الأخرى! مفاجأة! الميتان، والدي وعشيقها جدي، ينامان في ورق الشجر. رائع مرتب جيداً)⁴، ليسأل أبراهام عن سبب الاخضرار المفرط لقبر والدته وجده، ليُصدم بإجابة المرأة (إنه خبزنا. عفوا! خبزكم؟! الذي ينبت على مقابر موتانا الأعراء؟).

- منذ اغتيال زوجي أحاموخ، بدأنا نجني هذه النبتة السحرية الحشيش، من قبور النساء أو القبور المختلطة... نصدر العشب حتى إيطاليا ونيبع جزءاً بثمان منخفض للإسلاميين الذين ما يزالون في الجبال والسدود، هؤلاء يخفون السلاح في قبور الرجال. قبور الرجال فقط يقولون إنه ممنوع

¹ - Amine Zaoui: P142.

² - Ibid: P 143.

³ - Ibid: P 144.

⁴ - Ibid: P 144.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

استعمال قبور النساء كمخبيء للسلاح...¹، فالكاتب يصور لنا نموذجاً عن المرأة اليهودية الماجنة، فهي حسب هذا المقطع تشتغل مع عصابة في المتاجرة بالمنوعات، فهي رمز للانحلال الأخلاقي من خلال تصرفاتها وطباعها، زيادة على ذلك فإنها تستهلك الحشيش بدليل أنها (أخرجت... بلا كلفة سبيتها لتدخن الحشيش)² فكل الصفات الشائنة، ألصقت في هاته المرأة اليهودية، التي توسمت شفاء ابتتها على يد أبراهام، كأنه ولي صالح، وهذا نابع عن إيمانها بالخرافات وقصص التبركات بأوليائهم الصالحين من اليهود. فالكاتب عمد إلى إعطائنا صورة عن اليهود الذين مارسوا العديد من التجاوزات خلال وبعد الاستعمار الفرنسي على الجزائر، ويشير أيضاً إلى نقطة مهمة، وهي بقاء اليهود داخل الجزائر، وعدم مغادرتهم نحو وجهات أخرى، ودليل ذلك هي مصالحتهم التي اتسمت بالخرافات والتجاوزات، والتي تعتبر مصدراً للرزق الحرام الذي اتبعوه، فبالرغم من أن هاته الشخصية بعيدة عن الأنا في تعاملاتها، إلا أنها تعكس صورة عن اليهود بطباعهم وسلوكاتهم السلبية داخل المجتمع الجزائري، والتي عرفوا بها والتاريخ يشهد ويصادق عليها، كما تكشف عن التجاوزات التي ميزت اليهود وتركيبتهم ومرد كل هذا (إلى غريزة "طفيلية" استغلالية في طريقة الحياة اليهودية)³، هاته الشخصية اليهودية تتسم بسلوكات سيكوباتية تتجه في الغالب إلى (الضرر والإيذاء الاجتماعي، لذا فتعريف السلوك السيكوباتي يتحدد في وجود اضطراب مستمر أو عطل عقلي ينجم عنه عنف غير طبيعي أو سلوك خطير لا يتسم بالمسؤولية)⁴ وهذا ما لمسناه في معظم تصرفات المرأة اليهودية التي تعادي المجتمع، وتفضح الجانب اللاأخلاقي واللامسؤول لديها، ولدى فئة من اليهود المتطبعين بنفس طباعها وسلوكاتها.

¹ - Amine Zaoui: P 145.

² - Ibid : P 146.

³ - جمال حمدان، تقديم: عبد الوهاب المسيري: اليهود أنثروبولوجيا، دار الهلال 16 محمد عز العرب، العدد 542، رمضان، فبراير 1996، ص 114.

⁴ - نائر أحمد غباري، خالد محمد أبو شعيرة: سيكولوجية الشخصية، ص 99.

3- صورة اليهودي الشاذ:

* شخصية داوود بن سعيد:

يصور الكاتب (أمين الزاوي) عديد النماذج عن الشخصية اليهودية الجزائرية بمختلف طباعها وسلوكاتها التي تحددها البيئة وكذا التنشئة التي يتلقاها اليهودي منذ صغره، ولا شك أن شخصية (داوود) اليهودي تعدُّ نموذجاً يحاكي الواقع بملامحه النفسية والفكرية وعلاقاته مع الأنا، هاته الشخصية الثانوية التي حضيت بمكانة خاصة عند الكاتب، أظهرت جانباً من تركيبة الشخصية اليهودية المائلة للشذوذ وهذا حسب تصرفاتها كما يقول البطل الراوي (عمي داوود لم يتزوج أبداً. وقته كان ينقضي بين القراءة والشعر، الموسيقى والرسائل الغروالدتية لهؤلاء الرجال على أوراق وردية معطرة. كان يقرأ برغبة كبيرة ورغبة عميقة ابن عربي وابن ميمون)¹، هذا الميل يسقط عنه سمة الرجولة، فبالرغم من ثقافته واطلاعه على كتب الفلسفة والأدب إلا أنه لم يتوانى في ممارسة شذوذه علناً أمام عائلته، فكما يصرح البطل الراوي (كان عمي رجلاً جميلاً: كان ظل مرآته وكان يتجمل. كان يتقاسم مع عمتي تاميرة منتوجات التحميل ذاتها، حنة فاس، سواك السودان... لم يتغيب عن حصص إزالة الشعر الذي تقوم به الخامسة المغربية... لم يكن عمي داوود يتردد في ارتداء اللباس النسوي وملابس داخلية من حرير. كان يرقص مثل عمتي تاميرة، حين كانت تقلد العاهرات البدينيات للماخور العسكري)².

يدلُّ هذا المقطع على مدى الانحلال الخلقي، لما فيه من مشاهد مخلة بالحياء، فالكاتب الزاوي متعود على كسر طابوهات الجنس والقيم الإنسانية في كتاباته، ليتجلى هذا في شخصية داوود الذي (كان له ميول نحو الرجال. في الواقع، لم يكن يتردد على النساء إطلاقاً. بالتأكيد، كان له ضعف

¹ - Amine Zaoui: P 47.

² - Ibid: P 47.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

كبير بالنسبة إلى أخته تاميرة)¹ فالواضح أن معظم أفراد عائلة الحاج ميمون يعانون من أزمة جنس حادة، حيث تختفي الضوابط الدينية التي تتحكم في قيم ومبادئ هاته الأسرة اليهودية.

يضع الكاتب داوود موضع الولد المطيع المدلل من طرف والدته، فهو المفضل بين أبناءها، حتى وهي تعيد على مسامعهم حكايات أجدادها كان يصغي بانتباه كأنها أول مرة سمع فيها الحكاية مبدئياً إعجاباً بأمه (على غرارنا جميعاً، ليس المرة الأولى التي يسمع فيها عمي داوود هذه القصة المستبعدة لإفريام وبنت السلطان أبو تشفين، ومع ذلك، في كل مرة، كان يتظاهر على أنه معجب بمهارة حكاية أمه محبوس، مندهش، كان الوحيد الذي يستمع إليها بانتباه وتركيز. كانت له أذنين كبيرتين!)²، ولعل اكتسابه لفن الإصغاء جعل والدته تفضله على الجميع، وإلى جانب إتقانه مهارة الإصغاء، كان شغوفاً بالموسيقى ويتجلى هذا في قول البطل الراوي (كان داوود شغوفاً بالموسيقى، موسيقى كامل، عصامي. كانت له أذن موسيقية. كان جميلاً، فخوراً بجسده، حساس ضعيف النية. جدتي... صرحت لنا أن غيتارة ابنها داوود جاءت من طليطلة)³ يركز الكاتب على البناء الخارجي لشخصية داوود، ليصفه في عديد المواضع بالجميل، والمعروف أن صفة الجمال تنسب للمرأة، لكن ومن خلال إلحاحه على هذه الصفة، فإننا نلمس تلك الأنوثة المفضوحة من خلال العبارات التي أُنث بها الكاتب البناء الشكلي لليهودي داوود، وهذا ما يؤكد شدوده خاصة وأن (له كرتان مجففتان بين الرجلين. فاكهتان ميتتان)⁴ وهذا ما يقطع الشك باليقين، حين ينفي الكاتب سمة الرجولة عن داوود ويبين عجزه.

¹ - Amine Zaoui: P 46.

² - Ibid: P 45.

³ - Ibid: P 42

⁴ - Ibid: P 41.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنظيط"

عشقه للموسيقى قاده إلى قسنطينة، مدينة الرُّقي واللحن النقي، مدينة جسورها معلقة، وقلوب عاشقيها محترقة، كقلب داوود حين يقول البطل الراوي (ذهب عمي داوود إلى مدينة قسنطينة من أجل تحسين قواعد لحن المألوف بسرعة كبيرة، سقط في حب هذه المدينة. بقي فيها سبع سنوات، كان يود أن لا يغادر أبداً مدينة الجسور المعلقة وضريح سيدي راشد)¹، تعلم داوود فن المألوف، لكن خروجه عن المألوف جعله يرحل عن هاته المدينة، خاصة من أجل اتباع نزواته وشهواته، ويتجلى هذا في قول البطل الراوي (بمجرد أن انخرط والدي في حرب التحرير، أخذ عمي غيتارته المجلوبة من طليطلة، دون سابق إنذار، ليغادر قسنطينة، ليعيش مع عشيقته بمراكش. جدتي، كانت كثيفة كانت تعرف أن هذه المدينة الحمراء ملعونة وغير مضيافة. خدع ثم تخلى عنه رفيق حياته... عمي داوود، دون حقد، لكن، بشيء من المرارة عاد ليعيش في مدينته المختارة، قسنطينة)²، تلك الضربات الموجعة جعلته يعود أدراجه إلى قسنطينة التي شهدت سنة 1956م هجمات متتالية من قبل المستعمر الفرنسي، يصور الكاتب تلك الحياة المضطربة والمليئة بالأفعال الشائنة والأخلاقية والتي تُمس الجانب الديني، بغض النظر عن ماهية الدين المتفق عليه أن لكل عقيدة ضوابط تحدها وتفصل بين حلالها وحرامها، فالكاتب أمين الزاوي معروف عنه تخطيه للمحظورات الدينية والتوغل في طرحه، دون أية عوائق من شأنها أن تثنيه عن فضح التصرفات اللاأخلاقية وتمثيلها داخل الصرح الروائي.

الكاتب يروي معظم أحداث رواية (آخر يهود تمنظيط) خلال الحقبة الاستعمارية، فالزمن الروائي، يختلف عن زمن كتابة أحداث الرواية فالحكي ينطلق من النقطة الصفر ليسترجع أحداث مضت على شكل ذكريات تُحكى على لسان بطله الراوي أبراهام اليهودي.

¹ - Amine Zaoui: P 46.

² - Ibid: P47.

يضع الكاتب داوود اليهودي في صورة هشة بعيدة تماماً عن أية تفاعلات مع الأنا الجزائرية المسلمة، وعلى أنه رجلٌ خلق للفن، لا لحمل السلاح، فالكاتب يشير إلى أن داوود يحمل رسالة سلام منبعثة من نعماته، كما يظهر تأثره بالشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ رايموند ويتجلى هذا حين يقول البطل الراوي (يومي 12 و 13 ماي 1956، بعض اليهود ازعجوا بعض المسلمين بسبب عمليات ضدّ مقاهي يهودية. البلد في صميم الحرب. الحقد والموت اعتلى الحياة اليومية. سارع داوود لإنشاء مدرسة موسيقية أندلسية... كان يتحدث إلى تلامذته باحترام كبير، تلامذة الشيخ عبد الحميد بن باديس. كان يقرأ بلذة صحيفة العلماء، كان مفتوناً بمقالات الكاتب والمسرحي أحمد رضا حوحو)¹، فبرغم كل الانتهاكات والأفعال المخلة بالحياء، والمسئئة خاصة بالمجتمع الجزائري من طرف داوود، إلا أن هناك العديد من الفنانين الجزائريين اليهود الذين كانت لهم بصمة في الساحة الفنية الجزائرية، والتي لا ينكرها التاريخ، لكن الفن لم يشفع لداوود الذي طغت عليه أفعال عكست شخصيته المريضة والمليئة بالاضطرابات النفسية، وشذوذه الذي تخطى حدود الدين، وحشره في زمرة المنبوذين اليهود.

4-صورة اليهودي المآجن:

*شخصية عمران بن سعيد:

تتعدد الشخصيات اليهودية داخل المبنى الحكائي للرواية لثجسد صورة أخرى عن نموذج يهودي مثقف وزير نساء، (عمران) اليهودي وهو أحد أبناء الحاج ميمون يقول عنه البطل الراوي (عمي عمران، مغربي وخاطف النساء الجميلات)²، كما أن والدته لم تتوانى في سرد مغامرات ابنها

¹ - Amine Zaoui: P 48.

² - Ibid: P 76.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

عمران على مسامع العائلة متى ما سنحت الفرصة (... ولأنها لم تكن تتوقف عن حكاية حياة عمي عمران، قلت في نفسي: جدتي لم يكن لها أي ابن يسمى عمران).¹

شخصية اليهودي عمران المحب للترحال والمغامرة كما يصوره الكاتب (أمين الزاوي)، يمثل دور العاشق الذي تسير نزواته وشهواته العابرة، كما أنه شخصية مستهترة، لا تضع حسابات لأية مغامرة عشقية، فخلال (إقامته المتكررة بجزيرة... في فندق تملكه ديجية مغربية... كانا يتفاهمان بسهولة، في اتصاهما، هو بالميزابية وهي بالشلحية... لم يتحرجا في ممارسة الجنس، في ملء النهار، وراء منضدة استقبال الفندق)² وهذا يدل على عدم تدينه، بالإضافة إلى طيشه وزندقته المعلنة وأفعاله المخلة بالحياء، يصفه الكاتب على أنه عاشق للخيل. فقد (كان أكبر مفتون بالخيل وعارفٌ جيد بكل أنواع هذا الحيوان النبيل... كان يعرف الحديث بلغة الخيل تماماً)³، عمران اليهودي يمثل فئة من اليهود الذين غيروا وجهتهم الجزائر إلى بلدان مجاورة كالمغرب وتونس التي عرفت إقبالاً هي الأخرى من قبل الطائفة اليهودية، حيث وجدوا الترحاب من طرف أهلها، فاليهودي أينما رحل كيّف نفسه، وسخر إمكانياته للشعور بالانتماء، فالكاتب يصور (عمران) على أنه شخصية مؤثرة، ليس في البشر فحسب -خاصة النساء- وإنما في الخيل أيضاً، وهذا ما لمسناه من خلال وصيته التي وجدتها حببته ديجية، بعد أن (وجد ميتاً لا أحد تفاجأ ولا قلق. رجل مثل عمران، بعقل من هذا النوع، لم يكن ينتظر الموت، مسترخياً على سرير مريح... أطلب منك أن تدفيني في مقبرة خيول جربة. إني لا أتحمل رفقة الكائنات الإنسانية حتى الأرض اليابسة)⁴، ففي هذا دلالة على تعلقه الشديد بالخيول وروحه الحساسة تجاهها فبعد موته مباشرة (...أصبحت خيله بالكآبة الحيوانية... ماتت خيله كلها.

¹ - Amine Zaoui: P 76.

² - Ibid: P77.

³ - Ibid: P 77.

⁴ - Ibid: P 77-78.

الواحد تلوى الآخر لقد أسلمت الروح)¹ لقد كان عمران معروفاً في مدينة جربة بتونس، لهذا وبعد حادثة وفاة خيله بعده، تنتهز عشيقته الفرصة لتزويج شائعة مَفَادُهَا (أن عمران كانت له سلطة سحرية على كل الخيل هكذا قبره، بعد مدّة صار البقعة الثانية للحج حيث يأتي مرتين في العام فرسان سباق الفروسية المشهورين... يصطحبون أيضاً خيول السباق التي كانت تعاني من كل الأمراض النفسية والجسدية قبضة صغيرة من التراب الأحمر من قبر عمران، تذر بين عيني الفرس وهذا الأخير يستعيد حيويته وقوته)²، كل هذا من أجل أن تسيّر فندقها، وتزيد من شعبيته، لكنها وبعد اكتشافها لمذكراته العشقية التي أشعلت غيرها المجنونة (...قررت إخراجها من القبر ودفنه في مقبرة يهودية مسلمة)³، لتتغير نظرتها لعمران، وتشوه صورة المحبة في عيني ديجية، فهو خائن (لا يستحق سعادة هذه الرّاحة الأبديّة بين الخيل النبيلة والوفية، يجب أن يدفن مع الشريرين، مع الخبثاء من جنسه: الإنسان، هذا المخلوق المنحط)⁴ حسبما علقت ديجية، لتسقط تلك الهيبة التي مُنحت له وتضعه في مصاف الرّجال اليهود الخائنين حسبها، وذلك حقيقي فقد كان عمران يعشق زوجة أخيه الأكبر حسب اعترافاته التي كتبها بخط يده، تروي قصة عشق دمرت العائلة بأكملها حين يقول في مذكراته (هذا هو قلبي المفتوح... فجأة قصة حُب متحمس قد قلبت المسار الهادئ لحياة عائلتنا المرصوفة جيداً. قنبلة عاطفية فجرت في صميم عائلتنا الكبيرة أدت إلى أحقاد، قطائع وبكاء وهجران، والضغائن! منذ أول يوم لوصولها في بيتنا الكبير، لوبه قد أشعلت النّار في قلبي)⁵، فقد كان عمران مهووساً بتلك المرأة (لوبة) والتي وقع في حبها من أول نظرة. يقول (حين رأيت لأول مرة إشراق وجه لوبة المنير، قلت في نفسي: "إن الله امرأة! امرأة! لن يكون الله إلا امرأة...")⁶، يدل هذا

¹ - Amine Zaoui: P 78.

² - Ibid : P 78.

³ - Ibid: P 79.

⁴ - Ibid: P 79.

⁵ - Ibid: P 79.

⁶ - Ibid: P 80.

هذا المقطع المتكرر على شرك عمران بالله، وتصريحه الخطير الملغم عن دخوله مرحلة العشق الممنوع وهذا بتأثره بلوبة مُدرسة اللغة الفرنسية بأدرار، وهنا يشير الكاتب إلى أن اليهود، تعاملوا مع الفرنسيين، وأقاموا علاقات معهم، وتأثروا بهم، فاليهودي يُكيّف ذاته حسب ما تتطلبه العلاقات التي تخدم مصالحه وتستجيب لتطلعاته، فهذا هو ذا عمران يتطلع إلى ما تمناه (لوبة) وينجذب هو الآخر لكل ما تحبه هي، يقول (..شعر بودلير ملارمي وأراغون... أنا ولوبة كنا نقضي ساعات طوال في قراءة النصوص الجميلة شعرية ونثرية)¹، كل هؤلاء الشعراء هم شعراء يكتبون عن الحب، فالكاتب يصور عمران ولوبة في مشهد رومنسي. جمع بينهما، تأثرهما بقراءة الشعر والذوبان فيه حدّ الجنون.

فالكاتب هنا يُظهر اليهودي دوماً في صورة المثقف، وهذا حين يركز على الجانب الثقافي والفكري لليهودي، المتفتح والمتطلع على مختلف المجالات، سواء الفنية أو الأدبية. لكنه لا يخفي تلك الصورة الشائبة والتي يطغى عليها مشهد الانفلات والانحلال الأخلاقي الذي اتصف به اليهودي عمران، وهذا حين ينتهك حرمة الشهر الفضيل، ولا يقيم حساباً لحرمة الدين الإسلامي، فقد اعترف قائلاً (أول مرة قبلت لوبة في الفم، كان يوم رمضان)² وهذا عندما مارس خيانتته لأخيه مع زوجته لوبة، خاصة بعد إهدائه لها (رواية مدار السرطان لهنري ميلر)³، تلك الرواية التي زادت من جنونها ومجونها رفقة عمران فلوبة (لم تكن تتحكم في كلامها وحركاتها التي صارت جريئة... كانت تقبلني بعنف في الفم. كانت تطلب مني أن أقرأ لها مقاطع هنري ميلر، تلك التي يحكي فيها مرحة بباريس)⁴ نلمس هنا تأثير الكاتب (أمين الزاوي) بالثقافة الفرنسية والتي جسدها من خلال شخصوه، شخصوه، والتي أبانت عن فكره وتأثره بالثقافة الغربية والمعروف عنه أنه يتخذ لغتهم أداة للتعبير عن خلجاته وأفكاره المجسدة عبر روايته، ويظهر التأثر حين يقوم الكاتب الزاوي بصقل شخصية (شيلوك)

¹ - Amine Zaoui: P 80.

² - Ibid: P81.

³ - Ibid: P81.

⁴ - Ibid: P82.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

اليهودي في رواية شكسبير (تاجر البندقية) على شخصية (عمران)، ويصوره على أنه نموذج لليهودي المحب للمال والطماع والمخادع، كما صوره الأدب العالمي، هاته السلوكات التي ظلت لصيقة بالشخصية اليهودية النمطية والمعروفة لدى عامة الناس، والتي كانت سبباً في العداء التاريخي بين اليهود والمسيحيين. ويتمثل سلوك الخيانة في طباع (عمران) الذي تخلى عن عشيقته (لوبة) بعد شعوره بتأنيب الضمير تجاه أخيه رسلان، متجلباً هذا في قول عمران (...قررت هجرة القرية. دون أن أخبر أحداً، مصمماً، أخذت الطريق الذي لا يؤدي إلى أي مكان. كنت أبحث عن مدينة بلا مأوى، بلا لغة، كنت أجري نحو مكان بعيد حيث يمكنني دفن هذه الذكرى المؤلمة بابتعادي عن مدينتي، تاركاً ورائي لوبة، منفردة في معاناتها، شعرت أني نذل خائن! اخترت طريق المنهزمين)¹ فسمة الهروب تدل على ضعف شخصية عمران وعدم قدرته على المواجهة، وتركه لوبة بعده لمصير مجهول، لتدخل حلقة الجنون، وتقوم والدة عمران بربطها مثل حيوان خوفاً من الفضيحة.

لوبة كانت ترى في عمران أنه شيلوك بطباعه وسماته، لذا كانت تبحث عنه في المنازل المجاورة بعد هجرانه لها، صارخةً (أين تحبّون حيي، كنزي، شيلوك؟)²، والواضح أن أمين الزاوي متأثر بتلك الشخصية اليهودية المشهورة في رواية (تاجر البندقية) لشكسبير وهذا ما انعكس جلياً في روايته، كما يوضح اطلاعه على الأدب الغربي مما أدى لبروز ملامح (شيلوك) على (عمران) الذي غاص هو الآخر في عمق تلك الشخصية التي طغت على نفسيته وفكره، فعمران يحمل معه عقدة الذنب خاصة تجاه لوبة التي قلبت موازين حياته.

هروب عمران يمثل صورة عن اليهودي المشتت، والذي تكون خطاياها سبباً في اختفائه، فهو يحاول الانسلاخ من ذاته، حين يعترف (...هربت من القرية، أردت التخلص من اسمي، كنت أريد تحرير جسدي من رائحتي. بلا بوصلة، كنت أتقدم.. في الوحل أو في الدغل! ... وصلت إلى هذه

¹ - Amine Zaoui: P 82-83.

² - Ibid : P83.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

المدينة التي تسمى ندرومة... ندمت على أني لم أتبع لوبة في قعر البئر، كنت أبحث عن بئر آخر، وندرومة كلها لم تكن سوى هذا البئر الذي كنت أريد بلوغ قعره بأقصى سرعة)¹، كان عمران يريد البدء من النقطة الصفر، فكانت الوجة تلمسان، بئر الذي يريد الاندفاع في قعره، لكن تأنيب الضمير وعقدة الذنب وجلد الذات سيطر على فكره ونفسيته، لكنه استطاع النهوض من جديد وامتهن حرفة صناعة الحلويات التي برع فيها وتفاجأ بنفسه حين أجاد وأبدع فلقبوه بالرجل (صاحب الأصابع العسلية)²، فالكاتب يشير إلى صفة الإصرار التي يمتاز بها جُلُّ اليهود، و الذي يكيف قدراته ويسخرها من أجل النجاح، فقد نجح عمران فعلاً خاصة في شهر رمضان، حين يقول (... كان شهر رمضان، رائحته وسحره. خلال الثلاثين أو التسعة وعشرين يوماً، كل الطاومات... مزينة بهذه المسكرات. كانت حلوياتي اللذيذة... تسافر حتى دمشق، القدس وفاس ومكة وبغداد)³، فقد لاقت حلوياته رواجاً في أوساط المسلمين العرب كافة، وفي هذا دلالة على تعاملاته مع الأنا المسلمة الجزائرية، وتقبل الأنا للآخر والعكس صحيح، خاصة في التعاملات التجارية.

خلال تلك الفترة بتلمسان، قام (عمران) بقراءة متمعة لرواية شكسبير، ليتعرف أكثر على شخصية شيلوك، والتي أصبحت هاجساً يؤرقه، حين يعترف (... كنت أقرأ وأعيد قراءة تاجر البندقية... أنا الذي اسمي عمران بإعادة قراءتي لتاجر البندقية، قررت تغيير الاسم... يسموني شيلوك... هذه الشخصية لشكسبير تشبهني بل، أنا من يشبهه ومع ذلك، أنا لست مرابياً، لا تاجراً ولا صاحب بنك! ... أنا لا أتكلم لغة هذا الكاتب العنصري، ولا لغة شخصياته الحقودة والسامة. أتكلم العربية والعبرية والمغربية والفرنسية الجزائرية).⁴

¹ - Amine Zaoui: P88.

² - Ibid: P 89.

³ - Ibid: P 89.

⁴ - Ibid: P 89-90.

هذا الحوار مع النفس، يظهر مدى انسياق عمران وراء شخصية شيلوك وتأثيرها في تركيبته الشخصية، فبالغوص في أغوار النفس هناك شبه من شيلوك في مكان ما من البناء الداخلي لعمران اليهودي، وهو ما حاول الكاتب أن يظهره من خلال سلوكاته وطباعه. كما يظهر (أمين الزاوي) وجهة نظره عن طريق شخصية عمران، للكاتب ويليام شكسبير وينعته بالكاتب العنصري، هذا الأخير الذي أعطى صورة مشوهة لليهود حسب رؤيته آنذاك. لكن عمران يحاول جاهداً أن يثبت لنفسه أنه لا يشبه شيلوك، لذا يقرر الذهاب للبندقية، حين يقول (بعد قراءة لا نهائية لتاجر البندقية... في الحقيقة، كنت ذاهباً للبحث عن لوبه، شيلوك لم يكن سوى ذريعة)¹، فقد استطاعت لوبه أن تقنعه بأنه شيلوك، لتترسخ الفكرة في ذهن عمران وتصبح هوساً وهاجساً مؤرقاً يلاحقه، يسيطر على تصرفاته وانفعالاته، لذا يحاول أن يغير تلك الصورة بأية طريقة. يلتقي هناك ببائع سقط تركي، يشتري عمران مرآة تعود لشكسبير حسب البائع، ليبدأ بعدها في مُساءلة الذات والبحث عن هويته الحقيقية، يعترف (وقفت أمام هذه المرآة وبدأت أخطب... متوهم، كنت أقرأ مقاطع دور شيلوك. أمام ذاتي، لم أتوصل لمعرفة ذاتي. تحولت إلى شخص آخر... لست أنا من في المرآة... أنا لست شيلوك شكسبير. أنا عمران بن سعيد من تمنطيط أو إشييلية)²، يطرح الكاتب الزاوي مسألة تناول الأدب الغربي لليهود، وذلك الحضور المكثف للشخصية اليهودية بسماحتها وطباعها السيئة، في صورة مهينة ومشوهة حسب اليهود. فتلك الصورة التي نسبت لعمران سببت له صراعاً داخلياً مؤرقاً، وأفقدته توازنه وحتى عقله، فقد توهم في أحد الأيام أن شيلوك أمامه يخاطبه، ويفرغ غضبه على الكاتب الذي جعله بتلك الصورة المنحطة يقول عمران (... لقد كان هنا، شيلوك، وأنا لم أكن هناك، بدأ يتحدث عن هذا المبدع بقلب قاس: "هذا الكاتب المعادي للسامية قد أهانني. كان عنده شيء ضدي. إنه يريد مالي. إنه يخاف من ذكائي. الآن وبما أن الأشياء قد تغيرت، سأرفع شكوى

¹ - Amine Zaoui: P 90.

² - Ibid: P91.

ضده في الأمم المتحدة أو في المحكمة الدولية العليا، سأذهب في يوم من الأيام لأبصق على قبره وأتبول على شاهدة قبره!)¹، يتضح من خلال هذا المشهد سخط عمران على شكسير وليس شيلوك، فهو يترجم أحاسيسه على لسان شيلوك، لكنه في النهاية ليس سوى انعكاساً لصورة شيلوك بسمات أخرى، لكنها تدل على الجانب المظلم من التركيبة النفسية والفكرية التي عُرف بها اليهود منذ القدم، فصفة الخيانة طغت على شخصية عمران الذي لم يكن وفيّاً أبداً لعشيقاته، ولا حتى لشيلوك. فهو يمثل صورة عن اليهودي ضعيف الشخصية والمخادع، وعدم ثقته بنفسه جعلته يواجه صراعات نفسية حادة بحثاً عن الذات والهوية.

5- صورة التُّجار اليهود:

يسلط كل من الكاتبين (أمين الزاوي) و (الحبيب السائح) الضوء على التجار اليهود في صورة مقتضبة، لكنها تعكس واقع التجار اليهود بالجزائر، الذين توفرت لهم كل السبل لممارسة تعاملاتهم التجارية دون أية عوائق أو ضغوطات في حين (اشتغل اليهود بمختلف المهن والحرف التي كانت سائدة في الجزائر العثمانية كغيرهم من المسلمين والمسيحيين. وتخصّصت كل طبقة اجتماعية منهم في نشاطات معينة تتناسب وإمكاناتها)² أما عن العامل الذي ساعدهم، فهو نفوذهم وعلاقتهم مع الدول المجاورة وحتى الأوروبية، والتي أدّت إلى احتكارهم للتجارة بالجزائر، فالسلطة والمال والاحتكاك بالأوروبيين اليهود وغيرهم، كلها عوامل أهلّتهم للريادة في هذا المجال.

"تقوم رواية (آخر يهود تمنطيط) على وصف أحد الأحياء بمدينة تلمسان على لسان (عمران) الذي لجأ إليها قائلاً (أقمت بالحَيِّ المشهور الشعبي حي الحرفيين: نساخ الخيل، أغطية الصوف والموسيقين صانعي العود الغرناطية والحفار والآبار وصانعوا البلغات بائعوا القهوة وتجار

¹ - Amine Zaoui: P91.

² - فوزي سعد الله: يهود الجزائر، هؤلاء المجهولون، ص 156.

التوابل، العشابون ودباغو جلود الخرفان، كتاب الطلاسيم وقراء القرآن، بكاؤو الموتى وخياطو الجلباب... كان التجار المسلمون يعاشرون أبناء عموماتهم اليهود والإسبان المسيحيين)¹. ففي تلمسان التي عرفت تواجداً كبيراً للطائفة اليهودية، ازدهرت فيها التجارة، كما أطلق عليها "قدس شمال إفريقيا"، كما أن اليهودي الحاخام والطبيب أفرايام النقاوة اتخذ من مدينة تلمسان ملجأً له حيث يرقد اليوم في المقبرة اليهودية.

* شخصية رامون بنكيكي:

رواية (أنا وحايم) شهدت حضوراً نسبياً للتجار اليهود، الذين كان لهم دور بسيط في تأثيث أحداث الرواية، فبعد وصول حايم إلى الجزائر العاصمة وجد صديق والده بانتظاره، هذا الأخير الذي كان يشتغل بالتجارة، فبعد ساعة من الانتظار يقول البطل الراوي (... إذ تبسم في وجهينا بإشفاق، وكان رجلاً خمسينياً من معارف والد حايم بزي أوروبي من القبعة إلى الحذاء. ثم حيانا، مصافحاً إيانا، مقدماً نفسه باسم رامون بنكيكي. وقال إنه يعرف من تكون، ويعرف مدينة سعيدة، لأنه أقام فيها، في الدّرب بالضبط)²، السيد (بنكيكي) كان على معرفة قديمة بوالد أرسلان أيضاً ويتجلى هذا في سؤاله عن والده القايد حنيفي والإشادة به لابنه قائلاً ("القايد حنيفي رجل يمكن الاعتماد عليه")³ وهذا لما لقيه من مساعدة لبدايته التجارية بالجزائر، حين يقول البطل الراوي (... والذي هو الذي أقرضه مبلغاً مالياً به أقام تجارة له في مدينة الجزائر)⁴، فالكاتب يظهر من خلال هذا المقطع تلك المساعدات التي لقيها بعض اليهود من إخوانهم المسلمين بالجزائر في بادرة تُعدّ قناة لربط أواصر العلاقات الإنسانية وتقويتها بين الأنا والآخر بالجزائر في مرحلة سبقت الاستعمار الفرنسي وتخللته

¹ - Amine Zaoui: P88.

² - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 64.

³ - المصدر نفسه: ص 65.

⁴ - المصدر نفسه: ص 65.

أيضاً، فقد توسعت تجارة السيد بنكيكي نتيجة للنفوذ والعلاقات مع الفرنسيين الذين سهلوا له الطريق لإنشاء شركته وتجلي هذا حين التحقت كولدا اليهودية (بشركة استيراد أنواع الجوخ والكتان الرفيعة، لصاحبها السيد بنكيكي)¹، كما يدل هذا على أن السيد بنكيكي من جماعة اليهود المصنفين والمهللين للمستعمر الفرنسي، لذا تنعكس تلك الصورة المشوهة، للآخر اليهودي الذي تغلب عليه النزعة المادية وسيطر عليه حب المال.

* شخصية اليهودي المسيطر على مكس الأسواق:

نموذج آخر عن يهودي تسيره شهوة السُلطة والمال، هو ذلك اليهودي الذي روت قصته حسبية المسلمة الجزائرية في رواية (أنا وحايم)، عند اجتماعها مع رفقاءها بجايم اليهودي، قائلة أن والدها كان يعمل تاجراً و (كان في نزاع دائم مع جار لهم من اليهود، بيده مكس الأسواق، لتأييده كل فعل عقابي من الإدارة الاستعمارية بحق الأهالي عند تسليط الضرائب والغرامات عليهم، التجار الصغار منهم والحرفيين خاصة)²، يُترجم هذا المقطع صورة اليهودي الناقم المُسيّر من طرف المستعمر الفرنسي بحكم الامتيازات التي نالوها بموجب قرار كريميو، والذي خول لهم كامل الحرية في التعدي على الأهالي الجزائريين بغير وجه حق. لم تتوقف تجاوزات هذا اليهودي عند هذا الحدّ حسب حسبية بل ("وقد بلغ الأمر به أن هدد بمسدسه غير مرة شباب الحومة كلما سهروا أو لعبوا أو تجمعوا قريباً من سكنه قبل أن يختفي فجأة ثم يشيع خبر هجرته إلى فلسطين!")³، يدل تصرف اليهودي عن عنصريته ونفسيته المريضة، التي يطغى عليها السلوك العدواني، فهو عينة من عديد النماذج اليهودية في الواقع، المتسلطة والمُحتمية تحت راية الجنسية الفرنسية، لما لا وهي تعتبر جوازاً يخول لهم جميع الحقوق الدنيئة، من أجل ممارسة سلطة الترهيب باللفظ والفعل على الأهالي المسلمين الجزائريين،

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم ص 122.

² - المصدر نفسه: ص 99.

³ - المصدر نفسه: ص 99.

وهو الأمر الذي استنكره حايم وتأسف له، وانفعل لما أحسه تلميحاً من حسبية على أن اليهود كلهم من طينة وطبع فُطروا عليه، وجُبلوا على ممارسته كسلوك ظاهر في علاقاتهم الاجتماعية، لكنها سرعان ما تتدارك كلامها متأسفة من حايم اليهودي، الذي يُعتبر طفرةً في نسيج التركيبة الإنسانية لليهود.

* شخصية المرابي سمير مردوخ:

نموذج آخر عن شخصية يهودية يصورها الكاتب الحبيب السائح، تظهر جانباً سلبياً يطغى على سلوكات اليهودي ليس مع الأنا المسلمة الجزائرية فقط، بل وحتى مع أبناء ملته من اليهود، وهو حال المرابي (سمير مردوخ) الذي تعامل معه البطل الراوي حين يقول لحايم (... لوحة دينية "عيد الحب" التي اقتنتتها هي والأباجورة من مزاد علني نظمه المرابي سمير مردوخ)¹، هذا اليهودي الذي لم يرحم والد حايم، ويظهر هذا حين (تنهد حايم، وهز رأسه دائرياً. "آه ! هذا المردوخ!"، قال بنفور.. مضيفاً: "لم يشفع لوالدي عند مردوخ أنه من ملته ودينه لما تجاوز الأجل المحدد لتخليص رهن مجوهرات والدي من أجل مصاريف تسجيلي في الجامعة!")²، والمعروف عن طبيعة اليهود حبهم للمال، وكذا تفضيلهم لمصالحهم على حساب الآخرين، حتى لو كان الآخر هنا واحداً من أبناء ملتهم، مستغلين الظروف التي كانت سائدة آنذاك وحاجة الناس من أهالي ويهود للعيش في ظل الظروف الصعبة، مستعملين طرقاً ملتوية (لاختلاس أموال الأمة... كما أنهم يمارسون الغش والتزوير وابتزاز الناس)³.

يُظهر الكاتب السائح في شخصية اليهودي سمير مردوخ، ملمحاً آخر من ملامح التحايل، والركض خلف تيار المصلحة الذاتية، ونلمس هذا من خلال معاملته المبتذلة والممزوجة بالنفاق

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم: ص 153.

² - المصدر نفسه: ص 153.

³ - كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسي، ص 57.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

المفضوح مع حايم وأرسلان حين يقول عند مرورهما بمحله ("شلوم. سعيدة تسعد بعودة ابنيها الوفيين الأستاذ والصيدلي يامرحباً!" قال سمير مردوخ وهو ينهض مثل عفريت من كرسيه أمام باب مكتبه)¹، بلسانه وكلماته المنمقة بغية جذبهما إلى محله يخاطب أرسلان بلهجة جزائرية محضة قائلاً ("عِيشتك زينة سيدي أرسلان! حطّة وهمة. وهذا الحذاء! دكان باطا نفسه في شارع كمبيطة لا يبيع مثله!")²، كل هذا المدح المزيف من أجل استدراجه للمحل، فاليهودي يستخدم كل أساليب التذلل لقضاء مصالحه، فهذه صورة من صور ذكاء ودهاء اليهود في تسيير مصالحهم، كما ينعت الكاتب المردوخ بالعفريت حين يقول على لسان البطل الراوي (كعفريت، انتقل سمير مردوخ خلف النُضد. وقابلنا بما ينزل من ذقنه كلحية تيس. كان حايم قد عبّر لي لما خرجنا عن الرغبة التي ساورته في أن يمسه من تلك اللحية ويسحبه من فوق النُضد ويسقطه أرضاً عند قدميه ثم يجزّه إلى الرّصيف ويعود فيأخذ الولاة ويشعل التّار في محتويات المكتب البائس)³، يظهر الكاتب ذلك الحقد المشتعل بين اليهوديين المردوخ وحايم برغم أنهما من نفس الطائفة، إلا أن التجاوزات التي يمارسها سمير المردوخ مع الجميع دون استثناء، جعلته محل سخط وكره بين من عرفوه من المسلمين وحتى بعض اليهود الذين استنكروا تصرفاته المشينة، وهذا ما جعل حايم يتمنى حرق مكتبه ورميه بعيداً، في مشهد يترجم حجم الأحقاد والفتنة التي زرعها المحتل الفرنسي في أنفس الأهالي واليهود الجزائريين، وبدل تلك السكنينة التي عرفها المجتمع الجزائري بكل ما يحمله من طوائف وهويات ومعتقدات إلى نار مشتعلة تسيرها الروح المحبة للخراب، ونشر الفتن والعنصرية.

عُرف المرابي سمير المردوخ بسياسته المريية، والتي تُدخل الشك في النفوس، فقد عرض على أرسلان قطعة سلاح وهو يعلم أن له حساً ثورياً في خضمّ الوضع الذي آلت إليه الجزائر، دوناً عن

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم: ص 155.

² - المصدر نفسه: ص 155.

³ - المصدر نفسه: ص 156.

حايم الذي كان في بداية الأمر محايداً للقضية، يضع المردوخ المسدس على نُضد مكتبه قائلاً لأرسلان ("موزير ألماني، أعرف أن هذه القطعة الجميلة ستعجب سيدي!")

.....-

- "كنت سأعرضه على سيدي حنيفي" قال بمداهنة...

__ "مع هذه الظروف الأمنية المستجدة أصبح الواحد منا في حاجة إلى حماية نفسه بنفسه"¹، فاليهود تاجروا بالسلاح، ولم يستثنوا بيعه لا للعدو ولا للصديق، فلا صديق لهم غير المال، لم يكن مهماً من المشتري، بقدر ما كان يهم، من يدفع أكثر، سيمر المردوخ يحاول بكلماته أن يُقرأ الأمان لأرسلان ويشجعه على اقتناء قطعة السلاح، فقد اكتسب جُلُّ اليهود فنون المعاملة التجارية، لذا استطاعوا النجاح في هذا المجال، يقول المردوخ لأرسلان ("ليطمئن سيدي! لا أنا بعثك. ولا أنت اشترت من عندي!")

.....-

- "لك أنت سيدي؟ لا مشكلة! لأنك زبون ليس ككل الزبائن. بنصف ثمن يبعه جديداً!".....
"أنتم عائلة تعرف قيمة الأسلحة"²، بعباراته هاته استطاع أن يسحر الأنا (أرسلان) ويقنعه أخيراً باقتناء السلاح، فعلاقة الأنا بالآخر هنا، علاقة مصلحة ممزوجة بذكاء يهودي ماهر وفطنة مسلم جزائري خابر لتلك الألاعيب التي يمارسها اليهود لتمشيه مصالحهم، هذا النموذج اليهودي يكشف صورة اليهودي المتحایل والمنافق الذي لا تهمه سوى مصلحة نفسه، التي يقدوها حبه للمال حتى وإن كان هذا على حساب أبناء جلدته من اليهود.

يستعرض (الحبيب السائح) في روايته جانباً ونموذجاً حقيقياً عن التجار اليهود بالجزائر عُرف عبر التاريخ، ويتمثل في (عائلتين يهوديتين قدمتا من إيطاليا واستقرتا في مدينة الجزائر، يلقبان بملكي الجزائر، كما أخبرني الوالد يوماً وهو يحدثني عن تاريخ العائلات اليهودية المهاجرة.

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم ص 156.

² - المصدر نفسه: ص 156.

-بكري كوهين وبوشناق نفظالي*¹، ففي الحوار الذي دار بين أرسلان وحاييم، والذي يريد الكاتب من خلاله إزاحة الستار وإعطاء صورة حقيقية ونموذجاً مكروراً في كتب التاريخ الجزائري، ليبين سيطرة هاتين العائلتين على خط إنتاج القمح واحتكارهما لهذا المجال فقد (وظفا خبرتهما في الصفقات للتلاعب بأسعار القمح، وفي مقايضة مبالغ مديونيته المستحقة للجزائر على فرنسا بالخرقة والقهوة والسكر التوابل، لأنهما كانا يملكان لتصديره عقداً حصرياً مع الإدارة العثمانية التي كانت متورطة معهما في الفساد الذي نجم عنه الانهيار)² فما كان من هاته الصورة إلا تعزيزاً للنماذج التي صورها الكاتب للتجار اليهود بالجزائر والحاضرة في البناء الداخلي للرواية، ليبين من خلالها احتكار اليهود للجانب التجاري وتوظيف أموالهم وعلاقاتهم من أجل بلوغ أهدافهم التجارية، والتي تهدف إلى تكوين ثروتهم وتقوية سلطتهم ونفوذهم بالمجتمع الجزائري.

ج- صورة عن الطائفة اليهودية بالجزائر في الروايتين:

يطلق على يهود البلاد العربي (باليهود المستعربة)، فهم اكتسبوا كل خصائص الحضارة العربية، فأصبحوا بذلك عرباً أي يهود العالم العربي فقد اكتسبوا معظم السمات العربية، ولا يمكن أن نفرق بينهم وبين العرب جملة وتفصيلاً، فقد لبسوا لباسهم وتحدثوا لغتهم ولقبوا بنفس أسماء العرب، أما يهود العالم الغربي فهم في الغالب أشكناز، جاءوا للعالم العربي عن طريق الاحتلال والغزوات الغربيين³.

لقد كان للطوائف اليهودية حضور في الرواية الجزائرية المعاصرة، بغية استظهار الطبيعة البشرية لليهود والتي تدخل العامل التاريخي والحضاري في بنيتها وتركيبها.

¹ - الحبيب السائح: أنا وحاييم، ص 256.

* إن الظروف السياسية التي عاشتها البلاد في بداية القرن 19م، خصوصاً الثورة على اليهود جعلت كثيراً منهم يغادرون البلاد، كما حدث مع 200 عائلة يهودية هاجرت إلى ليفورن، ومنها عائلة بكري وبوشناق اللتان فرتا على متن سفينة سويدية/ ينظر: كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسي، ص 33.

² - المصدر نفسه، ص 256.

³ - ينظر: عبد الوهاب المسيري: اليهود واليهودية، ص 90-91.

يشير الكاتب (الحبيب السائح) إلى أن يهود الجزائر كانوا منتشرين عبر التراب الوطني، خاصة في الجنوب والغرب، (فقد ذهب حايم جنوباً إلى مدينة جيريقييل مع أمه في الحافلة لزيارة أقارب لها)¹، ومدينة جيريقييل هي البيض حالياً، لكن معظم أحداث الرواية تدور في مدينة سعيدة والتي شيدها المحتلون، وكانت وجهة العديد من اليهود الذين حطّوا رحالهم بالمدينة، واندمجوا فيها وهذا حين يصور الكاتب مشهداً يصف فيه هياتهم التي تشبه إلى حد بعيد الأهالي المسلمين، فمنهم (يهودٌ من طائفة التوشاقيم، نساء ورجالاً، يميزهم من الأقدام السوداء والأوروبيين لباسهم التقليدي، يكاد لا يختلف عن لباس المسلمين في الأحذية والسرراويل والعمائم والطرايش الحمراء، عكس الأشكنازيم الذين... يلبسون الأسود غالباً ويطلقون سواالفهم ويضعون الكيبا على رؤوسهم قبل أن يختفوا تدريجياً)² وفي هذا دلالة على تأثر اليهود داخل المجتمع الجزائري، وبالرغم من الأزياء التي كانت تفرض على اليهود من أصحاب أهل الذمة لتمييزهم عن المسلمين، لكن عندما (دخل الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر وألغى هذا القيد... عن الجالية اليهودية... ثم جاء مرسوم كريميو في 1870 وأعطى حق المواطنة لهم بصفة جماعية شاملة... والتاريخ يشهد بأنه في الظروف العادية بقدر ما كان بعض اليهود يلبسون القمصان العريضة الفضفاضة السوداء ويعلقون "الشيكله" على رقابهم، كان آخرون يلبسون بصورة عادية كالمسلمين دون أية مشكلة)³، فالفترة الزمنية للرواية تحكي عن الحقبة الاستعمارية، لذا حاولنا التركيز على السمات التي ميزت اليهود في تلك الفترة بالتحديد، الكاتب السائح تطرق في معرض أحداث روايته إلى قضية تجنيس اليهود من قبل المستعمر الفرنسي، وكيف كان تأثيرها على اليهود وخاصة حايم الذي كان يشعر بالخزي، كون والده قبل بما يمكن تسميته مقايضة العيش بسلام تحت لواء المستعمر الفرنسي، فلا هو سلّم من نظرة الأهالي، ولا هو بأخذ جُل ما وُعد به من امتيازات تضعه في مصاف المستوطنين الفرنسيين، فيُقرّ في مذكراته لصديقه أرسلان، أنه أثناء تخرجه من الجامعة في (حفل تسليم الإجازات كان بالنسبة إليّ الشفرة التي حزت الشعرة. فقد تم التنويه بي نموذجاً حياً على نجاح الاندماج في مجتمع الجزائر الفرنسية الجديد، وذلك يعني في المسكوت عنه

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 37.

² - المصدر نفسه: ص 158.

³ - فوزي سعد الله: يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، ص 59.

تدجين الأندليجان. لحظتها، ازددت شعوراً بالوزر، لتجنس والدي. واعتباري تبعاً لذلك، فرنسياً¹، فقانون التجنيس كان مؤقتاً من أجل قضاء مصالح فرنسية و (إن الأهالي، مسلمين أو يهوداً، هم فرنسيون ولكنهم لا يحوزون حقوقاً مدنية ولا حقوقاً سياسية: إنهم يحوزون جنسية الرعية بصفة افتراضية)²، حايم اليهودي لم يحس بانتماؤه للفرنسيين أبداً لا سلوكاً ولا روحاً، فما كان منه سوى معاتبته لوالده على أمر التجنيس، فكان رده (أنه فعل ذلك لأن العثمانيين هنا، كانوا يهينون أجدادنا باعتبارهم ذميين لهم عليهم حق الحياة نفسه. وكانوا يفرضون عليهم الجزية، ويلزمونهم بلبس أثواب ذات ألوان صفراء، ثم خلص إلى أنه يكفيننا مع النصارى أن نحافظ على ديننا ولغتنا)³ فأهم ما ميز فترة ما بين الفتح الإسلامي وحتى المرحلة العثمانية جملة من الشروط المستحبة والتي كان لزاماً على اليهود التقيد بها، ومن بينها لبس الغيار وهو عبارة عن قطعة قماش صفراء، وكذا شدُّ الزنار وهو عبارة عن حزام بالنسبة لليهود، إلا أنه قُوِّلت هاته الشروط بعدد التجاوزات لما جاء في عقد الذمة، وهذا ما انعكس بصورة سلبية في الحياة وعلى جميع الأصعدة⁴.

فعقدة والد حايم من الاضطهاد الذي مرَّ به أجداده اليهود في العهد العثماني جعلته يرى الخلاص في كسب ودِّ الفرنسيين بُغية حصد الامتيازات التي وُعدوا بها، وبالمقارنة مع هاته الفئة، هناك العديد من يهود الجزائر عاشوا واختلطوا مع الأهالي المسلمين، وأكلوا ملح بعضهم، حتى أنك تحسبهم جزائريين لولا عقيدتهم التي ميزتهم، أما الفئة التي غلبت على الطبيعة الإنسانية لليهود وهي فئة المهللين والمصفقين للمستعمر الفرنسي والخادمين لمصالحه ومصالحهم، فالاختلاف في العقلية اليهودية هو ما ميز الذات عن الذات الأخرى، وأحدث شرحاً في سيرورة العلاقات الاجتماعية الانسانية بين الأنا والآخر اليهودي الجزائريين.

وإذا كان لليهود سعيدة نصيب من الحكيم في رواية (أنا وحايم)، فليهود الصحراء، دور في تحريك دواليب السرد في رواية (آخر يهود تمنطيط) وهذا لحضورهم المكثف بدءاً من عتبة العنوان وصولاً إلى عمق صحراء الجزائر، التي عرفت توافداً كبيراً من قبل الطائفة اليهودية نظراً لثرواتها التي

¹ - الحبيب السائح: أنا وحايم، ص 206.

² - المصدر نفسه: ص 206

³ - المصدر نفسه: ص 206.

⁴ - ينظر: فوزي سعد الله: يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، ص 48.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

استغلوها لصالحهم، وهو حال عائلة أبراهام حين يقول (خلق الله الصحراء كي نرى السماء الزرقاء فوق رؤوسنا لا نقبل سوى العيون الخضراء الجميلة لبوجيوت أو التلمسانيات)¹، فالكاتب أمين الزاوي يصور مشهداً على لسان الحاج ميمون يبرز فيه قدوم اليهود من الأندلس نحو صحراء الجزائر التي استقبلتهم بكل حفاوة حين يقول (...إذا كانت عائلتنا تائهة، قادمة من الأندلس، قد وجدت اللجوء بتلمسان، فرنا من الحرب الدينية بتمنطيط، وجدنا استقبالا جيداً بغرداية... في بوابة الصحراء، استقبلنا بحرارة من قبل منتخبي المدينة، منذ وصولنا، وحسب الاتفاقيات المبرمة بين قادتنا وقادتهم، أجروا لنا ثلاثة آبار من أجلنا ومن أجل بهائمنا. بالنسبة إلى الميزابين الماء والشرف، جوهر الحياة)². ويصور من جهة أخرى شتاتهم خاصة بعد استعراضه لقصة الحرب الدينية التي أعلنها الشيخ عبد الكريم المغيلي على يهود تمنطيط، فصوت (الشيخ المغيلي ارتفع ضد كل بربر تحوداس، أي يهود هذه الأرض! الذين عمروا أرض توات قبل مجيء الإسلام)³.

فالكاتب يصور في العديد من المواضع ذلك التيه الذي عرفه اليهود في منطقة الصحراء منذ هروبهم من محاكم التفتيش بالأندلس، ويضعهم موضع المغلوب على أمره، تَعْلُبُ عليهم المسكنة نظراً لما أورده من حقائق حملتها مخطوطات عن الشيخ عبد الكريم المغيلي وكذا الماوردي الذين سعوا إلى تهجير هاته الطائفة من أرض الإسلام حسبه.

كما يشير إلى أن الآخر اليهودي أينما حل كان يتخفى ويتخاتل في التصريح عن هويته التي كانت سبباً في عدم تقبل الأنا له، فإما أن يعتنق ديانة أخرى رغماً عنه، أو أنه يتظاهر باعتناقه ديانة المجتمع المنتمي إليه، لكنه يمارس عقيدته في سرية تامة (بعض أفراد عائلتنا فضلوا البقاء في طليطلة واعتنقوا المسيحية رغماً عنهم. لإخفاء ديني وأضمن استمرار حياتي بتمنطيط، ... قررت الذهاب إلى مكة من أجل الحج... حين وصل دوري، لم يكن هناك بد من الهروب من هذه القاعدة الجماعية)⁴، هاته إحدى اعترافات الحاج ميمون اليهودي والتي تؤكد اعتناقه للدين الإسلامي مُكرهاً غير بغياً، وهو حال العديد من اليهود.

¹ - Amine Zaoui: P 29.

² - Ibid: P 60-61.

³ - Ibid: P 130.

⁴ - Ibid: P 136.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

عمد الكاتب في (آخر يهود تمنطيط) إلى إشراك جميع الطوائف والملل، بغية إبراز صور عن العلاقات الإنسانية داخل المجتمع الواحد، بعيداً عن العنصرية والطبقية (...عرب بربر ومسلمين ويهود الأندلس القديمة، بطليطلة مثل غرناطة، لقد بنو حمامات موريسكية وفنادق مزودة بغرف مؤنثة ومرتبّة بأسرة... إنهم الشعراء المسلمون واليهود من أبداع هذا التقليد)¹ يظهر الكاتب من خلال هذا المقطع مدى التأثير والتأثير الحاصل بين مسلمي ويهود الأندلس، وهذا ما انعكس بالإيجاب على علاقتهم أثناء لجوئهم للجزائر هرباً من محاكم التفتيش، كما يشير إلى قدم العلاقات الإنسانية بين الأنا المسلمة والآخر اليهودي، مبرزاً ذلك من زاوية التاريخ الذي تتقاطع أحداثه على أرض الجزائر، فبين متخيل وحقيقة استطاع الكاتب أن يصور أنماط بشرية ليهود عاشوا وتعايشوا مع أناسها واندمجوا وتأقلموا مع نمط عيشها، دون أية عوائق أو حواجز تحول دون ممارستهم حياتهم الطبيعية.

لكن إذا أمعنا النظر في صورة الوجود الطائفي اليهودي بالجزائر، نجد أن عقدة الانتماء تصاحب معظم اليهود، فالوطن تلك الهوية المسروقة من دفاتر تاريخ وجودهم، فجُلُّ كتب التاريخ تؤكد شتاتهم وتفرقهم في شتى أرجاء الأرض، هذا الدافع الذي يجعلهم يتشبثون بأرفع خيط يؤدي بهم لمعرفة طريق أجدادهم أينما حلُّوا وارتحلوا، فالكاتب يصور تلك القناعات التي يرسخها اليهود لأبنائهم، بأنهم أصحاب أرض وشعب الله المختار إلى غير ذلك من الأساطير التي يمجدها لها تاريخهم المُعتمِّم، لكن أبراهام في (آخر يهود تمنطيط) مقتنع بشتات اليهود، وبأنهم شعب بلا أرض ولا هوية حين يقول (والدتي كانت تقول لي أننا من مدينة تلمسان، كنت أبحث عن هذه المدينة في الخريطة، في كتاب الجغرافية لم أجد شيئاً)²، فمدينته تلمسان هي الأخرى شهدت تواجداً مكثفاً لليهود، حين يُدرج الكاتب أمين الزاوي قصة حقيقة الوجود اليهودي بالمدينة، وكيف استطاع الحكيم اليهودي (إفرايم النقاوة) أن يفتح لليهود أبواب تلمسان ليستوطنوا تلك الأرض العريقة بتاريخها وثقافتها، ويصبحوا جزءاً من تركيبها التاريخية، هذا الحكيم الذي يمثل صورة القائد المعجزة الذي ضمّن لليهود حريتهم من الملك أبو تشفين، فقد كُتِبَ على شاهد قبره ("هنا يرتاح الذي هو كبرياؤنا، تاجنا، نور

¹ - Amine Zaoui: P 31.

² - Ibid: P 124.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

إسرائيل، قائدنا ومعلمنا، الغامس في الأشياء الربانية، الرجل المعجزة، الحاخام الكبير إفرام النقاوة. فليحفظنا فضله"¹.

هذا الضريح الذي يعتبر مزاراً لليهود، حين يحج حشود اليهود إلى المقبرة اليهودية بُغية نيل البركة من حكيمهم، فالكاتب يصور تلك المكانة التي حظي بها الحاخام اليهودي والذي حسب الشيخ عبد الكريم المغيلي كان سبباً في احتلال اليهود لتلمسان على جميع الأصعدة تجارياً واقتصادياً، وغيرها من المجالات حين يقول المغيلي (...لقد أهديت على طبق من ذهب إلى يهود الأندلس. منذ القصة الكاذبة لشفاء بنت السلطان أبو تشفين من قبل هذا الساحر اليهودي المدعو النقاوة غزى المدينة تجار الأندلس اليهود بترخيص من السلاطين وتواطؤ من حاشياتهم، احتل التجار اليهود كل الفضاءات التجارية، الاقتصادية والاجتماعية لمدينتنا من قصر السلطان في المشور إلى سوق البيض، استقر اليهود بكنائسهم السبعة عشر)². فإذا كانت تلمسان وجهة لليهود استقروا بها واندجوا مع أهلها، فإن قسنطينة هي الأخرى شهدت إقبالاً من طرف الطائفة اليهودية، فحسب ما جاء في الرواية، أن وتيرة العلاقات لم تكن تسير في اتجاه الإيجاب فقط بين اليهود والمسلمين في قسنطينة، وإنما بعد أحداث 1956 على هاته المدينة من قبل المحتل الفرنسي زادت الهوة وأحدثت القطيعة وزعزعت السكينة التي كانت سائدة بين الأنا والآخر اليهودي الجزائريين، فيهود قسنطينة وحسب أحداث الرواية قرروا الانضمام إلى صفوف المحتل الفرنسي بغية نيل الرضا إذ (انتقد القسنطينيون المسلمون مواقف بعض الجيران اليهود، الذين التحقوا بمعقل الروميين، حدثت بعض الاشتباكات بين الجماعة اليهودية والمسلمة. التباعد! الحذر!)³، فالمعروف عن اليهود أنهم يتبعون مصالحهم ويصفقون لمن يخدمهم، وهو حال العديد من اليهود الذين تخلوا عن مبادئهم التي أوهموا مسلمي الجزائر بأنهم ضمن صفوفهم، معتبرين أنفسهم أصحاب البيت، لكن ومع انتهاء الحرب بدأت الطوائف اليهودية بالجزائر في الهجرة، فهناك من فضل المغادرة مع الفرنسيين إلى فرنسا، وهناك من كانوا على اتصال بالمنظمة الصهيونية في فلسطين والتي قدّمت عروضاً وإغراءات لتلملم شتات اليهود على أرض القدس المحتلة، أما القلة المتبقية من اليهود بالجزائر، فقد عاشت في احترازية تامة مخافة التعرض لمضايقات من

¹ - Amine Zaoui Ibid: P 96.

² - Ibid: P 97.

³ - Ibid: P48.

طرف الجزائريين كما أشارت إليه الروايتان، فالصورة التي تمثل الطائفة اليهودية في كل من الروايتين تكاد تكون انعكاساً للواقع، وإعادة سرد للتاريخ وفق رؤية أدبية إبداعية شعرية، تتحكم فيها تلك النظرة الإيديولوجية للكاتبين وفق رهانات الحاضر المنبثقة من دوافع الماضي. ومن جملة ماتوصلنا إليه في هذا الفصل تلك الصورة الواردة في كل من الروايتين مع الحرص على المقارنة بين الشخصوس اليهودية، وتبيان السمات السائدة في كل نموذج وأثرها في بلورة أحداث الرواية، محصورة في النقاط التالية :

* ركّز الحبيب السائح على البناء الخارجي للشخصية اليهودية، كما أنّ الشخصيات حملت العديد من السمات الإيجابية (كحاييم اليهودي) الذي يتميز بالطيبة والصدق، والوفاء، وصاحب الحس الفكاهي وكذا التعايش مع الأنا الجزائرية المسلمة فهو (مغامر، شغوف، طموح، متدين، مثقف، قدّم المساعدة أثناء الاحتلال الفرنسي للمجاهدين).

* نالت شخصية (حاييم) حظاً وافراً في الرواية لتتقاسم دور البطولة مع الأنا الجزائرية المسلمة، من عتبة العنوان، إلى نقطة النهاية، مشكلين معاً بؤرة أحداث الرواية، فإذا ما قارن بينها وبين شخصية (أبراهام) في (آخر يهود تمنطيط) نجد أنهما تحملان البعض من السمات المشتركة، وكذا العديد من السمات التي تميزه كما صورته الكاتب (متعايش مع الأنا الجزائرية، لكنه متهور عكس حاييم المتزن، غير متدين، منحل أخلاقياً (ماجن)، يسيطر عليه الجبن والخوف، ويدور في فلك الرذيلة (ممارسة الجنس، تدخين الحشيش، والتعدي على حرمة المقابر وخرقه لحرمة الإسلام (زنديق)، فيلسوف يؤمن بالخرافات والأساطير.

* حاييم يمثل صورة نادرة عن التسامح بين الأنا والآخر، أما أبراهام يمثل صورة عن الشخصية اليهودية المتذبذبة التي يسيطر عليها هاجس الجنس، وهذا ما لمسناه من خلال ردود أفعالهم وأفكارهم وآرائهم المنبثقة من علاقاتهم وحواراتهم مع الأنا المسلمة الجزائرية.

* المرأة اليهودية المتعايشة في الرواية الجزائرية المعاصرة كانت حاضرة هي الأخرى، متمسكة بهويتها الجزائرية وعاداتهم وتقاليدهم مضحية، طيبة، مندججة مع الأنا المسلمة، ماثلة في نموذج والدة حاييم (لالة زهيرة)، فهي تشبه نوعاً ما شخصية (لالة صافو) جدة أبراهام في (آخر يهود تمنطيط)، لتعايشها واندماجها هي الأخرى في صحراء الجزائر، وهي صاحبة الأصول الأندلسية، متمسكة

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحاييم" و"آخر يهود تمنطيط"

بعاداتها وتقاليدها اليهودية، تشعر دوماً بالحنين لطليطلة في إسبانيا، تعشق فن الموسيقى والغناء، وكانت من اليهود الذين يمارسون طقوسهم في سرية تامة.

* المرأة اليهودية في (آخر يهود تمنطيط) تتمتع بجمال أخاذ ويتمثل هذا في شخصية (لاله رميلة) والدة أبراهام، (مثقفة، غاوية، متعايشة) ويظهر اندماجها من خلال انضمامها لصفوف جيش التحرير رفقة زوجها، فهي قوية، مولعة بالأساطير.

* صفة الغواية للمرأة اليهودية، تحملها شخصية أخرى في (آخر يهود تمنطيط) (سارة بنت نحون) فهي جميلة، مغربية، هي زوجة الحاج ميمون التي يريد معها أن ينجب أطفالاً بغية بقاء السلالة اليهودية، والتي تعتبر هاجساً في التركيبة النفسية اليهودية فعقدة الشتات وانقطاع نسله ترافقه مدى الحياة.

* صفة الغواية ترافق المرأة اليهودية في (آخر يهود تمنطيط) فشخصية (تاميرة) تُسخر جسدها بحثاً عن اللذة مع أزواجها الخمس (قوية، جميلة، حيوية، مميزة، متحررة إعجابها بالرجال المسلمين جعلها تتزوج إماماً مسلماً. وهنا يشير الروائي إلى مدى تأثر الآخر اليهودي بالأنا المسلمة، حيث جمع في هاته الشخصية شغف اليهودية بحب مسلم، وزواج بين الديانة اليهودية والإسلامية لتموت تاميرة في الأخير، وهذا دلالة رمزية على انتصار الإسلام وموت اليهود تحت وطأة الرغبة المتأججة.

* يصور الزاوي شخصية اليهودي التقي (الحاج ميمون) المتعايش مع الأنا المسلمة الجزائرية، الذي يمتنح عديد المهن والحرف كما أنه محل ثقة من قبل المسلمين، فهو يمثل صورة عن المسلم الذي يمارس شعائر الإسلام علناً، ويهوديته سراً، كما يبين الكاتب التواجد اليهودي بالجزائر عائداً بناءً إلى ما قبل الاستعمار مستنداً على حقائق وأحداث من التاريخ مدعماً بها سرد أحداث روايته، وكذا حادثة محاربة الشيخ عبد الكريم المغيلي ليهود تمنطيط، مستنداً إلى مخطوطات، يبدي من خلالها الكاتب تعاطفاً كبيراً مع اليهود، حين يضعهم موضع المظلوم المضطهد في عديد المواضع.

* يشير الزاوي إلى قضية تعدد الزوجات عند اليهود وهو أمر تمنعه ديانتهم، لكن اتبعوا ديانة الإسلام مما يبين مدى تأثر اليهود بالديانة الإسلامية نظراً لاحتكاكهم بالمسلمين وتأثرهم الشديد والواضح بهم.

* تشير الرواية الجزائرية إلى ممارسة اليهود للتجارة بكثرة داخل المجتمع الجزائري، وتكلمهم بلسان عربي فصيح، ولباسهم لأزياء تقليدية جزائرية، ومارسوا جميع عادات الجزائريين وتقاليدهم.

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايم" و"آخر يهود تمنطيط"

*اليهودي يشعر دوماً بالغرابة الدائمة وعدم استقراره النفسي مهما تبادر إلى الأذهان اندماجه إلا أنّ ارتباطه بموطنه الأول (الأندلس)، وشتاته يسبب له أزمة نفسية حادة، شكلت عائقاً في عملية التواصل مع الغير.

*اليهودي الوطني في (آخر يهود تمنطيط) يظهر في صورة المحب للوطن الجزائر والمنفتح فكراً، فشخصية (زوهار) من اليهود الذين ثاروا ضد المستعمر الفرنسي، وامتشع بالفكر الجهادي محب للوطن.

*اليهودي الانطوائي في (آخر يهود تمنطيط) جاء ماثلاً في شخصية (رسالان) بعقليته المغلقة والمعزلة، غريب الأطوار، يعاني من عقدة جلد الذات، لكنه وطني من خلال مشاركته في خياطة أعلام المجاهدين.

*أما الصورة السلبية ليهود الجزائر، فقد تجلت في نماذج لشخصيات يهودية بسلوكاتها الموحية بعدم تقبل التعايش مع الأنا المسلمة، وطباعها الحادة وفكرها العنصري المسيطر على تصرفاتها، هاته الصورة المماثلة للصورة النمطية التي أعطتها الأدب العالمي والعربي على أنه (عنصري، متحایل مخادع...)

*رواية (أنا وحايم) قدّمت نموذجاً للمرأة اليهودية العنصرية والمتعجرفة، شخصية (كولدا) التي تسخر من الأهالي، تحمل رؤية سوداوية انتقامية، تملكها روحها سادية متعالية، ترفض فكرة العيش داخل الوطن الذي استقبل أجدادها وآباءها، وتتشبث بفكرة العيش على أرض الميعاد (فلسطين).

*المرأة اليهودية البغي كانت حاضرة في رواية (آخر يهود تمنطيط)، بطباعها الغريبة والجرئية التي تحمل أحقاداً وأمراضاً نفسية أهمها حُب الانتقام، تتميز بسلوكات بسيكوباتية وهي رمز للانحلال الأخلاقي.

*اليهودي الشاذ في رواية (آخر يهود تمنطيط) تسقط عنه سمات الرجولة متطبع بطباع النساء، عاشق للموسيقى، أما اليهودي الزنديق في نفس الرواية فجاء في صورة (زير النساء-الخائن-المستهتر) يشبه إلى حدّ بعيد شخصية شايوك في (رواية) شكسبير.

*التاجر اليهودي في رواية (أنا وحايم) يحمل عديد السمات السلبية فهو (استغلالي- متحایل-منافق-محب للمال) بالإضافة إلى تماهي السرد وإدراج شخصيات حقيقية لتجار يهود

الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة "أنا وحايميم" و"آخر يهود تمنطيط"

بتأكيد هاته السّمات التي غلبت على جُلّ التجار الذين يسعون لقضاء مصالحهم حتى على حساب أبناء ملتهم أما التجار في رواية (آخر يهود تمنطيط) فاكتفى صاحبها بالإشارة فقط إلى أن التجار اليهود داخل الجزائر عاشروا أبناء عموماتهم من المسلمين ولم يتوغل في طباعهم ولا سلوكاتهم.

الخاتمة

الخاتمة:

شهد النموذج اليهودي حضوراً قوياً في الرواية الجزائرية المعاصر، إذ لم يقتصر هذا الحضور على يهود فلسطين فقط، وإنما أخذ طابعاً قومياً بتناول الروائيين ليهود الجزائر داخل أطرٍ جغرافية مكّنت من التعرف على هاته الطائفة التي شكّلت جزءاً من تركيبة المجتمع الجزائري، حيث انقسم إلى طرحين مختلفين، فمن الروائيين الذين اتخذنا رواياتهم كنماذج للدراسة تناولوا يهود الجزائر ومنهم من تحدّث عن يهود فلسطين.

فبعد أن تعدّدت الصُّور التي عُرف بها اليهودي في الأدب العالمي، على أنّه منطوي وخائن، مخادع، وشخص لا يؤتمن يجب نفسه فقط، مُجِبُّ للمال والسلطة، يحتال على الناس ليصل لمبتغاه، ومرد هذا جملة من المتغيرات التاريخية والاجتماعية وغيرها، التي تأثر بها اليهود وساهمت في تكوين شخصيته، فبين السلب والإيجاب، والكفة المائلة للسلب، حاول الروائيون العرب تخطي الصورة النمطية الطاغية لليهودي، وجعله في صورة اليهودي المتسامح النبيل، المجتمع فيه مجموعة من الحُصائل الحميدة الإيجابية، لتأتي الرواية الجزائرية المعاصرة بلغتها (العربية-الفرنسية) مركزة في خطاباتها على اليهودي الجزائري المتعايش والمندمج في المجتمع الجزائري، كما صوّرها الروائيان "الحبيب السائح" و"أمين الزاوي" واللذان حاولا التفرقة بين اليهود والصهاينة في سردهما. ومن جهة أخرى تصوير الصِّراع العربي الإسرائيلي من خلال يهود فلسطين، لكن في صورة مغايرة للنمطية المتعارف عليها ابتعد كل من الروائيان "واسيني الأعرج" و"ياسمينه خضرا" عن التوغل في شخصية الكيان الصهيوني مجسدين ذلك في نماذج الشرطة الإسرائيلية والمخابرات اليهودية المعروفة بوحشيتها وعدائيتها على الأنا الفلسطينية، فمن خلال دراستنا لهاته النماذج الروائية، توصلنا إلى النتائج التالية:

- إعتقاد الدّرس المقارن على المرجعية التاريخية، التي تُسهم في الكشف عن صور التأثير والتأثر الحاصلة بين آداب الشعوب والأمم بغية الكشف عن صور الآخر والتعريف به، فمجال

الصورائية (علم دراسة الصورة) أحدث ميادين الدرس المقارن المتبع للتمثلاث الأدبية للآخر في أدب الأنا، وفتح قنوات لحوار الثقافات والتّعرف على الآخر بسلبياته وإيجابياته، وهو ما عملت الرواية الجزائرية المعاصرة على إبرازه من خلال انفتاحها على الآخر اليهودي (الجزائري/الفلسطيني) معتمدين على مرجعية تاريخية وثقافية لتصوير الشخصية اليهودية بكل سماتها في خطاباتهم.

- تأثّر الروائيان واسيني الأعرج وياسمينه خضراء بالقضية الفلسطينية، وتصوير نماذج لشخصيات يهودية، مع التّوغل في نفسية وتركيبية الشخصيات اليهودية بأنماطها المتنوعة، في حين أن النموذج الذكوري أخذ نصيبه ضمن الروائيتين، بينما له تحظى المرأة اليهودية باهتمام الروائيين نظراً لافتقار نماذج نسوية يهودية داخل الرواية.
- عدم توغل الروائي واسيني الأعرج في نفسية شخصياته اليهودية، التي لم تشكل محور أحداث روايته (سوناتا لأشباح القدس)، مقارنة مع رواية (الصّدمة) لياسمينه خضراء، والتي لعبت الشخصية اليهودية دوراً مهماً في بلورة أحداث روايته.
- عمّل كل من الروائيين واسيني الأعرج وياسمينه خضراء على محاكاة التاريخ والتركيز على الحيز الجغرافي بكل تفاصيله، في دلالة على المرجعية الثقافية لكل منهما بهدف محاورة الشعوب، والانفتاح على الآخر بغية التّعريف به وتصحيح صورته أمام الأمم الأخرى، وإعطاء الصورة الحقيقية التي تليق به سواءً على المستوى الجمعي أو الفردي بكل ما تحمله من سمات متفرقة، داخله في التركيبة النفسية، والسيكولوجية التّاريخية والعقائدية للعقلية اليهودية الإسرائيلية.
- يؤكّد كل من الروائيين واسيني الأعرج وياسمينه خضراء على قدم العلاقات بين الأنا والآخر، وتشاركهم المصير نفسه، ومرد هذا الخلفية التاريخية التي تزودا بها لإعطاء روايتهما طابعاً تاريخياً، بغية سرد الواقع بأسلوب مخالف تخيلي جمالي.

- يقدم واسيني الأعرج صورة عن المكان وسلطته وسطوة الآخر اليهودي عليه، فهو يصفها، كأنه زارها وتحول في أزقتها من أجل تثمين القاعدة البنائية للرواية، فحيز المكان يشغل الخطاب بحضوره المكثف، فالكاتب ركز على تيمة المكان ليبين أن الآخر اليهودي يعاني أزمة هوية، ويسعى دوماً إلى تجريد الأنا الفلسطينية من هويتها وأرضها.
- يتقدم الزمن الحكائي في (الصدمة) مقارنة مع (السوناتا)، لتتغير معه تسميات الأمكنة والشوارع التي تحمل أسماء عبرية، فالشخصيات تتفاعل بتفاعل الأمكنة والفضاءات التي تتحرك ضمنها محاولاً تصوير وطأة المحتل، واستفحال وجوده على أرض فلسطين وتمكُّنه من السيطرة على معظم أقطابه، إن لم نقل كل شبر في الأراضي الفلسطينية المحتلة.
- نلمس احترازية في الطرح من طرف الروائيين واسيني وخضرا وكذا البعد عن الخطابات التقليدية التي تهجم على اليهودي من موقع المعادي والرَّافض للآخر، مركزة على الإنسان ومأساته، لتكون قضية الصراع العربي الإسرائيلي محركاً لدواليب السرد، فكل من الروائيين حاول معالجة قضية إنسانية بعيدا عن الجوانب السياسية، (فالسوناتا) تركز على سيطرة الآخر، على الأراضي وطرده الأنا من أرضهم قصراً، وعدم تقبل الآخر اليهودي للأنا العربية الفلسطينية حتى بعد موتها. أما (الصدمة) فتتركز على رفض الآخر اليهودي للأنا الفلسطينية حتى بعد بئسها واندماجها في المجتمع الإسرائيلي، حتى وإن بدا ظاهراً ذلك التقبل من بعض الشخصوس اليهودية، إلا أن الأنا الفلسطينية تظل منبوذة من طرف الآخر اليهودي على أرضها، أحلامها مؤجلة، وحريرتها مرهونة، فالموت كان مصير الأنا في القدس بعد تجربة الانسلاخ والعودة إلى الحقيقة.
- عكف الروائيان الجزائريان (أمين الزاوي) و (الحبيب السائح) في الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية والفرنسية على إبراز ملامح الآخر اليهودي وعلاقاته مع الأنا الجزائرية، داخل النسيج

السردى الحافل بمختلف الشخوص، وتصويرها من الزاوية الإيجابية والسلبية ومن خلال دراستنا توصلنا إلى ما يلي:

● استطاعت الرواية الجزائرية المعاصرة أن تُعيد سرد التاريخ بأساليب فنية ورؤى متعددة منبعثة من التاريخ الجزائري والوجود اليهودي الذي يُعد جزءاً لا يتجزأ من تركيبته، فكل من الروائيان الحبيب السائح في (أنا وحاييم)، وأمين الزاوي في (le dernier juif de Tamantit) تمكننا من فتح أبواب الذاكرة المنسية متخذين من تمنطيط وسعيدة بؤرة تنطلق منها أحداث روايتيهما عبر استرجاع جزء من الحقيقة و ربطه بالخيال ل يتمخض عنه عمل فني تاريخي، يحكي تفاصيل الوجود اليهودي، داخل المجتمع الجزائري، واشتراكهم نفس المصير وتطبعهم بطباع وعادات وتقاليد الجزائريين.

● الكاتب أمين الزاوي يضع شخصياته اليهودية موضع المضطهد المظلوم، كما أنه يربطها بشخوص من الواقع وعديد الحوادث التاريخية التي تحكي أسلاف اليهود وأجدادهم القادمين من الأندلس.

● اعتمد الروائي أمين الزاوي على السرد الموضوعي تارة وعلى السرد الذاتي تارة أخرى، كما لم يعتمد كثيراً على الوصف الجسماني لشخصه مقارنة بالحبيب السائح.

● صوّر أمين الزاوي المرأة اليهودية المتطفلة والثائرة، التي تؤمن بالخرافات وتتدخل في خصوصية الغير وإن كانت هاته السمة فردية لا تخص الجماعة، كما أنه يصورها، كالساحرة ويشبها بالكاهنة لغرابة تصرفاتها.

● النماذج النسوية الإيجابية في (آخر يهودي تمنطيط) موجودة بكثرة مقارنة بنموذج نسوي واحد في (أنا وحاييم) تحمل سمات متفرقة ويغلب عليها حُب السيطرة والقوة والذكاء، كما يصور الزاوي أغلب نساء اليهوديات على أنهن جميلات

وغاويات، أما نموذج المرأة اليهودية في (أنا وحايم) فتتسم صاحبه بالهدوء في سلوكاتها والاتزان في تركيبها النفسية، أما القاسم المشترك بين كل الشخصيات النسوية هو تعايشهن داخل المجتمع الجزائري في بيئات مختلفة مع احتفاظهن بيهوديتهن حتى وإن ظهر ما يعكس ذلك، لكن اليهودي بطبعه لا يتخلى عن ديانته وإن زعم ذلك.

- صوّر كل من الروائيين الحبيب السائح وأمين الزاوي الطوائف اليهودية القادمة للجزائر قديماً في انعكاس للواقع، وإعادة سرد التاريخ وفق رؤية أدبية إبداعية وشعرية، تتحكم فيها النظرة الإيديولوجية لكل منهما، فاليهود الوافدين إلى الجزائر خاصة يهود سعيدة كانوا مندمجين إلى أن جاء قرار كريميو وقلب موازين العلاقات الإنسانية وأحدث شرخاً في سيرورة العلاقات بين الأنا المسلم والآخر اليهودي الجزائريين.

- ركّز الروائي الحبيب السائح على يهود سعيدة وتواجههم في ربوع الوطن، كما أشرك الآخر اليهودي من عتبة النص إلى آخره في سرد أحداث روايته.

- أما الروائي أمين الزاوي فقد ركّز على اليهود الوافدين إلى صحراء الجزائر، قادمين من الأندلس وبعد أن اندمجوا عرفوا شتاتاً آخر، بعد استعراض قصة الحرب الدّينية التي أعلنها الشيخ عبد الكريم المغيلي. فالروايتان تشتركان في نفس مصير اليهود وهو الشتات الذي فرقهم، بعد أن احتضنهم وطن تغاضى عن هويتهم ودينهم، لتخرجهم الرواية وتعيدهم إلى شتاتهم الأولى في تجربتين إبداعيتين استندتا على التاريخ لتصوير العقلية اليهودية التي تظلّ غامضة حقيقية وتخيلاً.

- عامل الدّين واللّغة والزّمن كلها مؤثرات، عملت على تشكيل شخصية اليهودي وصورته داخل الرواية الجزائرية المعاصرة، من منطلق حوار الحضارات وإعادة إنتاج

الخاتمة

التاريخ بلمسة أدبية راقية، فالروائيون الجزائريون استطاعوا الغوص في عقلية الآخر اليهودي بمزج الخيال بالواقع وإحياء التاريخ، متبنين قضية تلاقح الأفكار وتداخل الثقافات والتعريف بالآخر من زاوية الأنا ، لتفتح أفوق حوار الحضارات، والتفتح على الآخر هوية وديناً وواقعاً.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

أولاً: المصادر

1. واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، موفم للنشر، الجزائر، 2015
2. ياسمينه خضراء: الصدمة، ترجمة: نهلة بيضون، دار الفارابي - بيروت، لبنان، ط1، 2007
3. الحبيب السائح: أنا وحايم، مسكيلياي للنشر والتوزيع، 15 نهج إنجلترا، تونس، تونس العاصمة، ط1، 2018

القواميس والمعاجم:

1. جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ابن منظور : لسان العرب، مج1، مادة (أ،خ،ر).
2. جميل صليبا، المعجم الفلسفي : ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان - د ط، س 1982
3. روجي البعلبكي، المورد الثلاثي، قاموس ثلاثي اللغات، دار العلم للملايين، ط 1، 2005.
4. سميح عاطف الزين :معجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ط 4، الدار الإفريقية العربية، بيروت لبنان، 2001.
5. مراد وهبة : المعجم الفلسفي (معجم المصطلحات الفلسفية)، دار قباء الحديثة، القاهرة، د ط، 2007.
6. مرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس، مج 9، تح : علي بشيري
7. منظور : لسان العرب، ط 4، مجلد 1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2005.
8. منظور : لسان العرب، مج 8، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط 3، 2004

المراجع:

1. إبراهيم عوض: في الأدب المقارن - مباحث واجتهادات - المنار للطباعة والكمبيوتر، 1427 هـ - 2006م.
2. ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحار، الجزائر، 1986.

3. ابن الفقيه، مختر البلدان، ابن خرداذبة، المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد
4. ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.
5. أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط2، الجزائر، 1989
6. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، (1500-1830)، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998.
7. احمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ط6، دمشق، العربي للنشر، د.ت.
8. أحمد ياسين سليمان: التحليلات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر المعاصر، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سوريا، 2009.
9. الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مج 01.
10. إدوار سعيد: الاستشراق-المفاهيم الغربية للشرق - تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، 2008، ط1.
11. إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
12. إيهاب النجدي: صورة الغرب في الشعر العربي الحديث، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2008.
13. بشير عبد الرحمن: اليهود في المغرب العربي (22هـ/462م) (642هـ/1070م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2001.
14. بطرس أنطونيس: الأدب تعريفه - أنواعه - مذاهبه، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، دط، 2005.
15. البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب (جزء من المسالك والممالك)، مكتبة المثنى، بغداد.
16. بوشعيب الساوري: صورة الآخر في رحلات عربية (من القرن العاشر الميلادي إلى القرن الواحد والعشرون)، النايا للدراسات والنشر، سوريا، دمشق، ط1، 2014.

17. بول ريكور : الذات عينها الآخر، تر : جورج زيناقي، مركز المنظمة العربية، ط 1، بيروت، 2005.
18. بول ريكور : بعد طول تأمل، السيرة الذاتية، تر : فؤاد مليكة، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر، 2006.
19. بول فان تيغم : الأدب المقارن، تر : الحسامي سامي مصباح، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، لبنان، (د، ت، ط).
20. بيير برونييل، كلود بيشوا، أ.م. روسو، ما الأدب المقارن؟ تر: عبد المجيد حنون، نسيم م، عيلان، عمار رجال، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط 1، 1431هـ، 2012م.
21. ثائر أحمد غباري، خالد محمد أبو شعيرة: سيكولوجية الشخصية، دار الإعصار العلمي للنشر والتوزيع، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2015-1436هـ
22. جمال حمدان، تقديم: عبد الوهاب المسيري: اليهود أنثروبولوجيا، دار الهلال 16 محمد عز العرب، العدد 542، رمضان، فبراير 1996
23. الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995
24. الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
25. حسين أبو النجا: اليهودي في الرواية الفلسطينية، إصدارات رابطة الإبداع الثقافية.
26. حسين العودات : الآخر في الثقافة العربية، بيروت، دار الساقى، 2010
27. حمد عوض الهزايمة: الايديولوجيا اليهودية (دراسة في أيديولوجية مسيرة اليهود التاريخية والاعتقادية)، دار الحامد للنشر والتوزيع، ط 1، 2009م.
28. حنا غالب: كنز اللغة العربية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 1، 1979
29. حيدر ابراهيم علي : صورة الآخر المختلف فكراً : سوسيولوجية الاختلاف والتعصب، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر : العربي ناظرًا ومنظورًا اليه.
30. خير الدين الزركلي، ترتيب الأعلام على الأعوام، رتبه وعلق عليه: زهير ظاظا، دار الأرقم، بيروت، لبنان، 202.

قائمة المصادر والمراجع

31. دانيال هنري باجو : الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكُتّاب العرب، دمشق، سوريا، 1997.
32. دلال البرزي، الآخر- المفارقة الضرورية-، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه.
33. رشاد الشامي: عجز النصر، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1990.
34. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 1978.
35. رضوان بلخيري: سيميولوجيا الصورة في النظرية والتطبيق، دار قرطبة للنشر والتوزيع، ط 1، 2012.
36. روبان شارفان: الآخر في فرنسا المعاصرة : العربي كبش الفداء، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 2، سبتمبر 2008.
37. سعيد علوش : إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي، دراسة مقارنة، ط 1، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، 1986.
38. سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن، دراسة منهجية، المراكز الثقافية العربي، ط 1، 1987.
39. سفر التكوين، 5:17.
40. سلسلة أدباء جزائريون، زهرة ديك، تقدم وإعداد: واسيني الأعرج، هكذا تكلم هكذا كتب.. دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
41. سهاد توفيق الرياحي : ظاهرة الأنا في شعر المتنبي وأبي العلاء (دراسة موازنة نقدية)، دار الزمان، ط 1، عمان، 2012.
42. سيجموند فرويد : الأنا والهؤ، تر : محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط 4، عمان، 1982.
43. صبيحة عودة زعرب: الشخصية اليهودية الإسرائيلية في الخطاب الروائي الفلسطيني 1967م-1997، عمان، دار مجدلاوي، 2005، ط 1، 1426 هـ - 2006م

44. الصديق حاج أحمد آل المغيلي: التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11هـ إلى القرن 14هـ، دار الخبر بني مسوس، الجزائر، ط2، 2011.
45. صلاح صالح : سرد الآخرة الأنا والآخر عبر اللغة السرديّة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003
46. عادل الأسطة: اليهود في الرواية العربية، جدل الذات والآخر، الرقمية، رام الله، فلسطين، ط1، 2012
47. عباس محمود العقاد: الثقافة العربية، دار الكتاب اللبناني - بيروت، 1978، المجلد العاشر
48. عبد الحميد إبراهيم: الأدب المقارن من منظور الأدب العربي - مقدمة وتطبيق - مصر، القاهرة، ط1، (1418-1997م).
49. عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، المطبعة العربية، الجزائر، 1955م، ج2.
50. عبد الرزاق بن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال (رحلة ابن حمادوش): تقديم وتحقيق وتعليق أبي القاسم سعد الله، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، ص64، ينظر: كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسية
51. عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ط2، 2013م.
52. عبد الوهاب المسيري: من هم اليهود؟ وما هي اليهودية؟ - أسئلة الهوية وأزمة الدولة اليهودية، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط4، 2008.
53. عبده عبود : الأدب المقارن، مشكلات وآفاق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1999.
54. عز الدين المناصر: علم التناص المقارن، نحو منهج عنكبوتي تفاعلي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2006م.
55. عز الدين المناصرة: النقد الثقافي المقارن - منظور جدلي تفكيكي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمان، الأردن، ط1، 2005.
56. عقيل حسين عقيل : منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، يناير 2004.

57. علي عجوة: العلاقات العامة والصورة الذهنية، عالم الكتب، ط1، 1983
58. علي حرب: العالم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول، منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002 م.
59. عمر بن قينة: الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، شركة دار الأمة، الجزائر، ط1، ماي 1995.
60. عيسى شنوف: يهود الجزائر 2000 سنة من الوجود، دار المعرفة، الجزائر.
61. غريغوار منصور مرشو، سيد محمد صادق الحسيني: نحن والآخر، دار الفكر، دمشق - سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، ط1، رجب 1422هـ - سبتمبر 2001 م.
62. فاضل أحمد القعود: جدلية الذات والآخر في الشعر الأموي (دراسة نصية)، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1433 هـ/2012 م.
63. فوزي سعد الله: يهود الجزائر-هؤلاء المجهولون-، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر، ط2، 2004.
64. قدرى حنفي: الإسرائيليون من هم؟، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1982.
65. كارل غوستاف يونغ: جدلية الأنا واللاوعي، تر: نبيل محسن، دار الحوار، ط1، اللاذقية - سوريا، 1997.
66. كمال بن صحراوي: دور يهود الجزائر الدبلوماسية (أواخر العهد العثماني وبداية الفترة الاستعمارية)، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1437هـ - 2016م، ط2.
67. اللجنة الملكية لشؤون القدس: تطورات النشاط الاستعماري الاستيطاني في الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة، اللجنة الملكية، نشرة خاصة، 1985.
68. ماجدة حمود: اشكالية الأنا والآخر (نماذج وراثية)، عالم المعرفة، دولة الكويت، د ط، 1434 هـ/2013 م.
69. ماجدة حمود: صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 1431 هـ / 2010م.
70. ماجدة حمود: مقارنات تطبيقية في الأدب المقارن، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2000.

71. مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي - المسألة اليهودية - دار الوعي للنشر والتوزيع، روية، الجزائر، ط1، 1434 هـ / 2013م، ج2.
72. -مالكوم براد بري : الرواية اليوم ،ترجمة:أحمد عمر شاهين،الهيئة المصرية للكتاب القاهرة،1996.
73. مأمون صالح : الشخصية (بناءها -أنماطها- اضطراباتها)،دار أمامة، ط 1، عمان-الأردن، 2008.
74. محمد أحمد كنعان: بنو إسرائيل واليهود: تاريخ ومصير، بيروت، دار البشائر الاسلامية، 1994.
75. محمد الخباز: صورة الآخر في شعر المتبني (نقد ثقافي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2009م.
76. محمد الداوي: صورة الأنا والآخر، سلسلة السرد العربي، 2013، القاهرة، مصر.
77. محمد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات، دار هومه، الجزائر، بدون ط، 2005، ج1.
78. محمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، دار الصدى، دبي، 2011
79. محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكراوي التمنيطي، درة الأقلام في أخبار المغرب قبل الإسلام، مخطوط خزانة المطارقة، ورقة03.
80. محمد بن علي بن محمد آل عمر: عقيدة اليهود، في سلسلة الكتب التي تصدرها مجلة البيان - الرياض: سلسلة كتب البيان 2003.
81. محمد بن عمر الطمار: تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
82. محمد خليفة التونسي: الخطر اليهودي: تقديم: عباس محمود العقاد، برتوكولات حكماء صهيون - الإنجيل البلشفي، أوراق ثقافية للنشر والتوزيع، ط2، 2015.
83. محمد دادة: اليهود في الجزائر في العهد العثماني (منذ مطلع القرن 18 حتى 1830م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: محمد خير فارس، جامعة دمشق، كلية الأدب، قسم التاريخ، 1985.

84. محمد ربيع: أزمة الفكر الصهيوني المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط2، 1979م.
85. محمد عبد الكريم المغيلي: مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق وتقديم الأستاذ: رابع بونار، سلسلة ذخائر المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، أكتوبر 1968.
86. محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 9، أكتوبر 2008م.
87. محمد نور الدين أفاية : الغرب في المتخيل العربي، منشورات دائرة الثقافة والإعلام، ط1، الشارقة، 1996.
88. محمود السيد: تاريخ اليهود القديم والحديث: مطبوعات مؤسسة شباب الجامعة.
89. محمود محمد الزين: سيكولوجية الشخصية، القاهرة، دار المعارف، 1994م.
90. محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزاوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، ط1، 1988، ج1.
91. مصطفى عمر التّير : البعد الجغرافي وصورة الآخرة مقارنة امبريقية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر : العربي ناظرًا ومنظورًا إليه.
92. المقري، نفع الطيب، دائرة المعارف الإسلامية، ج 03.
93. ملاك جرجس: سيكولوجية الإستراتيجية الصهيونية ومفهوم إسرائيل للسلام، ليبيا، طرابلس: قطاع الكتاب للتوزيع، 1981.
94. ميخائيل ابراهيم أسعد: شخصيتي كيف أعرفها؟ دار الأفاق الجديدة، لبنان، ط3، 1987.
95. نihal مهيدات : الآخر في الرواية النسوية العربية (في خطاب المرأة والجسد والثقافة)، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 1428هـ/2008 م.
96. همت بسيوني عبد العزيز : الشخصية المصرية وصورة الآخر، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط1، 2013.
97. هنري باجو : الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1997.

98. الواقدي محمد بن عمر: المغازي، بتحقيق: مارسون جونس - بيروت - عالم الكتب - 1894 ج2.

الرسائل والأطروحات:

1. حمزة وشان: صورة الجزائر في أدب ألبركامو وجون بول سارتر، (مذكرة ماجستير)، إشراف، توزان عبد القادر، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الشلف، الجزائر، 2015/2014.
2. سامية سعدي : صورة المرأة ودلالاتها في الأمثال الشعبية - مدينة تبسة وضواحيها - نموذجاً، (مذكرة ماجستير)، إشراف : مختار قطشر، قسم اللغة العربية، جامعة تبسة، الجزائر، 2007.
3. سوسن زاني : الأنا في رواية التلميذ والدرس لمالك حداد، (مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الأدب واللغة والعربية)، تخصص : أدب حديث ومعاصر، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2016/2015.
4. الشامي رشاد، التيار الروحي في الفكر الصهيوني الحديث، أطروحة دكتوراه غير منشورة.
5. صغور أحلام : واقع الدراسات المقارنة في المغرب العربي، إشراف : شريفي عبد الواحد، جامعة وهران، السنة الجامعية : 2009/2008 (أطروحة دكتوراه).
6. عالية زروقي : صورة الأخر في الرواية الجزائرية من سنة 1950 الى سنة 2010 م، (أطروحة دكتوراه)، إشراف : توزان عبد القادر، قسم الأدب العربي، جامعة الشلف - الجزائر، 2017م.
7. على مجيد داود البديري: الأدب العربي المقارن في ضوء "جمالية التلقي" (الدراسات النظرية المقارنة أنموذجاً)، أطروحة دكتوراه، إشراف: علي عباس علوان، البصرة، 143 هـ / 2009م، كلية الآداب، جامعة البصرة.
8. قومي محمد: دور الطائفة اليهودية بتوات (خلال القرنين 9 هـ - 10 هـ / 15م -16م) مذكرة ماجستير في التاريخ تحت إشراف: غازي الشمري، جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية، 2014.

9. هيا ناصر، صورة الرجل في المتخيل النسوي في الرواية الخليجية، نماذج منتقاة، (مذكرة ماجستير)، إشراف: حبيب بوهورو، قسم اللغة العربية، جامعة قطر، 2013/2014.

المقالات:

1. محمد كاديك: قراءات وبحوث Question de littérature et étude comparées، الموقع: kadik.net، اطلعت عليه بتاريخ: 2020/08/09.

2. محمود فتوح محمد سعادات: سمات الشخصية اليهودية الإسرائيلية مقالة: تاريخ الإضافة 2014/12/16، تاريخ الزيارة: 2019/10/06.

3. مسعود شكري وآخرون: صورة الآخر الإسرائيلي في رواية "المتشائل" لإميل حبيبي، فصلية إضاءات نقدية، السنة السابعة، العدد 26، صيف 1496، ش / حزيران، 2017م.

4. مقال بعنوان: "سوناتا لأشباح القدس" وفصول النكبة، المصدر: الجزيرة، اللقاء يوم: 2012/05/24، الموقع: <https://www.aljazeera.net>، تاريخ الزيارة: 2020/08/08.

5. مقال: تمثلات اليهودي في الرواية العربية، من القطيعة إلى أوهام العيش في جيتو فاضل، قراءة في نماذج روائية، الأحد 2019/12/01، مجلة الجديد، eljadeedmagazine.com.

6. مقالة بعنوان: آخر يهود تمنطيط "لأمين الزاوي"، نشر بوساطة (ق.ث) في الحياة العربية، يوم: 2012/04/01، الموقع: <http://www.djazair.com>، اطلعت عليه بتاريخ: 2020/04/14.

7. هشاشا طاهر: جبل صهيون وسقوط ورقة التوت الأخيرة. الموقع: www.arabtimes.com، تاريخ الزيارة: 2019/09/27.

8. يوسف حطيني: مقال بعنوان رواية "سوناتا لأشباح القدس" هشاشة الفَراش. هشاشةُ الإيديولوجية، بتاريخ: 2011/03/16، التوقيت: 23.16.

المجلات والدوريات:

1. أمين الزاوي للنصر اليومية، الموقع: annasronline.com.

2. زياد الأحمد: تحولات الشخصية اليهودية في الرواية العربية - ملامح ورؤى - الأحد 2019/12/01، مجلة الجديد Aljadded، الموقع: eljadeedmagazine.com، اطلعت عليه يوم: 2020/04/23 بتوقيت 23:47.
3. سامي الوافي : المثاقفة النقدية وسؤال الهوية : تفاعل الذات بالآخر، مجلة الآداب، العدد الثاني، 2014 م، جامعة الملك سعود، الرياض.
4. عبدو عبود: الأدب وحوار الحضارات- مشكلات وآفاق -، مجلة المعرفة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1999
5. عبدو عبود: الأدب وحوار الحضارات، مجلة المعرفة.
6. ليلى قاسمي وفاطمة كاظم زادة، صورة الذات والآخر في رواية " سووشون " مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد التاسع عشر، حريف، 2014م.
7. " ، بومدين جيلالي: الصورائية النقدية المقارنة في الجزائر، صورة الفرنسية والفرنسية في الرواية المغربية لعبد المجيد حنون أنموذجاً، مجلة "إشكاليات فكرية.
8. بومدين جيلالي، مجلة "إشكاليات فكرية، الصورائية النقدية المقارنة في الجزائر، (صورة الفرنسي في الرواية المغربية)، لعبد المجيد حنون أنموذجاً- ، أستاذ الأدب المقارن، جامعة سعيدة، الجزائر، 2017/03/29.
9. دراسة بومدين جلاللي: اهتمامات الأدب المقارن في الجزائر ، مجلة "التبيين" المحكمة الصادرة عن جمعية الجاخظية، الجزائر، ع 29، 2008.
10. مجلة مدارات، بقلم أمين الزاوي: يقول عن روايته الصّادرة عن دار البرزخ (اليهودي الأخير في تمنطيط)، بتاريخ: 2012/09/25. الموقع: https://madarat-chatat.com، اطلعت عليه بتاريخ: 2020/04/20.
11. محمد سيد أحمد متولي: صورة اليهود في الرواية العربية المعاصرة - رؤية سردية مغايرة - مجلة "رسالة المشرق"
12. نوافل يونس الحمداني: الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر، مجلة ديابلي، العدد الخامس والخمسون، 2012م.

13. نوافل يونس الحمداني: الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر، مجلة

ديالي، العدد الخامس والخمسون، 2012م

المصادر بالأجنبية:

1. Amine Zaoui: le dernier juif de Tamantit: Barnyakh et agence Pierre Astier et associer, 2012

المراجع بالأجنبية:

2. Garrot.H, Les juifs algériens, Leurs origines Alger : Librairie Louis Relin, 1898, p62.
3. Garrot.H, OP.cit.
4. Rozet et carette, L'Algérie par Hm. Les capitaines du Génie Rozet et carette, Paris, Fimin didot Frères, 1850.
5. (Les juifs en Algérie eten Tunisie à L'époque Turque, Pages vécus (1940-1943), Les Juifs d'Algérie Esquisse de L'histoire des juif jusqu'à nou jours.
6. *Mon Algérie : Monique Ayoun et jean pierre Stora, Edition Acropole 1989-paris-
7. Grégoire, F, La juiverie Algérienne, Radical Algérien, 1888
8. Edward Said, Orientalism: Western conceptions of the orient: 1995.
9. _evelynedépêtre: le récit de voyage, ed université du Québec montréal, avril-2011.

المواقع الالكترونية:

1. حوار مع الروائي الجزائري الحبيب السائح المدرج على القائمة الطويلة للجائزة الدولية للرواية العربية 2019، كتب في 16 يناير 2019. الموقع: <https://arablit.org/./habit-al-sayah-/...cracking-the-shell-> of، اطلعت عليه يوم: 2019/12/01.
2. الروائي والأكاديمي أمين الزاوي للنصر اليومية، نشر بتاريخ: 24 أيلول / سبتمبر 2019، الموقع: <http://www.annasonline.com>، اطلعت عليه بتاريخ: 2020/04/14.
3. جبال يهودا، ويكيبيديا الموسوعة الحرة: الموقع: <http://ar.m.wikipedia.org>.
4. <https://ar.m.wikipedia.org>، تاريخ الزيارة: 2018/09/21.
5. raffef22.com، اطلعت عليه بتاريخ: 2018/12/30.
6. www.maghrebvoices.com.
7. <https://ar.m.wikipedia.org>، يوم الزيارة: 2019/12/22.
8. إفرايم بن كاوا... من هنا بدأت قصة يهود الجزائر"، بقلم: عبد السلام بارودي، 2017، 27 أكتوبر 02:49 Pn مجلة maghreb Voice، اطلعت عليه يوم: 2020/03/29، 19:37

قائمة المصادر والمراجع

9. زياد الأحمد: تحولات الشخصية اليهودية في الرواية العربية - ملامح ورؤى - الأحد 2019/12/01، مجلة الجديد Aljadedd، الموقع: eljadeedmagazine.com، اطلعت عليه يوم: 2020/04/23 بتوقيت 23:47.
10. ويكيبيديا الموسوعة الحرة: الموقع <http://ar.wikipedia.org/wiki>، تاريخ الزيارة: 2018/09/21.
11. سولاف بوحلايس : صورة الأنا والآخر في شعر فيكتور هيجو، الموقع: www.manifest-univ-ourgla/dz تاريخ الزيارة : 2019/01/10.

فهرس الموضوعات

الصفحة	العنوان
9	الجدور التاريخية للوجود اليهودي بفلسطين والجزائر
10	لمحة عن تاريخ يهود فلسطين
10	1- نسب الطائفة اليهودية.
22	2- أهم الحرف التي مارسها اليهود
22	3- تأثر اليهود بالعرب.
24	لمحة عن تاريخ يهود الجزائر
35	1- المثقفون اليهود في الجزائر
37	2- اليهود إبان الاستعمار الفرنسي
38	3- البنية العرقية ليهود الجزائر
41	الفصل الأول: مفهوم الصورائية وتمظهراته في الرواية العربية والجزائرية المعاصرة.
42	تمهيد
46	1- مفهوم الصورة:
48	أ- الصورة لغة.
49	ب- الصورة اصطلاحاً.
55	2- أنواع الصورة :
55	2-1- الصورة الذهنية.
56	أ- الصورة النمطية.
56	ب- الصورة المرجعية.
57	3- مفهوم الأنا والآخر.
58	أ- مفهوم الأنا.
59	أ-1- مفهوم الأنا في الفكر الفلسفي.
62	ب- مفهوم الآخر وأنواعه
67	4- العلاقة بين الأنا والآخر.

68	5- منطق الحوار بين الأنا والآخر.
69	6- ثنائية التأثير والتأثر.
69	أ- التأثير لغة.
70	ب- التأثير اصطلاحا.
75	7- صورة اليهودي في الأدب العالمي والعربي.
79	8- انفتاح الرواية الجزائرية المعاصرة على الآخر.
89	الفصل الثاني: صورة يهود فلسطين في الرواية الجزائرية المعاصرة "الصدمة" وسوناتا لأشباح القدس"
89	توطئة
98	أ- الصورة السلبية ليهود فلسطين في روايتي "الصدمة" و "سوناتا لأشباح القدس"
98	1- صورة اليهودي المُضطَّهَد والحقود
99	● الشرطة الإسرائيلية في "سوناتا لأشباح القدس"
100	● الشرطة الإسرائيلية في "الصدمة"
101	● المنظمات الإرهابية في السوناتا
106	● النقيب موشي في الصدمة
110	● الشرطي اليهودي المتغرس في الصدمة
111	● المخابرات الإسرائيلية في الصدمة
113	● الحركات الصهيونية في الصدمة والسوناتا
122	● الشرطة اليهودية في "الصدمة"
125	2- صورة اليهودي العنصري والمتطرف
125	● الجيران اليهود في الصدمة
132	ب- الصورة الإيجابية ليهود فلسطين في روايتي "الصدمة" و "سوناتا" لأشباح القدس:
132	1- صورة اليهودي المتعايش
132	● عزار بن حاييم - الصدمة
135	● هرمون سيمون - السوناتا

136	• اليهودي الصديق - السوناتا
139	• نافيد رونين - الصدمة
145	2- صورة اليهودية المتعايشة:
145	• كيم يهودا - الصدمة
151	• إيفاموهرلر - السوناتا
153	3-صورة اليهودي الحيادي وجرح المحرقة
153	• العجوز سابا يهودا - الصدمة
156	4-صورة اليهودي الناسك
156	• شلومي هيرش - الصدمة
160	ج-صورة المكان وسيطرة اليهود عليه
172	الفصل الثالث: صورة يهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة في روايتي - (أنا وحايم) و (آخر يهود تمنطيط)-
175	توطئة:
176	أ-الصورة الإيجابية ليهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة:
180	1-صورة اليهودي المثقف المتعايش:
180	* شخصية حايم بنميمون في -أنا وحايم.
208	* شخصية ابراهام بن سعيد في -آخر يهود تمنطيط.
220	2-صورة اليهودية المتعايشة:
220	* شخصية لالة زهيرة سماح - أنا وحايم.
221	* شخصية لالة صافو (صافية) - آخر يهود تمنطيط.
227	* شخصية لالة رميلة - آخر يهود تمنطيط.
230	* شخصية سارة بنت نحون - آخر يهود تمنطيط.
231	* شخصية تاميرة- آخر يهود تمنطيط.
236	3-صورة اليهودية المُتَطَفلة:

239	* شخصية العجوز اليهودية - آخر يهود تمنطيط.
239	4-صورة اليهودي التقي الملتزم:
250	* شخصية الحاج ميمون بن سعيد - آخر يهود تمنطيط.
250	5-صورة اليهودي الوطني:
250	* شخصية زوهار بن سعيد - آخر يهود تمنطيط.
252	6-صورة اليهودي الانطوائي:
252	● شخصية رسلان بن سعيد - آخر يهود تمنطيط.
255	ب-الصورة السلبية ليهود الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة
258	1-صورة اليهودية العنصرية:
258	* شخصية كولدار فايل - أنا وحايم.
268	2-صورة اليهودية البغي:
268	* شخصية زوجة حارس المقبرة - آخر يهود تمنطيط.
272	3-صورة اليهودي الشاذ:
272	* شخصية داوود بن سعيد - آخر يهود تمنطيط.
276	4-صورة اليهودي الماجن :
276	* شخصية عمران بن سعيد - آخر يهود تمنطيط .
282	5-صورة التُّجار اليهود :
283	* شخصية التاجر رامون نكيكي - أنا وحايم.
284	* شخصية اليهودي المسيطر على مكس الأسواق - أنا وحايم.
285	* شخصية المرابي سمير مردوخ - أنا وحايم.
289	ج-صورة عن الطائفة اليهودية بالجزائر في الروايتين.
300	خاتمة
307	قائمة المصادر والمراجع
فهرس الموضوعات	

ملخص:

امتدت جذور الدرس المقارن لتنشق عنه أحدث وأبرز فروعها، ماثلة في حقل الصورائية (علم دراسة الصورة) الذي يسعى للكشف عن صور الآخر في أدب الأنا والتعريف به، بغية فتح قنوات التواصل بين الشعوب والأمم، وتعزيز العلاقات الإنسانية وهذا من خلال تبين مواطن السلب والإيجاب، وتصحيح تلك الصور المشوهة والرابضة في المخيال الذاتي عن أمة ما، لتأتي الرواية خادمةً لمساعي الصورولوجيا فاتحةً أبوابها للآخر متخطيةً حدود القومية إلى العالمية، وهو ما سعت الرواية الجزائرية المعاصرة للتوغل فيه عبر مسار التجديد والانفتاح على عقلية الآخر اليهودي وهذا بتناولها لشخصيات يهودية إسرائيلية بفلسطين، وأخرى يهودية جزائرية شكلت جزءاً من تاريخ وتركيب المجتمع الجزائري، راسمةً صوراً لشخص ذكورية وأنثوية، فردية وجمعية، بعقلياتها وطباعها وعاداتها وتقاليدها على جميع المستويات والأصعدة، مبرزاً جوانب إنسانية وأخرى سلبية طالما التصقت بذكر اليهود واقعاً وخيلاً.

فالرواية الجزائرية المعاصرة تأثرت بالآخر اليهودي وجسده في خطاباتها عبر الروائيين الذين جسدوا حضور اليهود ضمنه. لتعدد بذلك الأنساق المشكلة للصور والنابعة من توجهاتهم وإيديولوجياتهم، والتي أسهمت في تشكيلها عديد العوامل (تاريخية، سياسية، اجتماعية، دينية...)

لتصل إلى التفريق بين اليهود الفلسطينيين ويهود الجزائر والمقارنة بينهم وإعطاء صورة مخالفة حيناً ومطابقة حيناً آخر لما ترسب في الذهنية العربية والجزائرية خاصة عن اليهود.

الكلمات المفتاحية:

الصورائية ، الرواية الجزائرية المعاصرة، الشخصية اليهودية، الأنا والآخر، الوجود اليهودي.

Résumé:

Les racines de la leçon comparée s'étendent à sa branche la plus récente et la plus proéminente qui en émerge, présenté par le domaine de imageologie (la science de l'étude de l'image), qui cherche à révéler les images de l'autre dans la littérature de l'ego et à la définir, afin d'ouvrir des canaux de communication entre les peuples et les nations, et de renforcer les relations humaines et ce en clarifiant les points négatifs et positifs, Corriger ces images déformées et bourrer dans l'imaginaire subjectif d'une nation, pour que le roman vienne au service des efforts de l'imageologie ouvrir ses portes à l'autre, transcender les frontières du nationalisme à l'universalité, ce que le roman contemporain algérien a cherché à pénétrer à travers les voies du renouveau et de l'ouverture à la mentalité de l'autre juif en traitant avec des personnalités juives israéliennes en Palestine, et autres Le judaïsme algérien faisait partie de l'histoire et de la composition de la société algérienne, peignant des tableaux de personnages masculins et féminins, individuels et collectifs, avec leur mentalité, leur caractère, leurs coutumes et leurs traditions à tous les niveaux, mettant en évidence les aspects humains et négatifs tant qu'ils étaient attachés à la mention des juifs, un fait et une fiction.

Le roman algérien contemporain a été influencé par l'autre juif et l'a incarné dans ses discours à travers des romanciers qui incarnaient la présence des juifs en son sein. Ainsi, les schémas formant images émanant de leurs orientations et idéologies, qui ont été façonnés par de nombreux facteurs (historiques, politiques, sociaux, religieux ...) se sont multipliés pour arriver à une distinction entre juifs palestiniens et juifs algériens et les comparer et donner une image différente à un moment et identique à un autre moment lorsqu'elle est déposée dans la mentalité arabe et algérien, surtout pour les juifs.

les mots clés:

imageologie, le roman contemporain algérien, le caractère juif, l'ego et l'autre, l'existence juive.

Summary:

The roots of the Comparative Lesson extend to its most recent and prominent branch that emerges from it, presented by the field of imageology (the science of the study of the image), which seeks to reveal the images of the other in the literature of the ego and to define it, in order to open channels of communication between peoples and nations, and to strengthen human relations and this by clarifying the negative and positive points, Correct these distorted images and stuff in the subjective imagination of a nation, so that the novel comes to the service of the efforts of imageology, open its doors to others, transcend the borders of nationalism to universality, which the contemporary Algerian novel has sought to penetrate through the paths of renewal and openness to the mentality of the other Jew by dealing with Israeli Jewish personalities in Palestine, and others Algerian Judaism was part of the history and composition of Algerian society , painting pictures of male and female characters, individual and collective, with their mentality, character, customs and traditions at all levels, highlighting human and negative aspects as long as they were attached to the mention of Jews, a fact and a fiction.

The contemporary Algerian novel was influenced by the other Jew and embodied him in his speeches through novelists who embodied the presence of Jews within it. Thus, the image-forming patterns emanating from their orientations and ideologies, which have been shaped by many factors (historical, political, social, religious ...) have multiplied to arrive at a distinction between Palestinian Jews and Algerian Jews and to compare them. and give a different image at one time and identical at another time when it is deposited in the Arab and Algerian mentality, especially for the Jews.

keywords:

Imageology, the contemporary Algerian novel, the Jewish character, the ego and the other, the Jewish existence.